كتب غيرت مجرى العالم

الترجمة الكاملة لكتاب الأمير مع تعليقات ودراسات نقدية تنشر
لأول مرة باللغة العربية وردّ فردريك الثاني ملك بروسيا على كتاب الأمير

كتاب الأمير

نيقولو مكيافيللي

بعد مرور 500 سنة على تأليف الكتاب
وما زال الكتاب يثير كثيرًا من الاهتمام والجدل

ترجمه إلى اللغة العربية وقدم له وعلق عليه
أكرم مؤمن

تقديم
محمد لطفي جمعة

مكتبة ابن سينا

مكتبة ابن سينا
للنشر والتوزيع والتصدير

نافذتك على الفكر العربي والعالمي من خلال ما تقدمه لك من روائع الفكر العالمي والكتب العلمية والأدبية والطبية ونوادر التراث واللغات الحية. شعارنا: قدم الجديد...
وبسعر رخيص

يشرف عليها ويديرها
مهندس
مصطفى عاشور

٧٦ شارع محمد فريد - النزهة - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون: ٢٦٢٧٩٨٦٢ - ٢٦٢٧٥٢٢٨٢ فاكس: ٢٦٢٢٨٠٤٨٢
Web site: www.ibnsina-eg.com
E-mail : info@ibnsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل أو اقتباس أي جزء من الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة ميكانيكية أو إليكترونية بدون إذن كتابي سابق من الناشر.

مكيافيللي، نيقولا ١٤٦٩- ١٥٢٧
كتاب الأمير/ نيقولو ميكافيللي؛ ترجمه إلى اللغة العربية وقدم له وعلق عليه أكرم مؤمن؛ تقديم/ محمد لطفي جمعة.
ط١- القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠١٤.
٢٧٢ ص، ٢٤ سم
تدمك ٧ ٠٨٣ ٤٤٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- السياسة- نظريات. ٢- السياسيون.
أ- مؤمن، أكرم (مترجم ومقدم ومعلق)
ب- جمعة- محمد لطفي (مقدم)
ج- العنوان. ٣٢٠.٠١
رقم الإيداع: ٢٠١٤/١٤٤٥٩
الترقيم الدولي: 978-977-447-083-7

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم
الإخراج الفني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا بالمملكة العربية السعودية من
مكتبة الساعي للنشر والتوزيع
ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ ـ هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ ـ ٤٣٥١٩٦٦ ـ ٤٣٥٩٠٦٦
فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٦٧
E-mail: alsaay99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة - القاهرة
تليفون: ٤٦٦٥١٠١٣ فاكس: ٤٦٦٥١٥٩٩

شكر وتقدير

يشرفني ويسعدني أن أتقدم بالشكر لكل من ساهم في خروج هذا الكتاب للنور سواء كان ذلك بالمشاركة في جمعه أو مراجعته أو في تزويدي بالمادة اللازمة.

وأخص بجزيل الشكر والامتنان المهندس/ **مصطفى عاشور**، صاحب الدار العريقة. فهو يفاجئني بكل جديد صادر حديثاً وكل قديم نادر من مراجع قيمة، بل إنه صاحب اقتراح ظهور هذا الكتاب بملاحقه الفريدة، وهذه أمور لها أثرها الكبير في إصدار هذا الكتاب بصورته الحالية، كما أن لها تأثيرًا إيجابيًا واضحًا على كثير مما ألفت أو ترجمت من كتب.

أكرم مؤمن

إهداء الكتاب

إلى الأمير (لورنزودي دى مديتشى) الكبير

● قال مكيافيللي في إهدائه:

تعوّد الذين يخطبون ودّ الأمراء ويسعون في التقرب منهم أن يبذلوا لهم أعز ما لديهم و يهدوا إليهم ما يحبه الأمراء خاصة ويميلون إليه بطبعهم فترى المتزلفين يهدون المال والخيل وسبائك الذهب وعقود الجمان وعدد الحرب وغير ذلك مما يليق بأقدار الملوك السامية.

فلما أردت أن أتزلف إلى الأمير رأيت أن أقدم له هدية تليق بقدره وتكون دليلًا على إخلاصي لعرشه فلم أجد بين ما أملك شيئًا أعز على نفسي وأعظم قدرًا في عيني من أخبار كبار الرجال وأعمالهم وما اكتسبته بطول الخبرة واستيعاب حوادث التاريخ الماضي وإمعان النظر في شؤون الزمن الحاضر فدونت كل ما علمت مما ذكرت في هذا الكتيب الذي أقدمه لسموكم.

بَيدَ أنني أعلم حقارة شأنه وأعتقد أن هديتي لا تليق بمقامكم السامي ولكن ثقتي بمكارم أخلاقكم وبما ركز في فطرتكم الطاهرة من حب الضعفاء والحنو عليهم جرأني على تقديم الهدية التي لم أجد لديَّ ما يفوقها قيمة وقدرًا ولا يزيد عنها لسموكم نفعًا لأن مطالعة هذا الكتيب بمثابة الإلمام في ساعة بما حصلته أنا في سنين طويلة رأيت فيها الأهوال وقاسيت أثناءها أنواع الشدائد.

ولم أدخل في كتيبي جملًا مزوقة ولا ألفاظًا ضخمة كالتي يدخلها الكتاب ليزينوا ما ألّفوه بصفها ويحسنوا ما صنفوه برصفها لأنني لا أتطلب على عملي ثناءً أو مدحًا وكل ما أريده هو أن يقدر موضوع الكتاب حق قدره. وهيهات أن أنجوَ من نقد الناقدين ولوم اللائمين فسوف يقولون أنّي لهذا الصعلوك من نقد سياسة الأمراء والملوك! فأقول لهؤلاء إن جمال الشمس لا يستجليه غير ساكن البسيطة ونور الثريا يتمتع به من كان على الثرى

أسرار ديوان القضاة العشرة وبقي فيها أربعة عشر عامًا وخمسة أشهر قام في أثنائها بثلاث وعشرين مأمورية في الأقطار الخارجية عدا مأموريات كثيرة أخرى داخل البلاد.

وكان عهد اشتغاله بشؤون حكومة وطنه عهدًا ذا عظائم فكانت ألمانيا وفرنسا والبابا يتنازعون السلطة في إيطاليا ويعتركون على مدنها وولاياتها ويخطفون خطف اللصوص الطامعين أراضيها تارة مخاتلة وتارة بقوة السيف والنار وكان البابا في خطر دائم من دعاة الإصلاح أمثال القسيس المرسل جيور ولوموسافونا رولا الذي كان يطالب بتقويم اعوجاج الكنيسة وتغيير نظامها وإحلال الديموقراطية محل الأرستوقراطية. وكانت أسرة مديتشي الطريدة تعمل تحت طي الخفاء لتقضي على نفوذ حزب الشعب الذي زعزع عرشها لتعود إلى التربع على أريكة السنيورية ولم يكن يخطر لأحد في تلك الأيام فكرة توحيد إيطاليا مادام حزب الجولف أتباع البابا والجبلين أتباع الإمبراطور يعمل كل لشد أزر السلطة التي ينتمي إليها لولا أن هذا الغرض السامي مرّ بخاطر أحد أكابر العالم وهو نيقولو مكيافيللي. وكانت حوادث التاريخ الإيطالي تسير الواحدة تلو الأخرى بسرعة الصواعق فشعرت نفسه الدقيقة الإحساس بتلك الرجفة التي تصيب النفوس الكبيرة لدى الحوادث العظام ولكن منصبه لم يكن يؤدي به إلى تسيير الأمور حسب رغبته لأنهُ كان في منصبه من أهل الصف الثاني بين ذوي السلطة وإن كان بفكره وإصابة رأيه وبعد نظره وحبه لوطنه في الصف الأول من عظمائه.

على أن مكيافيللي كان يجمع في ذاته شخصين مستقلين الأول شخص العالم الكاتب المشاهد المختبر والثاني شخص الرجل العادي. ظهر فضل صفته الأولي في أنه وضع علمًا جديدًا بحذافيره هو علم السياسة العملية وقد ضمَّن هذا العلم روح عهد الإحياء ويقصد بعهد الإحياء جيل النهضة العلمية في القرون الوسطي. ولكن مكيافيللي بصفته العادية عاش عيش الرجل البسيط جاهلا قدر عبقريته ولم يتناول يراعه ليكتب أول كتبه إلا في العام الرابع والأربعين من عمره وسيرى القارئ لدى مطالعة هذه الكتاب العجيب أنه خلو من ادعاء المؤلفين كأنه رسالة وضعها أحد فلاسفة العرب وأهداها لأمير كريم ذي عطف ومودة ولم يكن أقرب الناس وأشدهم حاجة إليه من معاصريه وهم السنيورية العشرة يعرفون فضله فطالما أرسلوه في أمور الدولة وهو يكاد لا يملك قوت يومه حتى أنه اضطر أكثر من مرة لأن يكتب إليهم كتب استعطاف مفعمة بجمل مخجلة كقوله إنه لا ينفق أكثر من أربع ليرات في كل يوم مع أن رفيقه في أسفاره فرنسوا ديلاكازا ينفق ثمانية وأنه يضطر احتفاظًا بكرامة الجمهورية على مشابهته في النفقة ويطلب أن تصرف له ما

يصرف لرفيقه مشاهرة وإلا فالأفضل له والأجدر بشرف الجمهورية أن ترده إلى وطنه وقد أخذ في مكتوب آخر بعدد ما أنفقه من دوكات قال إنه أنفق ثمانية عشر دوكًا على بغلته وأحد عشر ثمنًا لقباء من المخمل وعشرة ثمنًا لثوب واقٍ من المطر. فوا أسفا على هذا العبقرى الذي عاش مفلوكًا ومات معوزًا منسيًا وقضى حياته في خدمة الوطن ودوّن أعظم كتاب في فلسفة السياسة ولم يجد من يعرف قدره.

وفي عام **1504** م تزوج مكيافيللي من إحدى بنات فيرنزه وهي السنيوريتا مارية بنت لويس كورسيني وقد كذب من ادعى عليه أن رغبته في مال زوجته هي التى دفعته إلى الاقتران بها فلم يكن صداقها الذي حملته إليه شيئًا مذكورًا .

وكان مكيافيللي في السنين الأولى التى تلت زواجه مشتغلًا بدرس التاريخ ونظم الشعر وبتنظيم الهيئات السياسية والحربية لخدمة جمهورية فيرنزه وهي وطنه العزيز وفي عام **1505** م خطر بباله أن يستبدل بجيش الكونديتوري المأجورين جيشًا وطنيًا فلما طرح مشروعه أمام ديوان العشرة نال رضاهم فوكلوا إليه أن يقوم بحشد جيش وطني ولكنه لقي في تنفيذ مشروعه عقبات توشك أن لا يمكن التغلب عليها وهذا لأن مكيافيللي كان يدعو الناس باسم حب الوطن وهذه عاطفة لم تكن موجودة في عصره إلاّ في نفوس لفيف من الخاصة. كانت الأحزاب السياسية تأكل بعضها بعضًا وتجهل معنى الاتحاد وتبغض من يدعو إليه وهيهات أن تثمر الدعوة إلى الإصلاح في مثل هذه الجماعات وأبعد من هذا تكوين جيش وطني لأن الجيش ينشأ في الأمم الحية المتحدة ومادامت الأمم منقسمة على ذاتها متفرقة الكلمة فليست أممًا ولا يمكن أن يؤلَّف منها جيش محارب. وهكذا كانت حال كل داعٍ إلى الإصلاح في عهد الأحياء كان يبدي الرأي الصائب فيقابله الخاصة بالرضا ولكن يستحيل عليه التنفيذ لأن النفوس مائتة الهمم منحطة والعزائم فاترة وقوى الإنجاز والإنفاذ عاجزة قاصرة.

فعبثًا دوّن مكيافيللي كتابه في مشروع الجيش الوطني وعبثًا أوجد القضاة العشرة مناصب تسعة قواد لتأسيس جيش فاورنسا.

شغلت مكيافيللي بعثاته السياسية إلي بيزا وسينه وفرنسا ست سنين من عام **1506**م إلى **1511**م. ثم كلفته حكومة الجمهورية بحشد بعض الجنود والتفتيش على الحصون والمعاقل وكانت هذه الفترة من ناحيته هادئة عذبة. يلجأ إلى عيشة الخلاء كلما أصاب أيامًا من الفراغ يواصلها بالدرس والمطالعة والإمعان في كتب الأدب. فلما حلّ عام **1511** اعتلت صحته وجف ماء عوده فخشى عدو الناس المفاجئ فبادر إلى تدوين وصيته في **22**

نوفمبر من تلك السنة. أوصى لزوجته المحببة بصداقها كاملا وبأن يباع عقب وفاته كل ما يوجد في داره من الحلي والحلل وأن تشري بالثمن أسهم تدفع ريعها الحكومة أو عقارًا ثابتًا وأن تنتفع أرملته دون سواها بالدخل ما دامت طاهرة الذيل بعيدة عن الريب وأن يكون رأس المال لأولادها فإذا حدث أن أرملته تزوجت من غيره بعد موته أخرجت من الوصية وحرمت دخلها.

ولم يكن مكيافيللي كما رأيت غنيًا إذ تراه مضطرًا لبيع حليه وحلله ليضمن رزق زوجته بعد وفاته لأن ثروته كلها كانت محصورة فيما يتقاضاه في منصبه وقد أراد الدهر حرمانه من منصبه أيضًا فحدث في إيطاليا انقلاب سياسي أفقده أهم مصادر عيشه وإليك البيان.

أسلفنا أن إيطاليا كانت متنازعة بين الدول لأنها كانت خلال القرون الوسطي لقمة لكل آكل وفريسة لكل كاسر وكان فيمن انقض عليها من وحوش أوروبا السالبة جيوش إسبانيا متحدة مع جيش البابا وجيش جمهورية البندقية كلها تهاجم جمهورية فيرنزه لتعيد أسرة مديتشى إلى سلطانها بعد أن نفيت بسلطة الشعب من القصر العتيق وكانت هذه الجيوش المتحدة تأخذ في وجهها كل ما يقابلها وتقضى على كل قوة تعترضها فاكتسحت في طريقها دوقية ميلانو وسارت تريد فيرنزه فالتقت بجيش بعث به لويس الثاني عشر حليف فيرنزه ليرد عنها هجمات الجيش المتحد في رافنا وحدثت بين الجيشين وقعة عظيمة هزم فيها الجيش الفرنسي ثم سار الجيش المتحد ثملًا بخمر النصرات المتوالية يقصد الفتك بمجد فيرنزه وحريتها انتقامًا منها لأسرة مديتشى الظالمة وكان رئيس الجمهورية إذ ذاك البطل الشهير سوديريني فلما علم بدنو الجيش العدو من المدينة صمم على المقاومة ووكل إلى مكيافيللي كاتم أسرار مجلس العشرة أمر إعداد معدات الدفاع عن الوطن والتفتيش على الحصون الفلورنتية فقام مكيافيللي بتلك البعثة الشريفة خير قيام وأن أهل فيرنزه ورجال حكومتها النبلاء كذلك يتأهبون للدفاع عن وطنهم وأعراضهم ومجدهم ومدنيتهم بعد أن أقسموا أن يبذلوا كل رخيص وغال في سبيل خلاص جمهوريتهم وأن يبهروا الأمم المجاورة بثباتهم في الذود عن حوضهم وإذا بوفد من الجيش الإسباني مقبل وإذا فئة من السفراء فلما مثلوا بين يدي السنيورية في القصر العتيق "بلاتزوفكيو" قالوا إنهم لم يدنوا من أرض فيرنزه لعداوة أو بقصد الفتح أو السلب وأنهم لا يقصدون الاعتداء على حرية الجمهورية ولا أن يضعفوا من قوتها إنما جاءوا ليتأكدوا من مودتها وصداقة أهلها وأن ينصحوا لهم بالتخلى عن الانتماء إلى فرنسا وأن يلجأوا إلى حزب الجيوش المتحدة. ولما

كان سوديريني مشهورًا بحب فرنسا فالأولى للجمهورية أن تقيله من منصبه لأن الجيوش المتحدة لا تستطيع الوثوق بوعود فيرنزه ما دامت السلطة في يده وآن لأهل فيرنزه أن ينتخبوا دونه من يشاءون من الجونفالونيرى فأجاب سوديريني على هذه القحة الممزوجة بالخبث والوقيعة أنه تسلم زمام منصبه من الشعب وأنه يأبى التنازل عنه ولو أن ملوك الأرض اجتمعت في صعيد واحد وطلبت إليه ذلك ولكن إذا رغبت الأمة في تخليه فإنه ينفذ رغبتها عن طيب خاطر فأشعل جلال هذا الرد الحكيم نار الحمية في أفئدة أهل فيرنزه فوهبوا حياتهم في سبيل مناصرة هذا الرئيس الأبي وكان الجيش الإسباني قد تقدم إلى أن بلغ برانو وهي قرية تبعد مسافة عشرة أميال عن فيرنزه (بها الآن مخازن البضائع) وبها باب وحصن كباب النصر أو باب الوزير في قاهرة القرون الوسطى فاستولى الجيش المهاجم على تلك البقعة ورأى سوديريني أن المقاومة الحربية مستحيلة فأراد أن يخابر الجيش المهاجم في أمر الاتفاق وكان الأشراف الذين باتوا يقرعون سنهم منذ نفي أسرة مديتشى قد انتهزوا تلك الفرصة الخاسرة وتسلحوا واحتلوا تحت جنح الظلام سائر الأماكن المحصنة فاضطر سوديريني البطل أن يترك المدينة فاجتمع السنيورية بدون رئيسهم الجونفالونيه سوديرينى الذي لم يطق البقاء في الوطن بعد أن انتهك أعداؤه وأبناؤه حرمته ودعوا أهل المدينة للاجتماع في ساحة السنيوريا وسنّوا قانونًا يعيد عهد المديتشى ويرد إلى الأبناء والأحفاد ما كان للآباء والأجداد.

وكان هذا الانقلاب سببًا في سقوط نيقولو مكيافيللي فلما حلت سنيورية (مجلس الجمهورية) جديدة محل السنيورية القديمة أصدرت ضده قرارين في نوفمبر عام **1512**م الأول يعلن الملأ بنزع منصبه من يديه والثاني بأمر نفيه عامًا في حدود الجمهورية وأنه إذا حاول الخروج عن الحدود إنما يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب وتلا هذين القرارين ، قرار ثالث يحرمه من دخول القصر العتيق.

مسكين أنت يا مكيافيللي لك نصيب العظماء في فلاكتهم وشقائهم ومحنتهم ولكن لم تنته نكبته عند هذه الحد فقد استأذنت عليه سنة **1513** م بشؤمها قضى البابا جول الثاني (الذي اشتهر بحبه للمحاربة وله صورة فائقة من صنع العبقرى رفائيل محفوظة بمتحف الأفيتشي بفيرنزه) في يناير من تلك السنة فالتأم مجمع الكرادلة لينتخبوا مكانه خليفة للقديس بطرس فأصاب حسن الطالع الكردينال حنا دى مديتشى الذي صار ليون العاشر وله كلمة مشهورة قالها عندما هنأه أخوه قال "لقد حبانا الرب البابوية فلنتمتع بها.." اخترق الكردينال حنا دى مديتشى أرض توسكانيا ليبلغ رومة مقر مجمع الكرادلة

(كونكلاف) فاكتشفت مؤامرة كانت غايتها اغتياله فاتهم مكيافيللي فيمن اتهموا في تدبيرها إن صدقًا وإن كذبًا فسجنوه وعذبوه وقيدوه بالسلاسل فلم يرَ مكيافيللي في نفسه جلدًا على تلك النكبة الكبرى فنظم قصيدة استعطاف وقدمها إلى جوليان دى مديتشى حاكم فيرنزه أودعها حزنه ووحشته فلم يعرها الأمير التفاتًا فعاد مكيافيللي وأتبعها بقصيدة أخرى فرق له فؤاد الأمير وأطلق سراحه ففرح مكيافيللي بحريته وحياته لأن كثيرين من أقرانه في التهمة فقدوا حريتهم وحياتهم وشرع مكيافيللي يلتمس من سادته المحدثين أمراء مديتشى منصبًا سياسيًا كالمنصب الذي كان يشغله ولجأ في توسله إلى أصدقائه الأقدمين وقليلًا ما أصبحوا وهذا القليل خذله وكان أقربهم إليه وأشدهم عطفًا عليه فيتورى الذي كان تارة يقيم برومة وطورًا بفيرنزه كتب إليه مكيافيللي في **1514** "أترضى أن أبقى في زوايا النسيان لا أجد رجلًا واحدًا يذكر أعمالي ويقدّر نفعى. إنه يستحيل عليّ أن تطول عزلتي وانقطاعي عن العمل إن قواي تفني في ظلال الفراغ والفاقة سأخرج يومًا في الطريق وأرضى بخدمة أحقر التجار أو ألجأ إلى قرية أُعلّم فيها حروف الهجاء للصغار".

انظر إلى تلك النفس القلقة التي لا تستقر على حال والتي لا تروقها العزلة مع توفر وسائل الدرس والاستفادة والانقطاع للعلم لأنها في حاجة إلى العمل يعوزها أن تخوض عباب الحياة الحقيقية حياة الجهاد المستمر والمتاعب المتتالية والعقبات المتواترة لأن وجودها في اشتعالها المستمر وفناءها في خمودها انُظر إلى تلك النفس وقارن بينها وبين نفوس بعض حكماء الشرق. أسمعت بالغزالي يرفض رئاسة المدرسة النظامية ببغداد ويتشح ثوب درويش مفلوك ليجوب بقاع الأرض في طلب العلم ونشره أم أتاك حديث الفارابي فيلسوف الإسلام غير مدافع وهو يقول:

لما رأيت الزمان نكسا ... وكل رأس به صداع
لزمت بيتًا وصنت عرضًا ... به من العزة اقتناع

كأنه صدى صوت فيلسوف علا من قبل كعبه وذاع صيته واشتهر فضله وهو الكندي القائل:

وضائل سوادك واقبض يديك ... وفي قعر بيتك فاستجلس
فإن الغني في قلوب الرجال ... وأن التعزّز بالأنفس

هؤلاء الرجال لا تعوزهم الحركة ولا تلذ لهم جلبة الحياة العامة إنما يطلبون الغرض الأسمى في الوحدة والانعكاف والانقطاع للدرس. هذه هي النفس الشرقية الجميلة الهادئة

القائلة إن الأعمال بالنيات وأن الإيمان ينقل الجبال من أماكنها وتلك النفوس التي منها نفس مكيافيللي إنما هي نفوس غذاؤها الحركة وقوتها العمل الدائم. وهذا الذي دعا كبلنج إلى القول بأن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقي التوأمان ولكن الأمم لا تنجح بإحدى هاتين الصفتين بل ينبغي أن تجمع النوعين نوع النفوس الهادئة والنفوس المتحركة بل إن الفرد لا يفوز في معترك الحياة ولا يترك في الأرض أثرًا خالدًا إذا لم يجمع تينك الحالتين حالة السكون والحركة فيسعى إلى الغرض الأسمى بالوسيلتين معًا.

كان مكيافيللي خلال تلك المدة يعيش في قصر صغير له خارج أسوار المدينة وكان يبلغ خمسين عامًا ولكن نار قلبه لم تطفئها الكهولة ولا النكبة ولا الفراغ بل كان يجد أوقاتًا يتفرّغ فيها لعبادة الزهرة إلهة الحب في شخص فتاة يترقرق في وجهها ماء الشباب ويشف ثوبها الدمقسي عن عود ليّن ونهد بيّن وخصر هيّن دع عنك جبينها الباهر وطرفها الساحر ووجهها المقسم وريحها العاطر. وما كان كهل فيرنزه يخجل من مغازلتها وتدوين عواطفه في تلك السويعات الروحانية. وهذا الذي حيَّر الناس في فهم خلق نيقولو المسكين فظنوه مخلوقًا خرافيًا وظنه البعض لغزًا أو سرًّا مبهمًا إنما رأينا فيه أنهُ لم يكن هذا ولا ذاك بل كان إنسانًا كغيره من البشر يجمع بين سموّ مدارك العبقري وبساطة خلق الرجل الطيب ولم يكن لعبقريته خلوًا من آثار الضعف الإنساني.

قدّمنا إن مكيافيللي كان يسكن قصرًا صغيرًا على طريق السابلة من فيرنزه إلى رومة قريبًا من سانتا كاسيانو أطلق عليه اسم "لاسترادا". وقد وصف لنا بقلمه البليغ حيته في قصره في مكتوب إلى صديقه فيتوري جاءَ فيه قوله:

"من يحرم ذاته خشية غيره يضحى نفسه دون أن يشعر به أحد" وكان ينهض مبكرًا قبل شروق الشمس فيسلي نفسه بصيد طيور الصبح كما كان يفعل هو رأس شعر اللاتين الشهير ثم ينقطع إلى أعمال الغرس وتشذيب الشجر حتى إذا آن وقت الغدا تغدى بجانب فسقية ثم يواصل عمله إلى الغروب فيعود إلى منزله ويغتسل ويلبس ثوبًا من الثياب القديمة التي كان يعدّها للقاء الحكام ودخول القصر العتيق ويدخل بخشوع إلى قاعة فسيحة فيها خزانة كتبه فإذا أغلق بابها شعر بأنه انقطع عن العالم الخارجي وبدأ حياة جديدة بين نفوس العظماء والحكماء وكأنهم يحيون قدومه ويرحبون به فيحادث فطاحل القرون الخالية ويجرع كؤوس العلم العذبة ويشرب مما اقتناه من الكتب النفيسة راحًا له من قواريرها ندامى من قراقيرها سماع. ويقضي معظم ليله في اجتناء حديث قوم قد أقفرت من أجسامهم الأرض ولم تقفر من آثار نفوسهم البقاع.

ومنذ ذلك العهد أخذ مكيافيللي يؤلف كتبه الشهيرة فصنّف كتاب الأمير الذي نخرجه اليوم للشرق بعد أن نقل إلى سائر لغات الغرب وشرح تاريخ تيت ليف وكتب رواياته الهزلية وكتبه السبعة في صنعة الحرب وترجمة كاستروستو ولم يكن يعلم أن تلك البطالة مكنته من بلوغ شأو العظماء بتأليف الكتب التى تركها ولو أنه بقي في منصبه قضت أعباؤه على ذكائه وفطنته فكم كان له وللعالم من الفوائد في نكبته.

على أنه لم ينشر له في حياته إلّا كتاب واحد وهو رواية تمثيلية هزلية اسمها ماتدراجور فأطربت الجمهور وذاع صيتها حتى أن البابا ليون العاشر طلب مشاهدتها فراقته وكان هذا الرضى المقدس سببًا في العفو عن مكيافيللي فأجيب إلى طلبه لما عاد إلى الحاحه في التماس الاشتغال بالسياسة من جديد . فبعث في سنة **1521** م بعثة سياسية لدى أخوى كاربي وكانوا أمراء قاصرين ثم وكل إليه أمر مراقبة حصول فيرنزه ثم طلب إليه أن يحلّ مسائل معلقة بين الجمهورية وبين فرنسوا جوتيشارديني حاكم مقاطعة رومانيا (بإيطاليا) ثم خدم في الجيش المتحد الذي أصبح في عهد مديتشى محالفًا لفيرنزه ضد شارلكان صديق الجمهورية القديم وكان هذا آخر مناصبه.

وقد رزق مكيافيللي بخمسة أطفال بينهم بنت واحدة وترك لهم ميراثًا مكونًا من دور أربع في الخلاء وخامس في فيرنزه (رقم **17** شارع جوتيشارديني) وبعض الحقول والكروم.

وفي عام **1527** م لعودته من سفره إلى سيفيتافيتشيا شعر بتغيير فجائي في صحته وكان اعتاد أن يعالج ذاته بحبوب يصنعها مركبة من عقاقير نافعة ولكن يظهر أنه أخذ منها جرعة شديدة فأصابته في أحشائه بآلام مبرحة وقضى نحبه في **22** يونيو سنة **1527**.

وأودعت رفاته قبرًا صغيرًا في كنيسة الصليب المقدس (سنتا كورشيا) وما زالت تجاليده مجهولة من أهل قومه إلى أن أقام له الدوق ليوبالد عام **1787** م قبرًا فخمًا كتب عليه هذه السطرين باللاتينية:

لا يبلغ أعلى المجد شأو ذلك الاسم

نيقولو مكيافيللي

المتوفى سنة 1527

Tanto Nomini Nullum Par Dlogiun

NICOLUS MACHIAVELLI

Obiit anno A.P.V. MDXXVII

بحث في تآليفه

أتينا في الصحف السابقة بالحوادث الخاصة بحياة نيقولو مكيافيللي وبقي علينا أن نبحث في أثره الحقيقي في قومه وفي العالم فإن مكيافيللي كان معدودًا في نظر من قرأوا كتبه موجدًا للسياسة الأوروبية لأنه رفع الستار عن أسرار صناعة الحكم الدقيقة والمحفوفة بالأخطار ولأنهُ غذّى بآرائه وحكمه نفوس جميع أبطال التاريخ الحديث. والذي يدهش الباحث لأول وهلة في تاريخ هذا الرجل العجيب أن أهل وطنه لم يأبهوا له أثناء حياته بل إنه لم يرد ذكره في ما كتب لعهده إلّا مرتين الأولي في جملة تافهة وردت عرضًا في بعض ما دوَّنه جويتشارديني مؤرخ إيطاليا الشهير والمرّة الثانية في جدول المتهمين في مؤامرة البابا ليون العاشر، كأن أهل عصره لم يشعروا بالعبقري المعاصر الذي انتفع بحوادث التاريخ القديم والحديث وحلّ ألغاز السياسة وصيَّر صنعة الحكم صعبة المراس عملية من عمليات الجبر البسيطة ، كأن أهل عصره لم يفطنوا إلى أن مكيافيللي كان أول من أدرك أسمى فكرة سياسية خدم بها وطنه وهي فكرة توحيد إيطاليا وطرد البرابرة الذين اعتدوا عليها من الشمال كما كان ينسب إلى البابوية كل الشرور التى أصابت إيطاليا. ولقد بلغ به حبه لوطنه وبغضه للبرابرة المتغلبين أنه طلب من وزير لويس الثاني عشر في عام **1552**م وهو إذ ذاك الكردينال دامبواز أن يسير بجيوشه لفتح إيطاليا وطرد البرابرة من ربوعها. ولكن كبار المؤرخين والعلماء الذين تفرّغوا لدرس كتبه وآرائه ومبادئه وصفوه بأنه كبعض أشخاص أساطير الأوّلين يعلمون علم الأمس والغد ولكنهم عن علم اليوم عمى. كان مكيافيللي يرى الماضى ويعتبر بهِ ويتنبأ تنبّؤًا صحيحًا بحوادث المستقبل ولكنهُ كان لا يفقه معنى حوادث الحضر لأجل هذا يمكن الحكم عليه من كتبهِ لا من الوقوف على تفصيل ترجمته.

ألَّف مكيافيللي في التاريخ والسياسة والتمثيل ونظم شعرًا غنيًّا بالمعاني وطليًّا بالأسلوب ودوَّن رسائل أدبية وقصصًا وضعية وصنف في فنون الحرب وحرّر كتبًا سياسية وغير ذلك. وكان في كل نوع ممتازًا بالغًا الغاية القصوى من الإجادة والإتقان . ففي التاريخ يعد من أكابر مؤرخي إيطاليا ولم يفقهُ أحد في وصف الأماكن وذكر الحوادث وترتيبها بحيث يشعر القارئ أنه حضر وقوعها وحتى يخيل له أنه يقرأ صحفًا من يراع تاسيت أكبر مؤرخي العالم ولكن مكيافيللي مؤرخ بلا قلب يرى الجرائم ويصفها وهو جامد لا يحرّك عاطفة

ولا يذرف دمعًا ولا يبوح بآهة على الدماء المهدورة والرؤوس الطائرة والنفوس الزاهقة والبلاد المهجورة والدول الفانية. بل تراه لشدة اعتقاده بنفوذ القضاء في الإنسان كبعض مؤلفي اليونان يعتقد أن سير الكواكب والأجرام العلوية هو الذي يحرّك العالم الأرضي. ولكنه يرى بجانب تلك القوة الخفية قوة جديدة بل إلهًا[1] حديثًا هو العقل.

أمّا عن رواياته الهزلية فقد قال فولتير إنه يشبه تارة أريستوفان وطورًا بوكاتشيو وإذا سئلنا عن كتبه في فنون الحرب أجبنا بأنها دلت على اقتداره في أمرين الأول علمه بنظام الجيوش الرومانية والثاني وقوفه على النظامات الحربية في القرن السادس عشر أضف إلى ذلك حذقه وقوة انتقاده .

وقد نشرت بقية كتبه بعد وفاته ببضع سنين وبينها كتاب الأمير وهو أكبرها قدرًا وأصغرها حجمًا والغريب في أمر طبعها أنها طبعت في المطبعة البابوية متوّجة بتصريح البابا كليمنت السابع . ووجه الغرابة في ذلك من أمرين الأولى أن مكيافيللي ذاته سخر من الأديان في بعض كتبه وقال إن وضع دين جديد أمر سهل ميسور وإن تأسيس العقائد لا يحتاج إلى أكثر من الذكاء والدهاء وجعل الأنبياء والمصلحين جميعًا في صف واحد بدون تمييز[2] وما أبعد تلك الأفكار عن أفكار الكنيسة الكاثوليكية في ذلك العهد السحيق. والأمر الثاني هو أن البابا بول الرابع حرّم كتب مكيافيللي بعد موته بنحو ثلاثين سنة ضاربًا صفحًا عن تصريح البابا كليمنت السابع. وكان الباباوات والأمراء وذوو السلطة يظهرون سخطهم على كتب مكيافيللي في الظاهر ويتبعون نصائحه في أمورهم ودولهم في الباطن فإن أسرة مديتشى التي دوّن الكتاب في ظلها وأُهدي لأحد أفرادها انتفعت بتعليمه ومبادئه يوم أُلقيت إلى الخاسرة كارتين دى مديتشى تقاليد الأمور في فرنسا وهي عشيقة المصورين وخائنة وطنها ومدبرة مذبحة القديس برثلومية المنكرة.

ثم جاء دور الجزويت في لعن مكيافيللي فسفهوا كتبه وأحرقوا مثالاً صنع على صورته شفاءً لغليلهم لأنهم لم يتمكنوا من إحراقه حيًا.

ثم جاء عهد البروتستنت ففعلوا مثل أسلافهم الكاثوليك والجزويت والذي يلفت نظر الناقد اللبق في هجوم رجال الدين على هذا المؤرخ السياسي أن الجزويت كانوا يرشقونه

---

(1) تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.. الناشر.

(2) لقد كان لسلوك الكنيسة الأوروبية في القرون الوسطى وتسلطها وفسادا ومحاربتها للعلم والعلماء تأثير سلبي لدى العامة والخاصة ولا سيما العلماء وأصحاب الرأي والفكر فأخذوا منها موقفًا عدائيًا ونسبوا التخلف والتحجر والجهل الذي عانوا منها إلى فكر الكنيسة.

بذات السهام التى كان يرشقهم بها باسكال المفكر الدينى الشهير فكأنهم رموه بدائهم وانسلوا ، وكان بايل الكاتب الفرنسوي الشهير أول من استعمل لفظ ماكيافيلزم ونسب إليها ما صار مرادفًا لها بعد ذلك من منتصف القرن السادس عشر إلى يومنا هذا من صنوف الغدر والأثرة.

ثم جاء فولتير عاتية العقل والدين الهازئ بالعالم الساخر من الملوك والملل رهين فيرنيه ومكون الفكر الأوربي الحديث وعدو روسو الألد وقال إن مكيافيللي مشترع خالد. ثم قام فردريك الكبير صديق فولتير وتلميذه الذي تعجب بهمته وقدرته الحربية وتبسم من ادعائه العلمي وأراد ن يرد على كتاب مكيافيللي فعجز واستعان بفولتير في نقده بعد ثناء هذا الأخير عليه ولكن فولتير كان يعلم كيف يرضى الملوك دون أن يغضب الحق فأعان فردريك الكبير في وضع كتيب سمّوه "عدو ماكيافيلي" فلم يكن لهذا الكتاب أثر أو قيمة بل قرأه نقّاد القرن الثامن عشر وعلى شفاههم ابتسامة الازدراء وقالوا في نفوسهم إن قصور الملك عن الفهم أدى به إلى النقد .

ولم يبق بين المفكّرين من لم يبدِ برأيه في مكيافيللي سوى روسو فلما جاء دوره دوّن عنه نبذة عجيبة في كتاب العقد الاجتماعي قال:

"إن مصلحة الأمراء الذاتية كامنة في ضعف الشعب وشقوته ليبقي أبدًا عاجزًا عن المقاومة . وهم يفضلون ما يعود عليهم بالنفع مباشرة وأن صنع مكيافيللي يشبه صنع صموئيل لبنى إسرائيل فقد استفاد الملوك من كتابه وكانت فائدة الشعوب أكبر . لقد كان مكيافيللي رجلًا شريفًا أمينًا حرًا ولكنه كان يعيش في كنف أُسرة مديتشى فاضطر أن يكتب بحيث تخفي مقاصده على غير الفطن والفهم شيمة الحاذق".

وأشبه روسو في رأيه العلّامة باكون الوزير الفيلسوف الإنجليزي إذ يقول "إن مكيافيللي لا يفيد أحدًا من الملوك لأنهم يعرفون ما يقصدون ولكنه يفيد الشعوب ويفتح عينيها لما يحيق بها من الأخطار".

وأنت ترى اختلاف الآراء وتباين الأحكام في مكيافيللي وكتابه ونحن نعتقد أن أصحاب الآراء الطاغية فيه إنما هم فريق من لم يتفهموه ولم يمعنوا النظر في معانيه الدقيقة أما أصحاء النظر وسليمو الذوق والفطرة يرون فيه ما يراه المعجبون به.

وها نحن نختم هذه النبذة برأي العلامة المعاصر لويجي ريسى أحد شراح مكيافيللي في كتاب الأمير ومؤلفه.

قال ليوجي ريسي أحد شراح كتاب الأمير :

"إن كتاب الأمير هو أعظم مؤلفات مكيافيللي وله لدى أهل الفضل كافة مكانة لم ينلها سواه من تصانيف صاحبه وعدا ذلك فإنهُ معدود بين الأسفار الخالدة في لغته الأصلية فلا عجب إذا عدّ في غيرها كذلك. ويتعذّر علينا أن نُلمَّ بمحاسن هذا الكتاب وفضل واضعه. قد يجد الراغب فيما كتبه ماكولي النقادة الإنكليزى الشهير عن مكيافيللي أكبر مؤرخي إيطاليا وأحذق ساستها ما يشفي الغليل . إنما أردنا للقارئ أن يستوعب ما كتبهُ ماكولي ليعلم أنه في نقده نسخ آراء المؤلف ومسخها وغيَّر فيها وبدّل من معانيها. مع أنه كان يستفيد منها ويسترشد بها. غير أنه لم يرَ أن يكافأ صاحبها على فضله إلَّا بتوجيه سهام النقد إلى ما كتب والتشهير باسمه فتنفر الناس بذلك عن مكيافيللي وكتابه بعد أن اتهمهُ بأنهُ سنّ أقسى وأفظع النظامات ووصمهُ بابتداع أظلم خطة للتحكم في الأعناق.

ومن العجيب أن يتهم مكيافيللي بذلك وهو الذي قضى أيام شبابه وكهولته في خدمة أهل وطنه والسعى في تأسيس بناء العدل ليعيشوا في ظله. وقد جلب عليه تطرفه فقدان منصبه في جمهورية فلورنسا. فهل يعدل في حكمهِ من يتهم مثل هذا الرجل بمساعدة أهل البغي والطغيان في مفاسدهم؟

إنما كتب مكيافيللي ما كتب ليدل الناس على مواطن الغدر ليفطنوا إلى صنوف الخداع فيما يدبر ضدهم وما يدس لهم من الدسائس . ولو أن الناس قدّروا قوله حق قدره وأعاروا آراءَه أفئدة واعية ما تمكن أحد من إيذائهم، فمن الغبن -والأمر ما ذكرت- أن يعود اللائمون باللائمة على مكيافيللي لأن كلامه ذهب صرخة في واد ونفخة في رماد. والعاقل لا يرى عتبًا على قائل إذا ذهب قوله في الرياح.

ولعلّ من لا يزالون يبغضون مكيافيللي مقلدين في ذلك ألد أعدائه وأشد خصومه يرجعون إلى رسائله ومكاتيبه الخاصة التي لا تزال محفوظة بخطه في خزائن الكتب العامة بفلورنسا وروما ليتثبتوا صدق ما دوّنت من الحقائق.

وقد آن للقارئ أن يبدأ بمطالعة الكتاب بذاته ليستطيع الحكم عليه حكمًا مستقلاً شخصيًا . وخشية أن تصعب معرفة الأشخاص والأماكن التي ورد ذكرها في الكتاب لكثرتها فقد رتبنا لها في آخره فهرسة على حروف المعجم مع تبيينها بيانًا وجيزًا كافيًا وقدّمنا على الكتاب فصلًا عن تقديرنا فضله منذ وقفنا على كتابه وقصة خيالية عن وفاته وفيها وصف حياته وكانت كتابتها بفيرنزه عقب زيارة منزله.

تذكار مكيافيللي

أول عهدي بنيقولو مكيافيللي وآثاره النادرة المثال الذي كنت أحادث رجلًا يشغل منصبًا سياسيًا بمصر فقال لي إن منح الخير للأمم ينبغي أن يكون رذاذًا لا انهمالًا فيكون التقدير أكبر والعرفان بالجميل أكثر وهذا رأي مكيافيللي فقلت له بعد مناقشته ومن هو مكيافيللي أجاب أنه كلتم أسرار جمهورية فيرنزه في أوائل القرن السادس عشر وأنه مؤلف كتاب الأمير البرنشبه (بالإيطالية) ولم يزد على ذلك. ولكنه كان في محادثات أخرى يذكر حكمًا ونبذًا تدهشني بإيجازها وإعجازها وينسبها إلى كاتم أسرار جمهورية فيرنزه. وكان ذلك منذ سبع سنين أي في أخريات ليالي **1905**م فسألته يومًا عن كتاب الأمير الذي ذكره فقال إنه قرأه بالإيطالية ولا يدرى إن كانت له ترجمة إنكليزية ولكنه يعرف أنه منقول إلى الفرنسية والألمانية ففتشت المكاتب الأجنبية بالعاصمة باحثًا ومنقبًا سائلًا وملحًا عن كتاب مكيافيللي فلم أجد له أصلا ولا تعريبًا وكان شوقي إلى استطلاع أفكار هذا الاسم الساحر الذي يجذب النفس بمجرد سماعه ولكنني لا أهتدي فلجأت إلى صاحبي أسأله في الأمر فقال لي إن الكتاب مضنون به وأنه لابدّ أن يقع لي في الوقت المناسب فلم يشف هذا الجواب غليلي فالتمست الوقوف على بعض المعلوم عن مكيافيللي في بطون الموسوعات ودوائر المعارف وكل ما قرأته عنه فيها كان يزيد شوقي إلى كتابه لإجماع المؤرخين على تمجيد كتاب الأمير والثناء على واضعه وأن هذا السفر على إيجازه كان مصدر العلم السياسى الحديث حتى أن أبطال التاريخ الحديث أمثال ريشليو وفردريك الكبير ونابليون بونابرت ومترنيخ كانوا يستقون من نبعه.

على أن المؤرخين أجمعوا أو كادوا على أن اسم مكيافيللي أصبح علمًا على كل سياسي شديد قوى العقل والقلب لا يقف به الشرف أو العفة أو هيبة الله دون اقتراف أفظع الآثام لبلوغ الغاية لاسيما إذا كان الأمير يسعي بذلك في مصلحة الحكومة التي يدير دفتها. وقد أصبح لفظ ماكيافيلزم وصفًا لكل عمل قائم على الخبث والدهاء المقرونين بالأثرة وتقديم الغاية على حسن الواسطة.

وقد قضيت شهورًا ذا شغف بمكيافيللي وكتابه ألتمسهُ في كل مكان وأسأل عنهُ كل إنسان إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان. كنت أسير في يوم من أيام ربيع **1906**م

فلمحت رجلًا ناشرًا كتبًا حقيرة على أفريز أسوار حديقة الأزبكية فنظرتُ فيها فإذا هي خليط من القصص اليونانية والإيطالية والفرنسوية ولم أكن أعرف لسانًا منها ولكن لشد ما كان فرحي ودهشتي وانتصاري عندما وقعت عيني على كلمة (**II Principe**) على كتيب زري الهيئة مطبوع على ورق دون الوسط ثم وقع نظري في أعلى الصحيفة على اسم نيقولو مكيافيللي فلم يعد لديّ شك في أنني أمام أمنيتي فخطفتُ الكتاب خطفًا وسألت البائع عن الثمن فقال: قرشًا صاغًا ولست أدري كم دفعت وأخذت الكتاب بين يدى وسرت لا ألوي على شيء بيد أنني لم أسر ميلًا محمولًا على كاهل الحمية والتحمس حتى أدركت خطئي وأنني حصلت على مالا استطيع إدراكه لأن الكتاب بالإيطالية فخطر ببالي لساعتي ألف مشروع للخروج من تلك الورطة كأن أستعين بإيطالي على تفهُّم عبارته وكأن أبدأ في تعلم اللغة الإيطالية لبلوغ مأربي منهُ. ولكن حيرتي لم يطل أمدها إذ هداني الحظ الحسن إلى نسخة إنجليزية في إحدى مكتبات الإسكندرية فقرأت الكتاب في أقرب وقت يمكن فيه إنجازه. ولكن القراءة الأولى تركتني في حيرة لصعوبة إدراك معنى الكتاب ومغزاه. واضطررت لإعادة الكرة المرة بعد المرة. واكتفيت في نهايةْ الأمر باستيعابه وإدراك فحواه فكنت بعد قراءة كل فصل كمن يظفر باستطلاع سرّ غرفة مخيفة في قصر مسحور. وكنت أقف بعد قراءة كل جملة وقفة الدهش والحيرة بل كنت في بعض الأحيان أقلب عيني في سطوره بذعر ورهبة وأسائل نفسي أصدقًا يقول هذا الرجل العجيب فأرجع ببصري إلى الصحف فألقى أعلامًا معلومة وأسماء مشهورة وحوادث معروفة وأماكن معينة عرفت الأشخاص من قبل بالاسم وزرت بعض الأماكن التي يتكلم عنها. ولكن كتاب الأمير مثل لي هؤلاء الأبطال في ميدان الحياة الإنسانية وهم عبارة عن إرادات قوية شتى اندفعت في ميدان الحياة بقوى مختلفة وكل إرادة تسعى إلى غرض بها وهي تارة مسيرة بقوة خفيفة وطورًا مخيرة في طريق الجهاد الذي تختط خطته لذاتها وهي فيما بين الحالين ترتفع وتنخفض.. تعلو وتسقط.. تسعد وتشقي.. ترجو وتيأس . كأن الرجال الذين ورد ذكرهم في كتاب الأمير نوع آخر من البشر.. مجموعة منافع ومصالح خاصة وعامة قام بينها نزاع أزلي أبدي على السلطة والنفوذ والمجد، فتجردت من العواطف الضعيفة ونظرت إلى الأمور نظر العاقل المستفيد الذي يقدّر الأشياء قدرها تبعًا لقيمتها المادية العملية.

وبينما ترى تلك الرؤوس الكبيرة تدبر الأمور بغير قلوب رحيمة ترى أممًا وممالك ومدنًا هي ميادين تلك الأعمال الكبيرة تعزّ حينًا وتذل آخر فكأنك في معرض عجيب أقامته آمال الرجال في ميدان الحياة الفانية لأنك وأنت تقتفي أثر بطل مقدام يكوّن ملكًا أو يدير دولة

وهو آمن مطمئن يشيد مجده كأنه يعيش أبدًا إذا بحادث غير منتظر يأتي كالسيل الجارف فيكسح في طريقه ذلك البطل ويهدم صروح آماله بل يهدم ما شاده من الحصون الحقيقية ويفني ما حشده من الجنود المحاربة. فإن لم يكن ذلك الحادث المهول فالموت هو المهلك المفني فيا لك يا مكيافيللي من مراقب ذكي الفؤاد ترقب عن بُعد وعن قرب بعين جامدة وقلب جاف ونفس نضب بها منبع الدموع لعبة الشطرنج الأبدية التي رقعتها الليالي والأيام وقطعها أبطال التاريخ القديم والحديث وبيادقها جيوش ألمانيا وإسبانيا وفرنسا وإيطاليا وقلاعها قلاع رومة وحصون بيزة وفيرنزه وفيلتها أساطيل جنوه والبندقية وشاهها قيصر بروجيا.

لما قرأت كتاب الأمير شغفت به وكنت أحمله بجانب رباعيات الخيام. أقرأ الخيّام لدى حزن النفس وانقباض الصدر لأثمل بخمره المقدّسة المطهّرة وأقرأ الأمير لأفيق من خمرة الخيال ولأعود إلى ميدان الحقائق المؤلمة التي تصطدم فيه جيوش القوى والرغائب وتشتبك به سيوف الحوادث ورماح الكوارث.

ثم رحلت لأول مرة إلى الأقطار الشمالية أتنسم ريح الغرض الأسمى في هياكل الرومان وألتمس آية الجمال في التماثيل العجيبة والتصاوير المطربة وأنني في عصر يوم أطوف في قاعات متحف الفنون القديمة والحديثة برومة وإذا بي وجهًا لوجه بصورة رجل جالس أمام منضدة مغطاة بسجادة مزركشة وعليها كتب وأوراق مبعثرة وهو ناظر إليَّ بعينين ملؤهما الذكاء والمكر والحزن وحينئذ حدثت حادثة من حوادث المصادفات العجيبة فقلت مكيافيللي وأرباب رومة وأسرعت إلى برنامج المتحف ونظرت إلى رقم الصورة فإذا به هو نيقولو مكيافيللي وكانت هذه أول مرة يقع فيها نظري على صورته فوقفت أمامها باهتًا متأملًا متسائلًا كأني أحاول كسر تلك الجمجمة لأرى ما تحويه من أفكار واضحة وآمال مبهمة. ثم ذكرت أن هذا الوجه ليس إلا صورة منقوشة بالزيت. وتركت المتحف ولكن بقيت سحنة مكيافيللي في ذهني .

● المترجم يلتقي حفيد مكيافيللي:

....كل هذا ولم تحدثني نفسي بنقل كتاب الأمير إلى العربية على أن كان ربيع **1910** إذ ألقت بي الأسفار في مدينة تارار من أعمال فرنسا دُعيت ولفيف من الأساتذة الفرنسويين على رأسهم العلّامة إدوار لامبير لحضور احتفال علمي وإلقاء محاضرة عن مصر وكانت اللجنة العلمية التى أعدت هذا الاحتفال مؤلفة من رئيس وكاتم أسرار وأمين صندوق

وأعضاء . أعلمت من كان كاتم أسرارها ولا يزال كذلك إلى يومنا هذا ؟ إنه حفيد حفيد مكيافيللي وهو لا يزال إلى الآن يحمل اسم أسرته فلما سمعت اسمه طرت إليه وحاولت كتم عواطفي وأخذت أسأله بلطف عن أعماله وأحواله وعن غرابة اسمه فقال لي إن اسمه إيطالي ولا شك أنك يا سيدي تعرف اسم نيقولو مكيافيللي الشهير. قلت قرأت عنه في بعض الكتب قال إنهُ جدي . فقلت في نفسي يا لك من شقي بل يا لأسرتك من أُسرة سيئة الحظ إذ أحفاد مديتشي وسفورزا وفيسكونتي وجويتشارديني يمرحون اليوم في نعيم الثروة الطائلة أنت حفيد صاحب أعظم اسم سياسي في العالم تعاني مشاق التعليم ولا تزال كجدك كاتم أسرار لجنة وقد كان كاتم أسرار دولة . ولم يكن أحسن منك حالًا وقد صافحت الموسيو مكيافيللي الفونسوي لدى سفري وأبقيت كفه يدي أمدًا فانطلق لسانه بشكري ولكنه لم يكن يدري أنني أحيي فيه جده العبقري وأمد يدي على جماجم سبعة أجيال خالية مصافحًا نيقولو العظيم

● المترجم يتعلم الإيطالية ويزور قبر مكيافيللي:

وفي تلك السنة بعينها أخذت بأهداب الإيطالية لميل فطري إلى اللغات اللاتينية وتلقيتها عن الأستاذ منيون أستاذ الآداب الإيطالية بكلية الآداب بمدرسة ليون الجامعة وقرأت عليه "آداب النديم" (الكورتجيانو) لكاستليوني نثرًا قديمًا وتحرير أورشليم (جوراسليمو ليباراتا) من نظم تاصو ثم مختارات من باسكولي أستاذ الآداب بمدرسة بولونيا الجامعة سابقًا وخليفة كاردوتشي . ومن محاسن الاتفاق أنني أهتديت إذ ذاك الآنسة مريم ألبرتيني من أهل بولونيا فتلقيت عنها قواعد الأجرومية الإيطالية وكنت أزهد فيها لنفور طبيعي من القواعد والقيود فلما حلَّ الصيف شددت رحلي إلى إيطاليا فقضيت بجنوه وربالو ونرفي وبيلي وكلها على الشاطئ الغربي ما قضيت ثم سافرت إلى فيرنزه مدينة الذكاء والجمال وأقمت بها أشهرًا واختلطت بفريق من أدبائها وهم الذين يملأون صحف "المارزوكو" بما تجود به قرائحهم الفنية وزرت الآثار ومتعت نفسي بمحاسن ذلك الفردوس الأرضي وليس هذا مجال الإسهاب في هذا الغرض إنما أذكر أنني تنبهت إلى نقل كتاب الأمير من الإيطالية إلى العربية في فيرنزه ذاتها حيث كنت أقيم بشارع ليوناردو دي فنشي رقم 6 وإذ ذاك زرت كنيسة الصليب المقدس سانتا كروتشيا حيث يوجد قبر مكيافيللي ولست قادرًا على وصف العواطف التي جالت بنفسي عند تلك الوقفة وكان تأثيري أشد يوم زيارتي دار مكيافيللي وهي الآن رقم 17 شارع جويتشارديني . وجاء وصفها

في "الليلة الأخيرة" . وكان ذلك في أواخر شهر أغسطس وكان جيران مكيافيللي يلتفون حولي عندما كنت أنقل العبارات المكتوبة على قطع المرمر المعلقة على الجدار لتدل أهل هذا الزمان على أن هذا المنزل الحقير كان مأوى صاحب أقوى عقل سياسي إيطالي.

وقد أنجزت بعض ما بقي من كتاب الأمير في جنيف فكأنه طاف معي سائر الأقطار منذ ست سنين تقريبًا تارة كتابًا مقروءًا وطورًا ترجمة مقطعة تم معظمها بفيرنزه وطن مكيافيللي وبعضها بجنيف وبعضها بليون وبعضها بباريس وبعضها بالقاهرة وكان ختامها في **27** يونيو سنة **1911** بجنيف المحروسة رقم **79** بولفار كارل فوجت في الجانب الغربي من المدينة .

واليوم أخرج للورى هذا الكتاب الذي كان حليف وحدتي في أسفاري وصديق وحشتي في حلّي وترحالي وأني أفارقه بحزن تخالطه الغيرة لأنه كان منذ الأمس ملكي وسيصبح غدًا ملك الألوف المؤلفة ممن يقرأون العربية الشريفة.

الليلة الأخيرة

"أهدي هذه القصة إلى صديقي الحبيب أوجست فيليوف الذي عاشرني بفيرنزه وصحبني في زيارة بيت مكيافيللي وشهدني أكتبها وأعانني بمحاسن خلقه ولطف شمائله . أكتوبر **1910**".

الساعة الثانية بعد نصف الليل في فيرنزه، ساحة السنيوريا ساكنة، حولها القصور الفخمة المشادة بصخور ضخمة بارزة وبينها القصر القديم (بالاتزوفكيو) وهو مقر السلطة البلدية، رفعت دعائمه حكومة الجمهورية وخلفته أثرًا من آثار القرون الوسطي، مربع مهول من الحجر الأصفر مملوءة جدرانه بالنوافذ وبطرفه برج عظيم ذو طبقات متعددة كأنه منارة مسجد قديم، بناء جليل وحصن منيع يرهب العدو القاصي ويصد هجمة الخصم الداني، كأنه لشدة ما يبعث في قلب الرائي من الرهبة والإعجاب درع كبير من الصخر تقلدته تلك المدينة الجميلة لتأمن به كيد أعدائها ، لا يراه الرائي دون أن يستعرض أمام ذهنه صورًا من تاريخ القرون الوسطى، فقد سألت في تلك الساحة وفي الطرق المجاورة لها دماء أشراف فلورنسا خلال ثلاثين عامًا، اثنتان وأربعون أسرة يقودها بنو نوندلمنتي جيال اثنتين وعشرين أخرى يقودها آل لوبرتي، فكانوا يحصنون

المنازل ويحاصرون القصور ويقطعون الطرق ويسدون السبل، وكلما تغلب فريق على إحدى الأسر المعادية أهلك أفرادها عن آخرهم وهدم قصرها ليمحو أثرها. كل ذلك في سبيل الحرية وانتصارًا للحق الذي يدعيه كل فريق لنفسه وصونًا للشرف الذي لا يسلم حتى يراق على جوانبه الدم.

بأعلى البرج ساعة كبرى كأنها وجه الزمان، لا تبدو عليها علامة الحركة ولكنها تطوي الأيام والليالي تدق كلما مضت ساعة دقًا بطيئًا رهيبًا كأنه صوت الدهر ينذر بنى الإنسان بلسان من فولاذ.

وكانت الساحة مضاءة بأضواء ضئيلة وبأعلى البرج مصابيح تخفق شعلتها كلما هبّ الريح كأنها عين حارس لا ينام. وكانت معظم المنازل المحيطة بالساحة لا نور بها كأنها لجلالها وسكونها قبور.

وكان بأعلى البرج حارس يرقب أبواب المدينة ويصيح كلما مضى هزيع من الليل "الأبواب آمنة والمدينة في سلام".

بعد أن صاح الحارس صيحته الأخيرة دنا من الساحة شبح كان قادمًا من شارع شيماتوري يسير تارة مبطئًا وأخرى مسرعًا . فلما سار في الساحة أخذ سمته إلى لوجيا دلوركانيا وهي الردهة الجميلة المزدانة بتماثيل المرمر والبرونز إزاء القصر العتيق فدنا هذا الشبح من السلم الموصل إلى الردهة وجلس على أعلى درجاته محاطًا من جانبيه بأسدين من المرمر قابضين على كرتين من المرمر أيضًا رمزًا للسلطة والبطش.

فلما جلس الشبح على أعلى درجات السلم سقطت على وجهه أشعة ضئيلة من ضوء المصابيح المحيطة فإذا به رجل في نحو الخمسين من عمره نحيل ليس بوجهه أثر للشعر كأنه من رجال الدين وعلى رأسه قلنسوة من الصوف مطرزة بخيوط من الحرير وعلى بدنه ثياب عتيقة مكونة من سراويل ضيقة ومعطف من الحرير وقباء كبير من الصوف المسجف بالمخمل وبأكمامه وعلى موضع العنق قطع من الفرو السنجابي. وعلى سائر ثيابه أثر القدم ولكنها كذلك تحمل أثر عزّ ونعمة أما وجه الجالس ورأسه فهما محط النظر. الجبين عريض عال بين أعلاه وأسفله خط عميق علامة الذكاء والفطنة والصدغان منطبقان على الجبين يكاد يشرق فيهما كوكبان من نور الحكمة وبأعلى العينين والحاجبين غضون كأن كلًا منهما سطر يقرأ فيه الناظر إلى هذا الوجه العجيب آثار الآلام والأحزان التي قاساها صاحبه والحاجبان الدقيقان المستقيمان كخطين منتظمين يستران عينين

وقادتين رغم الكهولة والناظر إلى العينين يرى في إنسانيهما من الحدة والمكر والدهاء ما لا يرى إلّا في عيون الملوك والوزراء والمشتغلين بتدبير أمور الأمم عينان تكادان تريان كل شيء وتخترقان حجب النفس وتقرآن فكر من تبصران به لأول وهلة وتستشفان بأشعتهما ما لا يبين للناظر البسيط والأنف طويل يكاد يكون أقنى والفم دقيق والشفتان كأنهما لرقتهما شفتا فتاة لا رجل عرك الدهر وسبر غور الرجال والذقن صغيرة مستديرة يقرأ رائيها ثبات العزم وبُعد الهمة في استدارتها ومجموع الوجه يدل على ألم شديد يئن من ثقله كاهل هذا الإنسان العجيب الذي اتخذ من صخر السلم مجلسًا محاطًا في سكون الليل بتماثيل اللوجيا دلوركانيا.

رفع الجالس بنظره إلى البرج العظيم وتنهد . ثم أخذ يحادث نفسه في سواد الليل:

إيه لك أيتها الجمهورية. فقد قتلت نفسي في خدمتك وقضيت أحسن أيام صباي في التغرب لأجلك واقتحمت الملوك والأمراء لأبلغ رسائلك وأجهدت نفسي في استنباط نظام حربي يحمي ذمارك ويذود عن حوضك وهأنذا أقاسي الآلام بعيدًا عنك ومغضوبًا عليَّ من رجال سهلت لهم سبيل العمل ووضعتهم بجهادي حيث هم الآن. إن الفراغ يقتلني والسكون ينخر عظامي ولولا... وأنهُ كذلك وإذا بيد نبهته فالتفت وراءه فإذا بوجه يعرفه يحييه بابتسامة حلوة وقال له عم صباحًا يا كاتم أسرار الجمهورية لا شك أن حبك لهؤلاء السادة عظيم فإنك تأتي في دجى الليل ترقبهم عن بعد.

فقال الجالس: كلا يا صديقي إنما أنا الآن مقيم في الخلاء ولا أجيء إلي المدينة إلا نادرًا وقد كنت الليلة في مجلس حافل بالأدباء وأهل الفضل وطال الحديث بنا إلى هذه الساعة وأنا كما ترى على طريق إلى منزلي ولكنني تعبت من طول المسيرة فالتمست الراحة هنا.

قال له صديقه وكيف تسكن في الخلاء وهل تركت مسكنك في المدينة.

قال الجالس : كلا إنني أسكن بيتًا ورثته عن أبي . سأله.

وكيف تقضي يومك في الفراغ وقد اعتدت منذ صباك حياة العمل.

قال الجالس إنني أستيقظ فجرًا وأرمي شباكي لصيد الطيور ثم أقصد الغابة لقطع الشجر وأقضى هناك ساعتين ثم أقصد مكانًا به عين ماء ومعي شعر دانتى أو شعر بترارك فأقضي بقية اليوم في المطالعة وعند المساء أعود إلى منزلي لأقضي نصف ليلتي بالدرس وعند باب الغرفة أتخلى عن ثياب العمل التى اتشحتها طول يومي ثم ألبس ثيابًا

أرق منها وأدخل إلى المكان المقدس الذي أشعر فيه بسعادة الحياة العقلية حيث أجد حكماء القرون الماضية وشعراءها فأغذي نفسي بالطعام الذي خلقت له وخلق لها ولا أخشى حينذاك من محادثة العظماء وسؤالهم عن أعمالهم يجاوبونني بكرم ولطف وأبقى بينهم أربع ساعات أنسى خلالها أحزاني وآلامي فلا أعود أخشى الفقر ولا الموت لأنني أصير منهم وهؤلاء لا خوف عليهم ولا يحزنون.

ثم نهضا ووقفا في ساحة السنيوريا وكان القمر في الربع الأخير يبدو في الشرق كالعرجون القديم فنظر إليه مكيافيللي بحزن وقال ما أشبه حياة الإنسان بحياة هذا الجرم العجيب ثم بدت في عينه نظرة الحزن الشديد وأشار بيده نحو الساحة قائلا. لقد أعددت الجيوش ورتبت الجنود وابتدعت نظام الحرب لحماية الوطن وألفت الكتب في سياسة الملك وطفت ممالك الأرض رسولاً بين حكوماتها وحكومتي ولم أعد من هذا كله بغير قبائي وقلنسوتي ثم نظر إلى صاحبه الذي كان ينظر إليه دهشًا ولا يجرؤ على مقاطعته وقال له أستودعك الله ياصاحبي إنني ذاهب إلى منزلي فقال له صاحبه دعني أصحبك وكان قد رأى في وجه نيقولو من علامات الضعف ما كان عاقبته فظهر في عينه بريق عجيب وانتفض وقال كلا أشكرك يا صاحبي إني أفضل أن أسير في مثل تلك الليالي بمفردي فإنه يحلو لي التأمل في الوحدة عند سكون الليل وأحب سماع وقع أقدامي على أرض فيرنزه العزيزة وسأخترق عمائر الأفيتشى ثم أسير ونهر الأرنو فاعبر الجسر القديم وأواصل طريقي حتى منزلي فلما رأى صاحبه رغبته في الانفراد ودّعه وسار مكيافيللي بمفرده ببطء مطرقًا رأسه كأنه يعد خطواته ويتسمع وقع أقدامه فتبعه صاحبه بنظره حتى غاب شبحه في ظلام عمائر الدواوين وكان مكيافيللي كلما بلغ تمثالا من التماثيل الفخمة المزدانة بها تلك العمائر ألقى عليها نظرة حزن ونطق باسم صاحبه وكان كثير من أماكن التماثيل لا يزال خاليًا فلم يخطر بباله وهو في تلك الثياب التي بها آثار النعمة الزائلة أن تمثاله سيزين يومًا ما أحد تلك الأماكن.

فلما خرج إلى ضفة النهر نظر ذات اليمين وذات اليسار فإذا الليل هادئ وتكاد المدينة تكون كأنها مساكن الموتى إنما في السماء بريق بعض الكواكب وقطع من الغمام سوداء وفي الشرق أشعة زرقاء تؤذن بانقضاء الليل والنهر القديم يجري كأنه ثعبان أخضر ينساب بين تلك الصخور فدنا مكيافيللي من أفريز النهر وأطل على الماء وبقي يتأمل بضع دقائق ثم أسرع خطاه كمن فطن إلى حاجة أهملها ثم سار تحت الأعمدة التي عليها قصر أفيتشي ولها في الظلام هيئة الحصون تردد صدى وقع أقدامه فلما بلغ البنتوفكيو (الجسر

القديم) تجلّت له قباب فيرنزه وأبراجها وأخذ يطل من جديد على النهر وهو يكاد يشرب حسن المدينة بعينه يبطئ في السير تارة ويسرع أخرى وكأنه يلتذ بكل خطوة يخطوها ويود لو يعودها كمن شعر بأن هذى آخر مرة تطوى فيها أقدامه فيرنزه الجميلة فلما بلغ منتهى الجسر من الناحية الأخرى سار في الطريق يعرف الآن بشارع جويتشارديني وهو طريق أسود ضيق تحف به من الجانبين بيوت بعضها كالأبراج علوًا وبعضها يسكنه أوساط الناس وكأن الساكنين يعيرون المنازل هيئاتهم فبعض البيوت في جدرانه نضارة وبعضها حقير ومازال سائرا حتى بلغ بيتًا على اليمين مرتفعًا ضيق النوافذ ذا ثلاث طبقات مسودة حيطانه من انهمال الأمطار وهبوب الرياح فأخرج مكيافيللي من جيبه مفتاحًا وفتح بابه وولج في الظلام.

الغرفة صغيرة ذات نافذة على الشارع في ركن منها سرير من الخشب وفي وسطها مائدة عليها كتب وأوراق شتى وبإحدى جدرانها دولاب به زجاجات وعبوات مختلفة الألوان والأصناف وعلى المائدة مصباح فلما دخل مكيافيللي غرفته ألقى بقلنسوته على المائدة وجلس على مقعد حيالها وأخذ يفكر في الظلام هنيهة ثم خطر بباله أنه اكتشف نظامًا حربيًا جديدًا فأضاء المصباح وتناول أوراقًا وقلمًا وأخذ يدون أفكاره فكتب سطرًا واحدًا ثم شعر بألم شديد في ذراعه الأيسر فارتجف ونهض قائمًا وأخذ يسير في الغرفة كأنهُ أسد سجين في قفص ويهز بذراعه تارة ويفركه تارة أخرى لعل الألم يزول ثم خارت قواه فأعياه الضعف من مواصلة السير في الغرفة فألقى بنفسه على السرير وأخذ يتنفس بألم وضيق ومازال كذلك في غيبوبة نحو نصف ساعة ثم خطر بباله أن لديه علاجًا كان يتناوله وهو حبوب اكتشف تركيبها في أحد كتب الطب فاستجمع قواه ونهض وسار بضعف يستند إلى الحوائط وإلى الأثاث حتى بلغ مكان العقاقير فتناول حبة وعاد إلى المقعد فلم يخف ألمه فعاد وتناول حبتين وإذ ذاك أخذ قلبه يخفق بسرعة وقواه تخور فعاد إلى السرير وحل أزرّ صدريته واستلقى ثم شعر بعرق بارد على جبينه فحاول النهوض من جديد فلم يستطع فصرخ من أعماق قلبه "اكتشفت نظامًا جديدًا لحماية الوطن!" ثم اضطرب وألقى برأسه ولم تبد منه حركة.

هكذا قضى مكيافيللي الليلة الأخيرة من حياته.

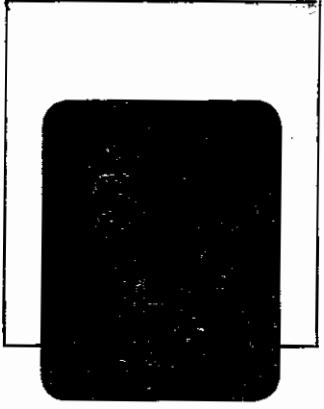

إهداء الكتاب
إلى الأمير (لورنزودي دى مديتشى) الكبير

● **قال مكيافيللي في إهدائه:**

تعوّد الذين يخطبون ودّ الأمراء ويسعون في التقرب منهم أن يبذلوا لهم أعز ما لديهم و يهدوا إليهم ما يحبه الأمراء خاصة ويميلون إليه بطبعهم فترى المتزلفين يهدون المال والخيل وسبائك الذهب وعقود الجمان وعدد الحرب وغير ذلك مما يليق بأقدار الملوك السامية.

فلما أردت أن أتزلف إلى الأمير رأيت أن أقدم له هدية تليق بقدره وتكون دليلًا على إخلاصي لعرشه فلم أجد بين ما أملك شيئًا أعز على نفسي وأعظم قدرًا في عيني من أخبار كبار الرجال وأعمالهم وما اكتسبته بطول الخبرة واستيعاب حوادث التاريخ الماضي وإمعان النظر في شؤون الزمن الحاضر فدونت كل ما علمت مما ذكرت في هذا الكتيب الذي أقدمه لسموكم.

بَيدَ أنني أعلم حقارة شأنه وأعتقد أن هديتي لا تليق بمقامكم السامي ولكن ثقتي بمكارم أخلاقكم وبما ركز في فطرتكم الطاهرة من حب الضعفاء والحنو عليهم جرأني على تقديم الهدية التي لم أجد لديَّ ما يفوقها قيمة وقدرًا ولا يزيد عنها لسموكم نفعًا لأن مطالعة هذا الكتيب بمثابة الإلمام في ساعة بما حصلته أنا في سنين طويلة رأيت فيها الأهوال وقاسيت أثناءها أنواع الشدائد.

ولم أدخل في كتيبي جملًا مزوقة ولا ألفاظًا ضخمة كالتي يدخلها الكتاب ليزينوا ما ألّفوه بصفها ويحسنوا ما صنفوه برصفها لأنني لا أتطلب على عملي ثناءً أو مدحًا وكل ما أريده هو أن يقدر موضوع الكتاب حق قدره. وهيهات أن أنجوَ من نقد الناقدين ولوم اللائمين فسوف يقولون أنّي لهذا الصعلوك من نقد سياسة الأمراء والملوك! فأقول لهؤلاء إن جمال الشمس لا يستجليه غير ساكن البسيطة ونور الثريا يتمتع به من كان على الثرى

والمصور الحاذق لا يستطيع أن ينقل صور قنن لجبال ورؤوسها إلّا إذا كان في سفوحها وكذلك لا يتبين جمال الوديان من لا يتسنم هامة الجبل. فلا لوم عليَّ إذن ومثلي كمثل المصور في الوادي يرمق قمة الجبل ليصورها . ولا أرى لومًا على من يريد من الأمراء أن يعرف شعبه حق المعرفة فيتنزل إلى جميع الطبقات ليسبر غورها. ولا أرى لومًا ولا تثريبًا عليّ إذا ارتقيت إلى مصاف الملوك والأمراء لأعرف طبائعهم ولأعمل جهدي في معاونتهم على سياسة الأمم وحكم الشعوب.

وها أنا أقدم كتيبي بنية سليمة وعزم صادق وقصد حسن فهل لسمو الأمير أن يتقبله كذلك؟ ولو أن الأمير تنازل فأمعن النظر في مؤلفي رأى أنهُ يسهل عليه نيل أرفع مقام وأسمى مكانه.

ثم ارجع البصر يا سمو الأمير ترَ في الحضيض رجلًا تستدعي حاله الشفقة لما ناله من العذاب عدوانًا من الزمان وظلمًا من أهله. وهو واضع هذا الكتاب[1].

الخاضع لدى أعتابك

نيقولو مكيافيللي

(1) ليت ماكيافيلي راجع نفسه قبل تدوين هذين السطرين فإن ما فيهما من الاستعطاف ذهب بقيمة ما تقدمهما من إصابة الرأي وجلال الحكمة وقد قضت علينا أمانة التعريب بنقلهما. وإلى هنا انتهت الدراسة القيمة ومقدمة الأديب المترجم محمد لطفي جمعة.

كلمة المترجم.. بقلم: أكرم مؤمن

لم يتوقع نيقولو مكيافيللي أن كتابه الأمير الذي انتهى من كتابته قبل وفاته بأربعة عشر عامًا سيصبح مرجعًا سياسيًا مهمًا للكثير من قادة العالم عقب الثورة الصناعية . كما أنه لم يظن يومًا أن يصبح الكتاب ذا أهمية في عالم السياسة. فكل ما كان يطمح إليه هو أن يقرأ الأمير[1] هذا الكتاب ويعمل بما جاء به ويستطيع توحيد إيطاليا. لكن الكتاب أيضا وفي نفس الوقت يعتبر عارًا يلاحق مؤلفه حتى بعد وفاته بعدة قرون.

ورغم محاولات الدفاع العديدة عن الكتاب إلا أنها لم تفقده السمعة السيئة التي حاقت به وبمؤلفه. فقد وجد المؤلف ضالته في أمير حديث تولى ولاية موروثة عن آبائه، فكتب له هذا الكتاب ووضع فيه خلاصة فكره وتجاربه السياسية علها تفيد في تحقيق هدفه المنشود وهو توحيد إيطاليا.

لكن هذا الناصح الأمين لم يخجل من ذكر نصائحه صراحة ودون محاولة لستر ما فيها من معاني الخسة والانتهازية وعدم احترام حقوق الآخرين، بل واعتبار أن قتل الأبرياء شيئًا طبيعيًا من الممكن فعله من أجل الحفاظ على مُلك مغتصب، وذلك عندما نصح الأمير بأن يُبيد جميع أفراد الأسرة المالكة لما يسقط بين يديه من ولايات وإلا أصبحوا خطرًا عليه، وضرب على ذلك مثلًا بمن قتل كل أعيان وكبار بلده غدرًا . ومن بينهم خاله الذي احتضنه ورباه بعد وفاة والديه . بعدما عاد إليها حتى يطمئن إلى أنه لن يبقى حوله سوى رجال جيشه المخلصين الولاء له فقط. كما أن مكيافيللي ينصح الأمير علانية بأن يجمع كل الصفات الحميدة التي يفتخر بها الرجال ويلتزم بها أمام الناس، بل ويبذل كل ما في وسعه كي يشتهر بها، فيقول الناس عنه: إنه كريم وصادق وشهم وشجاع وموف بالعهود. لكنه يشدد على أهمية أن يستخدم الأمير عكس كل هذه الصفات عند

(1) أي أمير من عائلة مديشتي التي كان مكيافيللي يأمل في عودتها إلى حكم فلورنسا.

الحاجة إليها دون أي خجل من ذلك. فالمهم فقط هو ما يسعى إليه الأمير من شهرة طيبة تتحقق سواء التزم بهذه الصفات أم لا.

لذلك فقد ترددت قليلًا قبل الإقدام على ترجمة كتاب "الأمير" لنيقولو مكيافيللي. وذلك لأن اسم مكيافيللي في حد ذاته لا يرتبط بأي معنى طيب في ذهن القارئ العربي العادي، بل إن كثيرًا من القراء العرب والمسلمين لا يعرفون عنه سوى أنه صاحب عبارة "الغاية تبرر الوسيلة" وهي عبارة وردت في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب ، ومعناها واضح وصريح ، أي الوصول إلى ما نريد بأي طريق حتى وإن كان طريقًا غير شريف. فهي عبارة تصور معنى الانتهازية في أخس صورة.

وقد أثار كتاب مكيافيللي جدلًا كبيرًا عندما نشر في أوروبا لأول مرة، فهو يتناول أخلاقيات السياسة وهو شيء لم يسبقه أحد إليه، إلا أن غالب النقاد في تلك الفترة أجمعوا على ما فيه من أخلاقيات شريرة، وقالوا إن الكتاب لا يناسب سوى الطغاة الأشرار من الحكام. وكنتيجة لهذه الشهرة في عالم الشر، فإن كل القراء في أوروبا في القرن السادس عشر، والقرن السابع عشر يعرفون كتاب الأمير وصاحبه مكيافيللي.

وقد أكد المسرح العالمي على تلك المعاني الشريرة الموجودة في أفكار مكيافيللي، وخاصة في كتاب "الأمير".ففي المسرح الإنجليزي يقول شكسبير على لسان إحدى شخصياته في مسرحية "زوجات وندسور المرحات": "ماذا.. هل أنا مخادع.. هل أنا مكيافيللي؟" كما أن "مارلو" قد استخدم الشخصية غير الأخلاقية على طريقة مكيافيللي في "يهودي مالطا" (1589م) وهناك أمثلة أخرى عديدة.

ولم يقتصر الأمر على المسرح الأوروبي القديم والحديث، بل امتد إلي المسرح العربي الحديث أيضًا ، حيث ترددت العبارات التالية في كثير من المسرحيات العربية :"هذه ميكافيلية رخيصة" أو:"هذا هو مبدأ مكيافيللي الرخيص" وغيرها من العبارات التي لا تحمل أي معني للشهامة، أو النبل، أو الصدق، أو الوفاء.

وعلى الرغم من أن فرنسيس بيكون (وهو معاصر لشكسبير) قد حاول توضيح أن مكيافيللي يتناول الأشخاص كما هم، وليس كما يجب أن يكونوا ، فإن ذلك لم يُجد نفعًا، ولم يحسّن من سمعة مكيافيللي التي كانت موضع طعن وشبهات حتى أن اسمه قد أصبح مرادفًا للشر الذي لا ينافسه سوى شخصية الشيطان مفستوفاليس في مسرحية فاوست الشهيرة، والتي ترجمت للعديد من اللغات العالمية.

ومما ساعد على تفشي السمعة السيئة للكتاب ولصاحبه أنه قد صدر قرار في عام 1559م بإدراج جميع أعمال مكيافيللي في قائمة الكتب الممنوع نشرها، كما أن كثيرًا

من الجبابرة والطغاة كانوا يحبون قراءة كتابه "الأمير". فقد اختاره موسيليني موضوعًا لرسالة الدكتوراه أيام دراسته. وكان "هتلر" يضع هذا الكتاب على مقربة من سريره، ويقرأ فيه كل ليلة قبل أن ينام. فلا غرابة إذن لو علمنا أن "ماكس ليرنو" قد قال في مقدمته لكتاب "أحاديث" إن "لينين وستالين" قد تتلمذا أيضًا على مكيافيللي.

لكني - وبعد دراسة شاملة للأمر، وقراءة غالب ما كتب من تحليلات عن هذا الكتاب وبعض ما صدر له من ترجمات للغة الإنجليزية - قررت بلا تردد ترجمة هذا الكتاب لأسباب عديدة. من هذه الأسباب أن الكتاب مليء بالأخلاقيات السياسية السائدة في ذلك العصر، بل والسائدة حتى عصرنا هذا، سواء كانت هذه الأخلاقيات حميدة أم بغيضة. وهذا يوضح لنا كيف تأثر قدامى الساسة والمحدثون منهم بما ورد بهذا الكتاب. وكيف استفادوا منه في تسيير أمور أعمالهم السياسية وغيرها.

ومن بين تلك الأسباب أيضًا أن هناك مواقف مذكورة بالكتاب، يمكن تطبيقها على ما يحدث في عالمنا الحالي سواء في الشرق أو الغرب، وذلك رغم أخلاقياتنا العربية السمحة التي تعارض مبدأ مكيافيللي على طول الخط وتقول بأن "الضرورات فقط هي التي تبيح المحظورات".

وقد وجدت أن الكتاب ، وبشهادة كثير من المؤرخين، يعتبر أول ما كتب في علم السياسة الحديث، الذي تفرع، وتشعب، وتعدد في عصرنا الحالي وأصبح علومًا سياسية تدرس في جماعات العالم. وقد وضع الكتاب الأسس التي تمكن الحاكم من اختيار قادته ومستشاريه ونوابه، وإن كان أيضًا يوجه الحاكم إلى أهمية البطش بمعارضيه والقضاء عليهم، فهو إذن يحتوي على الصالح والطالح من الأفكار، ولا بأس من ترجمته، لنعرف ما فيه من خير وإن كان قليلًا ونتجنب ما فيه من شر. فترجمته للعربية ستكون مفيدة للكثير من الباحثين والدارسين والطلاب.

والكتاب يشير إلى جزء هام من تاريخ إيطاليا وتاريخ العالم، لكنه لا يذكر تفاصيل بعض المواقع أو الأحداث التاريخية، والمعارك التي قد تكون مجهولة بالنسبة لقارئ الكتاب، بينما يتحدث عنه مكيافيللي وكأن الجميع يعلمها علم اليقين. فعلى سبيل المثال لا الحصر، يشير مكيافيللي إلى قصة "سيدنا موسى" مع بني إسرائيل تلميحًا كمثال لوقوع المعجزات فيما مضى. كما أنه يشير للإسكندر والسلطان العثماني، وإلى المماليك في مصر وغيرهم من القادة القدامى والقادة المعاصرين له. وهذا قد يجعل القارئ يبحث عما تحدث عنه مكيافيللي من أحداث تاريخية، ومواقع حربية ومعارك ليقرأ عنها بالتفصيل فتكون هناك فائدة جديدة من وراء قراءة الكتاب.

كما أني رأيت ألا نخشى ترجمة كتاب لمكيافيللي لمجرد ما فيه من أفكار شريرة وقاسية وقد قرأنا من قبل كتبًا مترجمة عن الماركسية والشيوعية وغيرها مما لا نؤمن به من أفكار تتعارض مع ديننا الإسلامي الحنيف، نقرأ عنها للاطلاع والمعرفة، وحتى نعي ما يحدث عندما تتسلل بعض مبادئها إلى شبابنا أو تدس له عن قصد. فليس جميع من بالمشرق والمغرب مؤمنين بضرورة الحوار الشريف مع الآخر، وليس جميع المثقفين في دول العالم المتقدم مستعدين لنقل ما يفيد للآخرين من أبناء الشعوب الأخرى في دول العالم الثالث، بل إن الكثيرين منهم مستعدون لنقل ما نشر من مبادئ وأخلاقيات عن قصد إلى أبناء هذا العالم الثالث المسكين حتى يظل في مرتبة تالية ولا يرقى إلى ما يعتبرونه حريا بهم هم فقط.

ومن أجل كل ذلك، استعنت بالله وشرعت في ترجمة هذا الكتاب الذي هو بين يديك الآن وكل ما أقصده هو العلم بما فيه وتناول موضوعاته مع عدم التعليق عليها كثيرًا ، وذلك لأن ما فيها من خير واضح جدًا وإن كان قليلًا (مثل الحديث عن فنون القتال والتحصن من الأعداء) ، وما فيه من شر هو أكثر وضوحًا.

وأنا لا أجد غضاضة في أن نقرأ ما جاء بالكتاب، وإن ناقض بعض مبادئنا العربية السمحة الأصيلة، بل إن ذلك مفيد لنا لكي نعرف كيف كان ساسة الغرب يفكرون في تلك الفترة، وكيف تأثروا بهذه الأفكار حتى الآن. وحتى نعرف أيضًا أن بعض هذه الأفكار قد انتقل إلى ثقافتنا العربية، وطبقها بعض الحكام. كما يمكننا أن نقارن بين ما ينصح به مكيافيللي أميره المحبوب وبين ما يحدث في بعض أركان عالمنا اليوم. ولن يكون صعبًا علينا أن نجد بعض الطغاة يعملون بما جاء به، ويستفيدون منه في البطش بالضعفاء المسالمين وفي الاستيلاء على ممتلكات الآخرين سواء كانت أراضيَ أو ممتلكات، بل وسنجد بصمات مكيافيللي أيضًا في طريقة قيام بعض الحروب العدوانية والإبادة الجماعية لبعض الطوائف وغيرها من أمثلة كثيرة.

وخلاصة القول هي أنني لم أقصد من وراء هذه الترجمة إلا المصلحة العامة، وأشهد الله على ذلك . فإذا وافقني القارئ على ذلك، وشعر أنه قد استفاد مما قرأ ، فإني أحمد الله على ذلك. ومن يرى غير ذلك فحسبي أنني اجتهدت ولم أقصد إلا الخير لقارئي اللغة العربية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

أكرم مؤمن

تمهيد

لم يكن نيقولو مكيافيللي مجرد كاتب أو فيلسوف أو صاحب نظرية، بل إنه كان مشتركًا بقوة في الحياة السياسية المضطربة وغير المستقرة التي مرت بها مدينة "فلورنسا" في الفترة التي عاش فيها.

ولد نيقولو مكيافيللي عام **1469**م في أسرة عريقة، وكان "المديشيون" قد أقاموا حكمًا استبداديًا، لكنه حافظ على الأنظمة الجمهورية القديمة، في حين سيطروا بشدة على زمام الحكم الحقيقي. ولم تكن أسرة مكيافيللي موالية لأسرة "ميديشى". وكان والد نيقولو مكيافيللي محاميًا مشهورًا. وهو من كبار الداعين إلى الجمهورية.

أما عن حياة مكيافيللي كشاب، فإن المتوفر عنها من معلومات قليل جدًا. على أنه من المفترض أنه قد تثقف ثقافة أبناء الطبقة المتوسطة المعتادة في عصره. فقرأ في تاريخ الرومان والترجمات اللاتينية لمختلف أمهات الكتب الإغريقية القديمة.

شب مكيافيللي في عهد أمير مديشي أطلق عليه أهل "فلورنسا" اسم "لورنزو العظيم". وقد اعتبر عهده عصرًا ذهبيًا للنهضة الإيطالية. كان "لورنزو" أديبًا وشاعرًا مفطورًا، فاهتم بالأدباء والفنانين وأهل العلم. لكنه مات عام **1492**م، واضطر خلفه "بييروا" إلى الخروج إلى المنفى بعد عامين، بعدما تعرضت المدينة لغزو جديد على يدي "شارل الثامن" ملك فرنسا. وقد ظهر راهب دومنيكاني اسمه "سافونارولا"، وتمكن من إصلاح الجمهورية، ونجح في إقامة حكومة دينية ما لبثت أن انهارت، وأعدم الراهب وأحرقت جثته في عام **1498**م. وبعد بضعة أشهر انتخب مكيافيللي سكرتيرا للمستشارية الثانية لجمهورية "فلورنسا" وهي تشرف على الشئون الخارجية والعسكرية. وقد استمر "مكيافيللي" في الحكم ثلاثة عشر عامًا. ثم حدث ما لم يكن متوقعًا. حيث جاء الجيش الفرنسى مرة

أخري إلى "فلورنسا"، فاضطر أهلها إلى استدعاء مديشى، وبالتالي خرج " مكيافيللي" منفيًا من مدينته.

اعتمد " مكيافيللي" أثناء حياته في منفاه الريفي على دخل بسيط من ممتلكاته التي توجد في بعض الضواحي. وكان يستيقظ مبكرًا ويخرج إلى الغابة يتحدث للحطابين ويتبادل معهم الأقاويل والشائعات. ثم يذهب إلى أحد التلال وحيدًا، وهناك يقرأ "لدانتي أو شيراك و تيبولوس أو أفيد". وبعد أن يتناول غداءً خفيفًا، يمضي إلى الحانة فيتحدث مع الطحان والقصَّاب وبعض البنائين ، ويقضى معهم طيلة فترة الظهيرة يلعبون الورق والنرد ويتشاجرون على دراهم معدودة.

وعندما يأتي المساء، يعود للمنزل، ويغير ثيابه الريفية التي عادة ما تكون قد أصابتها الأوساخ والقاذورات أثناء جولته. ويرتدي ملابس البلاط والتشريفات لكي يكون في صحبة من أحبهم. ويدخل على مكتبته الخاصة. كان يعتبر ذلك هو حياته الفعلية. وكان خلال ذلك الوقت يدون ملاحظات في كتاب صغير أسماه "الأمير".

اعتزم " مكيافيللي" بعد ذلك أن يهدي كتابه "الأمير" إلى أحد أفراد أسرة ميديشى آملًا أن ينعموا عليه بمنصب جديد فيعود إلى حياة الخدمة العامة. وقد كتب بالفعل إهداء عنونه :

من نيقولو مكيافيللي

إلي لورنزو، الابن العظيم لبيرو دي ميديشى

وهناك شك في أن يكون الكتاب قد قدم فعلًا إلى "لورنزو" قبل وفاته في عام **1519**م. ولكن من المؤكد أن هذا الكتاب قد وزع بشكل ملحوظ وطبع مرات عديدة، لكنه لم يطبع إلا بعد خمس سنوات من وفاة " مكيافيللي" أي في عام **1532**.

كُرم مكيافيللي في أواخر حياته بفضل جهود بعض أصدقائه، وذلك بأن أوفد في بعض البعثات غير ذات الشأن الكبير. كما أن الكردينال دى مديشى (الذي أصبح البابا كلمينت فيما بعد) قد أوكل إليه بكتابة "تاريخ فلورنسا" وخصص له راتبًا سنويًا متواضعًا. وفي تلك الأثناء ازدادت مشكلات إيطاليا وتعقد ما تعاني منه من مشاحنات وخصومات. كل ذلك ساعد على مضاعفة شقاء مكيافيللي وتعاسته. فقد بدأ "لوثر" حركة الإصلاح الديني وتنافس "شارل الخامس" إمبراطور ألمانيا مع "فرنسوا الأول" ملك فرنسا من

أجل السيطرة على إيطاليا، مما ألحق بروما الكثير من الخراب والتدمير وأدى إلى طرد عائلة مديشى مرة أخرى من فلورنسا.

وقد أعيدت طباعة كتاب "الأمير" عشرين مرة خلال عشرين عامًا. وإذا كان هناك بطل لهذا الكتاب فهو قيصر "بورجيا" الذي يخصص الفصل السابع من الكتاب لسرد أعماله ومآثره وصفاته وللثناء عليه وإطرائه. وقد أخطأ مكيافيللي خطأ كبيرًا عندما اختاره بطلًا لكتابه. فقد اقترف هذا البطل جرائم كثيرة ليصل إلى السلطة، كما ارتكب جرائم أخرى بصورة عارضة. وقد ساهم ذلك الاختيار الخاطئ في تعميق اكتساب مكيافيللي للشهرة السيئة بعد وفاته، وعندما نشر الكتاب.

وقد أصبح هذا الكتاب الصغير منذ ظهوره في القرن السادس عشر مثار جدال كبير. كما أصبح مادة ضرورية لدراسة علم السياسة في عصر النهضة. وعلى الرغم من كل ذلك استمر الجدال الحاد، والخلاف الكبير حول الكتاب. وهو على الرغم من اشتماله على عدد كبير من المبادئ والمفاهيم السياسية الناضجة التي اعتنقها مكيافيللي، إلا أنه لا يشمل كل آرائه السياسية.

ومنذ ظهور الكتاب في طبعاته الأولى والخلاف يدور حول ما به من مضامين أخلاقية. وقد تطور هذا الخلاف إلى ما هو أبعد من مجرد تناول أغراضه العملية وعلاقته بالمستقبل السياسى لعائلة مديشى . وقد اعتبره علماء الأخلاق وخاصة في بريطانيا وفرنسا كتابًا مناسبًا فقط للطغاة الأشرار.

وكنتيجة لهذا السمعة السيئة التي لحقت بالكتاب، أصبح كتاب "الأمير" معروفًا للقراء الأوروبيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكثرت الإشارة إليه في الأدب المسرحي في تلك الفترة. بل إن شخصية مكيافيللي نفسها قد استخدمت في بعض الأعمال المسرحية كشخصية شريرة بما يتناسب مع هذه السمعة.

إلا أن تناول مكيافيللي لتضارب المصالح بين العامة والحكام. كان موفقًا للغاية ويعتبر إنجازًا حقيقيًا، وهذا تضارب يحدث عادة بغض النظر عمن هم أطرافه أو عن الفترة الزمنية التي يحدث فيها هذا التضارب، فالتاريخ يعيد نفسه.

ويعتبر مكيافيللي مسئولا ولو جزئيًا عن الجدل الذي ثار حول كتابه "الأمير" عقب طباعته. فهو لم يحاول تنظيم أفكاره ولا تفسير مصطلحاته التقليدية. كما أنه أخفق

أيضًا في توضيح العلاقة بين الأمير الجديد الذي سيصلح الهيئات الفاسدة وبين النظام الجمهوري الذي كان هو من الدعاة إليه. كما أنه قضى طوال حياته مخلصًا لهذا النظام ومناديًا به، ومدافعًا عنه.

وعلى كل حال فإن الترجمة التالية للكتاب ستوضح للقارئ كل أفكار مكيافيللي الواردة في هذا الكتاب، وسواء كانت تلك الأفكار أفكارًا طيبة أو خبيثة، فذلك واضح وضوح الشمس. ويمكننا أيضًا الاستفادة مما في الكتاب من خير وإن قل وتواري بين طيات ما هو خبيث. كما يمكننا تجنب ما في الكتاب من شر واضح. ويستطيع القارئ تكوين فكرة صائبة عن الكتاب وعن مؤلفه. فالمؤلف لم يجهد نفسه بتزيين أفكاره لتبدو طيبة ورائعة من الخارج فقط، وقد ذكر ذلك في الإهداء الذي صدر به كتابه. ولكنه كان مباشرًا وصريحًا في كل ما كتب في هذا الكتاب. وأتمنى للقارئ العربي أن يستمتع بقراءة هذا الكتاب ويقارن ما قرأه فيه بما يحدث في كثير من بقاع الأرض في عالم اليوم.

المترجم

نيقولو مكيافيللي 1469-1527م

1469	مولد نيقولو مكيافيللي في فلورنسا
1498	اختير مكيافيللي سكرتيرًا للمستشارية الثانية لجمهورية فلورنسا وهي تشرف على الشئون الخارجية والعسكرية
1500	انتهي مكيافيللي من أول بعثاته الدبلوماسية إلي فرنسا حيث قابل الملك لويس الثاني عشر.
1502/3	انتهى مكيافيللي من بعثته الدبلوماسية التى زار خلالها قيصر "بورجيا" والتي شهد خلالها سقوط بورجيا من السلطة عقب وفاة والده البابا الإسكندر السادس.
1504	يعود مكيافيللي إلى فرنسا مرة أخرى.
1506	أرسل مكيافيللي في بعثة دبلوماسية إلى البابا جوليوس الثاني.
1507/8	قام مكيافيللي بأولى بعثاته إلى الإمبراطور مكسيميلان.
1512	تمت الإطاحة بجمهورية سودريني وعادت أسرة مديشى إلى الحكم في فلورنسا.
1513	نجا مكيافيللي بأعجوبة من عقوبة قاسية وطرد من عمله، فلجأ إلى مقره الريفي في سانت أندريا حيث بدأ كتابة "أحاديث" وانتهى من كتابة "الأمير".
1513/17	انتهى مكيافيللي من كتاب "أحاديث".
1515/16	انتهى مكيافيللي من كتاب "فن الحرب".
1518	ألف مكيافيللي أكبر أعماله الأدبية "جذور تفاح الجن"[1].
1519	ظهرت أولى طبعات "جذور تفاح الجن".
1520	كلفت جامعة "فلورنسا" مكيافيللي بكتابة تاريخ "فلورنسا".

(1) نبات ينمو في جنوب أوروبا وكان يعتقد في السابق أن له قوى سحرية بسبب جذوره التي تشبه جسم الإنسان.

1521 طبع كتاب "فن الحرب" وهو الكتاب الوحيد الذي طُبع من أعمال مكيافيللي السياسية أثناء حياته.

1525 ربما يكون مكيافيللي قد ألف كتاب "حوار حول اللغة" فهناك جدال حول اسم المؤلف.

1526 قُدم كتاب "تاريخ فلورنسا" إلى البابا "كليمنت السابع".

1527 مات مكيافيللي ودفن في سانتا كورس في فلورنسا.

1531 نُشر كتاب "أحاديث".

1532 نُشر كتاب "الأمير".

1559 أدرجت أعمال مكيافيللي في قائمة الكتب الممنوعة. وقررت محاكم التفتيش إحراق جميع كتبه.

1576 كتب أحد الفرنسيين البروتستانت ردًا عنيفًا على كتاب "الأمير". وقد انتشر هذا الكتاب بسرعة وترجم إلى الإنجليزية.

1640 ظهرت أول ترجمة إنجليزية لكتاب "الأمير" وترجمه "إدوارد دايسرز".

كتاب الأمير

نيقولو مكيافيللي

النص المترجم

من نيقولو مكيافيللي
إلى لورنزو، الابن العظيم لبيرو دي ميديشي

من المعروف أن أولئك الذين يسعون إلى نيل رضاء أحد الأمراء يجتهدون في تقديم الهدايا الثمينة ذات القيمة الغالية إليه. أو أنهم يهدونه أشياء يعلمون أنها تُدخل البهجة والسرور إلى نفسه ويسعد بها، ويحب رؤيتها. وعلى هذا الأساس نجد أن أغلب الأمراء يقبلون هدايا تتمثل في جياد أصيلة. أو أسلحة ثمينة، أو ثياب موشاة بالذهب أو الأحجار الكريمة، وما شابهها من تحف تليق بمكانتهم العظيمة.

ولكنني على أي حال أود أن أهدي سموكم الكريم شيئًا متواضعًا يدل على إخلاصي لكم. ولم أجد فيما أملك ما هو أغلى من معرفتي بأعمال ومنجزات عظماء الرجال. وهي معرفة اكتسبتها من خلال تجربة طويلة مررت بها وقد صاحبتها العديد من الأحداث إضافة إلى ما درسته حول ما حدث في الماضي.

وبعد تفكير عميق وبذل الكثير من الجهد في دراسة، وتأمل منجزات العظماء، أهدي سموكم اليوم ما توصلت إليه من نتائج ، وقد وضعتها في هذا الكتاب الصغير.

ورغم أنني أعتبر أن هذا الكتاب المتواضع قد لا يرقى لقبول سموكم، إلا أنني واثق من عطف سموكم وقبولكم له. فسموكم تعلمون أنني غير قادر على إهدائكم ما هو أعظم أو أكثر قيمة من هذا الكتاب. فهو يمكن سموكم من التعرف في وقت قصير على كل ما اكتسبته طوال حياتي، وما تحملت من أجله الكثير من الأخطار والفقر طوال سنوات عمري الطويل. وأنا لم أتعمد بأي حال أن أجمل كتابي هذا بالمحسنات والكلمات المؤثرة المفتعلة، وهو أمر يتبعه كثير من الكتاب. كما أنني لا أعتقد أنه من غير اللائق أن يتجرأ رجل بسيط من عامة الشعب مثلي على مناقشة الأمراء وتوجيه الحكومات. فمصورو المناظر الطبيعية ينزلون إلى الوديان ليتمكنوا من رسم الجبال. ثم إنهم يصعدون إلى أماكن مرتفعة حتى يتمكنوا من رؤية السهول والوديان. ولذلك فمن الضروري أن تكون أميرًا حتى تعرف طبيعة شعبك، كما أنه يجب أن تكون أحد الرعية أيضا كي تعرف الحقائق المتعلقة بالأمراء.

وأنا أستأذن سموكم أن تقبل هديتي المتواضعة. فإذا نظرتم إليها مليًا يا صاحب السمو فستجدون أنها تعبر عن رغبتي الصادقة المخلصة في أن يبلغ سموكم شأنًا رفيعًا أنتم أهل له لمنبتكم الشريف وصفاتكم الشخصية الفذة.

ولو تفضلتم سموكم بإلقاء نظرة على هذا الكتاب الصغير ، فسوف يتأكد لكم مدى الجهد الذي بذلته فيه وقدر المعاناة الطويلة التي كانت هي حظي في الحياة.

1 الأنواع المختلفة للحكومات وطرق إقامتها

كل الدول تمارس السلطة وتسيطر على الشعوب. وهي إما جمهوريات أو ممالك. والممالك إما أن تكون وراثية وحكامها من أسرة واحدة وتستمر في الحكم لسنوات طويلة. أو أنها تكون ممالك حديثة النشأة مثل إمارة "ميلانو" في عهد "فرانسيسكو سفورزا". أو أن تكون قد انضمت حديثًا كأجزاء جديدة، تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة مثل إمارة "نابولي" التي ضمها ملك إسبانيا إلى ممتلكاته والممالك التي تكتسب بهذه الطريقة إما أنها كانت في حوزة أمير آخر، أو أنها كانت ممالك حرة تم ضمها بالقوة إلى ملك الأمير نفسه، أو إلى أمراء آخرين وآلت إليه من بعدهم. أو أن القدر قد ساقها إليه أو أن يكون قد تمكن من ذلك بسبب قدراته الخاصة.

2 الممالك الوراثية

لن أتحدث هنا عن الجمهوريات حيث تناولتها تناولًا شاملًا في كتاب آخر، ولكني سأتناول هنا الحكومات الملكية، وسأتناول أنواعها المختلفة التي سبق أن ذكرتها وكيفية حكمها والسيطرة عليها. وأول ما نلاحظه هو أن صعوبة الوصول إلي عرش الملك في مملكة وراثية اعتاد أهلها على الأسرة الحاكمة أقل بكثير من صعوبة الوصول إلي العرش في الممالك الجديدة. حيث لا يكفي تجنب الأوضاع التي كان يتبعها السلف والتحسب لأي طارئ. وفي مثل هذه الحالة فإن الأمير وإن كان ذا قدرات عادية فإنه سيستطيع أن يحافظ على عرشه إلا إذا اضطرته قوة غير عادية شديدة إلى التخلي عنه. وحتى إذا فقد عرشه، فإنه مع أول خطأ بسيط من المحتل، سيكون قادرًا على استعادة العرش.

وعندنا في إيطاليا مثال واضح على ذلك وهو (دوق فرّارا)[1] الذي استطاع صد غارات "البنادقة" عام **1484**م وكذلك صد البابا "جوليوس" عام **1510**م لا لشيء سوى قدم أسرته في حكم هذه الدوقية. حيث إن الأمير الشرعي المحبوب من شعبه الذي لا

(1) دوق فرّارا: هو الفرنسي دست.

توجد له رذائل مفضوحة أمام الناس لا يحب شعبه أن يتخلص منه، ومن الطبيعي لشعبه أن يتمسك به. ومن الطبيعي أيضًا أن يتناسى الأسباب والدواعي البسيطة التي تدعوه لتغيير الحاكم، حيث إنه إذا حدث تغيير مفاجئ، فإنه سيفسح الطريق أمام تغيير آخر.

الإمارات المختلطة

لا تكمن الصعاب حقًا إلا في الممالك الجديدة. فإذا كانت المملكة ليست جديدة بالكامل، أي أنها مملكة مختلطة بعضها حديث، والآخر قديم فإن الاضطرابات تحدث فيها بسبب الصعوبات الطبيعية التي تحدث في كل الممالك الجديدة، وذلك لأن الناس يذعنون لسادتهم بإرادتهم على أمل تحسن أحوالهم. وهذا الاعتقاد يجعلهم يحملون السلاح ضد حكامهم، وهم في ذلك مخدوعون حيث أثبتت التجارب فيما بعد أنهم يذهبون من سيئ إلى أسوأ. وهناك ضرر طبيعي وحتمي ينتج عن هذه الحالة وهو يقع على هؤلاء الذين ساعدوا الأمير في السيطرة على مملكته سواء كانوا جنودًا، أو مساعدين له، بالإضافة إلي الإصابات التي لا حصر لها التي تحدث بسبب احتلال جزء جديد.

وهكذا يتحول كل من أصيب في معركة قمت بها للسيطرة على الأرض إلى عدو لك. ولن تستطيع الحفاظ على صداقة من ساعدوك على الحصول على هذا الجزء من المملكة كما لن تستطيع تحقيق ما يتمنونه ولا أن تطبق عليهم قوانين صارمة حيث ستكون معترفًا لهم بجميل مساعدتهم لك. ولهذا السبب على أي حال، فإنك أيها الأمير ستكون في حاجة دائمة إلى حب الناس حتى تستطيع السيطرة على بلادهم مهما كانت قوة جيوشك. وهذه هي الأسباب التي جعلت "لويس الثاني عشر" ملك فرنسا، وعلى الرغم من قدرته على احتلال "ميلانو" بلا مشاكل، إلا أنه سرعان ما فقد السيطرة عليها حيث استطاعت قوات (لدويج دى سفورزا) بمفردها أن تستعيدها منه في المرة الأولي، وذلك لأن سكانها الذين فتحوا له بواباتها بإرادتهم قد اكتشفوا أنهم قد خُدعوا بآمال لم تتحقق ولم يحصلوا علي أي ميزة كانوا يتوقعونها من (لويس الثاني عشر)، فلم يتحملوا استمرار حكم ملكهم الجديد وأذعنوا للأمير وأسلموا له قيادتهم.

ومن المعروف أن الأقاليم التي تتمرد على أمرائها يصعب فقدانها مرة أخرى بعد استعادتها، حيث يصبح الحاكم - وبسبب سابق تمردهم - أكثر حرصًا على دعم موقفه

ومعاقبة المتمردين وكشف المرائين وتقوية نقاط الضعف لذلك وعلى الرغم من أن مجرد ظهور أعلام الدوق (لدويج) وأسلموا له قيادهم على الحدود كان كافيًا لأن تفقد فرنسا سيطرتها على "ميلانو" في المرة الأولى ، إلا أن فقدان السيطرة عليها مرة أخرى لم يكن ممكنًا إلا عندما تحالف الجميع ضدها وبعد أن هزمت جيوشها وطردت من إيطاليا. وذلك للأسباب السابق ذكرها. أي أنها سقطت في المرتين الأولى والثانية. وقد أشرنا توًا إلى أسباب سقوطها في المرة الأولى. والآن يجب أن نعرف أسباب سقوطها في المرة الثانية وكيف كان يمكن لفرنسا أن تتجنب هذا السقوط، وما هي الإجراءات التي كان يجب اتخاذها لو أن هناك حاكمًا آخر في مكان ملك فرنسا ليتجنب فقدان السيطرة على جزء من مملكته، وأول ما يجب علينا أن نسأل عنه هو ما إذا كانت هذه الأقاليم تتكلم نفس لغة وجنسية الدولة التي تضمها أم لا. فإذا كانت اللغة والجنسية واحدة فإنه من السهل ضم هذه الأقاليم والسيطرة عليها خاصة إذا كانت هذه الأقاليم غير معتادة على التحرر. ولكي نملكها بسلام يجب أن تُمحَى الأسر التي كانت تحكمها من الوجود. أما بالنسبة لبقية الشعب فإنهم سيظلون تحت إمرة الأمير الجديد، طالما أنه لم يحدث ما يغير من ظروف حياتهم السابقة، أو يغير من عاداتهم ، وهذا واضح فيما حدث في كل من (برجانديا)، (بريتانيا)، (جاكسوينا) ، (نورماندیا) التي انضمت لفرنسا منذ وقت طويل، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات البسيطة في اللغة، إلا أن عادات الشعوب كانت متشابهة من جهة أخرى مما مكنهم من الاستمرار في الاتحاد . ومن يسيطر على أراض ويريد أن يحتفظ بها لابد أن يضع في اعتباره أمرين. أولهما القضاء على الأسرة الحاكمة السابقة قضاءً مبرمًا، والثانية عدم تغيير أي قوانين و ضرائب خاصة بهذه البلاد وبهذه الطريقة ستصبح جزءًا من الاتحاد في وقت قصير جدًا ، وتصبح الدولة كيانا واحدًا.

ولكن عندما يكون شعب الأراضي المنضمة حديثًا يتحدث لغة مختلفة وقوانينه وعاداته مختلفة، فإن الصعوبات التي يجب التغلب عليها تصبح أكثر وتتطلب حظًا وفيرًا وحنكة للتغلب عليها. وإحدى أفضل الطرق وأكثرها تأثيرًا هي أن يقيم الحاكم الجديد في تلك الأرض. وهذا سيجعل ملكيته أكثر أمنًا واستمرارًا. وهذا هو ما فعله الأتراك في بلاد اليونان. فعلى الرغم من كل ما فعلوه هناك للسيطرة على الدولة لم يكن من الممكن المحافظة عليها، لولا أن الحاكم ذهب وعاش هناك. فوجوده في موقع الأحداث يمكنه من معاصرة الاضطرابات. وهي لا تزال في المهد ومن ثم معالجتها بسرعة، أما إذا عاش بعيدًا عن تلك الأرض فإنه سيعرف بحدوث الاضطرابات فقط عندما تكون قد تفاقمت،

وغير قابلة للعلاج. كما أن رجال الأمير الرسميين لن ينهبوا البلاد، وسيسعد الرعايا بقربهم من الحاكم واتصالهم المباشر به. وإذا أرادوا أن يكونوا مخلصين له، فإنهم سيجدون كثيرًا من الأسباب ليحبوه. أما إذا ظلوا على ولائهم القديم، أو أنهم ينحازون ضد الحاكم الجديد فإن وجود الأمير الجديد قريبًا منهم سيكون سببًا للردع والخوف منه. كما أن إقامته ستجعل أي قوى خارجية تهاب محاولة غزو تلك الولاية . وكلما طالت مدة إقامته فيها يصعب جدًا تجريده منها.

والعلاج الآخر وهو أفضل يتمثل في زرع المستعمرات في عدة أماكن مميزة بالأرض المستعمرة، ومن الضروري أن نفعل ذلك أو أن نحتفظ بعدد كبير من القوات المسلحة في نفس المكان. والمستعمرات ستكلف الأمير أموالاً أقل، فهو يستطيع إرسال المستعمرين للإقامة هناك باستمرار بدون أي تكلفة مادية يدفعها أو بتكلفة قليلة. والمضرة ستقع فقط على هؤلاء الذين ستؤخذ بيوتهم أو أراضيهم لمنحها للمقيمين الجدد، وهذا يعتبر نوعًا من الحماية للدولة، أما مَن تضرروا فإنهم لن يستطيعوا الانتقام من الحاكم إن ظلوا فقراء ومتفرقين. أما الباقون الذين لم تصبهم مضرة فمن السهل تهدئتهم، حيث أنهم سيخشون لقاء نفس المصير إن هم اعترضوا فسوف يجردون من ممتلكاتهم أيضًا. وخلاصة القول إن المستعمرات لا تتكلف أي مال وستكون أكثر ولاءً وأقل اضطرابًا، أما المتضررون فسيظلون غير قادرين على الإضرار بالحاكم ماداموا متفرقين وفقراء كما أوضحت . ويجب أن نلاحظ أن الرجال إما أن يستمالوا أو تتم إبادتهم، كما أنهم يثأرون لأنفسهم في الأمور الصغيرة لكنهم لا يستطيعون ذلك في الأمور الكبيرة، فإذا ما أضير الرجل مضرة كبرى فلا يجب علينا أن نخشى انتقامه. ووجود القوات بدلاً من استخدام طريقة المستعمرات سيكلف الحاكم مالاً أكثر، مما سيجعله ينفق كل عائدات هذه المستعمرة في المحافظة عليها، وبذلك يكون ضمها خسارة مادية، إضافة إلى أن ضرر القوات العسكرية كبير حيث يتأذي كل من يعيش في تلك الأرض من عسكرة الجيش عليها. وهذه المضايقة الجماعية للشعب ستجعل من كل واحد منهم عدوًا لك، يمكنه أن يفعل ما يضرك. فهم باقون بمنازلهم رغم الهزيمة . وعلى أي حال ستكون معسكرات الجيش عديمة الفائدة بينما تحقق المستعمرات فوائدها.

كما أن الحاكم الذي يحكم إقليمًا أجنبيًا كما أوضحت، يجب أن يجعل من نفسه قائدًا وحاميًا لجيرانه الأقل قوة منه ويسعى جاهدًا لإضعاف الأقوياء منهم. وأن يحذر أن يغزوهم أجنبي أقوى منه، فمن لا يرضى بذلك سيدعوه للتدخل إما خوفًا أو طمعًا، وقد

حدث ذلك حينما دعا "الإيتوليون" الرومان إلي بلاد الإغريق. وأي بلد دخلها الرومان كان بناء على طلب من أهلها. وهناك قاعدة تقول : إن أي أجنبي قوي يدخل إلى بلد فإن كل المستضعفين من سكانها سيؤيدون هذا الأجنبي مدفوعين في ذلك بحقدهم على حكامهم. ولا يتكبد الأمير أي عناء في ضمهم إليه لأنهم ينضمون بإرادتهم إلى قواته الغازية. ويجب على الأمير فقط أن يحذر من أن ينالوا سلطانًا كبيرًا أو قوة، حيث يتمكن من سحقهم، والسيطرة على الإقليم باستخدام قواته والموالين له. ومن لا يستطيع تحقيق ذلك سيواجه صعوبات ومشكلات لا حصر لها.

وقد اتبع الرومان دائمًا هذه السياسة فيما سيطروا عليه من ولايات. فقد أقاموا المستعمرات. وأقاموا علاقات حميمة مع الدول الضعيفة المجاورة دون السماح لها بمزيد من القوة. وأضعفوا الدول القوية ولم يسمحوا للحكام الأجانب بالسيطرة عليها. وسأضرب هنا مثلا بولاية الإغريق حيث أقام الرومان صداقة مع "الآخيين والأيتوليين"، إلا أنهم لم يسمحوا لهم بالتوسع في الإقليم. كما أنهم أضعفوا مملكة مقدونيا وأهلكوا ملوكهم وطردوا "أنتيوكس". ولم يفلح صديقهم "فيليب" في استمالتهم له دون أن يضعفوا نفوذه. كما لم تغرهم قوة "أنتيوكس" بالموافقة له على السيطرة على أي ولاية في المنطقة. ولم يسمحوا له بالعودة إلي بلاد الإغريق.

وفي كل هذه الحالات سلك الرومان مسلك الأمراء الحكماء، الذين لا ينظرون إلى اضطرابات الحاضر فقط، ولكن أيضًا إلى ما سيقع منها في المستقبل، ويتأهبون له قبل وقوعه. فما يمكن التنبؤ به يمكن علاجه بسهولة. إما إذا انتظرنا على أن تدهمنا المخاطر، فسيصبح العلاج متأخرًا عن موعده وتستعصي العلة. ويحدث هذا مثلما يحدث في الحُمّيّات غير المستقرة. فالأطباء يقولون: إنها في بدايتها تكون صعبة التشخيص وسهلة العلاج بينما تكون سهلة التشخيص وصعبة العلاج وهي في نهايتها. وهذا هو الحال في أمور الدولة. فإننا نري الخطر المتوقع قبل حدوثه (وهي صفة الحكماء من الرجال فقط) فيسهل علاجه. ولكن إذا تركناها تستفحل ويعرفها الجميع فلن يوجد لها أي علاج وهذا كله بسبب قصر النظر . ولهذا فإن الرومان كانوا يكتشفون الاضطرابات وهي لا تزال في المهد واستطاعوا دائمًا أن يعالجوها، ولم يتيحوا لها أي فرصة لتزداد حتى يتجنبوا الحرب، وذلك لأن الحرب إذا بدأت فلا مفر منها ولا يمكن تأجيلها إلى ما هو في صالح الطرف الآخر.ولذلك فهم قد أعلنوا الحرب على "فيليب" و"أنتيوكس" في بلاد الإغريق حتى لا يضطروا إلى محاربتهم في إيطاليا، على الرغم من أنه كان متاحا أمامهم تجنب

كلتا الحربين. ولم يستجيبوا لنصائح من طلبوا الانتظار والتريث لأن مرور الوقت قد يحمل معه خيرًا أو شرًا.

ولكن لنعُد لفرنسا لنرى ما إذا كانت قد فعلت مثل ذلك أم لا. ولن أتحدث عن الملك "شارل" ولكن عن الملك "لويس" حيث إنه يمكن تحليل ما فعله بطريقة أفضل، ولوضوح سياساته وممارسته. كما أنه قد حكم إيطاليا لفترة أطول. وسترى أيها الأمير أن الملك لويس فعل عكس كل ما يجب فعله للمحافظة على إقليم أجنبي. فقد دعا طمع "البنادقة" الملك "لويس" إلى دخول إيطاليا حيث طمعوا في أن يكسبوا نصف إقليم "لمبارديا" من وراء ذلك . وأنا لن ألوم الملك على مجيئه إلى إيطاليا ولا على الجزء الذي احتله منها، وذلك أنه جاء رغبًا في تثبيت أقدامه في إيطاليا، وليس لمصادقة أهل البلد، ولكن على العكس تمامًا، فقد أوصدت كل الأبواب في وجه الملك "لويس" بسبب هذا السلوك ، فاضطر لقبول أي تحالف يعرض عليه، وكان من الممكن لخططه أن تنجح بسرعة شديدة لولا وقوع أخطاء أخرى منه أثناء تنفيذ تلك الخطط.

والملك إذن حين سيطر على "لمبارديا" قد استعاد فورًا النفوذ الذي كان الملك "شارل" قد فقده. فقد استسلمت له مقاطعة "جينوا" وأصبح "الفلورنسيون" أصدقاء له وتقرب إليه مركيز "مانتوا" ودوقات "فرارا" و"بنتيفولي" وأميرة "فورلي" وصافاه وأمراء فانزا (بيتزارد) وكاميرينو وبيمبينو" وتودد إليه أهل "لوكا وبيزا وسينا". وقد عرف البنادقة في ذلك الوقت نتيجة طيشهم، ففي مقابل سيطرتهم على جزء من "لمبارديا" تركوا ملك فرنسا يستولي على أكثر من ثلثي إيطاليا.

وتستطيع أيها الأمير أن تدرك أنه كان من السهل على الملك "لويس" أن يستعيد النفوذ الفرنسي على إيطاليا لو أنه طبق القواعد الأساسية التى سبق أن أشرت إليها وسيطر بحزم على حلفائه الذين كانوا كثيري العدد واضحي الضعف. فقد كانت مخاوفهم كبيرة سواء من الكنيسة أو من البنادقة الذين لم يرضوا بالوجود تحت إمرته وسلطانه. وقد كان حلفاؤه الضعفاء مضطرين إلى الالتصاق به، وكان بإمكانه ومن خلال مساعدتهم له أن يتغلب على مناوئيه. لكن الملك "لويس" فعل عكس ذلك تمامًا، فلم يكد يصل إلى "ميلانو" حتى ساعد البابا (اسكندر) ليحتل ولاية (رومانيا). ولم يدرك الملك أنه بذلك قد أضعف نفسه وابتعد عن حلفائه الذين لجئوا إليه، وطلبوا حمايته، كما أنه ضاعف من نفوذ الكنيسة بإضافة قوته الوقتية إلى قوتها الروحية . وقد أدى هذا الخطأ الأول من الملك إلى سلسلة أخطاء أخرى. فقد اضطر إلى أن يأتي بنفسه إلى إيطاليا ليوقف نفوذ

البابا (اسكندر) عند حدود معينة، ويمنعه من أن يكون حاكمًا على (توسكانا). لكنه لم يرض بأنه قد ساهم في زيادة قوة الكنيسة وفقد أصدقاءه، كما أنه كان يتمنى في ذلك الوقت أن ينال إمارة "نابولي" إلا أنه اقتسمها مع ملك أسبانيا. وبينما كان هو الوحيد المتحكم في إيطاليا أصبح الآن له شريك، فتلاشت الآمال المعلقة عليه وأصبح الناس غير مقتنعين به وباحثين عن غيره، وبدلا من أن يأتي بملك له ، تخلص منه وأتى بغيره قادر على طرده هو من هناك.

إن الرغبة في تملك الأشياء أمر طبيعي وعادي جدًا. ومن يستطع تحقيق ذلك يمدحه الناس ولا يلومونه، ولكن من يريد التملك ولا يستطيع تحقيقه فإنه يود أن ينجح مهما كلفه الأمر فيقع في أخطاء ينال عنها لومًا كثيرًا. فإذا كانت "فرنسا" في ذلك الوقت وبقواتها الخاصة قادرة وحدها على السيطرة على "نابولي" فقد كان يجب عليها أن تفعل ذلك. وإذا كانت لا تستطيع فكان يجب عليها ألا تقتسمها. فإذا كان هناك عذر لاقتسام "لمبارديا" مع البنادقة وهو أن ذلك الاقتسام قد سمح لملك فرنسا بإيجاد موضع قدم له في "إيطاليا"، فإن التقسيم الثاني يحسب عليه، فلا توجد ضرورة لذلك.

وبهذا يكون الملك لويس قد ارتكب خمسة أخطاء : الأول: أنه أضعف قوى الولايات الصغرى، والثاني أنه علّم أمراء إيطاليا كيف ينفرد ملك واحد بالملك، والثالث أنه جاء بأجنبي قوي جدًا إلى داخل البلاد ، الرابع أنه لم يذهب ليعيش هناك بنفسه، الخامس أنه لم ينشئ أي مستعمرات فرنسية في الولايات التي استولي عليها. ولو كان الملك لويس قد امتد به العمر. لما أضير من هذه الأخطاء الخمسة كثيرًا. إلا أنه ارتكب الخطأ السادس وهو تجريد البنادقة من الولاية واغتصب السلطة منهم. وقد كان ذلك ضروريًا فقط لو لم يكن قد دعم قوة الكنيسة، وأتى بالأسبان إلى إيطاليا. وبما أنه قد فعل كل ذلك فكان من الأجدر به ألا يسعى إلى التخلص من البنادقة أبدًا لأنهم إذا كانوا أقوياء وبإمكانهم أن يصدوا محاولات غزو "لمبارديا" ، وذلك لأنهم لن يقبلوا بأي شيء يحدث فيها ويخرجهم منها من جهة، ومن جهة أخرى لن يقدم أي طرف آخر لنزعها من فرنسا وإعطائها للبندقية، ولا يوجد من عنده الشجاعة ليهاجم الاثنين معاً. وإذا كان هناك من يري عذرًا للملك لويس في تسليم "رومانيا" إلى "الكسندر" وإمارة "نابولي" إلى الأسبان حتى يتفادى الحرب فإني أرد عليه بما ذكرته من أسباب وبأنه لا يجب علينا أن نترك الاضطرابات تثور في مقابل تجنب الحرب. فالحرب لم يتم تجنبها في هذه الحالة، ولكنها تأجلت فقط والتأجيل لن يضر أي أحد سواك أنت يا من تسعى إليه. أما إذا ادعى البعض أن هذا الموقف الذي اتخذه الملك لويس كان

بسبب وعد من البابا بأن يقوم بتلك الحملة لحسابه على أن يطلقه البابا من زوجته ويسند أسس منصب الكاردينال إلى "روهان" فإني أرد على ذلك بما سوف أذكره فيما بعد عن وعود الأمراء وكيف ينبغي تناولها. وهكذا أضاع الملك "لويس" "لمبارديا" لأنه لم يفعل مثلما فعل الآخرون الذين استولوا على أقاليم وأرادوا الاحتفاظ بها. وهذا الأمر ليس بمعجزة ولكنه منطقي وطبيعي. وقد تحدثت في هذا الموضوع مع الكردينال "روهان" في "ناتس". وقد قال لي الكردينال. إن الإيطاليين لا يعرفون معنى الحرب. وأجبته بأن الفرنسيين لا يعرفون معنى السياسة، لأنهم لو عرفوا معناها لما سمحوا للكنيسة أن تصبح قوية جدًا. والتجربة تقول: إن فرنسا هي سبب عظمة الكنيسة في إيطاليا وفي أسبانيا وهي أيضا سبب سقوطها. ومن هنا يمكننا استنتاج قاعدة عامة لا تخيب إلا فيما ندر وهي "أن كل من يتسبب في أن يقوي غيره يُهلك نفسه، لأنه إنما يفعل ذلك إما بالحيلة، أو بالقوة. وهاتان الصفتان هما موضع شك ممن يصل إلى السلطة.

4 لماذا لم تتمرد مملكة داريوس التي احتلها الإسكندر على خلفائه بعد وفاته؟

بالنظر إلى الصعاب التي تكمن في الاستيلاء على دويلات جديدة، قد يتعجب البعض من أن الإسكندر الأكبر وقد أصبح سيد آسيا خلال أعوام قليلة، لكنه لم يكد يحتلها حتى وافته المنية، وكان من المتوقع أن تثور جميع الولايات إلا أن الولايات كلها لم تتمرد على خلفائه. وعلى أي حال، احتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم ولم يواجهوا أي متاعب فيما بعد سوى تلك المتاعب التي حدثت بين بعضهم البعض بسبب مطامعهم الشخصية. وأرد على ذلك بأن تاريخ حكم الممالك سجل طريقتين للحكم: إما أن يكون الحكم متمثلًا في أمير وأتباعه الذين يعملون كوزراء بجانبه، ويشاركون في السلطة بدعم وتأييد منه أو يكون الحكم لأمير ومعه عدد من البارونات الذين لا يعتمدون في قوتهم على الأمير وإنما على أصالة عائلتهم القديمة. ولهؤلاء البارونات دويلات ورعايا خاصين بهم، ويعتبرهم رعاياهم أسيادًا لهم، ويرتبطون بهم ارتباطًا وثيقًا . وفي الدول التي يحكمها الأمير وأتباعه، يكون للأمير سلطات أكثر، حيث لا يوجد بالدولة من هو أعلى منه مقامًا، والآخرون الذين يأتمرون به هم مجرد وزراء ومسئولين بدولة الأمير، ولا يوجد من يعطيهم أكثر من حقهم. وفي عصرنا الحالي مثالان لهذين النوعين وهما الأتراك وملك فرنسا. فالمملكة التركية يحكمها حاكم واحد، والباقون هم خدامه، وهو قد قسم المملكة إلى سنجقيات يرسل إليها العديد من الإداريين، ويغيرهم ، أو يستدعيهم حسب

هواه. ولكن ملك فرنسا محاط بعدد كبير من قدامى النبلاء. ومكانتهم معروفة جيدًا لرعايا الدولة، وهم أيضًا محبوبون منهم. ولهم امتيازات لا يستطيع الملك أن يحرمهم منها وإلا عرّض نفسه للخطر. إن من ينظر إلى هاتين الدولتين سيجد أنه من الصعب جدًا الاستيلاء على الدولة التركية لكن السيطرة عليها سهلة جدًا لأسباب عديدة وذلك في حالة هزيمتها. أما مملكة فرنسا فمن السهل جدًا إسقاطها لكن السيطرة عليها أمر شديد الصعوبة.

إن أسباب صعوبة احتلال المملكة التركية هي أن الغازي لن يجد ترحيبًا من الأمراء الموجودين بالمملكة ، ولا يأمل في أن تساعده في حملته حركات تمرد بزعامة هؤلاء الذين كانوا مقربين من الملك للأسباب المذكورة سابقًا. فمن الصعب إفساد هؤلاء القوم لأنهم جميعًا مخلصون للسلطان، وأتباع له ولا يقبلون سيدًا غيره عليهم ولا يرتشون، وحتى لو تمكنا من إفسادهم ، فلن نستفيد من ذلك كثيرًا لأنهم لن يستطيعوا ضم الشعب إليهم للأسباب السابق ذكرها. لذلك فإنه على من يرغب في الهجوم على سلطان الأتراك أن يواجه قواتهم المتحدة، وأن يعتمد على قواته وليس على ما يمكن أن يحدث من تمرد يقوم به آخرون ضد السلطان. ولكن بمجرد أن يتمكن من هزيمته في معركة واحدة بحيث لا يمكنه تكوين الجيش مرة أخرى، فلن يكون هناك أي خطر عليه سوى من العائلة المالكة، فإذا أبيدت هذه الأسرة، فلن يوجد بعد ذلك من نخشاه. أما الآخرون الذين كانوا حول الملك قبل النصر، فلا خوف عليهم منهم الآن. فإذا كان النصر لم يعلق أي أمل عليهم قبل النصر، فلا يجب أن يخشاهم بعد النصر.

والعكس صحيح في الممالك التي تحكم مثلما تحكم مملكة فرنسا، وذلك لأنه يمكن الدخول إليها باستمالة بعض بارونات المملكة ، فلابد أن يكون منهم الساخطون ومحبو التغيير. وهؤلاء - وللأسباب السابق الحديث عنها - يمكنهم أن يفسحوا الطريق لك، ويجعلوا لك النصر سهلا ميسرًا.

ولكن إذا أردت الاحتفاظ بهذا الملك فيما بعد فإن المشكلات التي ليس لها نهاية تبدأ في الظهور. وسيكون سبب المشكلات هم هؤلاء الذين ساعدوك والذين تعسفت معهم على حد سواء. ويصبح التخلص نهائيًا من أسرة الأمير غير كاف، لأن النبلاء سيبقون ويتزعمون الثورات الجديدة. ولأنك لن تستطيع إرضاءهم أو القضاء عليهم، وستفقد الولاية عندما تحين أول فرصة لذلك. والآن إذا تأملت طبيعة حكومة مملكة "داريوس" فإنك ستجدها مماثلة للمملكة التركية، ولذلك كان على "الإسكندر" أن يسقطها بالكامل أولاً ويغزو جميع أراضيها ، وبعد النصر وموت "داريوس" استتبت الأحوال في الولاية

للإسكندر وذلك للأسباب التي ناقشناها فيما سبق. ولو أن خلفاءه ظلوا متحدين لما ثارت أي مشكلات ولعاشوا فيها في سلام ولكن مشكلاتهم قد حدثت فيما بين بعضهم البعض. فمن المستحيل إذن أن السيطرة على دول متحدة مثل فرنسا بمثل هذه السهولة وهذا هو سر الثورات التي قامت بين وقت وآخر ضد الرومان في أسبانيا وفرنسا واليونان. وذلك نظرًا لوجود إمارات عديدة في تلك الدول. ولم تستتب الأمور لحكم الرومان المزعزع إلا عندما انتهي ذكر هذه الإمارات ومحيت وأصبحت الرومان سادة لا بديل لهم. وعندما دب الخلاف بين الرومان كان في مقدور كل واحد منهم أن يعتمد على مساندة منطقته له حيث كون سلطانًا لنفسه. لكن الرومان لم يتم اعتبارهم حكامًا هناك إلا بعد انقراض الأمراء من الأسر الحاكمة القديمة. فإذا نظرنا إلى هذه الأمور فليس لنا أن نعجب للسهولة التي سيطر بها الإسكندر على آسيا، ولا للصعوبات التي لاقاها غيره ممن فتحوا أقاليم مثل "بايروس" وغيره كثير. لأن ذلك لا يعتمد على قدرة الفاتح سواء عظمت أم تضاءلت ولكن الأمر يتوقف على ظروف مختلفة.

5 طريقة حكم المدن والممالك التي كانت تعيش قبل احتلالها في ظل قوانينها الخاصة

عندما تكون تلك الدول التي تم الاستيلاء عليها معتادة على الحياة الحرة في ظل قوانينها الخاصة، هناك ثلاثة طرق للسيطرة عليها: فإما أن يلغيها الأمير أو أن يذهب بنفسه، ويعيش هناك أو أن يسمح لها بالاستمرار في استخدام القوانين السابقة مع دفع الجزية. ونوجد داخل الدولة حكومة مكونة من عدد قليل ممن يحافظون على ولائها لك. ولأن هذه الحكومة التي شكلها الأمير تعرف أنها لا يمكن لها أن تستمر بدون رضائه وحمايته، فهي ستفعل كل ما في وسعها للحفاظ على هذا الرضا وهذه الحماية. ومن جهة أخرى فإن المدينة التي اعتادت الحياة بحرية يمكن السيطرة عليها من خلال مواطنيها أكثر من أي طريقة أخرى، وذلك إذا أردت أن تستمر هذه السيطرة.

ومثال ذلك هم الإسبرطيون والرومان حيث سيطر الإسبرطيون على أثينا وثيبة من خلال حكومة قليلة العدد، إلا أنهم فقدوا السيطرة عليها. بينما خرب الرومان كابو

وقرطاجنة ونومانتا من أجل السيطرة عليها، لكنهم لم يفقدوها. وقد حاولوا السيطرة على اليونان بنفس الطريقة التي استخدمها الإسبرطيون تقريبًا وذلك بتركها حرة تعيش في ظل قوانينها الخاصة، إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك . واضطروا إلى تخريب كثير من المدن بها حتى يضمنوا الاحتفاظ بها، ففي الحقيقة لم تكن هناك طريقة أكيدة للإبقاء عليها سوى التخريب. ومن يصبح حاكمًا لمدينة حرة ولا يدمرها فليتوقع أن تقضى هي عليه، لأنها ستجد دائما الدافع للتمرد باسم الحرية وباسم أحوالها القديمة. وهي أشياء لا تنسى لا بمرور الزمن ولا بما يناله أهلها من مزايا. ومهما فعل الحاكم ومهما احتاط للأمر فإن أهل المدينة سيستجيبون لندائها فورًا عند حدوث أي طارئ ، وذلك مثلما حدث في بيزا بعد أن سيطر عليها "الفلورنسيون" واستعبدوها لسنوات عديدة. ولكن عندما تكون المدن أو الأقاليم قد ألفت الحياة في ظل أمير وأسرة حاكمة ثم تختفي هذه الأسرة تمامًا، فإن هذه المدن قد اعتادت على الطاعة من جهة، ومن جهة أخرى لا يجدون أميرًا لهم، ولا يستطيعون الاتحاد تحت راية واحد يختارونه من بينهم ولا يعرفون حياة الحرية، لهذا فإنهم لن يقدموا على حمل السلاح بسرعة وسيتمكن الأمير من الانتصار عليهم بسهولة شديدة ومن دعم موقفه وتأمينه. لكن في الجمهوريات تكون الحياة أفضل والعداء أشد، كما أن الرغبة في الانتقام تكون أشد، فالناس لن تتخلى عن ذكريات حريتها القديمة بسهولة. لذلك فإن الطريقة الأكيدة هي إما أن نخربها، أو أن نقيم فيها.

6 حول الولايات الجديدة التي ضمها الأمير بقدراته وجيوشه

لا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة حديثة جدًا سواء فيما يخص الأمير أو الولاية وذلك في أثناء حديثي عن الولايات الجديدة. وذلك لأن الناس دائمًا يسيرون في الدروب التي طرقها غيرهم، وأن تحاكي أعمالهم أعمال الآخرين. والعاقل من الرجال لا يستطيع أن يتبع آثار الآخرين، ويقلدهم تمامًا ولا أن يحقق ما حققوه من نجاح وتميز. إلا أنه إن لم يبلغ حصتهم من العظمة والتميز فسيصيبه نفحة منها على أية حال. وهو بهذا يفعل مثلما يفعل الرماة المحترفون الذين يصوبون إلى نقطة أعلى من النقطة التي يريدونها حينما يكون الهدف بعيدًا جدًا وهم على علم بمدى الرمي الممكن للقوس الذي يستخدمونه. وهو بالتصويب على ما هو أبعد يصيبون الهدف المقصود تمامًا.

وعلى هذا الأساس أقول بأن السيطرة على الأمور في الولايات الجديدة تتفاوت تبعًا

لقدرات من يستولي عليها. ولما كان أي فرد عادي لا يصل إلى مرتبة الإمارة إلا من واقع قدراته الفائقة أو حظه السعيد، فإن أحد هذين الأمرين يخفف ما يلقاه من مصاعب كثيرة، ومع هذا فإن من لا يعتمد على حسن الطالع يحفظ نفسه على أفضل حال. ومما يخفف العبء الجديد عن الأمير أيضًا هو إقامته في الإقليم الجديد، إذا لم يكن لديه غيره. أما إذا أردنا التحدث عن هؤلاء الحكام بفضل ما لديهم من قدرات عالية، وليس بفضل حظهم السعيد، فسنجد أن أعظمهم جميعًا هو "موسى" عليه السلام و"قورش" و"روميلس" و"طيصص" وغيرهم. وعلى الرغم من أننا لا ينبغي لنا أن نتحدث عن موسى لأنه رسول الله الذي نفذ ما أمر به، إلا أنه يظل جديرًا بالإعجاب لأنه تحلي بصفات جميلة أهلته لأن يكون كليم الله سبحانه وتعالي. أما قورش وغيره ممن ورثوا الممالك أو أسسوها فإنهم جميعًا يستحقون الإعجاب. فما قاموا به من أعمال وما حققوه لا يختلف كثيرًا عما قام به موسى عليه السلام رغم أنه كان رسولاً. وإذا ما تفحصنا حياتهم وأعمالهم لن نجد أنهم قد ركنوا إلى الحظ في أي شيء لكن ما حصلوا عليه من فرص هو ما ساعدهم على صياغة ما حولهم فيما رأوه مناسبًا . ولولا هذه الفرص لضاعت قدراتهم أدراج الرياح. وبدون تلك القدرات لما كان للفرص أي معنى. وهكذا كان من الضروري لموسى أن يجد بني إسرائيل أذلاء في مصر وأن يضطهدهم المصريون، وذلك حتى يكونوا مستعدين للسير خلفه ليتخلصوا من العبودية . وكان من الضروري ألا يستطيع "روميلس" البقاء في ألبا، وأن يترك في العراء يوم مولده لينهض في المستقبل ويقوم بتأسيس روما. وكان من الضروري أيضًا أن يجد "قورش" أن الفرس متذمرين من دولة (ميديس)، وأن يكون (ميديس) قد فقد صفات الفروسية ونسي فنون الحرب وخلع رداء الرجولة بسبب طول فترة السلم في حكمه. وما كان لطيصص أن يظهر قدراته لولا أنه وجد أن الأثينيين مشتتون. فهذه الفرص قد سنحت لهؤلاء الرجال، وساعدتهم صفاتهم العظيمة على الاستفادة منها. وهم بذلك يزيدون من رفعة أوطانهم ويزيدونها فلاحًا وسعادة.

إن من يستفيدون من قدراتهم حتى يصبحوا أمراء يحصلون على الإمارة بصعوبة، إلا أنهم يحافظون عليها بسهولة. والصعوبات التي تواجههم في ذلك ترجع إلى حد ما إلى القواعد والتعديلات الجديدة التي يضطرون إلي إدخالها حتى يستتب السلام في ولاياتهم. ويجب أن ندرك أنه لا يوجد أصعب من بدء نظام جديد لتسيير الأمور وتنفيذه. فنجاحه مشكوك في أمره وليس هناك ما هو أخطر من التعرض لهذا الأمر. لأن من يريد الإصلاح لابد له من أعداء وهم جميع من كانوا يستفيدون من النظام القديم. وهناك أيضًا من

يؤيده بفتور رغم استفادتهم من النظام الجديد. ويرجع هذا الفتور - من ناحية - إلى خوفهم من خصومهم الذين يساندهم القانون، ومن ناحية أخرى إلى أن الناس لا تؤمن بالجديد إلا بعد أن تجربه فعلًا. وعلى هذا فإن المصلح يهاجمه خصومه بحماس شديد، بينما يدافع عنه الآخرون دفاعًا فاترًا، حتى أنه يواجه خطرًا كبيرًا جدًا وهو ما بين أولئك وهؤلاء. لذلك فإننا إذا أردنا أن نتناول هذه القضية بدقة، لابد لنا أن نعرف أولًا ما إذا كان المصلحون يعتمدون على أنفسهم، أم أنهم يعتمدون على الآخرين. وبعبارة أخرى: هل هم قادرون على استمالة غيرهم لينفذوا ما وضعوه لهم أم أنهم يستطيعون فرضه؟ ففي الحالة الأولي لن يحققوا سوى فوز ضعيف. ولا ينجزون شيئًا. أما إذا استطاعوا الاعتماد على سطوتهم ولديهم القدرة على استخدام قوتهم فإنهم لا يفشلون إلا فيما ندر، وبهذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم. وذلك - بالإضافة إلى ما ذكرناه - يرجع إلى أن طبيعة البشر متقلبة. ومن السهل تحفيزهم لشيء ما ولكن من الصعب استمرار هذا الحافز. ولذلك يجب أن نرتب أمورنا حتى يمكننا أن نستخدم القوة معهم لنردهم إلى الإيمان بما ارتدوا عنه.ولو كان كل من موسى - عليه السلام - وقورش وطيصص ورميلس عُزلًا من السلاح لما استطاعوا أن يجعلوا الآخرين يحترمون دساتيرهم لفترات طويلة، وهذا هو ما حدث في عصرنا الحالي مع الأخ جيرولامو سافونا حيث فشل فشلًا ذريعًا في تطبيق شريعته الجديدة عندما بدأ الكثير من الناس في الكفر به ولم يكن لديه القوة التي تمكنه من أن يجبرهم للعودة إلى الإيمان بما يقوم به. وعلى ذلك فإن من هم مثل هذا الرجل يجدون صعوبة كبيرة في شق طريقهم، فهم يقابلون جميع الأخطار في طريقهم، ولابد لهم من التغلب عليها بما يملكون من قدرات، ولكن بمجرد أن يتغلبوا عليها ويصلوا إلى مكانة عند قومهم ويسحقوا من يحسدهم عليها، يمكنهم أن يظلوا أقوياء مكرمين وسعداء.

ولكل هذه الأمثلة الواضحة التي ضربتها أضيف مثالًا آخر أقل منها، وهو على أي حال مثال يمكن مقارنته بجميع الحالات المماثلة . إنه مثال جيرون السرقسطي الذي أصبح أمير سرقسطة بعد أن كان مجرد فرد عادي. ولم يتدخل الحظ في ذلك مطلقًا لأن أهل سرقسطة الذين كانوا مضطهدين قد اختاروه رئيسًا لهم، وقد ارتقى بما لديه من قدرات من هذا المركز إلى مرتبة الإمارة وكما قال عنه الكتاب: "لم يكن ينقصه لكي يحكم - وهو مازال فردًا عاديًا - سوى المملكة". وقد ألغى نظام الجندية القديم وفرق شمل الجيش القديم وأحل محله نظامًا جديدًا وتخلى عن أصحابه القدامى واتخذ أصدقاءً جددًا وعقد

غيرها. وعندما أصبح لديه أصدقاء جدد وجيش جديد، أخذ يشيد في ثبات وقوة وبينما وجد صعوبة في الوصول إلى مكانته إلا أنه لم يتعب كثيرًا في المحافظة عليها.

7 الممالك الجديدة التي يتم الحصول عليها بقوة الآخرين أو بالصدفة

إن من ارتفع من مكانة المواطن العادي إلى منصب الأمير بمحض الصدفة لا يواجه سوى متاعب قليلة حتى يصل لهذه المكانة، إلا أنه يواجه كثيرًا من الصعاب عندما يريد الحفاظ على هذا المنصب. وهم لا يجدون أي صعاب في طريق المناصب لأنهم يطيرون إليها. أما ما يجدونه من صعاب فإنها تحدث بعدما يستقرون فيها. وما أمثال هؤلاء من حصل على دولة في مقابل المال أو تفضلًا ممن يمنحه هذا المنصب كما حدث في كثير من الحالات الإغريقية في مدن "أيونا وهيلسبونت"، وهم من جعلهم "داريوس" أمراء للسيطرة على هذه الأماكن من أجل سلامته وسلطانه. ومن أمثال هؤلاء أيضًا الأباطرة الذين ارتفعوا إلى تلك المناصب **برشوة الجيش**، حيث اعتمدوا اعتمادًا تامًا على النوايا الحسنة لمن يساعدهم ، وعلى حسن طالعهم، وهما أمران لا يستمران طويلًا ولا يظلان ثابتين بنفس القدر بصفة دائمة. وهم لا يعرفون كيفية المحافظة على الولايات ولم يمروا بمواقف تمكنهم من ذلك. وإن لم يكن هذا الفرد العادي الذي عاش حياة عادية ذا عبقرية فذة، فلن يعرف كيف يأمر وينهي. وهم في ذلك لن يستطيعوا الحفاظ على أنفسهم لأنهم لا يملكون قوات تدين لهم بالولاء ، وإضافة إلى أن الدول التي تنمو سريعاً ـ مثلها في ذلك مثل أي شيء آخر ينمو سريعًا ـ لن تستطيع أن تثبت جذورها وتتعمق كما أنها تتدمر بسبب أول عاصفة تهب عليها. وهناك استثناء كما قلنا وهو أن يكون من وصل إلى الإمارة قادرًا على اتخاذ خطوات يحافظ بها على ما ألقاه إليه حسن طالعه، ثم بعد ذلك يضع الأسس التي يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء.

وسوف أضرب هنا مثالين قد قفزا إلى ذاكرتي وهما يجسدان الوصول إلى الإمارة إما بالقدرة ، أو بحسن الطالع، وهذان المثالان هما : "فرانتشسكو سفورتسا" و"قيصر بورجيا" فقد أصبح "فرانتشسكو: دوق ميلانو بالوسائل المناسبة. وبسبب قدراته ، بعدما كان مواطنا عاديًا . وبقليل من المعاناة حافظ على ما قد حصل عليه بعد مروره بصعوبات

كبيرة.ومن جهة أخرى حصل قيصر "بورجيا" المعروف باسم دوق "فالنتين" على الملك بفضل نفوذ والده وفقده عندما فُقد هذا النفوذ، وذلك على الرغم من أنه بذل كل ما يمكن أن يقوم به رجل حكيم، حتى يوطد أقدامه في ولاية حصل عليها بسبب ما لغيره من قدرات وسلاح. ومن لم يُرّسِ قواعد البناء في وقتها المناسب يمكنه أن يفعل ذلك فيما بعد رغم ما في الأمر من خطر على البناء نفسه. وما فيه من عناء على مهندس هذا البناء. ولو نظر المرء بعين الاعتبار إلى الإجراءات التي اتخذها الدوق فسوف يلاحظ قوة الأسس التي وضعها لسلطانه القادم، وتأمل هذه الإجراءات شيء لازم، فما قام به الدوق لا يفوقه شيء آخر، ولا يقلل من قيمته أنه استخدم وسائل غير ناجحة ، فهذا ليس خطأه ، ولكنه كان بسبب سوء حظه الشديد ليس إلا.

وعندما أراد "الإسكندر" السادس أن يعلي من شأن ابنه الدوق كان عليه أن يمر بكثير من الصعاب في الحاضر والمستقبل. وأول ما واجهه من مشكلات هو أنه لم يجد سبيلاً لجعله حاكمًا لأي ولاية لا تخص الكنيسة. وكان يعلم أن محاولته لكي يسيطر على مدن للبابا لن ترضي دوق ميلانو والبنادقة. وذلك لأن "فائنزا وريميني" كانتا تحت حماية البنادقة في ذلك الوقت. بالإضافة إلى أنه لاحظ أن القوات المسلحة في إيطاليا وخاصة تلك القوات التي يمكنها أن تخدمه كانت تحت إمرة أولئك الذين يخشون عظمة البابا، وهو بالتالي لا يمكنه أن يعتمد عليهم وذلك لأنها جميعًا كانت تحت قيادة الأورسيني وكولونا وأتباعهما. ولذلك كان من الضروري بالنسبة له أن يجعل الحالة الراهنة في إيطاليا تضطرب، وأن يثير الفتن في الولايات الإيطالية حتى يضمن السيادة على جزء منها. وقد كان ذلك يسيرًا بالنسبة له حيث وجد أن البنادقة - وبسبب دوافع أخرى - قد دعوا الفرنسيين إلي دخول إيطاليا. وهو لم يعرض ذلك فحسب بل إنه سهل بإنهاء الزواج الأول للملك لويس. وهكذا جاء الملك إلى إيطاليا بمساعدة البنادقة ورضاء الإسكندر. ولم يكد الملك يصل إلى ميلان حتي أخذ منه البابا قوات لحملته على رومانيا التي أمكن فتحها بسبب شهرة الملك. وبعدما تم له ما أراد وسيطر على "رومانيا" وهزم "الكولونيين" أعاقه عن الاحتفاظ بها والتقدم أمران اثنان: أولهما أنه شك في ولاء قواته، وثانيهما هو النية الفرنسية بمعني أنه خشى أن تتخلي عنه قوات الأورسيني التي سبق له استخدامها وحققت له النجاح، وهو يخشي في نفس الوقت أن تكون سببًا لفشله. فهي قد لا تعوقه عن التوسع فقط بل قد تسلبه ما فتحه حتى الآن كما خشي أن يفعل الملك نفس الشيء. وكان دليله على ذلك أنه بعدما سيطر على "فائنزا" أغار على "بولونيا" فتخلف عنه

"الأورسيني". أما بالنسبة للملك فقد تنبه لنواياه عندما استولى على دوقية "أوربينو" وهاجم "توسكانيا" فأوقفه الملك عن هذه الحملة. ومنذ ذلك الحين عزم الدوق على ألا يعتمد على أسلحة غير أسلحته، أو أن يعتمد على حسن طالع يخص أحدا غيره، وكان أول ما فعله هو إضعاف أحزاب "الأورسيني" و"الكولونا" في روما وذلك بأن جذب إلى صفه جميع أتباعهما من الأعيان، وجعلهم من تابعيه بأن أجزل لهم العطاء وعينهم في مناصب، وولاهم أعمالاً كل حسب قدره، وخلال شهور قليلة انقطعت صلتهم بأحزابهم والتصقوا بالدوق بشدة. وبعد أن سحق زعماء الكولونا. انتهز الفرصة لكي يبطش بزعماء الأورسيني حين واتته الفرصة فأحسن استغلالها. وكان الأورسينيون حين رأوا أن عظمة الدوق والكنيسة ستعني سقوطهم قد دعوا إلى عقد مجلس في "ماجيوني". وفي ذلك الحين قامت ثورة "أوربينو" وحدثت اضطرابات في "رومانا"، وظهرت أمام الدوق أخطار لا تحصى، لكنه استطاع أن يتغلب عليها كلها بمساعدة الفرنسيين. وبعد أن استعاد سمعته لم يعد يثق بالقوات الفرنسية أو أي قوات أجنبية ولم يغامر بالتحالف مع أي منها. فلجأ للخداع فأخفى أغراضه الحقيقية جيدًا، حتى سلمه الأورسينيون، وذلك بأن نزع كل ما كان لدى ممثلهم السيد "باولو" من شكوك بأن أغدق عليه بالمال والملابس والجياد حتى أغرتهم سذاجتهم، فأتوا إلى "سنجاجليا" ووقعوا في قبضته. وبهذا تخلص الدوق نهائيًا من هؤلاء الزعماء بهذه الطريقة، وجعل من أنصارهم أصدقاء له، ووضع الأسس القوية جدًا لنفوذه. ثم استولى على كامل "رومانا" مع دوقية "أوربينو"، وكسب رضا سكانها الذين بدءوا يشعرون بمميزات حكمه.

وهذا الدور جدير بأن يلاحظه الآخرون ويسيرون على منواله ولن أتوقف عن الحديث عنه. فعندما سيطر الدوق على "رومانا" كان حكامه السابقون ضعفاء وكانوا ينهبون الرعية بدلا من أن يحكموهم، ويعملون على فرقتهم وليس توحيدهم، حتى أصبحت المقاطعة فريسة للصوصية، والسلب، وجميع أنواع الفوضى. لذلك رأى الدوق أن إيجاد حكومة صالحة فيها هو أمر مهم جدًا، حتى يجعل أهلها مسالمين ومدينين لحكمه بالطاعة. لذلك فقد ولى عليهم "روميرو دى أوركو" وكان رجلًا قاسيًا، وقادرًا، ومنحه سلطات كاملة. فنجح "روميرو" نجاحًا كبيرًا في توحيد البلاد وتنظيمها في وقت قصير. إلا أن الدوق قد رأى أن السلطة المتناهية غير مناسبة، وأنها من الممكن أن تولد الكراهية في نفوس الناس، فأنشأ دارًا مدنية للعدل برئاسة رجل ممتاز وعينت كل مدينة محاميًا خاصًا بها في هذه الدار. ولما علم أن ما حدث من قسوة بالأمس القريب قد ولد في النفوس مقدارًا

من الكراهية قرر أن يعلن للجميع أن ما حدث لم يكن بسبب أوامر أصدرها وإنما بسبب ميول الوزير الفظة، وذلك لكي يطهر نفوس الناس ويكسبها تمامًا لصالحه. وعندما حانت الفرصة **قتل** "روميرو" **وشطر جسده إلى نصفين**، ثم ألقاه ذات صباح في ميدان عام في "شيزينا" وبجانبه قطعة من الخشب **وسكين ملطخ بالدماء، فذهل الشعب لوحشية هذا المنظر** إلا أنه **رضي بذلك**.

ولنعد إلى حيث توقفنا، الآن أصبح الدوق قويًا، وفي مأمن من الأخطار الراهنة ولديه سلاحه الخاص، وقد قضى - إلى حد كبير - على القوى المجاورة التي قد تؤذيه. ولم يبق أمامه الآن إذا أراد أن يواصل الفتح سوى أن يفوز باحترام فرنسا له. حيث علم أن الملك- الذي اكتشف خطأه مؤخرًا - قد لا يمد العون إليه أبدًا. لذلك بدأ في البحث عن أحلاف جديدة وفي مراوغة فرنسا حول الحملة التي كان الفرنسيون يقومون بها تجاه نابولي وضد الأسبان الذين كانوا يحاصرون جيتا. كان يريد أن يستوثق منهم، وكان من الممكن أن يوفق في ذلك بسرعة لو أمد الله في عمر الإسكندر.

وكان هذا هو ما فعله الدوق ويخص الحاضر. أما فيما يخص المستقبل فقد خشى أن يعاديه وريث جديد لولايات الكنيسة، وربما يسعى لأن يسلب منه ما قد منحه إياه الإسكندر. ولذلك حاول اتقاء هذا الأمر بأربع طرق وهي : أولا: **قضى قضاء مبرمًا على كل من تجري في عروقه دماء الأسر الحاكمة التي اغتصب ملكها**. حتى لا يمكن للبابا أن يستغل أي فرصة ضده. وثانيا كسب جميع نبلاء روما إلى صفه ليكبح بهم جماح البابا. وثالثا: لم يدخر وسعًا في السيطرة على مجلس الكرادلة. ورابعًا: حصل قبل وفاة البابا على نفوذ كبير يمكنه من أن يصد أول هجوم قد يشن عليه. وعند وفاة البابا كان الدوق قد أنجز الأمور الثلاثة الأولي وعلى وشك إنجاز الأمر الرابع. فقد قتل كثيرًا ممن استطاع الوصول إليهم من الحكام السابقين وفر منهم عدد قليل جدًا. وتمكن من ضم نبلاء روما إلى صفه وكان له نفوذ كبير في مجلس الكرادلة. أما بالنسبة لضم أراض جديدة ، فقد وضع لنفسه خطة لكي يصبح سيد "توسكانيا" وقد كان ملك "بورجيا" و"بيومبينو" منذ فترة وجيزة كما فرض حمايته على "بيز" وقد سيطر عليها عندما لم يعد يخشى الفرنسيين (وذلك لأن الأسبان قد جردوا الفرنسيين من مملكة "نابولي" بطريقة جعلت كلا الطرفين يخطب وده). ثم استسلمت له "لوكا وسيينا" دفعة واحدة بسبب كراهيتهم للفلورنسيين من جهة والخوف من جهة أخرى، فلم تكن تملك أي موارد. فإذا كان الدوق قد حقق نجاحًا مثلما الذي حققه عند وفاة الإسكندر، لكان له من القوة والقدرة ما يمكنه من أن

يحافظ على نفسه دون الحاجة للاعتماد على قوة الآخرين وحسن طالعهم. لكن الإسكندر مات بعد خمس سنوات فقط من إشهار قيصر بورجيا لسيفه لأول مرة ، وتركه وهو لم تستتب له الأمور إلا في "رومانا". أما بقية الأنحاء فهي معلقة في الفضاء بين جيشين قويين جدًا ومعاديين له. وكان يعاني أيضًا من مرض عضال. إلا أن الدوق كان لديه القدرة والحيوية ويعرف جيدًا كيف يكسب تأييد الرجال وكيف يقهرهم. وقد كانت قواعد ملكه التي وضعها في فترة وجيزة قوية جدًا ، لدرجة أنه لولا وجود هذين الجيشين على مقربة منه واعتلال صحته لأمكنه التغلب على بقية الصعاب.وتتضح قوة الأسس التي وضعها في انتظار "رومانا" له لمدة تزيد عن الشهر رغم كونه نصف ميت في روما، إلا أن مركزه ظل قويًا. وعلى الرغم من أن "الباجليوني والفيتلي والأورسيني" قد دخلوا على روما، إلا أنهم لم يجدوا فيها من يقف ضده، فقد كان في استطاعة الدوق على أقل تقدير أن يحول بين كرسي البابوية، وبين من لا يرغب هو فيه، إذا لم يكن قادرًا على تنصيب من يشاء. وربما تيسرت له كل هذه الأمور لو كان سليمًا وبصحة جيدة حين توفي الإسكندر. ولقد أخبرني في يوم انتخاب البابا "يوليوس الثاني" بأنه قد فكر في كل ما يمكن أن يحدث عند وفاة أبيه، واحتاط لجميع الأمور عدا أمر واحد لم يدر بخلده وهو أنه هو نفسه سيكون قريبًا من الموت في ذلك اليوم.

وعندما أراجع أعمال الدوق لا أجد ما ألومه عليه بل إني أجد لزامًا علي أن أرفعه كمثال يجب أن يحتذيه كل من حصل على سلطان بسبب ماقامت به قوات غيره وحسن طالعهم. وهو بسبب شجاعته العظيمة وطموحه الكبير لم يكن أمامه أن يفعل غير ما فعل، وما أحبط خططه إلا قصر حياة "الإسكندر" ومرضه هو شخصيًا. لذلك فإن على كل من يعد الضروريات لتأمين إمارته الجديدة أن يؤمن نفسه ضد أعدائه، وأن يكسب الأصدقاء ، وأن تكون له الغلبة بالقوة أو بالخديعة. وأن يحبه الشعب ويخشاه. حيث يسير جنوده خلفه ويحترموه. وأن يسحق من يستطيع أن يؤذيه، أو من الممكن أن يؤذيه. وأن يستبدل القديم من الأوضاع بكل ما هو حديث. وأن يكون صارمًا وشفوقًا في نفس الوقت، كريم الخصال واسع المدارك. وأن يلغي نظام الجندية القديم ويحل محله نظامًا جديدًا. وأن يحافظ على صداقته مع الملوك والأمراء بطريقة تسعدهم إذا فعلوا ما يفيده، وتخيفهم منه إذا ناله منهم مضرة. ومثل هذا الأمير لن يجد مثالاً يحتذيه مثل أعمال هذا الدوق. إلا أن النقد الوحيد الذي يمكن أن يوجه لهذا القيصر هو انتخاب "جوليوس الثاني" للبابوية، حيث أساء الاختيار. وذلك لأنه - كما قيل - إن لم يكن قادرًا على انتخاب بابا يوافقه هو،

فكان عليه ألا يسمح لأي كاردينال بأن يصل للبابوية. كما كان من واجبه ألا يسمح بانتخاب أي كاردينال سبق أن أساء هو إليه، أو من قد يخشاه الدوق إذا وصل إلى كرسي البابوية. إن من أساء إليهم القيصر هم: "القديس بطرس والقديس جورجيو وآسكانيو". وكان أي واحد من غير هؤلاء جميعًا سيخشاه لو انتخب للبابوية إلا "روهان" والكرادلة الأسبان لأن الأسبان يخشونه لما بينه وبينهم من صلات والتزامات . أما "روهان" فقد كان على قرابة بالملك وله نفوذ عظيم. ولهذه الأسباب كان على الدوق أن ينصِّب في كرسي البابوية واحدًا من الأسبان، وإن لم يستطع كان عليه أن يوافق على "روهان" وليس على القديس بطرس. إن من يظن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء يخطئ خطأ جسيمًا، ولهذا فإن الدوق قد أخطأ في هذا الاختيار، وكان هذا الخطأ هو سبب هلاكه التام.

8 حول من وصلوا لمنصب الأمير بالخديعة

بما أنه لا تزال هناك طريقتان للوصول إلى الإمارة دون الحاجة لحسن الطالع أو استخدام القدرات، ولا ينبغي أن نهمل هاتين الطريقتين. إن إحدى الطريقتين يمكن مناقشتها بتعمق لو أننا نتحدث عن الجمهوريات. وهذا عندما يحصل فرد من علية القوم على مركز الإمارة باستخدام أساليب حقيرة ومشينة، أو عندما يصبح أحد المواطنين أميرًا على دولته التي يعيش فيها بناء على رضى من المواطنين. وعندما أتحدث عن هذه الطريقة ، سأعطي لسمو الأمير مثالين أحدهما قديم، والآخر حديث دونما توضيح لمميزاتهما، حيث إن مجرد ذكرهما سيكون كافيًا لمن يضطر لمحاكاتهما.

لم يبزغ نجم "أجاثوكل الصقلي" من بين علية القوم ليعتلي عرش "سراكوزا" بل إنه جاء من قاع أقل طبقات المجتمع. فهو ابن صانع فَخَّار، وقد عاش حياة بالغة التعاسة خلال فترات حياته المختلفة. وكان ذا جسد كبير وعقل مستنير ودهاء شديد. وعندما انضم إلي صفوف الجيش تدرج فيه بسرعة، ثم قرر أن يصبح أميرًا على "سراكوزا" بالقوة، دون انتظار لأي خطوات دستورية متبعة في الجمهورية آنذاك. فاتفق مع "هاميلكار القرطاجنى" الذي حارب معه في غزو "صقلية"، ثم استدعى مجلس الشيوخ في "سراكوزا" **كما لو كان سيشاورهم في أمر** من الأمور الهامة التي تتعلق بالجمهورية، **وأمر باغتيال جميع**

أعضاء مجلس الشيوخ، وجميع من حضر الاجتماع من علية القوم والأعيان. ثم نصّب نفسه أميرًا بعد قتلهم دونما أي عصيان مدني. ورغم أنه تعرض للغزو والحصار مرتين من جيوش "قرطاجنة"، إلا أنه استطاع الدفاع عن المدينة، كما أنه استطاع أيضًا أن يغزو بجزء من جيشه بلادًا في شمال إفريقيا. ثم يعود منها بجنوده ليرفع الحصار عن "سراكوزا". كما أنه أوصل "القرطاجنيين" إلى وضع محرج جدًا جعلهم مضطرين إلى التحالف معه تاركين له حكم صقلية. وعندما نتناول أعمال هذا الرجل وصفته لن نجد فيها أي دور واضح لحسن الطالع. وذلك لأنه - وكما أسلفنا - لم يصل بفضل أي شخص ساعده ولكنه تدرج فقط في المناصب العسكرية، وواجه آلاف الصعوبات والمخاطر إلى أن وصل إلى منصب الأمير الذي حافظ عليه فيما بعد بشجاعة وتضحيات كثيرة. لكن قتل المواطنين لا يعتبر من الفضائل، كما أن التغرير بالأصدقاء ، وفقدان العقيدة، والرحمة، والدين يمكن أن تصل بنا إلى القوة وليس إلى المجد. وإذا كانت فضائل "أجاثوكل" المتمثلة في شجاعته في مواجهة الأخطار وعظمته عند مواجهة المشكلات ترفعه إلى مصاف القادة الناجحين، فإن قسوته وبربريته وانعدام الإنسانية عنده وأعماله الوحشية التي لا تحصى لا ترفعه إلى مصاف المشاهير، ولا نستطيع أن نقول: إنه قد وصل إلى ما وصل إليه بالفضائل، أو بحسن الطالع.

وفي عصرنا الحالي، وعند تنصيب البابا "الإسكندر السادس" ، كان "أولفرتو دافرمو" طفلا صغيرًا يتيمًا في رعاية خاله "جيوفاني فوجلياني"، وقد رعاه خاله ورباه، ثم أرسله في ريعان شبابه ليعمل كجندي ضمن قوات "باولو فيتلي" وذلك كي يتمكن - بعد حصوله على التدريب المناسب - من الوصول إلى رتبة عسكرية عالية. وبعد وفاة "باولو حارب "أولفرتو" تحت إمرة أخيه "فيتلوزو".وخلال فترة زمنية قصيرة وبسبب ذكائه الحاد ونشاطه الجسدي والعقلي أصبح أحد قادة القوات. لكنه كان يعتقد أنه من العبودية أن يعمل تحت إمرة آخرين فقرر أن يكون أميرًا على مسقط رأسه "فيرمو" وأن يحتلها بمساعدة أهلها الذين فضلوا العمل تحت إمرته من أجل تحرير مدينتهم، كما ساعده أيضًا "البنادقة" فكتب رسالة إلى خاله "جيوفاني فوجلياني" قال له فيها : إنه بعد أن تغرب سنوات عديدة عن مدينته يود العودة إليها لأنه يريد أن يراه ويرى المدينة، حتى يتمكن من تفحص أحوالها قدر الإمكان. ولأنه قد كافح من أجل الوصول إلى المجد، لذلك فإن مواطنيه يجب أن يعرفوا كيف أنه لم يضيع وقته هباء. لذلك فإنه سيصطحب معه مائة من الفرسان وهم من أتباعه وأصدقائه وطلب من خاله أن يعلن ذلك على الملأ حتى يستقبله

مواطنو "فيرمو" استقبالا يكرمه باعتباره أيضًا تلميذًا لهذا الخال. ولم يخفق الخال "جيوفاني" في عمله ما يلزم لاستقبال ابن أخته وفرسانه أعظم استقبال، فاستقبله أهالي "فيرمو" أعظم استقبال وآواه هو وفرسانه في بيته. وبعد أن مضت عدة أيام أعد فيها **خطة الخديعة** دعا "أولفرتو" **خاله "جيوفاني"** وكل علية القوم في "فيرمو" إلى مأدبة كبيرة. وبعد الطعام والشراب والتسلية المعتادة في مثل هذه المآدب، تطرق "أولفرتو" ببراعة شديدة للحديث عن عظمة البابا "الإسكندر" وابنه قيصر "بورجيا" وقد استجاب خاله والحضور للحديث. إلا أنه هب واقفًا وقال فجأة إن الحديث عن مثل هذه الأمور يجب أن يكون في مكان مناسب وانسحب إلى غرفة جانبية تبعه إليها خاله جيوفاني وجميع الحضور. وما أن جلسوا في مقاعدهم حتى **اندفع إليهم الجنود من أماكن اختفائهم وقتلوا الجميع بما فيهم "جيوفاني"**. وبعد هذه المذبحة ركب "أولفرتو" حصانه مع جنوده وسار عبر شوارع المدينة إلي قصر الحاكم وحاصره **وأجبره على تكوين حكومة نصَّب نفسه أميرًا عليها**. وكان جميع من قتلهم يستطيعون إفساد هذا الموقف لو ظلوا أحياء. كما أنه حصن نفسه بالجديد من الأنظمة سواء المدنية أو العسكرية بطريقة تجعله لا يأمن علي نفسه فقط خلال عام واحد يقضيه في مدينة "فيرمو"، ولكنه يصبح أيضًا مصدر خوف لجميع جيرانه. وقد كان من الصعب الإطاحة به لولا أن قيصر "بروجيا" قد خدعه عندما سيطر على الأورسيني وسنجاجليا حيث قبض عليه بعد عام واحد مما ارتكبه من فظائع. وأعدم هو و"فيتلوزو" الذي علمه الوحشية والتجبر.

وقد يتعجب البعض من أن أجاثوكل والآخرين من أمثاله يستطيعون البقاء في بلادهم لعدة سنوات بعد العديد من الجرائم الوحشية. ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد الأعداء من الخارج دون أن يثور عليهم رعاياهم، على الرغم من أن غيرهم لم يستطع الحفاظ على منصبه في وقت السلم وليس وقت الحرب. وأنا أعتقد أن ذلك سببه القدرة على استعراض القسوة بطريقة مناسبة. **فحسن** ارتكاب الجريمة القاسية **(إذا كان بإمكاننا استخدام كلمة "حُسن" عند الحديث عن النوايا الشريرة)** يمكن من جني الثمار فيما بعد. **أما عندما ترتكب هذه الفظائع بطريقة خاطئة فإنها تزيد من أعداد من يعارضوننا مع مرور الوقت، ولا تقضي عليهم.** ومن يستخدم هذه الطريقة الأولى مثل أجاثوكل يمكنهم علاج أخطائهم بطريقة ما. أما بالنسبة للآخرين الذين يستخدمون الطريقة الثانية فمن الصعب عليهم الحفاظ على أنفسهم واستمرارهم.

ومن الملاحظ إذن أنه عندما نستولي على ولاية ، فإنه يجب على المنتصر أن يخطط

لجميع جرائمه مرة واحدة حتى لا يضطر للعودة إليها في وقت آخر. وأن تكون له قدرة على اتخاذ تغييرات جديدة تؤكد للعامة الحرص على مصلحتهم ليكسبهم إلى صفه. ومن يفعل غير ذلك عن جبن أو بناء على نصيحة من حوله سيظل من المفروض عليه أن يقف وفي يده الخنجر، ولن يتمكن أبدًا من الاعتماد على رعاياه، لأنهم لن يثقوا به، بسبب كثرة مشكلاته وأخطائه. **وإذا كانت الأخطاء لابد من واقعة فيحسن أن تكون دفعة واحدة حتى تكون أقل تأثيرًا من واقعات متعددة تبقي آثارها. أما المزايا فيجب إعطاؤها للرعايا جرعة جرعة حتى يستمتعوا بها ويشعروا بفائدتها.** وقبل كل شيء لابد للأمير أن يعيش وسط رعيته بطريقة لا يؤثر فيها حدوث حادث له فيخرجه عما يخطط سواء كان حادثًا مؤلمًا أو حادثًا سعيدًا. ولذلك لأنك لا تكون في هذا الموقف موفقًا إذا استخدمت الشدة، وإن فعلت الخير لن تجني من ورائه أي فائدة ، لأنه سيؤخذ على أنه اضطرار وبلا أي فائدة.

9 حول الإمارات المدنية

ونصل الآن إلى الحالة التي يصبح فيها المواطن أميرًا بناء على رغبة أقرانه من المواطنين، وليس بالجريمة أو العنف الذي لا يحتمل ، وقد يسمي هذا النوع بالإمارة المدنية. وهو نوع لا يمكن الوصول إليه لا بحسن الطالع ، ولا بالقدرات، ولكنه يعتمد فقط على مكر يسانده حسن الطالع، وذلك لأن الإنسان يبلغ هذا المركز، إما برغبة من جموع الشعب، أو بتأييد من الطبقة الأرستقراطية، وهما جماعتان توجدان في كل مدينة أيًا كانت ، وهما متعارضتان بالطبع وهذا التعارض نتيجة لمحاولة عامة الشعب تحاشي تعسف الطبقة الأرستقراطية، ومحاولة هذه الطبقة أن تسيطر على الشعب وتبطش به. وينتج عن هاتين المصلحتين المتعارضتين في المدينة نتيجة واحدة من ثلاث نتائج: إما حكم مطلق أو حكم حر أو فوضي. حيث يتمكن الشعب أو الطبقة الأرستقراطية من تكوين الحكومة الأولى، والأمر يتوقف على ما يواتي من فرص لأي من الطرفين. فالنبلاء عندما يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحدًا منهم ليصبح أميرًا يمكنهم أن يحققوا مشروعاتهم في ظل سلطانه، ومن جهة أخرى يسعى الشعب إلى أن يرفع من بينه أميرًا حينما لا يستطيع مقاومة النبلاء. وهو أمير يصنعه الشعب ليحتمي بسلطته. ومن يصبح أميرًا بمساعدة النبلاء يعاني من مشكلات كبرى في سبيل الحفاظ

على سلطانه أكثر من الذي يرفعه الشعب. كما أنه سيجد حوله كثيرين يعتبرون أنفسهم أندادًا له. ومن هنا فهو لا يستطيع قيادة الآخرين وتوجيههم كما يريد. أما من يرفعه الشعب إلى منصب الأمير، فإنه يجد نفسه متفردًا والجميع يسعى لخدمته عدا نفر قليل. كما أن المعاملة العادلة لن ترضي عنه طبقة النبلاء في حين أن نفس الأمر سيرضي عامة الشعب بسرعة . **فالعامة يرضون بالعدل بينما النبلاء يرغبون في التعسف والبطش.** وإضافة إلى ما سبق فإن الأمير لن يستطيع أن يتأكد من أن شعبه يكرهه لكثرة العدد. لكنه من الممكن أن يعرف ذلك في طبقة النبلاء لأنهم قلة. وأسوأ ما يمكن أن يحدث للأمير من شعب يكرهه هو أن يتخلى عنه، لكن النبلاء ينشطون لمقاومته عندما يعادونه، بالإضافة إلى تخليهم عنه. **ولما كان النبلاء بعيدي النظر أكثر من الشعب وأشد منه مكرًا فهم دائمًا قادرون على تخليص أنفسهم بالانضمام إلى من يتوقعون له الغلبة في الوقت المناسب.** والأمير مضطر للحياة بين أفراد الشعب دون حاجة للطبقة الأرستقراطية، فبإمكانه أن يوجدها، أو أن يقضي عليها في أي وقت وأن يحسن من مركزها في المجتمع، أو يجردها منه كما يحلو له.

وحتى أوضح هذا الأمر أكثر أقول: يجب علينا أن نتناول طبقة النبلاء بأسلوبين مختلفين، أي أنهم إما أن يحكموا بطريقة تجعلهم يعتمدون عليك تمامًا أو أن يتركوا. فإذا ما كانوا محكومين تمامًا، ولم يصبهم الجشع فيجب عليك أن تكرمهم وتحبهم. أما من يبتعد عنك، فيجب معاملته بإحدى الطريقتين: فإذا كانوا يفعلون ذلك إحجامًا وجبناً، فليس لك أن تخشاهم في الضراء، ومن الممكن أن تستفيد من أهل الرأي منهم خاصة، كما أنهم يشرفونك في السراء. أما أولئك المبتعدون عنك لغرض معين، فهذا يعني أنهم ذوو طموحات، وأنهم يفكرون في أنفسهم ولا يفكرون فيك. لذا يجب على الأمير أن يحترس منهم. وأن يعتبرهم أعداء غير ظاهرين يمكنهم المساهمة في سقوطه وقت الشدة.

ولهذا يجب على أي أمير يرفعه الشعب، وينصبه عليه أن يحافظ على محبته له مهما كلفه ذلك، وإن كان سيجده أمرًا سهلًا. لأن الشعب لا يريد شيئًا سوى العدل. أما من وصل إلى منصب الإمارة بمساعدة النبلاء وضد إرادة الشعب. فعليه أولًا أن يسعى لنيل رضى الشعب عنه. وهو أمر سهل المنال لو أنه دافع عن الشعب. ولما كان الناس لا ينسون فضل من لا يتوقعون منه إلا الشر، فإنهم سيميلون نحوه بسرعة وسينال تأييدهم أسرع مما لو كان قد ارتفع لمنصب الأمير بمساعدتهم له. ويستطيع الأمير أن ينال رضا شعبه بالعديد

من الطرق التي تختلف باختلاف الظروف. وهي لا تخضع لقاعدة ثابتة ولهذا فلن أتحدث عنها. ولا أستطيع سوى أن أقول: إنه يجب عليه أن يكسب صداقة الشعب، وإلا فلن يجد لنفسه ملاذا في حالة الخطر.

وقد صمد "نابيس" أمير "إسبرطة" لحصار بلاد اليونان جميعها، وجيش روماني مظفر، ودافع عن وطنه ضدهم. وصان بلاده ، وحين لاح الخطر اكتفى بأن تأكد من ولاء فئة قليلة، وما كان ذلك يكفيه لو أن شعبه يكرهه. ولا أظن أن أحدًا يمكنه أن يخالفني بناء على الحكمة التي تقول: "من يبني على الشعب يبني على الطين."وذلك لأن هذه الحكمة يمكن أن تطبق على الفرد العادي الذي يعتمد على الناس، ويقنع نفسه بأنهم سيخلصونه من بطش الأعداء به. ففي مثل هذه الحالة يجد الإنسان نفسه مخدوعًا مثلما حدث "لجراكي" في "روما" و"لجورجيو سكالي" في "فلورنسا". فالشعب لا يخدع أميرًا يدعم ولايته له بالشجاعة والاستبسال هو قوي القلب، ولا يتوانى عن الاستعداد بكل ما أوتي من قوة، فهو يستطيع أن يستنهض شعبه بعد أن يكون قد أحسن إرساء قواعد الولاية.

ولا يحيق الخطر بهذه الولايات إلا إذا تحول الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مستبد مطلق. والحكام المطلقون إما أنهم هم القادة ، أو أنهم يستخدمون ولاة لهم، ومركزهم في هذه الحالة الأخيرة يكون أكثر ضعفًا، وذلك لأنهم يكونون تحت رحمة من عينوهم من ولاة حيث يستطيعون تجريدهم من ملكهم. سواء عملوا ضدهم، أو خرجوا على طاعتهم، خاصة إذا حدث ذلك في وقت الشدة. وفي مثل هذه الحالات من الخطر لا يستطيع الأمير أن يفرض سلطانه المطلق، وذلك لأن المواطنين لن يستطيعوا طاعة أوامره في حالة الطوارئ وهم من ألفوا تلقي الأوامر من الولاة. وسوف يحتاج الأمير دائما في الظروف الصعبة إلى رجال يمكنه الاعتماد عليهم. لأن هذا الأمير لا يمكن أن يعتمد على ما يقطعه الموجودون حوله من رعية في وقت الهدوء والأمن، فالرعايا في حاجة إلى الإمارة، وهم مستعدون للإعلان أن حياتهم فداء للأمير، لأن الموت بعيد عنهم. ولكن في ساعة العسرة، وحين تحتاج الدولة إلى المواطنين، لن يجد الأمير منهم في ذلك الوقت إلا القليل. وهي تجربة شديدة الخطر، ولا يمكن أن تحدث إلا مرة واحدة. **وعلى ذلك فإن الأمير الحكيم يجب عليه أن يبحث عن وسائل تجعل رعاياه في حاجة مستمرة إلى حكومته، وحينئذ سيخلصون الولاء له دائما.**

10 كيف يجب قياس قوة كافة الإمارات؟

وهناك أمر آخر من الضروري أن نتناوله ، ونحن نبحث عن صفات الإمارات، وهذا الأمر قادر على أن يحمي نفسه بمفرده عند الحاجة أم أنه في حاجة لحماية غيره دائما. وأنا أعتبر أن الأمراء الذين يستطيعون حماية أنفسهم بمفردهم، هم من يستطيع منهم أن يجند جيشًا كافيًا بسبب وفرة المال والرجال، ولن يقهرهم أي مغير عليهم. أما الأمراء الذين هم في حاجة إلى أن يحميهم غيرهم، فلن يستطيعوا منازلة الأعداء في ميدان القتال، وهم يضطرون للانسحاب إلى داخل المدن للدفاع عنها. وقد ناقشت الحالة الأولى منذ وقت قصير. أما في الحالة الثانية فلا نجد شيئًا نقوله للأمير سوى أن نشجعه على أن يجمع المؤن. ويحافظ عليها، ويحسن استخدامها، وأن يحاول تحصين مدينته، ولا يشغل باله بما يحدث حولها في مدن أخرى أو قرى تابعة. وكلما تمكن من تحصين مدينته والإمساك بزمام الأمور فيها تحسَّب له عدوه وحذر منه، لأن المقاتلين يخشون دائمًا شن العمليات التي يعرفون مدى صعوبتها مقدمًا، وليس من السهل أبدًا أن نهاجم من تكون تحصيناته قوية لا سيما عندما يكون محبوبًا من شعبه.

والمدن الألمانية تستمتع بكامل حريتها وتحيط بها أراض وسهول ريفية ضيقة. وهي تطيع أمراءها طاعة كاملة عندما يستطيع ذلك. والمدينة الألمانية لا تخاف من أميرها ولا من نوابه، وتحصينها جيد جدًا لدرجة أن من يرى هذا التحصين يتأكد له أنه ليس هناك أفضل من ذلك. فحول كل مدينة يوجد خندق مائي وحصن ومدافع ضخمة، وكل مدينة ألمانية تحتفظ بطعام وشراب ووقود كاف للمدينة في مخازن عامة. إضافة إلى أن الألمان حتى يحافظوا على معنويات الشعب ورضاه يوفرون له الوظائف بأساليب عديدة وخاصة الوظائف الحيوية للمدينة ، ويمكن لأبناء الشعب التربح من تلك الوظائف لمدة عام. كما أن التدريبات العسكرية مستمرة طوال العام، ولها شهرة واسعة، وهي دائمة الابتكار والتجديد فيما يخص الحفاظ على المدينة.

ومن هذا يتضح أن الأمير الذي يعيش في مدينة قوية ويحبه شعبه لا يمكن أن يُهاجم، ولو هوجم فإن من يهاجمه سيضطر إلى الانسحاب، وهو يجر أذيال الخيبة والعار. ولأن عالمنا سريع التغير، فإنه من المستحيل على أي قائد أن يستمر في حصار مدينة ما لمدة عام،

وقد نجد من يحتج عليّ بأن الشعب لن يصبر حين يرى العدو وهو يحيط بالمدينة ويشعل النار فيما حولها من أملاكهم الخاصة، وأن طول الحصار، وتعرضه للمصالح الخاصة للشعب سينسيه أميره. وأرد عليه بأن ذلك **الأمير القوي الشجاع عادة ما يتغلب على هذه الصعاب مرة بأن يملأ القلوب بالأمل، ومرة بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو ومرة ثالثة بأن يتأكد من قدرات أولئك الذين يظهرون جرأتهم الزائدة أمامه.** إضافة إلى أن العدو عندما يأتي إلى مدينة بطبيعة الحال يشعل النيران فيما حولها بمجرد وصوله في وقت تكون النفوس فيه لا تزال على حميتها وتتطلع للدفاع عن نفسها، أما عندما تفتر الحمية ، ويكون الدمار قد وقع فعلًا. وابتلينا بالشرور التي ليس لها علاج ، يصبح الجميع في ذلك الوقت أكثر استعدادًا للاتحاد مع أميرهم الذي يصبح مدينًا لهم بالمعروف فقد أحرقت ديارهم وخربت أملاكهم أثناء الدفاع عنها.

ومن طبيعة الإنسان أن يرتبط بمن يقدم له نعمًا وينعم بها عليه.وبناء علي ذلك فإن الأمير الحكيم الذي ينظر إلى كافة الأمور بعين قادرة على حسن التقدير لن يكون من الصعب عليه أن يرفع من روح مواطنيه عندما يبدأ الحصار وفي أثنائه لو كان يملك ما يكفي من مئونة وسلاح.

الإمارات الكنسية

لم يبق أمامنا الآن سوي أن نتحدث عن الإمارات الكنسية، حيث تقع غالب صعوباتها قبل الحصول عليها .حيث يتم الحصول عليها بالقدرات الخاصة أو بطريق الصدفة، لكن المحافظة عليها لا تحتاج لكلا الأمرين، وذلك لأنها محكومة بعادات دينية قديمة. وهي عادات قوية وقادرة على أن تجعلها تحتفظ بأمرائها ماداموا قادرين على الحياة ومواصلة الحكم. وهو الصنف الوحيد من الأمراء الذين يحكمون ولاياتهم ولا يدافعون عنها، ولهم رعايا لا يهتمون بهم، وعلى الرغم من أنهم لا يدافعون عن ولاياتهم فإنهم لا يفقدونها، ولا يستاء منهم رعاياهم بالرغم من إهمالهم لهم. ولا يخطر في بالهم الانفصال عنها ولا يستطيعون ذلك. ولذلك فهي الإمارات الوحيدة الآمنة والسعيدة. ولكن لأنها محكومة بالقيم العالية التي لا يستطيع العقل البشري إدراكها ، فإني سأمتنع عن الحديث عنها لأن الله هو من يحميها ويحافظ عليها، فمن الحماقة والوقاحة أن نتحدث عنها. وعلى أي حال

قد يتساءل البعض عن كيفية تمكن الكنيسة من تحقيق هذه المكانة الزمنية القوية في حين أن كل من سبق الإسكندر السادس في إيطاليا مهما كان شأنه ـ وليس الأقوياء منهم فقط ـ وذلك سواء كان "بارون" أو من السادة والنبلاء ، لم يقدروها حق قدرها، بينما يخشاها الآن ملك فرنسا الذي كانت الكنيسة قادرة على طرده من إيطاليا، كما كانت قادرة أيضًا على تحطيم قدرات البنادقة. ولذلك وعلى الرغم من أن هذا أمر معروف إلا أنني لا أجد غضاضة في تأكيده مرة أخرى.

وقبل أن يأتي "تشارلز" ملك فرنسا إلى إيطاليا، كانت هذه الدولة تحت حكم البابا، والبنادقة وملك نابولي ودوق ميلان والفلورنسيين.وكان على الجميع أن يضع نصب عينيه أمرين مهمين ورئيسيين، أولهما: أن لا يدخل إيطاليا أجنبي بقوة السلاح، والآخر هو ألا توسع حكومة من الحكومات الراهنة أملاكها. وكان الأمر يتطلب عناية خاصة بالبابا والبنادقة. حيث إن كبح جماح البنادقة يتطلب اتحاد جميع الباقين كما حدث عند الدفاع عن "فريرا" كما أن مواجهة البابا تطلبت الاستعانة بالبارونات الرومان وكانوا منقسمين إلي حزبين هما "الأورسيني والكولونا". وكانت هناك مشاحنات مستمرة بينهما وكانوا دائمًا يحملون السلام على مرأى من البابا، مما أضعف البابوية وجعلها غير ثابتة. وعلى الرغم من ظهور بابوات حازمين مثل "سكستس" من آن لآخر، إلا أنه لم يتمكن من التخلص من هذه المشكلات سواء بما لديه من قدرات أو بحسن طالعه. وكان سبب ذلك حياتهم القصيرة حيث خلال عشر سنوات التي يحياها البابا في منصبه في المتوسط فإنه قد ينجح بصعوبة في إضعاف أحد الحزبين، وليكن الكولونا مثلًا، ثم يأتي بابا آخر معاد للأورسيني فيسمح ذلك للكولونا بالازدهار مرة أخرى ولا يستطيع البابا التغلب عليهم مرة أخرى.

وقد جعل ذلك من قوة البابا الزمانية أنها لم تحظ إلا بقليل من الاحترام في إيطاليا. ثم جاء الإسكندر السادس الذي جعلنا نشهد له ودون جميع سابقيه، بأن البابا يمكنه أن يسود بالمال والقوة. وجعل الدوق "فالنتين" آلة في يده، كما أحسن استغلال الغزو الفرنسي، وفعل كل ما سبق لي شرحه من أعمال الدوق،وكان لكل ما فعله تأثير على إعلاء شأن الدوق، فورثت الكنيسة كل ما قام به بعد وفاة الدوق. ثم جاء البابا "يوليوس" حيث وجد الكنيسة قوية وتملك كل "رومانا" وقد تم القضاء على جميع بارونات الرومان، كما أن قوة الإسكندر كانت قد دمرت الأحزاب. كما أنه وجد الباب مفتوحًا لجمع الأموال بطرق لم تستخدم من قبل الإسكندر. وهو لم يكتف باستخدام تلك الطرق فقط بل زاد

عليها، وصمم على أن يكسب بولونيا ويقمع البنادقة ويطرد الفرنسيين خارج إيطاليا. وقد نجح في كل ما أراد، فاستحق الثناء الكبير وذلك لأنه فعل كل ما في وسعه للحفاظ على استمرار قوة الكنيسة وليس من أجل قوة أي شخص بصفة فردية. كما أنه أبقى أحزاب "الأورسيني والكولونا" في الحالة التي وجدهم عليها. وعلى الرغم أن هناك قادة من بينهم كان يمكنهم أن يحدثوا تغييرات إلا أن هناك شيئين قد حافظ على وضعهما الثابت وهما: الأول هو قوة الكنيسة التي أفزعتهم والثاني هو أنه لم يكن لهم كرادلة يخصونهم وهذا هو ما سبب الاضطرابات في صفوفهم . وهذه الأحزاب لا تهدأ أبدًا إذا كانت لديهم كرادلة، مما يثير الفتن داخل روما وخارجها، مما يدفع البارونات للدفاع عنهم. وهكذا تقوم الفتن والاضطرابات بين البارونات بسبب أطماع الأساقفة. ولذلك فقد أدرك قداسة البابا "ليو العاشر" ما للأسقفية من قوة كبيرة، ومن هنا طمح أن يصل بطيبته وفضائله التي لا تحصى إلى ما وصل إليه البابوات الآخرون من عظمة وجلال، ولكن بقوة السلاح.

12 حول الأنواع المختلفة للجندية وجنود المرتزقة

وبعد أن ناقشت صفات الولايات بالقدر الكافي، كما تناولت عوامل نجاحها أو سقوطها. وتناولت أيضًا الطرق التي حاول عن طريقها الكثيرون الحصول على مثل هذه الولايات. لا يبقى أمامي الآن سوى أن أتحدث عن وسائل الهجوم والدفاع التي يمكن أن تستخدم في كل ولاية. وقد سبق لي أن أكدت على أهمية وجود الدعائم القوية التي تساند الأمير. وإلا كان القضاء عليه مؤكدًا. وأهم دعائم كل الإمارات سواء كانت جديدة أم قديمة أم مختلطة هي وجود القوانين الجيدة والأسلحة الجيدة. ولا توجد قوانين جيدة دون وجود أسلحة جيدة، فحيثما توجد القوانين الجيدة توجد الأسلحة الجيدة أيضًا ، ولذلك لن أناقش الآن القوانين، وسأتحدث فقط عن الأسلحة.

وأنا أرى أي الأسلحة التي يدافع بها أمير عن ممتلكاته إما أن تكون أسلحته الخاصة، أو أسلحة لقوات مأجورة أو أسلحة حلفاء له أو مختلطة. وأسلحة المأجورين والحلفاء بلا فائدة وخطيرة، **وكل من يقيم دولته على أسلحة قوات مأجورة لن يستطيع التأكد من قوة وثبات ولايته. لأنها قوات مفككة ولها مطامعها الخاصة، وغير منظمة ولا عهد لها، وهي تبدو قوية أمام الأصدقاء، لكنها جبانة عند مواجهة الأعداء، وهي لا تخشى الله**

ولا تصون عهدها مع الناس، وسقوطها مرهون بتأجيل العدوان عليها. وهم ينهبونك في وقت السلم، وينهبك العدو في وقت الحرب. وسبب ذلك أنهم لا يجدون دافعًا يدفعهم للبقاء في الميدان سوى الأجور الزهيدة التي لا تجعلهم على استعداد للموت من أجلك. فهم مستعدون لأن يكونوا جنودك طالما أنك لن تقوم بحرب ، ولكن عندما تبدأ الحرب، فإما أن يفروا أو أن يرحلوا معا. وأنا لست بحاجة لأن أبذل مجهودًا كي أثبت ذلك، فخراب إيطاليا لم يحدث إلا بسبب الاعتماد لسنوات عديدة على القوات المرتزقة. وإن كان بعضهم قد ساعد بعض الأمراء على بلوغ السلطة، وقد ظهروا شجعانًا وأقوياء حين كان التنافس بين بعضهم البعض، إلا أنهم لم يكونوا كذلك حينما جاءهم الأجنبي، مما أتاح للملك "تشارلز" ملك فرنسا أن يستولي على إيطاليا بأقل جهد ممكن. إن من يعلل خراب إيطاليا بسبب الخطايا مُحِقّ ، لكنها ليست خطايانا كما يقولون، وإنما هي خطايا الأمراء التي تحدثت عنها، فنالوا هم أيضا العقاب.

وسأشرح بالتفصيل عيوب هذه القوات المسلحة المرتزقة، حيث إن الضباط المرتزقة إما أن يكونوا ذوي كفاءة أو غير أكفاء . فإذا كانوا أكفاء فإنه لا يمكن الاعتماد عليهم، لأنهم يثبتون لأنفسهم أنهم عظماء إما بابتزازك وأنت سيدهم أو بالضغط على غيرك لما هو في غير صالحك. أما إذا كان الضابط غير كفء فإنه يدمرك تمامًا. وقد يرد على إنسان بقوله: إن ذلك ممكن حدوثه سواء كانت القوات من المرتزقة أو من غيرها. وأنا أرد عليه بقولي: إن القوات يستخدمها أمير أو حاكم الجمهورية . وعلى الأمير أن يتوجه بنفسه إلى موقع القائد، وعلى الجمهورية أن ترسل مواطنيها لهذا الغرض. فإذا اتضح عجز من أرسل فيجب على الجمهورية أن تغيره. أما إذا كان قديرًا فإنها يجب أن تمنعه من تخطى الحدود المرسومة له بحكم القانون. وتشير التجارب إلى أن الأمراء المسلحين والجمهوريات المسلحة هم فقط القادرون على تحقيق تقدم ملموس في حين لا تقدم القوات المرتزقة أي شيء سوى المضرة. كما أن الجمهورية المسلحة لا تخضع لحكم مواطن من أبنائها بسهولة كما يحدث في جمهورية مسلحة بقوات أجنبية.

وقد كانت "روما" و"إسبرطة" مسلحتين جيدًا وأحرارًا لقرون طويلة. كما كان السويسريون مسلحين جيدًا ونعموا بالحرية التامة. ولدينا مثال من العصور القديمة للجنود المرتزقة وهم القرطاجنيون الذين بطش بهم جنودهم المأجورون بعد انتهاء أول حرب لهم مع الرومانيين، وذلك في حين أن القيادة كانت ما تزال لأبناء قرطاجنة. كما أن أهل طيبة قد "جعلوا فيليب" المقدوني قائدًا لقواتهم بعد موت "ابامينوداس". وقد

جردهم من حريتهم بعد أن تم له النصر وقد أستأجر أهل ميلانو "فرانشسكو سفورتسا" لمحاربة البنادقة عندما مات الدوق فيليب. وعندما تغلب على البنادقة في معركة "كارافاجو" تحالف معهم ليقمع أهل ميلانو، وهم من كان يعمل في خدمتهم، وقد عمل أبوه في خدمة "جويفانا" ملكة نابولي، ثم تركها فجأة وهي بدون سلاح مما اضطرها لأن ترتمي في أحضان ملك "الأرجون" حتى لا تفقد مملكتها. وإذا كان البنادقة والفلورنسيون قد وسعوا مملكاتهم فيما مضى باستخدام القوات المرتزقة، ولم يحدث أن ولى القادة أنفسهم كأمراء بل استمروا في ولائهم ودفاعهم عن الأمراء، وأنا أرى أن الصدفة قد خدمت الفلورنسيين في تلك الحالة، حيث لم ينقلب عليهم القادة ذوو الكفاءة، ولقي بعضهم الآخر معارضة، بينما وجهت مجموعة ثالثة مطامعها إلى وجهة أخرى. إن من لم يقم بالانقلاب هو السير "جون هوكوود"، ونحن لا نستطيع الحكم على ولائه مادام لم يحقق نصرًا. والجميع يعرف أنه لو حقق نصرًا فربما وقعت "فلورنسا" تحت رحمته. كما أن "البراتشسكي" و"سفورتسا الأب" ضد بعضهم البعض على الدوام فكانوا عقبات دائمة أمام بعضهم البعض، فوجه "سفورتسا" أطماعه إلى لومارديا، بينما توجه "براتشو" بأطماعه إلى الكنيسة ومملكة "نابولي".

ولنتناول ما حدث منذ فترة وجيزة حين نصب الفلورنسيون "باولو فيتللي" قائدًا عليهم، وهو رجل حكيم جدًا ارتفع إلي أعلى المراتب بعدما كان يشغل منصبًا عاديا. ولا يمكن أن ننكر أنه لو تمكن من الاستيلاء على "بيزا" لوجب على "فلورنسا" أن تحافظ على صداقته وتهتم بذلك بشدة. وذلك لأنه لو حارب في صفوف أعدائهم، فلن يجدوا سبيلًا لمقاومته. ولو كانوا قد احتفظوا به لكان عليهم أن يطيعوه. أما بالنسبة "للبنادقة" فإذا تناولنا ما حققوه من تقدم، فسنجد أنهم قد نجحوا وحققوا مجدًا طالما اعتمدوا على قواتهم الخاصة، كما أنهم حاربوا ببسالة وشجاعة بالاعتماد على أبناء الطبقة الأرستقراطية وأبناء العامة حتى بدءوا حروبهم البرية وتخلوا عن هذه الميزة واتبعوا العادات الإيطالية. وعند بدايتهم لتوسعهم البري لم يكن عليهم أن يخافوا من قوادهم، فرقعة الأرض ليست كبيرة وصيتهم لم يكن ذائعًا . ومثلما حدث تحت قيادة "كارمينولا" . بعد أن اتسعت أملاكهم، وأدركوا خطأهم ، ورأوا فتور همته بعد أن هزم دوق ميلانو، رأوا ألا يقوموا بأي غزو جديد تحت إمرته فيما بعد . ولم تكن لديهم رغبة في طرده، ولا يستطيعون ذلك، خشية فقدان ما قد تمت السيطرة عليه، فاضطروا إلى إعدامه حتى تطوى صفحته. وعندئذ أصبح "بارتولوميو دابرجاموا وروبرت توداسان سفرينو والكونت

دي بتليانو" وأمثالهم قادة لهم، وكانوا يخشون أن يحققوا لهم الخسارة بدلًا من النصر، فخسروا في يوم واحد ما كسبوه بصعوبة شديدة في ثمانية قرون. كل ذلك بسبب أننا نستطيع أن نحقق بعض التوافه باستخدام القوات المرتزقة لسنين عديدة ، لكن ما تسببه من خسائر يأتي مفاجئًا وغريبًا. ولما تكرر ذلك في إيطاليا التي تحكمت فيها القوات المرتزقة لسنين طويلة، فسوف أبحث عن صورة أدق وأكثر تفصيلًا تمكننا من تناولها ودراسة أصولها وتطورها.

ولابد أن نعرف أن إيطاليا كانت في تلك السنوات الأخيرة مقسمة إلى ولايات صغيرة، عندما بدأت الإمبراطورية في التفكك بسرعة، وأخذ البابا يتمتع بنفوذ أوسع فيما يتعلق بأمور الدنيا.وثارت المدن الرئيسية الثلاث على أمرائها المقربين من الإمبراطور. وشجعت الكنيسة هذا الأمر حتى تزيد من سلطانها الزمني. وفي مدن أخرى كثيرة أصبح واحدًا من السكان أميرًا. وهكذا سقط غالب إيطاليا تمامًا في قبضة الكنيسة وبعض الجمهوريات القليلة. ولما كان القساوسة والمواطنون العاديون لا يستطيعون حمل السلاح. فإنهم قد أخذوا في استئجار جنود أجانب، وأول من استخدم هذا الأسلوب من الجندية هو "البرجيو دا كومو" من "رومانا"، حيث تربى كل من "براتشو" و"سوفورتسا" اللذين كانا صاحبي الكلمة الأولي في إيطاليا على أيدي المرتزقة. ثم تبعهم جميع قادة الجيوش في إيطاليا حتى اليوم. وكان من نجاحاتهم أن تغلب شارل على إيطاليا ثم افترسها لويس وطغى فيها "فرناندو" وبغى، وأهانها السويسريون. وكان أسلوب هؤلاء المرتزقة هو أن يزعزعوا الثقة في المشاة، حيث كان من السهل على أفراد الشعب أن ينتموا للمشاة، وكان المرتزقة دائمًا من الفرسان الذين لا وطن لهم ويعيشون على ما يكسبون، وكاد الأمر أن يقتصر تمامًا على الفرسان، فقليل منهم كان يضفي الهيبة ويخلع على الجيش الشرف والمهابة. وقد انحدرت الأمور إلى درجة أننا كنا نجد أن هناك ألفين فقط من المشاة في جيش تعداده عشرون ألف جندي. وقد أرسى المرتزقة كل القواعد والتقاليد التي تخلصهم من أي مشقة أو خوف وتقلل من المخاطر التي قد يتعرضون إليها حفاظا على أرواحهم وأرواح جنودهم. من أمثلة ذلك أنهم كانوا يأسرون الأسرى دون أن يطلبوا عنهم فدية. ولا يهاجمون التحصينات العسكرية ليلاً، ولم يحفروا الخنادق حول معسكراتهم ولم يحاربوا في الشتاء ولم يضعوا المتاريس. لقد أجازت قوانينهم العسكرية لهم كل ذلك، وكان قانونًا مبتكرًا يحاول أن يجنبهم المخاطر والمتاعب، فانحدروا بإيطاليا إلى غياهب العبودية ونزلوا بها إلى الحضيض.

13 حول القوات المعاونة والمختلطة والوطنية

عندما يطلب أحدهم من جاره أن يأتي للدفاع عنه بقواته، فهذه القوات تسمى قوات معاونة، وهي عديمة النفع مثل القوات المرتزقة، وقد حدث ذلك في العصر الحديث عندما لاحظ "جوليوس" إخفاق قواته المرتزقة في غزو "فيريرا"، فلجأ إلى استخدام القوات المعاونة واتفق مع "فرناندو" ملك أسبانيا على أن يساعده بقواته. وقد تكون هذه القوات جيدة في حد ذاتها، لكنها دائمًا مصدر خطر لمن يستعيرها. لأنها إذا خسرت المعركة فإنك تكون قد هزمت أما إذا كسبتها فإنك ستبقى أسيرًا لتلك القوات. وعلى الرغم من أن التاريخ القديم مليء بالكثير من هذه الأمثلة فإني لن أترك هذا المثال وهو مثال البابا"جوليوس الثاني" لأنه مثال حديث حي في الأذهان. وليس هناك سياسة خرقاء قليلة الحكمة مثل السياسة التى اتبعها. وذلك لأنه بسبب رغبته في السيطرة على "فريرا" قد وضع نفسه بالكامل تحت سيطرة الأجنبي. ولكن لحسن الحظ ظهرت قوة ثالثة ساعدت على منعه من جني الثمار المرة لسياسته الفاسدة. وذلك لأنه عندما هزمت قواته المعاونة في "رافينا" نهض السويسريون وردوا المنتصر، وذلك دون توقع منه أو من الآخرين، ونجا بذلك من أن يقع في أسر عدوه الذي هرب بالفعل، ولا في أسر قواته المعاونة لأنها هزمت على يد قوات جهة ثالثة. كما أن الفلورنسيين الذين كانوا بلا سلاح بالمرة قد استأجروا عشرة آلاف جندي فرنسي للهجوم على "بيزا"، وهذا يعتبر مخاطرة كبرى لم يمروا بها من قبل خلال سنوات كفاحهم، وحشد إمبراطور القسطنطينية عشرة آلاف تركي في اليونان لمواجهة جيرانه، لكنهم لم يرحلوا بعد الحرب ، وكانت هذه هي بداية لمرحلة استعباد لليونانيين من جانب من جاءوا لمناصرتهم.

إذن على من لا يريد أن ينتصر أن يعتمد على هذه القوات المعاونة التي تزيد خطورتها قليلا على خطورة القوات المرتزقة. فبوجودهم سيكون الخراب شاملًا، وذلك لأنهم متحدون دائمًا ، وولاؤهم للآخرين وليس لك. بينما تحتاج القوات المرتزقة إلي وقت وفرصة مناسبة حتى تتمكن من الإضرار بك، وذلك لأنها لا تشكل تكوينًا واحدًا ولأنها تستلم رواتبها منك ومرتبطة بك. وعلى ذلك فإذا جعلت طرفًا ثالثا هو القائد فإنه لن

يستطيع بسرعة أن يتمكن من الحصول على المكانة التي تؤهله لأن يضر مصالحك. وخلاصة القول هو : أن قصارى الخطر المتمثل في القوات المرتزقة يكمن في جبنها وتخاذلها عن القتال، لكن القوات المعاونة خطورتها تنبع من شجاعتها.

والأمير المحنك إذن يتجنب دائمًا هذين النوعين من القوات وله مصادره الخاصة للقوات، وهو يفضل الهزيمة على يد قواته الخاصة عن النصر على يد قوات الآخرين، فهو لا يعتقد أن هذا الذي تحققه القوات الأجنبية سيكون نصرًا حقيقيًا. وأنا لا أتردد في أن أذكر مثال قيصر "بورجيا" وأعماله. فهذا الدوق دخل إلى "رومانا" بقوات معاونة وقاد قوات تتكون بالكامل من جنود فرنسيين تمكن بهم من السيطرة على "أيمول" وفورلي، ولكنه لم يأمن جانبها فلجأ إلي القوات المرتزقة لتجنب المزيد من الخطر، فاستأجر "الأورسيني والفيتلي"، ثم اكتشف بعد ذلك عدم قدرته على الثقة فيهما بعد أن جربهما، وتأكد من أنهما غير مخلصين وخطيرين، فبطش بهما واعتمد على جنوده فقط مما زاد من شعبيته زيادة مستمرة، ولم يصل إلى مثل هذه الشعبية الكبيرة التي وصل إليها إلا عندما لاحظ الجميع أنه الآمر الوحيد لقواته.

ولا أريد أن أترك الأمثلة الحديثة من تاريخ إيطاليا، وأريد الآن أن أتحدث عن "هيرو" سيراكوزا وقد سبق لي ذكره. هذا الرجل وبمجرد أن جعله السيراكوزيين على رأس الجيش. كما سبق أن قلت. لاحظ عدم فائدة الجيش المنظم على طريقة قواتنا الإيطالية المأجورة، ولما رأي أن الخلاص منهم أو الاحتفاظ بهم أمر غير مأمون. فقد قطع أوصال هذا الجيش وقسمه إلى أجزاء صغيرة. واعتمد منذ ذلك الوقت على قوات خاصة وليس على قوات الآخرين. كما أنني سأستشهد أيضًا بقصة رمزية من العهد القديم، وهي توضح هذه النقطة بدقة. فعندما عرض داود نفسه على "شاؤول" لكي يذهب وينازل "جوليات" بطل فلسطين. فسلحه "شاؤول بسلاحه الشخصي كي يشجعه على القتال. لكن داود بعد أن جرب السلاح بنفسه رفضه قائلا: إنه يستطيع استخدامه بطريقة جيدة، ولذلك فقد فضل أن يواجه عدوه بمقلاعه وخنجره. وباختصار فإن استخدام أسلحة الآخرين غير مجد وقد تعوقك، أو تشل حركتك أو تشكل عبئًا عليك. إن الملك "تشارلز" السابع أبو الملك لويس السادس قد اعتقد أن حسن الطالع والشجاعة كانا السبب في تحرير فرنسا من الإنجليز، وقد لاحظ ضرورة التسلح باستخدام قواته الخاصة وأسس نظامًا في مملكته يعتمد على رجال يحملون السلاح وعلى كتائب المشاة. وفيما بعد ألغى ابنه الملك لويس كتائب المشاة واستأجر جنودًا سويسريين، وكان هذا هو الخطأ الذي تبعته أخطاء أخرى

أدت إلي تعرضه للخطر كما هو واضح الآن. وذلك لأنه باعتماده على السويسريين ومنحهم هذه السمعة أحبطت فرنسا معنويات كل قواتها الخاصة، فقد تم إلغاء المشاة واضطر الباقي من القوات إلى العمل مع الأجانب لكسب تعاونهم. ثم تعودوا على الحرب مع القوات السويسرية، وظنوا أنهم لا يمكنهم النصر بدونهم. وأصبح الفرنسيون في وضع لا يمكنهم من القضاء على السويسريين، ولا يمكنهم من مواجهة الآخرين دون الاعتماد عليهم .وبذلك أصبحت القوات الفرنسية من النوع المختلط، جزء منها من المرتزقة، وجزء من القوات الوطنية. وإذا ما تناولناها بصفة عامة سنجدها أفضل كثيرًا من المكونة بالكامل من المرتزقة أو من القوات المعاونة لكنها بالطبع أقل من القوات الوطنية.

ولعل هذا المثال كاف في حد ذاته، لأن فرنسا كانت ستظل منيعة لو حاولت الإبقاء على نظام "تشارلز" العسكري أو تطويره. لكن الرجال الذين يفتقدون الحكمة عندما يبدءون أمرًا جديدًا يجنون ثماره الطيبة لا ينتبهون إلى السم الموجود بداخله، وذلك يشابه ما أشرت إليه سابقًا.

ولذا فالأمير الذي يخفق في أن يلاحظ مشكلات إمارته في مهدها لا يمكن وصفه إلا بأنه غير حكيم، فالحكمة توهب للقليلين فقط. وإذا ما نظرنا أسباب الانهيار الأول للإمبراطورية الرومانية فسنجد أنه كان بسبب استئجار قوات مرتزقة من "الغوت"، لأنه منذ ذلك الوقت بدأت القوات الرومانية في الضعف وسقطت عن الإمبراطورية جميع مزاياها وذهبت إلى "الغوت".

ولذلك فإني أنهي حديثي بالتأكيد على أنه لا سلامة لأمير يحتمي بقوات مسلحة غير قواته الوطنية. فبدون قواته المسلحة الوطنية يتوقف مصيره على حسن الطالع فقط، وسيظل بلا وسيلة يملك بها الدفاع عن نفسه حين تضطرب الأحوال. لقد قال الحكماء: "لا يوجد ما يزعزع عند البشر أكثر من ولايات تدعمها الشهرة ولا تدعمها قواتها الوطنية." وقوات الأمير الوطنية تتكون إما من الرعايا أو من المواطنين، أو من أتباعه هو، وأي قوات أخرى غير هؤلاء هي إما أجير مرتزق أو من القوات المعاونة. ومن السهل أن نعرف كيفية إدارة القائد للجيوش الوطنية لو أننا درسنا طرق الأمراء الأربعة الذين ذكرتهم ، وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي نظم بها فيليب ـ أبو الإسكندر الأكبر ـ وكثير من الحكام والجمهوريات قواتهم. وبعد هذه الأمثلة لا توجد حاجة لتناول الموضوع بالتفصيل.

14 واجبات الأمير فيما يتعلق بالقوات المسلحة

ينبغي للأمير ألا تكون له غاية أو فكرة سوى الحرب، ونظامها وطرق تنظيمها، وألا يتخذ لدراسته موضوعًا آخر سواها. فهذا هو الفن الوحيد اللازم لمن يتولى القيادة. فهو فن له من المزايا ما يكفي للمحافظة على هؤلاء الذين ولدوا أمراء والإبقاء عليهم في مناصبهم. كما أنه يساعد الرجال العائدين على بلوغ مرتبة الإمارة. ومن ناحية أخرى يمكننا أن نرى أن الأمراء يفقدون ولاياتهم عندما يفكرون في مظاهر الترف أكثر من تفكيرهم في الأسلحة. والسبب الأول لضياع الولايات هو إهمال هذا الفن. فهي تكتسب عن طريق إجادة هذا الفن.

وقد توصل "فرانشسكو سفورتسا" بحسن تسلحه إلى أن أصبح دوق ميلانو، وقد كان فيما قبل فردًا عاديًا. وقد انحدر أبناؤه إلي أن أصبحوا أشخاصًا عاديين بعد أن كانوا أمراء، وذلك لابتعادهم عن متاعب الحروب ومشقتها. وذلك لأن من بين عيوب عدم التسلح الجيد هو أن الفرد يصبح بلا قيمة، وهذا أمر لابد على الأمير أن يتجنبه. وهذا ما سنشرحه فيما بعد. فشتان ما بين رجل مسلح ورجَل أعزل، ومهما كان الأمر فلن نرى رجلًا مسلحًا يطيع رجلًا أعزل، وهو بكامل إرادته ، ولن نرى أعزل سالمًا بين أتباعه المسلحين. فمن المستحيل أن يعمل الاثنان معًا في سلام، لأن أحدهما محتقر والآخر كثير الشك. ولهذا فمن المستحيل أن يحترم الجنود أميرهم الذي يجهل الشئون الحربية، أو أن يكونوا محل ثقته، فضلًا عن المشكلات الأخرى التي ذكرتها قبل قليل.

ولذلك لابد للأمير ألا ينسى التدريب العسكري، فهو يتدرب في وقت السلم أكثر مما يفعل في وقت الحرب، وهذا ممكن تطبيقه بطريقتين إحداهما عملية والأخرى نظرية. ومن الناحية العملية، يجب عليه بجانب تنظيمه لقواته وتدريبه لهم أن يشغل نفسه بالصيد باستمرار، فهذا أمر يعوّد جسده على المشقة والتعب، كما أنه يجعله يدرس طبيعة البلاد في نفس الوقت، فهذه منحدرات الجبال وهنا تنفرج الوديان. وهناك مواقع السيول، ويفهم طبيعة المستنقعات والأنهار، وعليه أن يلم بجميع هذه الأمور إلمامًا تامًا. ولهذا العلم فوائد من ناحيتين. أولهما أن الإنسان يعرف عن بلاده كل شيء مما يتيح له أن يدافع عنها بصورة أفضل، كما أن معرفته لطبيعة إقليم بلاده توصله إلى طبيعة أقاليم أخرى. والأمير

الذي لا يملك هذه الصفات يفتقد أول ضروريات القائد. فهذه المعارف تعلمه كيف يلقى عدوه، وكيف يقيم المعسكرات؟ وأين يقيمها؟ وكيف يضع الخطط للمعارك؟ وكيف يحاصر المدن ويظفر بها؟

ومن بين الصفات الحميدة التي وصف بها الكُتاب "فيلوبومين" أمير "الآخيليين" من بين أمراء آخرين، هي أن قالوا عنه: إنه لم يكن يفكر وقت السلام سوى في الشئون العسكرية. وكثيرًا ما كان يقف بين أصحابه خارج المدينة ويسألهم: إذا كان العدو فوق هذا التل، ووجدنا أنفسنا هنا مع قواتنا، فأي منا ذو وضع مميز؟ وكيف يمكننا الاقتراب من العدو مع الحفاظ على نظامنا؟ وإذا أردنا الانسحاب.. ماذا يجب أن نفعل؟ وإذا انسحب العدو فكيف يمكننا أن نتبعه؟ ثم كان يحدثهم أثناء السير عن كل الاحتمالات التي يمكن أن تحدث للجيش وكان يستمع لآرائهم ويعطيهم رأيه ويؤكده بالبراهين. لذلك فهو لم يتعرض لأي حادث لم يكن يتوقعه أثناء قيادته للجيوش وذلك بفضل هذه المناقشات الدائمة.

أما فيما يخص تدريب العقل فإن على الأمير أن يقرأ تاريخه، ويدرس أعمال عظام الرجال، ليرى كيف كانوا يتصرفون في الحروب، ويدرس أسباب انتصاراتهم ومسببات هزائمهم، حتى يستطيع أن يسير على درب المظفرين ويتحاشى أن يلقى هزيمة تماثل هزائم المقهورين منهم. وقبل كل شيء يجب عليه أن يسير على درب عظماء الماضي، الذين كانوا يتخذون هم بدورهم من العظماء الذين سبقوهم قدوة لهم. فيقال إن الإسكندر الأكبر قد قلد أعمال "أخيلس" واقتدى "اسكيبيو" بكورش. كما أن كل من يقرأ حياة "كورش" التي سجلها "اكسينوفون" سيتضح له كيف أن "سكيبيو" قد اقتدى "بكورش" في حياته وقلده بشدة، فتحلى بصفاته من طهر ورقة وعظيم صفات، وكرم.

وعلى الأمير الحكيم أن ينهج هذا النهج ولا يخلد في زمن السلم إلي الكسل أبدًا. وأن يصر على الاستفادة من هذه الطريقة بمهارة قدر الإمكان. حتى أنه يستطيع أن يكون مستعدًا لضربات القدر حين تتغير الأحوال، وأن تكون له السيادة وقت الشدائد.

15 ما يلام عليه الرجال - وبخاصة الأمراء - أو يمدحون لأجله

ولم يبق الآن سوى أن ننظر فيما يخص طريقة الأمير في اختيار رعاياه وأصحابه. وأنا أعلم أن هناك الكثير ممن سبقوني للكتابة في هذا الموضوع وأخشى أن يعتبر ما أكتبه نوعًا من الغرور حين يختلف عما كتبه الآخرون. لكني لا أود إلا الوصول إلى الحقيقة وليس تخيلها وأن الأصح هو أن تكتب ما يفيد الآخرين وليس ما نتخيله. فقد تخيل الكثيرون جمهوريات لم ترها عين إنسان أو تخطر على ذهن آخرين غيرهم. وليس لها وجود في الحياة التي نحياها. وشتان بين حياتنا كما نحياها، وبين ما ينبغي أن تكون. ولا يجب علينا أن نترك ما نقوم به من أفعال في سبيل تحقق ما ينبغي تحقيقه على أتم وجه فهذا سعي للفناء وليس للبقاء في أفضل حال. فمن يريد الخير لن ينعم أبدًا إذا كان حوله الكثير من الأشرار. لذلك يجب على الأمير الذي يريد الحفاظ على نفسه أولًا، أن يعرف كيف يكون خيرًا وليس شريرًا ومتى يستخدم هذه الصفة؟ ومتى لا يستخدمها حسب الضرورة.

لهذا فإنني حين أتخلى عن الحديث في الأمور التي تخص الأمير من ناحية الخيال فقط. وأتكلم عن الأمور الواقعية. فكل الناس يذكرون لأعمالهم المجيدة، وخاصة الأمراء حيث إنهم أعلى منزلة من غيرهم. وهناك خصال معينة تجلب عليهم اللوم، وأخرى تُكسبهم المديح والثناء. فالناس يعتبرون هذا سخيًا وذاك مقترًا، وهذا معطاء يعطي بسخاء، وذلك جشع. هذا قاس، وذاك عطوف. هذا لا يصون وعوده وهذا جدير بالثقة، هذا جبان رعديد، وذاك مقدام وعنيف، هذا رقيق وذاك متغطرس، هذا فاسق، وذاك عفيف. هذا صريح وذاك ماكر، هذا صعب المراس وذلك سهل الانقياد. هذا جاد جدًا في كل أموره، وذاك ساخر، وهذا متدين، والآخر غير ملتزم بأمور دينه. وغيرها من أمثلة. ومن الواضح أن كل أمير يتصف بكل الصفات الخيرة السابقة سينال ثناء كبيرًا من الناس. ولكن، لما كان من غير الممكن أن يحوز كل هذه الصفات، وذلك لأن صفات البشر لا تسمح بذلك **كان من الضروري بالنسبة له أن يكون ذا حكمة كافية، تمكنه من تحاشي أي فضيحة بسبب رذيلة من الرذائل**، والتي قد تفقده الولاية ويقي نفسه من شرور الصفات الأخرى.

وإذا لم يستطع ذلك فعليه أن يهمل تمامًا هذه الرذائل، ويحترس جدًا فقط من تلك التي قد تسبب هلاكه. ويجب عليه ألا يعبأ بفضح تلك الرذائل التي يصعب بدونها المحافظة على الولاية. وذلك لأننا إذا نظرنا للأمور نظرة صحيحة لوجدنا أن بعض ما يبدو من الفضائل قد يهلكنا لو طبقناه، والبعض الآخر الذي يبدو من الرذائل قد يسبب سلامة الإنسان وسعادته.

16 حول السخاء والشح

والآن إذا تناولنا أولى هاتين الصفتين فإنني أقول: من الأفضل للأمير أن يكون كريمًا سخيًا إذ أن السخاء بمعناه عند العامة قد يؤذي صاحبه. وذلك لأنه إذا استخدم الكرم بالطريقة الصحيحة وبمعناه الحقيقي، فلن يعلم أحد عنه أي شيء، وبالتالي يوصم صاحبه بالرذيلة المضادة وهي الشح والتقتير. لكن على من يريد أن يشتهر بالسخاء بين الناس أن يتخلى عن كل المظاهر الفخمة، لأن سخاء الأمير إذا وصل إلى أقصى حد سيستهلك جميع موارده، فيضطر إلى فرض الضرائب الباهظة على شعبه وجباية الأموال في سبيل المحافظة على هذه الشهرة. وهذا يبدأ الكراهية له في صدور رعاياه، فهو قليل الاحترام حين يصبح فقيرًا ، كما أنه سيكون قد أضر الكثيرين بسخائه الذي لن يستفيد منه سوى القلة. ويؤثر فيه أول اضطراب بسيط، ويحيط به الخطر عند حدوث الشدائد بسرعة، فإذا ما أدرك الأمير ذلك، وأراد أن يغير من طبعه، فإنه يتهم بالشح والتقتير.

لذلك يجب على الأمير الذي لا يستطيع ممارسة عادة السخاء بطريقة تضره ألا يخشى أن يوصم بالتقتير، لأنه سيعتبر سخيًا مع مرور الزمن، حين يعرف أن اقتصاده جعل الدخل كافيًا للدفاع عن النفس ضد من يريد أن يشن عليه حربًا. كما يمكنه القيام بالكثير من الأعمال العظيمة دون أن يثقل كاهل شعبه، فيصبح سخيًا في نظر من لم يحصل منهم مالاً، وعددهم لا يحصى ، وهو مقتر بالنسبة لمن لم يعطهم، وهم قليلون. ونحن لم نر في أيامنا أعمالاً عظيمة إلا لمن كانوا في عداد المقترين، وقضى على جميع من عداهم. إن البابا جوليوس الثاني كان في حاجة لهذه السمعة حتى يتمكن من شن الحرب. كما أن

ملك فرنسا الحالي قد استطاع شن عدة حروب كثيرة دون فرض أي ضريبة استثنائية على شعبه، وذلك لأن ما وفره في فترة طويلة زاد عما أنفقه عليها. ولو عرف عن ملك أسبانيا الحالي أنه كريم لما تمكن أن يقوم بكل هذه الأعمال الكثيرة ويوفق فيها.

ولكل هذه الأسباب لابد للأمير ألا يعبأ إذا ما وصف بالبخل، إذا أراد ألا يفقد رعيته، وأن يكون قادرًا على حماية نفسه، وألا يصبح حقيرًا وفقيرًا، وألا يضطر إلى أن يصبح جشعًا فالبخل رذيلة تمكنه من الحكم. فإذا قيل إن القيصر قد بلغ الإمبراطورية بالسخاء، وصعد كثيرون غيره إلى أعلى منزلة بالسخاء و باشتهارهم به، فإني أرد على ذلك قائلًا إنك إما أن تكون أميرًا حديث العهد ، أو في طريقك لأن تكون أميرًا. ففي الحالة الأولى يكون الكرم مضرًا، أما في الحالة الثانية فيجب عليك دائما أن تكون من شديدي الكرم. لقد كان القيصر من هؤلاء الذين يريدون أن يصبحوا أسياد روما. لكنه لو بقي على قيد الحياة ولم يغير من طريقة إنفاقه بعد أن بلغ مراده، فربما تهدمت الإمبراطورية وسقطت. وقد يقال: إن كثيرًا من الأمراء الذين حققوا فتوحات عظيمة بجيوشهم،كانوا يوصفون أيضًا بشدة السخاء، فإني أرد قائلًا إن الأمير قد ينفق من أمواله الخاصة ومن ثروات الآخرين وأموال الرعية. ففي الحالة الأولى وهي إنفاقه من أمواله الخاصة لابد أن يعرف عنه الاقتصاد في الإنفاق، وفيما عدا ذلك يجب أن يهتم بأن يكون سخيًا، وهو أمر ضروري لأمير يسير بجيوشه، ويعيش على سلب الملكيات، والغنائم ، والفدية، فهو ينفق من ثروة غيره. كما أن جنوده لن يساندوه دون أن يكون سخيًا جدًا معهم. ومن الممكن لك أن تكون سخيًا جدًا بما لا تملك أولا يملكه رعاياك، وذلك كما فعل كورش والإسكندر. فالإنفاق من ثروات الآخرين لن يحط من سمعتك. بل إنه سيعلي من قدرك، ولن يؤذيك سوى الإنفاق مما تملك فقط. ولا توجد صفة تحطم بنفسها مثل صفة الكرم، لأنه كلما زاد كرم المرء فإنه يفقد القدرة على المزيد منه، فيتحول إلي إما فقير حقير، أو جشع مكروه حتى يتحاشى الفقر. وأهم ما يجب أن يتحاشاه الأمير من هذه الأمور هو أن يصبح فقيرًا أو مكروهًا، والسخاء هو ما يقود إلى إحدى هاتين الصفتين. ولهذا فمن الأفضل أن يشتهر الأمير بالحرص الذي يجلب له اللعنة وليس الكراهية، وألا يضطر إلى أن يكون جشعًا، لأن ذلك يجلب له العار والكراهية معًا.

17 حول الشدة واللين
هل من الأفضل أن تكون محبوبًا، أم مهابًا؟

وعندما أريد أن أتحدث عن الشدة واللين أقول إنه على الأمير أن يسعى لأن يوصف بالرحمة وليس الشدة، وأن يحرص على عدم إساءة استخدام الرحمة بأي حال من الأحوال. كان قيصر "بورجيا" يوصف بالشدة ، وشدته هي سبب جلب النظام إلى "رومانا" وتوحيدها، واستتباب الأمن فيها ، وضمان ولائها وإذا نظرنا لهذه المسألة نظرة صحيحة، فإننا نرى أن القيصر كان في الحقيقة أكثر رحمة من الشعب "الفلورنسي" الذي سمح بتدمير "بستويا" تجنبًا لأن يوصف بالشدة. لذا يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يوصف بالشدة مادامت هذه الشدة من أجل الحفاظ على مواطنيه وولائهم له، وذلك لأنه حين يكون شديدًا مع عدد قليل جدًا من الناس، وهو بذلك أفضل من الأمراء الذين يفرطون في اللين مما يسبب وقوع الاضطرابات. وتسيل الدماء ويحدث النهب والسلب. وهذه أمور تضر الكثيرين بصفة عامة. لكن تنفيذ حكم الإعدام في عدد قليل من الناس لن يؤذي أحدًا غيرهم. والأمير حديث العهد بالإمارة فقط في حاجة شديدة دون بقية الأمراء للاشتهار بالشدة، لأن الولايات الجديدة تعاني دائمًا من الأخطار. يقول "فيرجيل" على لسان ديدو:

حالة بلادي وشئوني مستعصية

دولة في المهد وعرش متزعزع الأركان

هذه الظروف القاسية

تمنعني من نشر قواتي في كل اتجاه

لأحمي أملاكي بقوة وأحرس شواطئي عن كثب

ومع ذلك يجب على الأمير أن يحذر في كل ما يحمله من معتقدات وكل ما يقوم به من أعمال، وألا يظهر بمظهر الجبان الرعديد. وأن يتقدم إلى الأمام بحكمة ولين وألا تجعله الثقة الزائدة يهمل الحذر، وألا تجعله الريبة الزائدة غير محتمل.

ومن هنا تبزغ مشكلة المفاضلة بين وجوب أن يكون الأمير محبوبًا أكثر منه مهابًا أم مهابًا أكثر منه محبوبًا. والجواب هو أنه ينبغي على الإنسان أن يكون محبوبًا ومهابًا في

نفس الوقت. ولما كان من الصعوبة الحفاظ على الصفتين معًا، فإن المهابة في هذه الحالة أفضل بكثير إذا كنا لا نستطيع إيجاد الصفتين معًا. لأنه من الممكن أن نقول عن عامة البشر إنهم ينكرون المعروف، ويحبون المراوغة في الحديث ومراءون، حريصون على تجنب الخطر، راغبون في الكسب، هم أعوانك طالما استفادوا منك، وهم يفدونك بالدم وما يملكون وبحياتهم وولدهم، حين لا يكون هناك داع لذلك، ولكن حين تقترب الأخطار ينقلبون عليك . إن الأمير الذي يعتمد على وعود رعاياه يهلك إلا إذا تهيأ بالمعدات الكافية، وذلك لأن الصداقة التي يمكن شراؤها غير مأمونة، ولن تعمل لصالحك عند الضرورة. إن البشر يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم في إيذاء من يهابون. وذلك لأن الحب مرتبط بسلسلة من الارتباطات التي تتفكك عندما تؤدي غرضها (وذلك وبسبب أنانية الناس). لكن استخدام المهابة والخوف من العقاب طريقة صحيحة لا تفشل أبدًا.

ما زلت أقول: إنه على الأمير أن يجعل نفسه مهابًا بطريقة تجعله إن لم يحصل على الحب، فإنه يتجنب الكراهية على أي حال. وذلك لأن المهابة وعدم وجود الكراهية من الممكن أن يجتمعا معًا. ويستطيع تحقيق ذلك كل من يمتنع عن التدخل في أمور أملاك رعاياه ونسائهم. وعليه ألا يأمر بإعدام أي شخص إلا بعد التأكد من المبررات الكافية لذلك ويوضح أسبابه. لكنه يجب عليه - قبل كل شيء - الامتناع عن الاستيلاء على أملاك غيره، لأن الإنسان قد ينسى موت أبيه بسهولة عن نسيانه لضياع ميراثه. كما أنه لا حاجة للأمير أن يوجد الذرائع لاغتصاب ملكيات الغير. فمن يعيش على النهب سيجد دائمًا سببًا يغتصب به متاع الآخرين بينما مسببات الإعدام أقل بكثير وتزول سريعًا.

لكن عندما يكون الأمير بين أفراد جيشه ومعه عدد كبير من الجنود فإنه يتحتم عليه أن يُعرف بالشدة، لأنه بدون هذه السمعة لن يحافظ على وحدة الجيش أو يؤدي أي مهمة. إن من بين منجزات "هانيبال" الجديرة بالذكر أنه على الرغم من وجود جيشه العرمرم ووجود الجنود فيه من دول كثيرة ومحاربته في دولة أجنبية، إلا أنه لم يقع بينهم أي مشكلات أو يثوروا ضد الأمير سواء كان ذلك في السراء أم في الضراء. وهذا لا يرجع إلى أي سبب سوى شدة "هانيبال" التي جعلته (بالإضافة إلى فضائله الأخرى التي لا تحصى) عظيمًا بين جنوده ومهابًا باستمرار. وما كانت قدراته كافية لتحقيق هذا الأثر لو لم يكن شديدًا. والكُتّاب الذين لا يفكرون جيدًا يعجبون بأعماله من جهة، ومن جهة أخرى يلومونه على شدته وهي السبب الرئيس لإنجاز هذه الأعمال.

ومن الممكن أن نلاحظ أن بقية خصاله لم تكن كافية وحدها في حالة "سكيبو" (وهو

مشهور ليس فقط في عصره، لكن ذكراه باقية في كل العصور) فقد ثارت عليه قواته في أسبانيا، ولم يكن لذلك سبب آخر سوى شفقته المفرطة، مما أتاح لجنوده قدرًا من الفوضى، لا يتفق مع الحياة العسكرية. وقد لامه "فابيوس ماكسيموس" على ذلك، وأطلق عليه لقب "مفسد الجندية الرومانية". فقد دمر أحد ضباط "سكيبو" لوكرا" فلم يقتص منه لذلك، ولم يعاقبه ، والسبب ببساطة هو طبيعته المتساهلة، لدرجة أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ أراد أن يلتمس له العذر فقال إن هناك أناسا كثيرين يعرفون كيف يتجنبون الأخطاء، أكثر من معرفتهم بكيفية تصحيح أخطاء الآخرين. وكان من الممكن لهذا الاستعداد أن يقلل من شهرة "سكيبو" لو استمر على ذلك في عصر الإمبراطورية، لكن في ظل مجلس النواب لم تختف هذه الصفة فقط ولكنها كانت سببًا لشهرته في نفس الوقت.

ولذلك فإنني أختم حديثي عن مهابة الأمير، وحب الناس له فأقول إن الناس يحبون بمحض إرادتهم الحرة، لكنهم يخافون حسب رغبة الأمير، وعلى الأمير العاقل أن يعتمد على ما له من سلطان، وأن يسعى لتجنب ما يسبب له الكراهية المدمرة، كما سبق أن أوضحت.

كيف يصون الأمراء عهودهم؟

كلنا نعرف مدى الثناء الذي يناله الأمير الذي يحفظ عهده ويحيا حياة مستقيمة، دون مكر. لكن تجارب عصرنا هذا تدل على أن أولئك الأمراء الذين حققوا أعمالًا عظيمة هم من لم يصونوا العهد إلا قليلًا . وهم من استطاعوا أن يؤثروا على العقل بما لديهم من مكر. كما استطاعوا التغلب على من جعلوا الأمانة هاديًا لهم.

ويجب أن تعلم أن هناك طريقتين للقتال، واحدة لها قواعد وقوانين والأخرى تعتمد على القوة فقط. الطريقة الأولى للبشر، أما الثانية فللحيوانات المفترسة، ولما كانت الأولى غير كافية في أغلب الأحوال، فإن المرء كان يلجأ غالبًا للطريقة الثانية.

ولهذا فمن الضروري للأمير أن يعرف حق المعرفة كيف يستخدم كلتا الطريقتين. وقد علم الكتاب القدامى أمراءهم ذلك وأوحوا لهم به. فهم يرون أن "أخيليس" وغيره الكثير من الأمراء القدامى قد أرسلوا إلى "كيرون" ليربيهم ويعلمهم بطريقته. وهم يقصدون

من صورة هذا المعلم ذي النصف البشري، والنصف الحيواني أن يوضحوا أنه على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطريقتين معًا ، فواحدة منهما لن تدون بدون الأخرى.

ولهذا السبب كان الأمير مضطرًا إلى أن يعلم جيدًا كيف يتصرف كالحيوان ، فهو يقلد الثعلب والأسد، فالأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ والثعلب غير قادر على مواجهة الذئاب. على المرء إذن أن يكون ثعلبًا ليواجه الفخاخ ويكون أيضًا أسدًا ليخيف الذئاب.ومن يريد أن يكون أسدًا فقط لا يفهم الأمور جيدًا. فعلى الأمير إذن ألا يحفظ عهدًا يكون الوفاء به ضد مصلحته، وألا يستمر في الوفاء بوعد انتهت أسباب الارتباط به. وقد يكون هذا المبدأ مبدأ شريرًا لكن هذا يصدق فقط في حالة ما إذا كان جميع البشر من الأخيار. لكن إذا كانوا جميعًا من الأشرار ولن يرعوا عهودهم معك، فهذا يسمح لك أن تكون في حِل من عهودهم. فلم يفشل أي حاكم في اختلاق الأعذار المقبولة التي يبرر بها عدم الوفاء بالعهد. وهناك عدد لا حصر له من الأمثلة في العصر الحديث تؤكد ذلك. وتوضح أن هناك وعودًا كثيرة قد بطلت بسبب عدم وفاء الأمراء بها. كما توضح لنا أن الذين استطاعوا تقليد الثعلب بمهارة حققوا أفضل نجاح. ولكن لابد لك أن تكون قادرًا على إخفاء هذه الصفة بمهارة، وتستطيع التمويه والخداع. حيث إن البسطاء من الناس على استعداد لقبول أي أمر واقع، ومن يخدع سيجد من بينهم من يقبل أن ينخدع بسهولة.

ولن أذكر سوى مثال حديث واحد، حيث لم يفعل "الإسكندر السادس" شيئًا سوى التغرير بالناس، فلم يفكر بغير ذلك، ودائمًا ما واتته الفرصة لتحقيقه. فلم يتفوق عليه أحد في قدرته على توفير الضمانات، وتأكيد الأمور بالحلف الكاذب، ولم يتفوق عليه أحد في عدم الوفاء بالعهد ، وكانت حيله دائمًا موفقة تحت أي ظروف، لأنه كان يفهم هذا الأمر جيدًا.

وليس من الضروري للأمير أن يكون لديه كل الخصال التي سبق ذكرها، على أنه من الضروري أن يبدو عليه أنه يتصف بها. وأستطيع أن أقول : إن المحافظة على التحلي بهذه الصفات، والحفاظ عليها أمر خطير، لكنه أمر مفيد على أي حال. **وعلى ذلك فمن المفيد أن يبدو الأمير رحيمًا، وفيًا ، حلو الصفات، صادقًا، متدينًا، وأن يكون كذلك فعلًا، وليس مظهرًا فقط. ولكن يجب أن يتهيأ عقلك لكي تتحول إلى أضداد هذه الصفات عند الحاجة**. ويجب أن يكون من المفهوم أن الأمير حديث العهد بالإمارة لا يمكنه مراعاة كل ما يعتبره الناس خيرًا ، وذلك لأنه في سبيله للحفاظ على الدولة قد يضطر للقيام بأعمال ضد الوفاء والإحسان والصفات الحسنة والدين. ولذلك فعليه أن يعد عقله للتكيف مع أي

ريح قد تهب عليه، ومع تغييرات المستقبل. كما يجب عليه (كما سبق أن قلنا) أن لا يبتعد عن الخير قدر الإمكان مع قدرته على ارتكاب الشرور إذا اضطر إليها.

وعلى الأمير أن يصون لسانه فلا ينطق إلا بما يسبغ عليه من الصفات الخمس الطيبة السابق ذكرها. ولابد له أن يبدو رحيمًا وصادقًا ومستقيمًا ومتدينًا أمام من يراه ويسمعه. وهذه الصفة الأخيرة ضرورية جدًا لأن الناس يحكمون على ما يرونه بأعينهم ، وليس على ما يدركونه، فكلنا يستطيع الرؤية، لكن قلة قليلة منا تستطيع أن تدرك واقع الحال الذي أنت عليه، وهي غير قادرة على مواجهة الكثرة التي تحميها مهابة الأمير. وفي كافة أعمال البشر ـ وخاصة الأمراء ـ فإن **الغاية تبرر الوسيلة**، وهذا حكم لا يمكن نقضه؛ فعلى الأمير إذن أن يهدف للفوز بالولاية والمحافظة عليها، وسوف يحكم الجميع على وسائله بأنها شريفة ويمدحونها أيضًا . فعامة الناس يحكمون على الأشياء من مظهرها الخارجي. وهذا العالم لا يتكون إلا من هؤلاء العامة.أما غير الساذجين فهم قلة تنعزل حين تجد الكثرة مجتمعة حول الأمير. وهناك أمير في عصرنا ـ لا داعي لذكر اسمه ـ كان كل ما يفعله هو الدعوة للسلام والوفاء، وهو في الحقيقة عدو لهما، ولو أنه اهتم بأي منهما في مناسبات عديدة لضاعت منه دولته وخسر اسمه.

19 كيف نتجنب الاحتقار والكراهية؟

أما وقد تحدثنا عن أهم الصفات التي نتناولها في هذا الكتاب، فسأعالج الآن بالتفصيل كافة الصفات الأخرى. فيجب على الأمير، كما قلت سابقًا أن يتجنب كل ما يجعل الناس يكرهونه أو يحتقرونه. ولا يكون قد قام بدوره إلا حين يوفق في هذا الأمر. ولن يكون في بقية الرذائل أي خطر. وأول ما يجعل الأمير مكروهًا ـ كما قلت من قبل ـ هو أن يكون جشعًا، وأن يغتصب ممتلكات رعاياه أو نساءهم، وهذا هو ما يجب عليه أن يمتنع عنه. ومادام الأمير لا يعتدي على ملكية عامة الناس أو نساءهم، فإنهم سيعيشون في رضى، ولن يكون أمامه سوى محاربة مطامع قلة من الناس الذين يمكن السيطرة عليهم بطرق عديدة. **ويكون الأمير محتقرًا حين يعتقد الناس بأنه متقلب وطائش ومخنث وجبان وضعيف العزيمة. وهذا يجب تجنبه كما يتجنب القبطان صخرة قاتلة. ومن واجبه أن**

يحافظ على ظهور أعماله بصورة تعكس العظمة، والقدرة، والمجد، وألا يقبل فيما يحكم به بين رعاياه، ويتمسك بما يصدر من قرارات حتى لا يفكر إنسان في أن يضلله أو يخدعه.

إن الأمير الذي يخلق هذا الرأي عن نفسه عند الناس يحظى بسمعة عظيمة. ومن الصعب أن يتآمر عليه أي إنسان. ولن يعتدي عليه أي معتد بسهولة، حيث إنه يعرف أنه قدير، تحترمه رعيته، ويجب على الأمير أن يخشى شيئين: الأول داخلي وله علاقة بالرعايا، والثاني خارجي وله علاقة بالقوى الأجنبية. يستطيع الأمير أن يحمي نفسه من الأمر الثاني بالأسلحة الجيدة. والأصدقاء المخلصين، وهؤلاء الأصدقاء يتوافرون بسهولة مادام يملك الأسلحة الجيدة. أما الأحوال الداخلية، فإنها ستظل هادئة دائمًا ما لم تثرها مؤامرة فتضطرب الأحوال، ولم يحدث اضطراب في الخارج. وحتى إذا افترضنا أن قوات أجنبية سعت إلى الهجوم على الأمير، فإنه سيتحمل دائمًا ويتمكن من مواجهة كل الصعاب، وذلك مثلما حدث مع "نابيس" الأسبرطي. أما بالنسبة للرعايا ، فيجب عليه أن يحتاط من تآمرهم عليه سرًا. وذلك إذا كانت رعيته لا تعمل وفقًا لنصائح أجنبية. وهذا من الممكن له تجنبه جيدًا بالبعد عن أن يكون محتقرًا أو مكروهًا، وذلك ببقاء الشعب راضيًا عنه، ومن الضروري تحقيق هذا الأمر، وكما قلت تفصيلا من قبل. كما أن أفضل علاج للأمير ضد أي مؤامرات هو حب الشعب له. لأن من يتآمر يعتقد أنه سيرضي الشعب إذا اغتال الأمير. لكنه لو علم أنه سيثير جموع المواطنين بفعلته، فإنه سيتجنب تلك الفعلة. لأنه سيواجه بذلك مشكلات لا تعد ولا تحصى. وهذا ما يجعل كثيرًا من المؤامرات تقع دون أن تنجح. وكل متآمر لا يستطيع العمل بمفرده، ولن يجد له شريكًا سوى من الناقمين، والناقم يكتشف مقصدك بسرعة عندما تتبين له نية المتآمر، فيأمل تحقيق فائدة من وراء اتباعه لك، لكنه من ناحية أخرى يرى فيما تعرضه عليه أمرًا محفوفًا بالمخاطر، ولابد لكي يستجيب لك أن يكون واحدًا من اثنين: إما صديق مخلص لك أو عدو شديد العداوة للأمير. ولتوضيح هذا الأمر بإيجاز أقول: إن المتآمر لن يجد حوله سوي الخوف والحقد والشك والعقاب. أما الأمير فهو محاط بقوة الحكم والقوانين والأعوان الذين يحمونه وولاية تدافع عنه. وإذا ما أضفنا إلى ذلك إرادة الشعب المحيط به ، عندئذ يستحيل أن يقدم أي إنسان على أن يتآمر عليه. كما أن المتآمر يشعر بالخوف قبل تنفيذ المؤامرة، وسيشعر بالخوف أيضًا بعد إنجازها لأن الشعب سيكون عدوًا له في هذه الحالة، ولا ملاذ له منه.

ولدينا العديد من الأمثلة على ذلك، ولكني سأكتفي بمثال يذكره آباؤنا. لقد تآمر "الكنسكي" على "هنيبال بنتوفلي" أمير بولونيا، وهو جد "هنيبال" الحالي ولم يكن له أي أقارب سوى "جيوفاني" وكان لا يزال طفلًا في ذلك الوقت. ولكن بعد الاغتيال ثار الشعب وقتل "الكنسي" وذلك بسبب السيرة الطيبة التي تتمتع بها عائلة "بنتيفولي" في ذلك الوقت. وقد كانت عائلة عظيمة لدرجة أن أهل بولونيا حين عرفوا أن هناك فردًا من أسرة "بنتيفولي" يعيش في "فلورنسا" ويعتقد أنه ابن حداد، ذهبوا إليه ليحضروه ، ونصبوه حاكمًا على المدينة، وظل يحكمها حتى أصبح "جيوفاني" شابًا وفي سن مناسبة لتولى الحكم، حيث لم يكن هناك خليفة آخر لهانيبال سواه.

وعلى ذلك فإن على الأمير ألا يهتم بالمؤامرات إذا كان الشعب يناصره ويحبه، ولكن إذا كان يكرهه ويعاديه، فعليه أن يخاف من كل فرد يخشى كل شيء. إن الولايات التي تقوم على نظام جيد وأمراء ذوي عقل أولي همة، لا يجعلون النبلاء يضيقون بهم، ويجعلون الشعب راضيًا عنهم ، ويحافظون على هذا الرضا. وهذا من أهم الأمور التي يجب أن يهتم الأمير بها.

وفرنسا من الممالك التي تتمتع بنظام حكم جيد في عصرنا الحالي، ففيها عدد لا يحصى من المؤسسات الصالحة، وهي ما يعتمد عليه الملك لسلامته وحريته. وأول هذه المؤسسات هو البرلمان بما له من صلاحيات، وذلك لأن من أقام هذه المملكة يعرف مطامع علية القوم ، وغطرستهم، ويعرف أنه من الضروري أن يكبح جماحهم. وهو يعرف. من ناحية أخرى. الكراهية التي يشعر بها الشعب تجاه علية القوم، وهي تقوم على الخوف، وحين أراد أن يشعرهم بالأمن لم يشأ أن يجعل هذا الأمر من مهام الملك الخاصة حتى يجنبه سخط الشعب لو أنه جامل النبلاء، ولذلك أنشأ حكمًا ثالثًا (البرلمان) يكبح جماح النبلاء دائما ويجامل البسطاء. وما كان من الممكن فعل ما هو أفضل من ذلك، أو الاحتياط لسلامة الملك والملكة بطريقة تتفوق على ذلك، وختامًا أقول: إنه على الأمير أن يحترم نبلاء ولايته، لكن عليه أيضًا ألا يجعل عامة الشعب يعادونه.

وقد يبدو للبعض أننا عندما نتناول حياة كثير من الأباطرة الرومان أنها تعارض رأيي، فبعضهم قد عاش حياة النبلاء وأظهروا قوة عظيمة، ومع ذلك فقدوا إمبراطورياتهم، وقتلهم من تآمر عليهم من رعاياهم. وعندما أود الرد على هذه الاعتراضات، فإنني سأناقش صفات بعض الأباطرة مبينًا أسباب هلاكهم التي لن تختلف عما قلت، وسأتناول أيضًا بعض الأمور التي يجب أن يلاحظها كل من يقرأ عن هذه العصور. وأكتفي بالحديث

عن جميع الأباطرة الذين تعاقبوا على الإمبراطورية بداية من "ماركوس" الفيلسوف حتى "ماكسيمينوس" وهم : "ماركوس" وولده "كومودوس" و"برتينكس" و"جوليانوس" و"سيفروس" وولده "أنطونيوس" وولده "كراكلا" و"ماكرينوس" و"هاليوجابالوس" و"الإسكندر" وماكسيمينوس" وأول ما يمكن ملاحظته هو أن أباطرة الرومان كان أمامهم صعوبة ثالثة وهي ضرورة تحمل قسوة الجنود وجشعهم، وهذا قد بلغ مداه حين أصبح سببًا في سقوط الكثير من الأباطرة، فلم يكن من المستطاع إرضاء الشعب والجيش معًا بسهولة، بينما كان على الأمراء غير الأباطرة أن يواجهوا مطامع الطبقة الراقية ومغالاة الشعب فقط فالشعب يحب الهدوء، وبالتالي يحب الأمراء المسالمين، بينما يفضل الجنود الأمير ذا الروح العسكرية والكبرياء والشدة والجشع، وهم يرون أن يمارس هذا الصفات مع الشعب كي يحصلوا منه على رواتب مضاعفة، ويجدوا لشجاعتهم وشدتهم متنفسًا. ولذلك حدث أن هلك كل الأباطرة الذين لم يعرف عنهم القدرة على ضبط الطرفين معاً. حيث اقتصر عدد كبير منهم (وهم من كانوا حديثي العهد بالإمبراطورية وعرف صعوبات هذه الاتجاهين المتضادين) على إرضاء الجند، ولم يفكر في أن يسيء إلي شعبه، هو اختيار حتمي إذا كان الأمير غير قادر على تجنب كراهية طرف من الطرفين. وعليهم أولا ألا تكرههم جموع الشعب، فإن لم يستطيعوا تحقيق ذلك، فعليهم أن يفعلوا كل ما هو مستطاع لتجنب كراهية الجانب الأقوى لهم. ولذلك فإن الأباطرة حديثي العهد، كانوا في حاجة إلي أشياء محددة، فناصروا الجنود أكثر من مناصرتهم للشعب. وتتوقف فائدة ذلك من عدمها على إدراك الأمير لكيفية المحافظة على سمعته الطيبة بين أفراد الشعب. وهذه هي الأسباب التي أدت إلى النهايات السيئة لـ"ماركوس" و"برتيناكس" و"الإسكندر". فقد كانوا جميعًا متواضعين، يحبون العدل، ولا يحبون الشدة وأهل لطف ولين، وقد عاش "ماركوس" وحده عزيزًا ومات كريمًا، لأنه وصل إلى الإمبراطورية بحقه الموروث، دون تفضل من الشعب أو الجيش، بالإضافة إلى أنه كان يتصف بكثير من الفضائل التي جعلته محترمًا، وقد حافظ طيلة حياته على الفريقين ولم يتجاوز أي منهما حدوده. ولم يكن مكروهًا أو محتقرًا ابدًا. لكن تنصيب "برتيناكس" إمبراطورًا بغير رغبة من الجنود الذين قد ألفوا الفوضى في عهد "كومودوس" فلم يستطيعوا مجاراة الحياة الشريفة التي أرادها "كومودوس"، ولذلك أصبح مكروهًا ، إضافة إلى احتقاره لكبر سنه، فسقط سريعًا في بداية حكمه.

ومن هنا يتضح أن الأعمال الصالحة قد تجلب الكراهية، كالأعمال الشريرة، ولذلك

فإن الأمير الذي يريد أن يحافظ على ولايته أن يقترف بعض الشرور، كما سبق أن أوضحت. وذلك لأنه **إذا فسد طرف من الأطراف الثلاثة، سواء كان الشعب، أو الجيش، أو النبلاء، وكنت تعتبره ضروريًا من أجل المحافظة على مركزك. فيجب عليك أن تتبع هواه وترضيه، وهنا تؤذيك الأعمال الصالحة.**

وإذا تحدثنا عن الإسكندر الذي كان طيبًا لدرجة أنهم أثنوا عليه بقولهم إنه لم يعدم أحدًا خلال الأربعة عشر عامًا التي قضاها في الحكم دون إجراء محاكمة عادلة له. لكنه اعتبر مخنثًا وأنه سمح لوالدته أن تسيطر عليه، وهكذا احتقره الناس وسقط في الهاوية، فتآمر عليه جيشه وقتله.

وحين ننظر بتمعن إلى صفات "كومودوس" و"سيفيروس" و"أنطونيوس" وكاراكلا" و"ماكسيمينوس" نجد أنهم قد وصلوا في القسوة والجشع إلى أقصى حد، ولم يفرضوا على الشعب أي شيء يسيء إليه إرضاء للجنود، وكانت نهايتهم جميعًا سيئة عدا "سيفيروس". حيث كانت له القدرة التي مكنته من أن يحكم حكمًا موفقا، بأن حافظ على جنوده كأصدقاء له، بالرغم من بطشه بالشعب، وذلك لأن صفته جعلته يحوز إعجاب الشعب والجنود معا، حتى أصبح الشعب مدهوشًا لأعماله بينما تابعه الجنود وهم راضون.

ولما كانت أعمال هذا الحاكم عظيمة وجديرة باحترامه كأمير حديث العهد ، فإني سأوضح باختصار كيف أنه أجاد استخدام صفات الثعلب والأسد، حيث يجب على الحاكم أن يقلدهما. بما أن "سيفيروس" قد كان قائدًا للجيش في "سلافونيا"، ويعرف تكاسل الإمبراطور "جوليانوس" ، لذلك فقد أقنع القوات بأنه من الأفضل أن يذهبوا إلى روما للثأر لمقتل "برتيناكس" الذي كان الحرس البريتوري قد قتله. وسار بجيشه إلى روما تحت ستار هذا الادعاء. ولم يكشف عن مطامعه في العرش، ووصل إلى إيطاليا قبل أن يعرف عنه أن قد تحرك إليها. وعندما وصل روما انتخبه مجلس الشيوخ إمبراطورًا بدافع من الخوف، وقتل "جوليانوس". وبعد هذه البداية، لم يكن أمامه للسيطرة التامة على الإمبراطورية سوى عقبتين، إحداها في أسبانيا حيث يوجد "نجرينوس" على رأس جيوش آسيا وقد نصب نفسه إمبراطورًا، والأخرى كانت في الغرب حيث " البينوس " الذي يطمع في الإمبراطورية. وكان إظهاره للعداء لهما معًا أمرًا خطيرًا، فقرر أن يخدع "البينوس" الذي أرسل إليه راغبًا في أن يشاركه الفخر باختيار مجلس الشيوخ له ولقبه بالقيصر، ونودي به كشريك لـ "سفيروس" وذلك بأن عُرض الأمر على مجلس الشيوخ. وقد صدق " البينوس" كل هذا واعتبره صادقًا. ولكن بعد أن هزم "سفيروس" "مجيروس" وقتله،

واستتبت الأمور في الشرق، عاد إلى روما، واتهم "البينوس" في مجلس الشيوخ بأنه سعى إلى اغتياله، ولم يراع النعم التي تفضل بها عليه، وأنه مضطر للذهاب إليه، ومعاقبته على ذلك الجحود . ثم ذهب لملاقاته، وجرده من منصبه وحياته معًا.

وكل من يتناول أعمال "سفيروس" بدقة سيجده أسدًا مفترسًا وثعلبًا ماكرًا، وهو مهاب وجليل عند الجميع، لا يكرهه الجيش، وكان له سلطان كبير، كما أن سمعته الطيبة حمته من كراهية شعبه التي من الممكن أن تحدث بسبب جشعه، لكن ابنه "أنطونيوس" كان صاحب قدرات عظيمة ، وصفات جعلته جديرًا بإعجاب الشعب، ومحبوبًا من الجند في نفس الوقت، فقد كان رجل حرب، وقادرًا على تحمل الصعوبات الشديدة لا يحب تناول ما لذ وطاب من طعام، وكل أنواع الترف الأخرى. هي خصال جعلت الجيوش جميعها تحبه. إلا أن وحشيته وقسوته كانتا واضحتين جدًا، ولم يكن لهما مثيل، وقد تسبب في قتل عدد كبير من روما، وبعد أن أعدم الكثير من الناس، أصبح كافة الشعب يمقته، ويخشاه من حوله، حتى قتله قائد فرقة المائة بين أفراد جيشه.

والآن ننتقل إلى "كومودوس" الذي كان باستطاعته أن يحتفظ بالإمبراطورية بكل سهولة، فقد كان وريثًا لها، فهو ابن "ماركوس". وقد كان من الممكن أن يكتفي بإتباع ما كان يفعله أبوه، حتى يرضى عنه الشعب والجيش معًا. ولكنه مال إلى أن يكون صارمًا بوحشية، وعمل على مجاملة الجيش، حتى يستطيع أن ينهب شعبه. ولكنه من ناحية أخرى أصبح حقيرًا في نظر جنوده بسبب عدم حفاظه على مركزه، وذلك لأنه كان ينزل في أحيان كثيرة إلى حلبة المصارعة، ويتحدى المصارعين، بالإضافة إلى أعمال مشينة أخرى لا تليق بعظمة الإمبراطورية. ولما كان مكروهًا من ناحية، ومحتقرًا من ناحية أخرى، تآمروا عليه وقتلوه.

إما إذا أردنا وصف شخصية "مكسيمينوس". فقد كان رجل حرب بارع وكانت الجيوش قد ضاقت بتخنث الإسكندر الذي تحدثنا عنه قبل قليل، فانتخب "مكسيمينوس" بعد موت الإسكندر إمبراطورًا، لكنه لم ينعم بتلك طويلًا ، فهناك شيئان قد جعلاه مكروهًا وحقيرًا، الأول: هو أصله الوضيع المعلوم للجميع ،مما سبب احتقاره في جميع الأحوال. والثاني أنه وفي بداية عهده أجل الذهاب إلي روما ليعتلي العرش الإمبراطوري، وقد عرف عنه الصرامة الشديدة، كما اقترف على يد نواب الحكام أعمالًا قاسية متعددة، وذلك في روما وفي نواح متفرقة من الإمبراطورية. لذلك فإن الاستياء من وضاعة أصله، والكراهية خوفًا من وحشيته، دفعا الجميع إلى السخط عليه، فبدأ التآمر في أفريقيا أولًا ثم في

مجلس الشيوخ، وكل شعب روما وإيطاليا فيما بعد. انضم إليهم الجنود الذين غضبوا من قسوته حين كانوا يحاصرون "أخيلية" وكان حصارها أمرًا شاقًا. وحين أدركوا أن له أعداء كثيرين، لم يخافوا منه وقتلوه.

ولن أتطرق للحديث عن "هليوجالوباس" وماكرينوس" و "جوليانوس" فقد أخذوا جميعًا على حين غرة، وكانوا غاية في الاحتقار، لكني أختتم هذا المقال بقولي: "إن أمراء عصرنا هذا يلقون صعوبات أقل بكثير مما ذكرت، فهم مضطرون لإرضاء جيوشهم بدرجة كبيرة، وهم إن كانوا ذوي وضع خاص إلا أن ما يواجهونه من صعوبات سرعان ما ينتهي، حيث لا يوجد من بينهم من يملك جيشًا يرتبط ارتباطًا وثيقًا بإمارات الحكم والمقاطعات كما كان الحال في الجيوش الرومانية. فحينذاك لم يكونوا حريصين على إرضاء الجند قبل إرضاء الشعب سوى لأن الجند أقدر على أن يفعلوا ما لا يمكن للشعب أن يفعله. والآن وفيما عدا الأتراك ومماليك مصر، فإن إرضاء الشعب أكثر من الجنود أمر يلتزم به الأمراء كافة لأن الشعب يستطيع أن يفعل ما لا يفعله الجنود. وأنا أستثني سلطان الأتراك من ذلك لأنه يحتفظ باثني عشر ألفا من المشاة حوله دائمًا، وخمسة عشر ألفًا من الفرسان، وعليهم تتوقف سلامة المملكة وقوتها.وكان من الضروري بالنسبة له أن يؤجل أي شيء آخر حتى يتأكد من ولاء هؤلاء جميعًا له. وكذلك الحال بالنسبة للمماليك، فالسلطان ملزم بالحفاظ على ود الجنود، دون النظر إلى الشعب، ويمكننا أن نلاحظ أن ولاية السلطان تختلف عن ولايات الأمراء الآخرين فهي تشبه البابوية المسيحية، فهي لا يمكن أن تسمى ولاية ملكية وراثية، ولا هي مملكة حديثة العهد، فأبناء الأمير الذي يرحل لا يرثونه ولكن يرثه خليفته في الحكم ويختاره أصحاب النفوذ. وهو نظام قديم ولا يمكن اعتباره مملكة حديثة العهد، لأنه يخلو من الصعاب التي توجد في الإمارات الجديدة. وعلى الرغم من أن الأمير يكون جديدًا إلا أن قواعد الولاية قديمة ومنتظمة ، وهو يستقبل كما لو كان وريثًا للعرش.

وإذا عدنا إلى موضوعنا فإني أقول: كل من يدرس الحجج السابقة سيعرف أن أسباب سقوط الأباطرة الذين ذكرتهم كانت إما الكراهية، أو الاحتقار وسيعرف أن بعضهم قد سار على طريق، والبعض الآخر سار على طريق آخر. وفي كلا الطريقين نجح البعض، وفشل البعض الآخر. لقد حاول "برتيناكس" و"الإسكندر" تقليد "ماركوس" بلا فائدة بل إنها كانت محاولات ضارة، فقد كان كلاهما أميرًا حديث العهد، وكان "ماركوس" أميرًا وراثيًا. هو نفس حال "كاراكلا" و"كمودوس" و" مكسيمينوس" فقد أضيروا جميعًا من تقليدهم لـ"سفيروس" فلم تكن لهم القدرة الكافية التي تمكنهم من السير على منهجه.

ولذلك فإن الأمير حديث العهد لا يستطيع تقليد أعمال "ماركوس" أثناء ولايته، ولا لزوم لأن يقلد "سفيروس" لكنه عليه أن يأخذ من هذا وذاك ما يفيد ويرفعه ليحافظ على ولاية وصل إليها وهي قائمة وسالمة بالفعل.

20 حول ما إذا كانت القلاع والأشياء الأخرى التي يلوذ بها الأمراء مفيدة أم ضارة

لقد تعمد الأمراء نزع السلاح من مواطنيهم من أجل ضمان سلامة حكمهم، بينما حافظ غيرهم على ما يتبعه من ولايات مقسمة إلى أجزاء كما كانت. وهناك من سعى إلى إثارة العداوة فيما بينها، ومنهم من أراد أن يكسب أولئك الذين شكوا فيهم في بداية الحكم إلى جانبهم. وبعضهم شيد الحصون والآخر دمرها وهدمها، إن كان الإنسان لا يستطيع أن يحكم حكمًا قاطعًا في هذه الأمور دون أن يتعمق في تفاصيل حياة الولاية التي سيتحدث عنها، ولذلك سأتحدث عنها بطريقة عامة قدر الإمكان.

لم يشتهر أي أمير بأنه ينزع سلاح رعاياه، بل أنه على العكس من ذلك كان يسلحهم إن وجدهم عزلًا، وأنت حين تسلحهم تكون هذه الأسلحة ملكا لك. وسيخلص لك من كان في قلبك شك من ناحيته، ويستمر المخلصون على ولائهم ، وسيتحول من مجرد واحد من الرعية إلى واحد من الأنصار، ولما كان من المستحيل تسليح الرعية بالكامل ، لكنك عندما تسلح البعض منهم تستطيع أن تعامل الباقين معاملة بأمان أكثر، وهذا الاختلاف في المعاملة يجعل رجالك أكثر ولاء لك. كما أن الآخرين سيلتمسون لك العذر عندما يجدون أن من يقومون بالواجبات الخطرة هم من ينالون تقديرًا أكبر. أما إذا نزعت منهم السلاح، فإنك تسيء بذلك إليهم، وتبدو بمظهر غير الواثق منهم، إما لأنهم من الجبناء أو لقلة ثقتك فيهم، وكل من هذين التفسيرين يولد كراهيتك في نفوسهم. وبما أنك لا تستطيع أن تبقى أعزل بدون سلاح، فإنك ستضطر إلى استئجار الجنود بمبالغ عالية. وإذا افترضنا أن هؤلاء الجنود سيكونون صالحين، فإنهم لن يكونوا قادرين على الدفاع عنك ضد أعداء أقوياء، وضد رعايا مشكوك في أمرهم، ولذلك فإن رعايا الأمير الجديد في مملكة جديدة يكونون دائمًا مسلحين حينما يستولى على الإمارة، والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك.

وعلى الأمير، عندما يكسب ولاية جديدة ويضمها إلى ولايته القديمة ، فمن الضروري أن ينزع سلاح هذه الولاية عدا من وقف بجانبه وناصره عند الاستيلاء عليها، وحتى هؤلاء يجب على الأمير أن ينتهز الفرصة والوقت المناسب، ويجعل منهم ضعفاء ومخنثين، وأن يهيئ كل شيء ليجعل جميع أسلحة الولاية الجديدة في أيدي الجنود الذين يعيشون بالقرب منه في ولايته القديمة.

إن أجدادنا والذين يعتبرون من الحكماء اعتادوا أن يقولوا: الأحزاب السياسية ضرورة للسيطرة على "بستويا" ، والقلاع وسيلة للسيطرة على "بيزا". وهم قد أثاروا الخلافات في بعض المدن التابعة لهم حتى يستطيعوا حكمها بسهولة. وهذا أمر صالح في ذلك الوقت الذي كانت فيه إيطاليا تنافس القوى الكبيرة، ولكنه لا يبدو لي مناسبًا في الوقت الحاضر، وذلك لاعتقادي بأن الأحزاب التي تنشأ بهذه الطريقة لا تأتي بأي فائدة.

وأعتقد أيضًا أن البنادقة قد رحبوا بالتفرقة بين كتلتي "الجولف" و"الجبلين" في المدن الخاضعة لهم. ومع أنهم لم يسمحوا لهم بإراقة الدماء إلا أنهم شجعوا وجود الخلافات. وذلك لأن أبناء هذه المدن حين ينشغلون بخصوماتهم الخاصة لا يتحركون ضد البنادقة. لكنهم لم يصلوا إلى أي فائدة من ذلك على أي حال، فكما رأينا أنه بعد الهزيمة في "فايلا" تشجعت جماعة من المواطنين وقامت فجأة بالاستيلاء على كامل الولاية.

وما من شك في أن الأمراء يصبحون عظماء حين يتغلبون على ما يواجهونه من معارضة ومن صعاب. مما جعل البعض يظن أنه على الأمير العاقل أن يثير العداء بين الرعية بدهاء حين تسنح الفرصة، حتى تزيد عظمته حين يسيطر عليه ويكبحهم.

إن الأمراء ـ وخاصة حديثي العهد منهم ـ قد وجدوا من هؤلاء الذين كانوا ينظرون إليهم بشك في بداية عهدهم إخلاصًا أكثر مما وجدوه فيمن كانوا موضع ثقتهم منذ البداية. وقد حكم "بانولفوبتروتشي" ولايته بمن شك فيهم أكثر من حكمه لها بغيرهم. ولكننا لن نسهب في هذا الموضوع. ولكني أقول إن الأمير من الممكن أن يكسب ود من كانوا أعداءه عند بداية حكمه بسهولة وسيخلصون له أكثر من غيرهم وذلك لأنهم يدركون أن عليهم أن يبطلوا بأعمالهم ذلك الرأي السيئ الذي سبق للأمير أن كونه عنهم. وبهذا فإن الأمير سيستفيد منهم أكثر من هؤلاء الذين اعتادوا خدمته فأهملوا لاطمئنانهم إليه.

ولكني أغفل ذكر الأمير الذي أخذ ولاية جديدة بعد أن ساعده أهلها سرًا، لأن الموضوع

يتطلب ذلك ، وأرئ أن عليه أن يضع في اعتباراته تلك الدوافع التي أدت بهم إلى ذلك. فإن لم يكن ذلك بسبب حبهم له، وإنما فقط بسبب غضبهم من أوضاع الولاية السابقة، فإنه سيواجه متاعب كبيرة ومشكلات كثيرة، وذلك لأن رضاهم عنه من المستحيل.

وحين نتناول أسباب الأمثلة التي استخرجتها من الأزمنة الحديثة والقديمة نرى أن اكتساب صداقة الذين كانوا غير راضين عنك في النظام القديم، ومن كانوا أعداء لنا في بداية العهد، أسهل كثيرًا من كسب صداقة من ساعدوا الأمير على الاستحواذ على ولاية جديدة لسخطهم على النظام القديم.

وقد تعود الأمراء على إقامة القلاع حتى يستطيعوا السيطرة على ولاياتهم بسلام، وهي تعتبر وسائل دفاعية قوية ضد من ينوي لهم شرًا ، كما أنها ملاجئ آمنة عند حدوث هجوم مفاجئ وأنا مع هذه الطريقة التي استخدمت منذ القدم، إلا أننا نرى أن "نيقولو فيتللي" يهدم في عصرنا الحالي قلعتين في "سيتا دي كاستللو" لكي يحتفظ بالولاية ، كما أن دوق أوربينو" جيدو بالدو" يدمر كافة الحصون في أراضيه التي طرده منها قيصر "بورجيا" . لكنه حين عاد إليها وجد أن ضياع بلاده مرة أخرى وهي بدون حصون أصعب مما لو كانت لازالت باقية. وعلى هذا فإن فائدة القلاع تتوقف على الفترة الزمنية التي تمر بها. وهي إن كانت ذات قيمة جيدة في وقت ما، نجدها مضرة في وقت آخر. وعلى ذلك يمكننا أن نتناول الأمر بهذه الطريقة: على الأمير الذي يخشى شعبه أكثر من خشيته للأجانب أن يقيم القلاع، وعلى من يخشى الأجانب أكثر من خشيته لشعبه أن يظل بدونها. إن قلعة ميلانو قد تسببت وسوف تسبب لعائلة "سفورتسا" متاعب تفوق أي اضطراب آخر شهدته هذه الولاية. ولهذا فإن أفضل الحصون هو ما يقوم على حب الشعب لأميرهم فإنك إذا ملكت الحصون القوية فهي لن تحميك من شعب يكرهك، إنه سيشهر السلاح في وجهك ولن يكون في حاجة لأجانب يساعدونه. ولم نر أي مثل في عصرنا الحاضر لحصون استفاد منها الحاكم فيما عدا الكونتيسة "فورلي" عندما مات زوجها الكونت "جيرولامو" . فقد استطاعت بفضل حصنها أن تفر إليه من الشعب ، وتنتظر المساعدة من "ميلانو" ومن ثم تستعيد الولاية. وقد كانت الظروف في ذلك الوقت تسمح للأجنبي بأن يساعد الشعب. وفيما بعد لم تستفد الكونتيسة مما تملك من قلاع أي فائدة، وذلك حين هاجمها قيصر "بورجيا" وكان شعبها يعاديها فتحالف مع الأجنبي. وقد كان من الأفضل للكونتيسة أن تكون محبوبة من شعبها بدلا من أن تملك القلاع والحصون . وعلى ذلك فإني أمتدح من يقيم الحصون ويستخدمها استخدامًا صحيحًا في وقت مناسب، كما أمتدح من لا يقيمها

عندما تكون إقامتها خطرًا عليه. وألوم كل إنسان يعتمد على القلاع والحصون ويثق بها ولا يهتم كثيرًا بكراهية الشعب له.

21 ماذا يفعل الأمير حتى ينال الشهرة؟

لا شيء يؤدى إلى احترام الأمير بشدة سوى أعماله العظيمة، والأعمال غير العادية بصفة عامة. وفي عصرنا هذا لدينا مثال وهو "فرديناند" ملك "أرجون"، وملك "أسبانيا" الحالي. ويمكننا أن نسميه أمير حديث العهد، فقد أصبح أول ملك في العهد المسيحي، بعد أن كان ملكًا ضعيفًا، وذلك بعدما اكتسب الشهرة والمجد. وإذا ما تناولنا أعماله كلها فسنجدها كلها أعمالا عظيمة جدًا، وبعضها خارق للعادة. فقد هاجم غرناطة في بداية عهده، وكانت هذه الحملة أساسًا لمجده. فقد عمل ذلك وهو لا يزال خالي البال، لا يخشى تدخل أحد . كما جعل عقول بارونات "كاستيل" تشتغل بهذه الحملة، فلم يخطر ببالهم تجديد الأوضاع السياسية، ولم ينتبهوا إلى أنه بذلك قد نال شهرة وسلطانًا على حسابهم، كما أنه صان جيشه بأموال الكنيسة والشعب، ومن خلال تلك الحرب الطويلة وضع أسسًا لقوته العسكرية التي اشتهر بها فيما بعد. بالإضافة إلى استخدامه للشدة الدينية، مما مكنه من أن يقوم بحملات أعظم من الحملة السابقة، فقضى على المغاربة قضاءً مبرمًا، وطردهم من مملكته، كل ذلك تحت شعار الدين، وهو مثال سياسي نادر، حيث هاجم أفريقيا بنفس الطريقة أيضًا، كما قام بحملته على إيطاليا، وعلى فرنسا فيما بعد، وكان يصطنع مشكلات كبيرة ألهت عنه الرعية، وجعلتهم مشغولين بصفة دائمة، وقد نتجت هذه المشكلات عن بعضها البعض فلم يعط الناس فرصة للاستقرار والعمل ضده.

ويستفيد الأمير أيضًا فائدة كبرى عندما تكون له أعمالًا عظيمة وبارزة في الإدارة الداخلية. مثل ما ينسب إلى "برنابو الميلاني". ومن الناحية الدينية يجب على الأمير البحث عن طريقة مناسبة للثواب والعقاب، وهو أمر كثر الحديث عنه، وهما يأتيان عندما يقوم الفرد بعمل فذ سواء كان خيرًا أم شرًا. وعلى الأمير أيضًا أن يسعى في كل الأعمال التي تكسبه شهرة بالعظمة والتميز.

ويُحترم الأمير بشدة إذا كان مخلصًا في الصداقة أو شديد العداء، وذلك حين يعلن

بصراحة تامة تأييده أو عداءه لفرد ما. وهي سياسة أكثر نفعًا له من أن يبدو محايدًا دائما. فإذا بدأ القتال بين دولتين متجاورتين، فقد يخشى انتصار أي منهما، أو لا يخشاه. وأيا كانت الحالة من الأفضل لك أن تعلن موقفك بوضوح، وتعلن الحرب. فإذا لم يتضح موقفك، فإنك ستقع فريسة للمنتصر في الحالة الأولى. وهذا يرضي الدولة المنتصرة ويقنعها. ولن تستطيع تبرير موقفك أو الدفاع عن نفسك، ولن يقبل أحد مقابلتك. فكل منتصر لا يريد أصدقاء مشكوك في أمرهم، لم يمدوا إليه يد المساعدة في وقت الشدة. كما أن المهزوم لن يقبلك أيضًا لأنك لم تستل سلاحك وتخاطر بنفسك من أجل قضيته.

لقد أرسل الأيتوليون "أنتيوكس" إلى بلاد الإغريق لطرد الرومانيين منها، كما أرسلوا الخطباء إلى الآخرين الذين كانوا أصدقاء الرومانيين لتشجيعهم على البقاء على الحياد. ومن ناحية أخرى، طلب منه الرومانيون أن يحملوا السلاح ويعاونهم وعرض الأمر على مجلس الآخيين للبحث، وسعى سفير "أنتيوكس"، ورد السفير الروماني على ذلك بقوله: "إن ما يقال عنه خير لدولتكم وذو فائدة لها، هو أبعد شيء عن الحقيقة، لأنكم إن لم تتدخلوا في الحرب ستصبحون فريسة للمنتصر فيها، ولن يذكر لكم أي فضل أو تنالوا أي ذكر".

وفي أغلب الأحوال يطلب منك صديقك أن تفصح عن موقفك وتشهر السلاح، أما من هو ليس صديقا لك فسيطلب منك البقاء على الحياد. والأمراء ضعاف الهمة عادة ما يفضلون الحياد تحاشيًا للأخطار، وهي طريقة غالبًا ما تدمرهم. لكن الأمير حين يعلن عن موقفه صراحة ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضممت إليه، فسيظل يدين لك بالمعروف حتى لو كان قويًا وبقيت أنت تحت سلطانه، وستستمر الصداقة بينكما بعد أن بدأت. ولن تصل خيانة الرجال بأي حال من الأحوال إلى أن يبطشوا بك وأنت من أحسنت إليهم في يوم من الأيام. بالإضافة إلى أنه يندر أن يتم النصر بصورة تجعل المنتصر يتحلل من كل أعمال الخير، وخاصة العدل. أما إذا هزم حليفك، فيمكنك الاعتماد عليه وسيساعدك مادام قادرًا على ذلك وتشتركان في قدر واحد قد يصعد نجمه من جديد. أما في الحالة الثانية التي لا يخشى فيها أي من المتحاربين من أي ناحية، يظل من الأفضل بالنسبة لك أن تناصر أحدهما، فأنت تسعى إلى تدمير واحد منهم بمساعدة من كان ينبغي له أن ينقذه لو كان عاقلًا، فإن انتصر. وهذا مضمون بمساعدتك له. فإنه يظل طوع أمرك.

وهنا يتحتم علينا أن نلحظ أنه من واجب الأمير أن يحذر التحالف مع من هو أقوى منه حتى يعتدي على غيره، إلا إذا كان مضطرًا لذلك كما سبق أن أوضحنا، لأنه إذا ظفر

هذا الحليف بالنصر، فستظل أنت تحت سلطانه. ومن واجب الأمراء أن يتجنبوا أن يكونوا تحت إمرة وإرادة غيرهم قدر المستطاع. لقد اتحد البنادقة مع دوق ميلانو رغم أنه كان باستطاعتهم تجنب هذا التحالف الذي أدى إلى تدميرهم. ولكن إذا لم يستطع الأمير تجنب ذلك مثلما حدث في حالة الفلورنسيين عندما ذهب البابا وأسبانيا بجيوشهما للهجوم على "لمبارديا"، وينبغي للأمير حينئذ أن يتحالف مع الآخرين للأسباب السابق ذكرها. ولا يجب أن يدع الحكومة تعتقد أنها قادرة على السير بسياسة واحدة صحيحة، ولكن من الأجدر بنا أن نجعلها تعتقد أن كل السياسات مشكوك فيها، وهذا الأمر من طبيعة كل شيء. فالإنسان عندما يحاول تجنب صعوبة ما دون الاصطدام بغيرها، ومن الحكمة أن نكون قادرين على معرفة طبيعة الصعاب التي تواجهنا وتحديد أقلها ضررًا.

وعلى الأمير أيضًا أن يُكرِّم الموهوبين ويميز القادرين، ويحمي البارزين في كل فن، بالإضافة إلى أنه من واجبه أن يحث مواطنيه على ممارسة العمل وهم مطمئنو البال، سواء كان هذا العمل تجارة أو زراعة أو صناعة يعمل بها الناس. وذلك حتى لا يحجم الناس عن الإبداع فيما يفعلون خوفًا من المصادرة، أو أن يحجم البعض الآخر عن بدء صناعة خوفًا من الضرائب، وينبغي مكافأة كل من يقوم بهذه الأعمال، وكذلك كل من يسعى لتحسين أحوال المدينة، أو الولاية بأي طريقة. بالإضافة إلى أنه يجب عليه أن يلهي شعبه بالمهرجانات، والمعارض في المواسم السنوية المختلفة. ولما كانت كل مدينة تتألف إما من طوائف عمالية، أو من طبقات اجتماعية، فإنه لا ينبغي للأمير أن يغض بصره عن كل هذه الطوائف والفئات. ويجتمع معهم من وقت لآخر. وأن يكون مثالاً أمامهم لعظيم الكرم، والإنسانية دون أن يقلل من مستوى إجلاله واحترامه وألا يسمح بذلك أبدًا في أي وقت.

22 حول أمناء الأمراء

إن اختيار أمناء للأمير لا يعتبر أمرًا قليل الأهمية، فالأمناء إما صالحون أو غير صالحين، وهذا يتوقف على حكمة وذكاء الأمير. ويمكننا أن نقيم الحاكم وعقله حين نرى من يحيط به من رجال. فإذا كانوا قادرين ومخلصين يمكننا دائمًا أن نعتبر أن الأمير من الحكماء، حيث استطاع أن يحدد قدرات أمنائه، وأن يحافظ على إخلاصهم له. ولكن إذا كانوا غير ذلك يمكننا أن نكون رأيًا غير جيد عن الأمير لأنه قد أساء الاختيار.

وما من أحد تعرف على "أنطونيو دافنافرو" كوزير لباندولفو بتروتشي أمير "سيينا" إلا واعتبره رجلًا حكيمًا، وذلك لأن أمينه هو أنطونيو. وللرجال ثلاثة عقول مختلفة: الأول يفهم الأمور دون أن يحتاج لمساعدة من أحد. والثاني يفهمها حين يوضحها له غيره، والثالث لا يفهم الأمور بمفرده ولا حين يشرحها له أحدهم. والنوع الأول هو أكثر تميزًا، والثاني ممتاز أيضًا، أما الثالث فهو عديم المنفعة، ولذا فإن باندولفو إن لم يكن من النوع الأول، فإنه من النوع الثاني على أي حال. فالأمير دائمًا يستطيع الحكم على أعمال الآخرين سواء كانت خيرًا أم شرًا حتى وإن كان عقل الأمير غير جيد. كما أنه يستطيع التمييز بين الأعمال السيئة والأعمال الصالحة ويصحح الأولى، ويحض على الثانية. وإذا كان الأمين لا يستطيع أن يأمل في خداع الأمير، لذلك فهو يظل صالحًا.

وهناك صفة أخرى يمكن بها للأمير أن يعرف وزيره، وهي طريقة صائبة دائمًا. فإذا وجدت الوزير يفكر في نفسه أكثر مما يفكر فيك، وأنه يبحث عن مصلحته الشخصية في جميع أعماله، فإنه لن يكون وزيرًا صالحًا، ولا يمكنك أن تعتمد عليه. فواجب من يمسك بزمام الأمور في ولاية غيره أن يفكر في الأمير فقط، ولا يفكر في نفسه أبدًا. وألا يهتم بشيء سوي ما يخص الأمير. ومن ناحية أخري ينبغي للأمير أن يصون وفاء أمينه له، فيفكر في أحواله ويكرمه ويغدق عليه، ويرفع منزلته ، ويسند إليه الأعمال الكبرى. ويستطيع الأمراء وأمناؤهم الاعتماد على بعضهم البعض حتى تستمر هذه العلاقة. أما إذا شاب العلاقة غير ذلك فالنتيجة هي المضرة دائمًا سواء لهذا أو لذاك.

كيف يمكن تجنب المتملقين؟

يجب ألا نغفل عن موضوع هام، وهو ذكر خطأ الأمير الذي لا يمكن تجنبه بصعوبة، إلا إذا كان على درجة عالية من الحكمة، أو لم يسئ الاختيار وهو يتعلق بالمتملقين الذين يمتلئ بهم كل بلاط، فالناس يسعدون بما يخصهم،وينخدعون بالتملق، لدرجة أنهم لا يستطيعون تجنب هذا الطاعون إلا بصعوبة بالغة. وهم يغامرون باحترامهم حين يودون مواجهته، ويصبحون مكروهين. وليس هناك طريقة أخرى أمام المرء يقي بها نفسه شر التملق سوى أن يدع الناس يدركون أنه يحب أن يسمع منهم الحقيقة. لكنك تفقد احترامهم لك لو سمحت لكل منهم أن يخبرك بالحقيقة. ولذلك على الأمير أن يتبع طريقة ثالثة، وهي **أن يختار من ينصحونه من حكماء الناس،**

ويمنحهم الحرية التامة كي يتحدثوا إليه عما يسألهم عنه من أمور فقط وليس عن أي شيء آخر. وعليه أن يسألهم عن كل شيء، ويسمع رأيهم، ثم يتناول الأمر مع نفسه وعلى طريقته الخاصة، وأن يجتمع بنفسه مع مجالسهم، ومع كل منهم على انفراد، حتى يستطيع كل منهم أن يدرك أنه كلما كان ذا رأي حر كان أكثر قبولا عند الأمير. ولا يجب على الأمير أن يستمع إلى غير هؤلاء الذين أعدهم لهذا الأمر، وأن يعمل بتأنٍ ويفكر جيدًا، وأن يكون حازمًا فيما يتخذه من قرارات. ومن يفعل غير ذلك إما أن يؤدي به التملق إلى التعجل ، أو أنه لا يستقر على رأي أبدًا، ونتيجة كل ذلك أنه يفقد اعتباره وهيبته.

وسوف أضرب مثالًا حديثًا. فقد قال القسيس "لوقا" مندوب الإمبراطور الحالي عن جلالته وهو يتحدث عنه: "إنه لم يستشر أحدًا أبدًا، إلا أنه لم يفعل أي شيء بناء على رغبته". وهذا يعني أن أتباعه يفعلون عكس ما تم ذكره، ولما كان الإمبراطور رجلًا كتومًا لا يحكي لأحد عن نياته، لم يستمع لأي نصيحة، وكان مَن حوله يعارضونه عندما يعرفون ما يريد حين ينفذه ويتكشف للجميع، فيخرج الإمبراطور قليلًا عن هدفه. ومن هنا يكون ما يفعله اليوم لا يفعله غدًا. ولا يعرف أي أحد ما يريد أن يفعله الإمبراطور ولا ما يقصده وبالتالي لا يستطيع أحد الاعتماد على قراراته.

ولكل هذا ينبغي للأمير أن يستشير دائمًا ، عندما يكون هو فقط في حاجة للاستشارة وليس عندما يريد غيره. وينبغي أن يكون الأمير سائلًا محنكًا، ومستمعًا متأنيًا لما يسأل عنه، وأن يغضب ممن يحجم عن ذكر الحقيقة المجردة وكما هي تمامًا وهو يحدثه. ويخطئ من يظن أن الأمير الحكيم حكيم بسبب طبيعته الشخصية فقط، لكن ذلك يرجع أيضًا للمستشارين المحيطين به. والقاعدة الثابتة تقول: إن النصيحة المسداة إلي الأمير غير الحكيم لن تجدي، إلا إذا كان هذا الأمير غير الحكيم قد تخلي عن ذاته وسلم نفسه لرجل يسيطر عليه تمامًا في كل الأمور، وكان هذا الرجل ذا حكمة جيدة، وفي هذه الحالة سيكون حكمه صالحًا. لكن هذا الأمر لا يطول ، لأن هذا الحاكم سيجرده من الولاية . وإذا أخذ الأمير غير الحكيم المشورة من عدد كبير من الناس ، فإنه لن يستطيع التوفيق بين آرائهم المختلفة أو الاختيار منها لأنه غير حكيم، وسوف يفكرون جميعًا في مصالحهم الخاصة، ويعجز هو عن تقويمهم وفهمهم. ولا يمكن أن يحدث غير ذلك لأن الناس يقولون لك الصدق إذا اضطروا لذلك. ولهذا يجب أن تكون النتيجة التي نصل إليها هي : **تعود النصائح الحكيمة لأي ناصح كان إلى حكمة الأمير، ولا تعزى حكمة الأمير إلى ما يتلقاه من نصائح صالحة.**

24 لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم؟

إن مراعاة ما سبق أن ذكرناه من أمور بحكمة يجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم في الحكم ، كما أنه يصبح فورًا أكثر ثباتًا في الولاية وأكثر سلامة كما لو كان أميرًا منذ سنوات عديدة. والناس يتابعون أعمال الأمير الجديد أكثر من متابعتهم لأعمال الأمير الذي ورث الإمارة، وحين تعتبر هذه الأعمال أعمالا فاضلة، يرتبط به الناس ارتباطًا أوثق مما لو كان أميرًا قديمًا. لأن ما يحدث حاليًا يجذب اهتمام الناس أكثر مما حدث في الماضي ، وحين تكون حالتهم الراهنة جيدة يرضون بها ولا يبحثون عن غيرها. ولكن على العكس من ذلك تمامًا، فهم سوف يبذلون كل ما في وسعهم للدفاع عن الأمير. وهكذا يتضاعف مجد الأمير: فقد أرسى عهدًا جديدًا وهذا مجد يحسب له، والمجد الآخر يتمثل في إقامته للولاية على القوانين الصالحة والأسلحة الجيدة والأصدقاء الصالحين والقدوة الصالحة. بينما يتضاعف عار الأمير الذي يولد أميرًا ويفقد عرشه بسبب افتقاره إلى الحكمة.

وإذا تناولنا من فقدوا عروشهم في عصرنا بإمعان، مثل ملك نابولي ودوق ميلانو وغيرهم، فإننا سنجد نقصًا في أسلحتهم بصفة عامة لأسباب سبق أن ناقشناها بالتفصيل، وأن بعضهم يعاديه شعبه. وإذا لم يكن الأمر كذلك فقد يكونون على غير ثقة من النبلاء، فهذه هي الأسباب التي تضيع الولايات ذات الجيوش. إن فيليب المقدوني (وليس فيليب أبو الإسكندر الأكبر) بل إنه هو من هزم على يد "تيتوس كونتيوس" لم يكن له دولة عظيمة يمكن مقارنتها بعظمة روما وبلاد الإغريق التي شنت عليه هجومًا قويًا، ولكنه كان رجل حرب يعرف كيف يحصل على مساندة الشعب، وكيف يأمن عِلْيَةَ قومه، فاستطاع أن يستمر في الحرب ضد الأعداء سنوات طويلة. وإذا كان قد فقد سيطرته على بعض المدن في النهاية إلا أنه ظل قادرًا على الاحتفاظ بالمملكة.

ولذلك على الأمراء الذين سيطروا على مملكاتهم لسنوات طويلة ألا يتهموا الحظ كسبب لفقدانهم لها، ومن الأجدر بهم أن يتهموا إهمالهم، لأنهم لم يحسبوا حسابًا للاضطرابات التي قد تحدث بعد الفترات الهادئة (شأنهم في ذلك شأن كافة البشر الذين لا يتوقعون العواصف عندما يكون الطقس معتدلًا). وحين تغيرت الأحوال فروا بدلا من الدفاع عن

أنفسهم. وكانوا يأملون أن يستدعيهم الشعب حينما يستاء من غطرسة المعتدين. وهذه طريقة جيدة إن لم يكن أمامهم سواها. ولكن من السيئ جدًا إهمال الطرق الأخرى من أجل استخدام هذه الطريقة، فما من عاقل يرغب في السقوط وهو يعتقد أنه قد يجد من يأخذ بيده، وهو أمر قد يحدث وقد لا يحدث، وإذا حدث لك هذا الأمر فلا تكن مطمئنًا ، لأنك لم تعتمد على نفسك، ولكن ساعدك الآخرون كما يساعدون الجبناء. إن طرق الدفاع الصالحة الوحيدة والأكيدة والدائمة هي تلك الطرق التي تعتمد وحدك وعلى قدراتك وليس على الآخرين.

25 دور الحظ في العلاقات البشرية وكيف يمكن التصدي له؟

أعرف أن العديد من الكتّاب يرى أن الحظ يسيطر على أحداث هذا العالم، وأن البشر ليس باستطاعته أن يغيرها أيًا كانت، ولذلك فإن كثرة التعب في الحياة غير مفيدة، لنذر الصدفة تحكم الأمور. وهذا الرأي يجد تأييدًا كبيرًا في أيامنا هذه بسبب ما يحدث من تغيرات كبيرة وأحداث إنسانية . لكني حين أفكر فيها أميل أحيانًا إلى الانضمام إلى هذا الرأي إلى حد ما. لكن ، وحتى لا نقضى على إرادتنا قضاء تامًا، أرى أنه من الأصوب أن نعتبر أن الحظ يحكم نصف أعمالنا، ويترك لنا النصف الآخر تقريبًا. وإني أشبه الحظ بالنهر الهائج القوي سريع التيار، الذي يقبض على السهول، ويقتلع الشجر، ويهدم المباني، وينقل التربة من شاطئ لآخر، يفر الناس أمامه، ويستسلم الجميع لهياجه، ولا يقوون على الوقوف أمامه. ومع ذلك ورغم طبيعته هذه فإن الناس يظلون قادرين على مواجهته والاحتراس منه، فهم يبنون السدود والجسور حين يكون هادئًا ، فإذا ما هاج يجري في قناة أوتقل خطورته واندفاعه. وبالمثل نجد أن الحظ تظهر قوته فقط إذا لم تكن هناك تدابير متخذة ضده. فيوجه نفسه إلى حيث لا توجد تدابير ضده أو موانع تعوقه. وإذا ما نظرنا إلى إيطاليا التي كانت مسرحًا لهذه التغييرات ، وكانت سببًا فيها، فسنجدها بلدًا بلا أي حواجز أو جسور من أي نوع. ولو أنها محمية بطريقة صحيحة مثل ألمانيا وأسبانيا وفرنسا، لما استطاع فيضان أن يؤثر فيها بشدة هكذا، وربما لم يكن ليحدث أصلًا.

وهذا كاف للتصدي للحظ بصفة عامة، ولكني حين أقتصر على حالات خاصة فإني أشير إلي مثال يحدث وهو أن المرء قد يري أميرًا يأتيه الحظ اليوم ، ثم يحطمه غدًا، والأمير على حاله لم تتغير أخلاقه أو غيرها. وأول أسباب ذلك هو أن الأمير الذي يعتمد تمامًا على الحظ يهلك إذا تغير حظه. وأعتقد أيضًا أن السعيد هو من تتفق أعماله مع متطلبات العصر، وفي المقابل فإن التعيس هو من لا تساير أعماله عصره. وذلك لأن المرء يرى الرجال من خلال ما يفعلونه من أجل تحقيق أغراضهم ، وبطرق مختلفة. فهذا يصل بالحذر ، وذلك يصل بالتسرع ، وآخر بالعنف، أو بالمكر أو بالصبر، وآخرون يستخدمون عكس هذه الصفات. وكل منهم قد يحقق هدفه رغم اختلاف مناهجهم تمامًا. وقد نرى رجلين حذرين ينجح أحدهما في الوصول إلي ما يريد ، ويفشل الآخر، ورجلين آخرين يحققان نفس القدر من النجاح رغم اختلاف طريقتيهما، فهذا مندفع والآخر حذر. والسر في هذا التباين يرجع إلى طبيعة العصر واتفاقها مع ما يقومون به من أعمال أم لا. وعلى هذا الأمر تتوقف أيضا التغيرات التي تحدث في مدى الرفاهية. فإذا كان الزمان والظروف المعاصرة ملائمين لمن يعمل بحذر فإنه سينجح ، ولكن إذا تغير الزمان والظروف ، فإنه يهلك لأنه لم يغير من طريقة تناوله للأمور. ولا يوجد هناك حكيم يستطيع التكيف مع كل الأحوال أيًا كانت . وذلك إما لفشله في التكيف مع ما لا تمكنه منه طبيعته ، أو لأنه ينجح فقط إذا اتبع طريقة واحدة ثابتة.

وقد كانت كل أعمال البابا "جوليوس" متسرعة ، وكان الوقت والأحوال المحيطة ملائمين، فكان دائمًا ما يصل إلى نتيجة طيبة. فإذا نظرنا إلى أول حرب قام بها ضد بولونيا وذلك أثناء حياة "جيوفاني بنتيفوجلي" وهي لم تلق ترحيبا لا من البنادقة ولا من ملك أسبانيا، كما أن فرنسا قد أجرت معه حوارًا بشأن الحملة. ومع ذلك قام بالإعداد للحملة بنفسه لما لديه من استعدادات جيدة وما يتصف به من تعجل. ولذلك توقفت أسبانيا والبنادقة وترددوا. وكان دافع البنادقة في ذلك هو الخوف بينما كانت أسبانيا ترغب في استعادة جميع مملكة نابولي. لكنه أشرك معه ملك فرنسا الذي لاحظ إقدامه فرغب في مصادقته ليكسر شوكة البنادقة، وأدرك في نفس الوقت أن البابا لن يرفض مساعدته له بقواته لأن في ذلك إهانة شديدة، وهكذا تمكن "جوليوس الثاني" بتعجله ما لم يكن باستطاعة أي بابا آخر أن ينجزه مهما أوتي من حكمة . لأنه لو انتظر حتى تتم كل الترتيبات ويعد كل شيء قبل أن يغادر روما لما نجح أبدًا. حيث إنه من المحتمل أن يجد ملك فرنسا ألف عذر، وأن يوحي إليه الآخرون بألف من المخاوف. وإني أكتفي بعمله

هذا دون بقية أعماله الأخرى، وجميعها من هذا النوع، وكلها نجحت نجاحًا كبيرًا. فهو لم يجرب الفشل وحياته كانت قصيرة. وربما كان قد هلك لو أنه واجه ظروفًا كان من الضروري له فيها أن يعمل بحذر وتأن.

والخلاصة هي أنه : إن تغير الحظ وبقي البشر على طريقتهم الثابتة فإنهم يحققون نجاحًا طالمًا تلاءمت هذه الطرق مع الظروف المحيطة بهم. لكن عندما تتعارض الطرق مع الظروف المحيطة فإنهم لا يحققون نجاحًا. وإني أرى أن الإقدام أفضل من الحذر، فالحظ امرأة لن تفر بها إلا بالقوة. ومن الممكن أن نلاحظ أن الحظ يستسلم للشجاع أكثر من أولئك الذين يعملون بروية. ولهذا فالحظ كالمرأة يصادق الشباب دائمًا . لأنهم أكثر عنفًا وأقل حذرًا، ولذلك فهم يسيطرون عليه بجرأة تفوق جرأة الآخرين.

26 دعوة إلى تحرير إيطاليا من البرابرة

والآن فإني قد تناولت كل الأمور التي تحدثت عنها وتأملتها في داخلي، وقلت في نفسي هل الوقت الحاضر ملائم لظهور أمير جديد في إيطاليا، وإن كانت الأوضاع غير مناسبة لذلك، لكني أرى أن الأحوال تتلاقى وتتشابك حتى يستفيد منها حاكم جديد يقوم بهذا العمل المجيد. ولا أجد أن هناك وقتًا أنسب من الوقت الحاضر. وإذا كان من الضروري أن يكون بنو إسرائيل عبيدًا في مصر حتى تظهر لنا قدرات موسى -عليه السلام- . إذن لابد أيضًا لإيطاليا أن تصل إلى وضع أحط من عبودية بني إسرائيل ، وأن يُبطش بها أكثر مما حدث مع الفرس، وأن يتفرق شملها وتصبح بلا حاكم وبلا نظام ومنهوبة وممزقة الأشلاء ومغلوبة على أمرها بعدما مرت بكل أنواع الدمار.

إلا أن هناك بارقة أمل في فرد محدد قد يهيئه الله لخلاص البلاد، إلا أن حظه قد تعثر وهو في قمة مهمته، وأصبحت إيطاليا الآن بعد أن فارقت الحياة في انتظار من يضمد جراحها ويضع حدًا لما يحدث في "لمبارديا" وللسلب والنهب في مملكة "نابولي" و"توسكانيا" ، ويبرئ إيطاليا من هذه الجروح المتقيحة . إن إيطاليا تتضرع إلى الله كي يرسل إليها من يخلصها من قسوة البرابرة وإهاناتهم. كما أنها مستعدة للعمل تحت لواء يرفعه أي إنسان. ولا أمل لإيطاليا الآن إلا أن يتزعم مقامكم العالي هذا التحرير، فهو عال بنفوذه وطالعه السعيد، ويناصره الله والكنيسة التي يستمد منها سلطانه. وهذا

الأمر لن يكون شاقًا لو وضعت نصب عينيك ما ذكرته من أعمال الرجال وقصص حياتهم، وإن كان هؤلاء الرجال فرادى وقلة نادرة، إلا أنهم بشر مثلنا على أي حال، والفرصة التي أتيحت لكل منهم كانت أقل من الفرصة الحالية، فأعمالهم لم تكن أكثر عدلًا من هذا العمل العظيم أو أشد سهولة منه، كما أن الله في عونك لأن قضيتك عادلة. إضافة إلى أن هناك معجزات كثيرة قد حدثت من قبل في مثل هذه القضايا التي تدافع عن العدل مثل انشقاق البحر، والغمامة، وتفجر الماء من الصخر، ونزول المن من السماء، والآن تكاتفت كل الظروف لإعلانك، وما عليك إلا أن تكمل ما تبقى، فالله سبحانه وتعالى لا يفعل لنا كل ما نريد حتى تصبح لدينا إرادة حرة وننجزه وبذلك ننال نصيبنا من المجد.

وليس من العجيب أن أحدًا ممن ذكرت من الإيطاليين لم يقم بما نأمل أن يفعله مقامك العالي. وإذا كانت القدرات العسكرية قد قضى عليها تمامًا في ثورات إيطالية كبيرة جدًا، وفي العمليات العسكرية الكبيرة، فإن سبب ذلك هو الأساليب القديمة غير الصالحة ، ولا شيء يحقق للرجال المجد الكبير سوى سن القوانين الجديدة، وهي أمور تجعله موضع إعجاب واحترام، ويوجد في إيطاليا ما يسمح بإدخال نظم جديدة. ولننظر كيف أن فئة من الإيطاليين قد تفوقت في القتال الفردي والمبارزات، إلا أن جيوشها كانت ضعيفة، والسبب يعود بالكامل إلى ضعف القادة، فلم يظهر من بينهم حتى الآن من يجعل الآخرين يطيعونه دون تذمر. ولذلك كان الفشل هو حليف الجيوش الإيطالية لفترة طويلة من الزمن، وفي كل الحروب التي قامت خلال العشرين عامًا الأخيرة. وهذا واضح في كل من "تارو" و"كابوا" و"زجنوا" و"فايلا" و"بولونيا" و"مستري".

ولهذا إذا أراد سموكم أن يقتفي آثار العظماء من القادة الذين حرروا أوطانهم ، فلابد لك أولًا أن تُعد نفسك بالأساس الصحيح لما ستقوم به، وهو قواتك الوطنية، فلن تجد جنودًا يخلصون لك أكثر منهم، ولن تجد أفضل منهم. وإذا كانت الجيوش جميعًا جيدة وهي فرادى، فإنها ستكون أجود إذا اتحدت تحت قيادة أمير يكرمها وتنال رضاه، ولهذا فمن الضروري أن تكون هذه القوات التي تدافع عن الوطن من الإيطاليين. وعلى الرغم من أن المشاة السويسريين والأسبان أقوياء جدًا إلا أن لكل منهما عيوبها ، ويمكننا أن نتصدى لهما بتنظيم عسكري مختلف، ولابد من أن تكون على يقين من النصر عليهما ، فالأسبان لا يستطيعون الصمود أمام هجوم الفرسان، والسويسريون لابد أن يخافوا ملاقاة مشاة أقوياء مثلهم. وأمامنا أمثلة كثيرة منها موقعة"رافنا" حيث هاجم مشاة الأسبان على الكتائب الألمانية المنظمة بنفس طريقة تنظيم السويسريين. إلا أن الأسبان بخفتهم،

وباستخدام ما لديهم من تروس قد تمكنوا من اختراق الصفوف، وأن يحصنوا أنفسهم في مواقع يهاجمون منها هجومًا موفقًا. ولولا إغارة الفرسان عليهم لتمكنوا من القضاء على الجميع بالكامل. وإذا عرفنا عيوب هذين النوعين من المشاة فإننا سنتمكن من تشكيل نوع ثالث قادر على مقاومة الفرسان، ولا يخشى المشاة، وهذا يتم باختيار الأسلحة والتنظيم الجديد وهي الأمور التي تمنح الأمير الجديد سمعة طيبة ينال بها العظمة حين يطبقها لأول مرة.

ولهذا لا يجب أن تفوت هذه الفرصة دون اقتناص، حتى تجد إيطاليا من يحررها أخيرًا.وأنا لا أستطيع أن أعبر عن الحب الذي سيقابل به من يحرر كل هذه الولايات التي ذاقت الأمرين بسبب الغزو الأجنبي، وعن المتعطشين للثأر وما سيلاقيه المحرر من ولاء ثابت، وعقيدة قوية، ودموع الشكر والعرفان بالجميل. فأي باب يمكن أن يغلق في وجه هذا المحرر؟ ومن ذا الذي يرفض أن يطيعه؟ وأين الإيطالي الذي لا يقبل أن يسانده؟ إن رائحة السيطرة الأجنبية تزكم كل الأنوف، فهل لمقامكم العالي أن يؤدي هذا الواجب بشجاعة وأمل كبير في هذه القضية العادلة، حتى ينهض وطن آبائنا وأجدادنا تحت راية الوطن ويصدق في ذلك الحين تمامًا قول الشاعر بترارك:

استثار الغضب حمية الأبطال

فحملوا السلاح وسعوا للنزال

جمعت أرض الأجداد أيادي الرجال

فبلادنا نابضة ولن نكف عن القتال

ملاحق الكتاب

مقالات ودراسات نقدية عن الكتاب:

لم يكتب نيقولو «مكيافيللي» الكثير من الكتب، وأغلب ما خلف من أعمال عبارة عن مقالات ورسائل ودراسات صغيرة، لكن أشهر كتبه هي:

1 - كتاب الأمير

2 - كتاب أحاديث (هناك من يسميه باللغة العربية المطارحات أو المقالات)

3 - كتاب تاريخ فلورنسا

4 - كتاب فن الحرب (وهو الكتاب الوحيد الذي طُبع أثناء حياته)

5 - جذور تفاح الجن (وهو أكبر أعماله الأدبية)

وفيما يلي مختارات من بعض الدراسات النقدية التي صدرت في أوروبا، وقد لاحظت أن كثيرًا منها يحاول تبرئة «مكيافيللي» من أي اتهامات وجهت إليه، لذلك علقت عليها:

«مكيافيللي» والأمير ... وتاريخ إيطاليا

● كُتب «مكيافيللي» وتاريخ إيطاليا:

لابد لنا حتى نفهم كثيرًا مما كتبه «مكيافيللي» أن ندرس تاريخ إيطاليا في الفترة التي ألف فيها هذه الكتب، فهذا أمر مفيد في فهمها وخاصة كتاب «الأمير».

ففي عام **1429**م تولت أسرة مديشي حكم فلورنسا على يد «كوزيمو دي مديشي» الذين استمر حكمهم حتى عام **1494**م، ففي ذلك العام فر حفيده الأكبر «بييرو دي مديشي» من فلورنسا عندما غزا الفرنسيون إيطاليا. وعلى ذلك نرى أن «مكيافيللي» عاش السنوات الخمس والعشرين الأولى من حياته تحت حكم الطغاة. وأكثر حكام أسرة مديشي اعتدالاً هو «كوزيمو»، وقد مات قبل أن يولد «مكيافيللي». ومع ذلك فحتى «لورانزو» وهو أحد حكام تلك الأسرة -وكان أكثرهم اندفاعًا وتطرفًا وحكم في الفترة من عام **1469**م وحتى عام **1492**م- حافظ على الدستور. ولم تنقطع أكبر أسر فلورنسا وهي أسرة «جراندي» عن التواصل مع جماهير الشعب. فكانوا كما أسماهم بعض الدارسين من «عامة النبلاء» وذلك لاحتفاظهم بتلك العلاقة الطيبة مع عامة الشعب. وكانت هذه الأسرة تحترم حكم الشعب ظاهريًا على أي حال. وكان هناك في فلورنسا صراعات ونزاعات بين الفقراء والأغنياء وكانت حادة ومريرة. أي أن حال فلورنسا كان لا يختلف كثيرًا عن أي منطقة أخرى في إيطاليا. لذلك فقد نشأ «مكيافيللي» في دولة لم تفقد فيها الحرية جاذبيتها أبدًا. وكانت تبدو قريبة المنال دائمًا.

● حكم سافونارولا:

عندما هرب «بييرو» استعاد الراهب الدومنيكاني «سافونارولا» الحكم الشعبي. أي أن ما يقرب من ثلاثة آلاف مواطن استعادوا الحقوق السياسية الخاصة بتسعين ألف مواطن. ولم يكن «سافونارولا» من مواطني فلورنسا، ولكنه قدم إليها من «برجيا». وقد جاءها لأول مرة في عام **1482**م ومكث هناك لمدة خمسة أعوام. لكنه وبعد أن جاء مرة أخرى في

عام **1490**م قام بهذا العمل العظيم وتبعه كثير من المؤيدين. وقد كان واعظًا عظيمًا وشجاعًا ومؤثرًا في عواطف الشعب، وقد أحبه الفقراء وخشيه الأغنياء. وكان ديموقراطيًا ومتمسكًا بالأخلاق، فهاجم الفساد والرغد الزائد عن الحد والحياة غير الملتزمة بقيود، وخاصة في الكنيسة وأجهزة الدولة. وفي النهاية تسبب الأغنياء –بدعم من البابا– في إسقاط «سافونارولا» وموته في عام **1498**م. إلا أن الديمقراطية التي عرفتها فلورنسا عاشت **14** عامًا بعد وفاته، أي حتى عام **1512**م. وفي ذلك العام تمكن جيش أسبانيا الغازي من إعادة حكم عائلة مديشي مرة أخرى. وقد حضر «مكيافيللي» عظتين على الأقل من العظات التي ألقاها «سافونارولا» ولم يتأثر بأي منهما. إلا أنه أعجب بشجاعته وأمانته وبهجومه على الفساد والفاسدين من رجال الدين[1].

● «مكيافيللي» والعمل في الدولة :

وفي يوم **19** يونيو من عام **1498**م، وبعد أقل من شهر من احتراق «سافونارولا» أختير «مكيافيللي» رئيسًا للمحكمة العليا الثانية، وفي يوم **14** يوليو اختير أمينًا لـ«مجلس العشر». وبالرغم من أن المحكمة العليا كانت تختص بالأمور الدولية والمحكمة العليا الثانية كانت تختص بالأمور الداخلية، إلا أن أعمالهما تداخلت ويرجع ذلك لعمل «مكيافيللي» في «لجنة العشر»، وهكذا عندما تولى «مكيافيللي» وظيفتين من الوظائف العليا في الدولة أصبحتا وظيفة واحدة. وخلال **14** عامًا قضاها في الخدمة أُرسل في كثير من المهمات الرسمية في ولايات إيطالية أخرى وخارج إيطاليا. فقد زار فرنسا ثلاث مرات في الأعوام **1500**-**1504**-**1510**م. وبلغت الفترة التي قضاها هناك خلال الزيارات الثلاث عامًا كاملًا.

---

(1) - هذا يؤكد عدم اهتمام "مكيافيللي" بالالتزامات الأخلاقية والهدي الديني، كل ما كان يشغله هو أمور الدنيا والسياسة والحرب حتى وإن كان ذلك بالتخلي عن الفضائل. (المترجم)

● سفريات ومهمات:

وفي ربيع عام **1503**م وبعد موت «بيوس الثالث» (الذي خلف بورجيا وحكم فلورنسا لمدة **23** يومًا فقط) بفترة وجيزة ذهب «مكيافيللي» إلى روما وقضى هناك أول شهرين من حكم «جوليوس الثاني» وكان أكثر باباوات عصر النهضة جرأة واندفاعًا. وفي سبتمبر من عام **1506**م عاد «مكيافيللي» ليساند «جوليوس الثاني» مرة أخرى، وذلك عندما قرر دخول «برجيا» بدون سلاح ليستردها من «جيوفانبولو بجليوني» الذي لم يجرؤ على المقاومة رغم أنه كان مسلحًا. وفي نهاية عام **1507**م سافر «مكيافيللي» في مهمة إلى القصر الإمبراطوري في ألمانيا. ثم عاد إلى فلورنسا في يونيو من العام التالي.

● أهم المهمات:

إلا أن المهمة التي قام بها «مكيافيللي» وتركت أثرًا عميقًا فيه، كانت تلك المهمة التي ذهب فيها إلى «قيصر بورجيا» في الخريف وبداية الشتاء من عام **1502**م. وأثناء ذلك غرر «بورجيا» بحلفائه الذين فقدوا الثقة فيه وقتلهم جميعًا. وقد وصف «مكيافيللي» ذلك الحدث في كتاباته فيما بعد. وأثناء كل تلك المهمات (التي ذكرت أهمها فقط) كان «مكيافيللي» يرسل تقاريره إلى فلورنسا. وكانت تلك التقارير من أفضل ما كتبه. فقد كتبها بتفصيل ووصف كامل. فقد كانت اللعبة السياسية تستهويه وكان مهتمًا بكل اللاعبين فيها. وكلما كانت مراكزهم أعلى، زادت المخاطر وكان الأمر مثيرًا لاهتمامه بشدة.

● القوات الوطنية ... فكرة «مكيافيللي»:

كان «مكيافيللي» هو المحرك الرئيسي وراء برنامج تزويد «فلورنسا» بقوات وطنية موثوق بها، وذلك لتحل محل القوات الخاصة التي كانت «فلورنسا» تستأجرها مثلها في ذلك مثل باقي الولايات الإيطالية، حيث تستأجر القوات للحروب. وقد أقامت تلك القوات التي أشرف «مكيافيللي» على جمعها أول استعراض لها في الميدان الرئيسي في المدينة. وقد كان ذلك في شهر فبراير من عام **1506**م. وفي ديسمبر من نفس العام شكلت لجنة لتولي تلك القوات وعمل «مكيافيللي» أمينًا لها. وقد كان «مكيافيللي» مخلصًا في ذلك العمل ويعمل بجد ودأب وكان يحب العمل العام. وهو يرى أن أفضل ما قدمه لوطنه من خدمات

هو إيجاد ذلك الجيش. إلا أن هناك من شكك في فعالية وحسن تدريب ذلك الجيش. وعلى الرغم من ذلك ساعد ذلك الجيش «فلورنسا» في استعادة مدينة «بيزا» إلا أنه لم يقم بدور كبير ولم يظهر سوى مقاومة ضعيفة أمام الجيش الأسباني عندما احتل «براتو» في عام 1512م، وذلك حين أعيدت أسرة مديشي للحكم.

● طرد «مكيافيللي» من العمل:

وفي يوم السابع من نوفمبر 1512م طرد «مكيافيللي» من عمله المزدوج السابق الإشارة إليه. ومع بداية عام 1513م أوشى شابين به عند السلطات بوضع اسمه في قائمة المتعاطفين مع النظام السابق، فألقي القبض عليه ووضع في السجن وناله الكثير من العذاب والتنكيل خلال 23 يومًا قضاها هناك قبل أن يطلق سراحه.

وطوال حوالي 8 سنوات بعد عودة أسرة مديشي للحكم، لم يكن لـ«مكيافيللي» أي عمل رسمي. وقد كانت سنوات البطالة هذه عبء كبير على كاهله. ولم يكن ذلك بسبب فقره فقط، ولكن بسبب بعده عن السياسة وأحداثها، فذلك هو العالم الذي أحبه «مكيافيللي».

وفي عام 1513م كتب «مكيافيللي» أشهر كتبه وهو كتاب «الأمير» وبدأ في كتابه «أحاديث»، وخلال الأعوام السبع التالية كتب قصيدة ساخرة لم تكتمل بعنوان «الأبله» وكان لم يكمل كتاب أحاديث بعد. كما كتب أيضًا كتاب «فن الحرب».

● هجوم ونقـــد:

لقي اقتراح «مكيافيللي» بأن يحل الجنود الوطنيون محل الجنود المرتزقة المستأجرين نقدًا شديدًا. حيث قالوا إن القوات المستأجرة ضرورية لقيام أي دولة قوية، وأن القوات التي أشرف على تدريبها وإعدادها بنفسه كانت تتصف بالجبن والتخاذل. كما أنه من المؤكد أن «مكيافيللي» لم يناقش في كتابه «فن الحرب» العلاقة بين الجيش والأحوال الاجتماعية، ولم يتنبأ بكيفية تكوين القوات في المستقبل، وذلك بالرغم من أنه عمل مهم وخلاق. ولأن «مكيافيللي» تعلم كثيرًا من الحياة وليس من الكتب، لذلك فالكتب التي لفتت انتباهه أكثر هي تلك الكتب التي تلقي الضوء على ما خبره في حياته.

وحتى يوم 20 نوفمبر 1520م لم يكن «مكيافيللي» يعمل في أي وظيفة بدخل شهري ثابت. وفي ذلك اليوم كلفته الجامعة بكتابة تاريخ فلورنسا، وقد استغرق هذا العمل وقتًا طويلاً أكثر من أي عمل كتابي آخر قام به.

إلا أن «مكيافيللي» لم يكن يومًا محل الثقة التامة من عائلة مديشي، وذلك لارتباطه الوثيق بالنظام «الديموقراطي» الذي انتهى في عام 1512م، وبخاصة مع «بييرو سودريني» الذي ترأس ذلك النظام لعدة أعوام، لكن هناك أسبابًا أخرى أيضًا. وذلك على الرغم من أن هناك آخرين ممن كانوا موضع شك مثله لكنهم تمكنوا من نيل ثقة هذه الأسرة بسبب مساعي وسطاء كانوا أكثر إقبالاً على التوسط بقوة أو أنهم كانوا أقل غرورًا منه. لكن هناك سبب آخر ربما يكون له أثر أيضًا إلى جانب هذه الأسباب، فقد كان «مكيافيللي» معروفًا بالسرعة والمهارة والجرأة وكان لسانه حادًّا جدًا.

● بارقة أمل ... وعمل جديد:

وفي عام 1521م عمل «مكيافيللي» لأول مرة منذ عام 1512م في وظيفة حكومية، فقد أرسله المجلس التنفيذي في فلورنسا ليمثلهم في «كاربي». وكانت مهمة غير ذات أهمية وقصيرة. وقد قبلها «مكيافيللي» -بلا شك- على أمل أن تؤدي إلى ما هو أهم فيما بعد. إلا أنه خاب أمله طويلاً. حيث لم يكلف بأي عمل حتى عام 1526م أي قبل وفاته بقليل، وفي ذلك العام حصل على وظيفة دائمة ومهمة. فقد أنشئ مكتب جديد للدفاع عن فلورنسا وتم اختيار «مكيافيللي» أمينا له، واختير ابنه «برناردو» مساعدًا له. وكان الهدف هو بناء أسوار عالية للحماية، ولم يقض «مكيافيللي» وقته كله في تفقد الأسوار، بل كان يذهب في مهمات إلى «لومباردي» ويرسل من هناك تقارير عن الموقف العسكري، وكان كل كبار المسئولين في فلورنسا يطلعون على تلك التقارير. كما كان «كلمنت السابع» يقرأ تلك التقارير أيضًا في روما، فقد كانت المنطقة مهددة بالحرب.

● مكيافيلي يسقط مريضًا ثم يموت بعد عزله وإبعاده عن الحكم!

وهكذا عاد «مكيافيللي» إلى المجال الذي أحبه بشدة. فهو يحب أن يكون في قلب المشكلات التي تصنع التاريخ. لكن ذلك الحال لم يستمر طويلاً. فقد كانت قوات الإمبراطور الفرنسي في طريقها إلى روما. وقد مرت من «لومباردي» و«توسكاني» و«فلورنسا» دون أن تهاجمها. ووصلت تلك القوات إلى روما في يوم 4 مايو 1527م، ففر البابا من روما إلى «سيفيتافيشيا» وكان «مكيافيللي» هناك لمساندته. وهناك علم

«مكيافيللي» أن سقوط «روما» أسقط أيضًا عائلة «مديشي» في «فلورنسا» وبذلك أصبحت جمهورية حرة مرة أخرى. وقد احتفظ الحكام الجدد في «فلورنسا» ببعض الأشخاص الذين كانوا يعملون مع أسرة «مديشي» في مناصبهم، إلا أنهم لم يحتفظوا بـ«مكيافيللي». وبهذا أصبح «مكيافيللي»، الجمهوري ذو التاريخ الطويل من العمل مع حكومة حرة، بلا عمل. وسرعان ما سقط مريضًا بشدة ثم مات بعد ذلك في نفس العام.

● مؤلفات مكيافيلي وطباعتها بعد وفاته:

لم يطبع من أعمال «مكيافيللي» في حياته سوى عمل واحد وهو «فن الحرب»، وذلك في عام **1521**م. ولم تتم طباعة باقي كتبه الأربعة وهي: الأمير – أحاديث – تاريخ فلورنسا إلا بعد وفاته بأربعة أعوام. وكان من يأمر بطباعتها هو «كلمنت السابع»، فقد أصدر أمرًا بذلك يوم **22** أغسطس **1531**م. ومن العجيب أن من تولى طباعة كتب «مكيافيللي»، هو نفسه من تولى طباعة قائمة الكتب الممنوعة في عام **1559**م وهي تضم كل كتب «مكيافيللي» وليس كتاب «الأمير» فقط.

وقد تم تداول نسخ يدوية من كتاب «الأمير» وكتاب «أحاديث» وكان «مكيافيللي» لا يزال على قيد الحياة، وقد لقيا إقبالاً كبيرًا في «فلورنسا» و«البندقية». وإن كان «مكيافيللي» قد شعر في أيامه الأخيرة بأنه محبط، فليس ذلك الإحباط بسبب فشله ككاتب أو مفكر، ولكنه كان بسبب خروجه من اللعبة السياسية وتحوله إلى مجرد مشاهد.

● مكيافيلي مفكرًا وإنسانًا!

وقد اتهم «مكيافيللي» كثيرًا بأنه يحقر من شأن الطبيعة الإنسانية، إلا أنه يبدو أفضل من كثيرين غيره. فهو دؤوب ومحب للعمل العام، كما أنه وطني وشديد الأمانة. كما أنه زوج محب وإن لم يكن مخلصًا، وهو أب محب وصديق كريم ومخلص لأصدقائه. ولا توجد أي تسجيلات أو مؤشرات تدل على كونه قاس أو خائن أو ناكر للجميل. فهو يبدو شخصًا ألطف بكثير مما تقوله كلماته في كتاب مثل «الأمير».

● أفكار الأمير:

وضع «مكيافيللي» فكره ونظرياته في كتابي «الأمير» و«أحاديث» بوضوح. فقد اهتم في هذين الكتابين بالإجابة عن أسئلة مثل:

- كيف تقام الولايات القوية ؟
- كيف يتم الحفاظ عليها ؟

• كيف تنهار تلك الولايات ؟

وفي كتاب «الأمير» كانت هناك ولايات محددة في ذهنه تخضع لحكم رجل واحد ذي قبضة قوية. وقد تحدث عن إقامة تلك الولايات وعن كيفية الحفاظ عليها، كما تحدث عن الأسباب التي أدت إلى انهيارها.

أما في كتاب «أحاديث» فقد أولى جل اهتمامه بالجمهوريات، فقد اهتم بأمورها أكثر من الممالك والإمارات. وقد ناقش فيه أيضًا الحفاظ على الولايات وانهيارها كما ناقش كيفية إقامتها. وفي الكتابين وضع «مكيافيللي» أسئلة من نفس النوع، ثم أجاب عليها بنفس الطريقة. وهو في إجاباته يعتمد على التاريخ وعلى خبراته السياسية. وهذا ما دفع البعض إلى تسميته «عالم سياسي». ولدعم رأيهم هذا، استندوا إلى ما قاله في الفصل الخامس عشر من كتاب الأمير: « وأنا أعلم أن هناك الكثير ممن سبقوني للكتابة في هذا الموضوع وأخشى أن يعتبر ما أكتبه نوعًا من الغرور حين يختلف عما كتبه الآخرون. لكني لا أود إلا الوصول إلى الحقيقة وليس تخيلها وأن الأصح هو أن أكتب ما يفيد الآخرين وليس ما نتخيله.»

إلا أن هناك موضوعين أو ثلاثة موضوعات تخص الطريقة التي استخدمها «مكيافيللي» وأريد أن أشير إليها، وأولها أنه كان يميل إلى الوصف والنصح بقدر ميله إلى الشرح. فعلى سبيل المثال: لم يتطرق «مكيافيللي» إلى أسباب سقوط الولايات القوية فقط بل أعطى النصح الوفير حول كيفية منع ذلك السقوط أو التدهور باتجاهه. فقد كان مهتمًا بالنصح بأفضل ما يجب فعله، وذلك بالرغم من أنه لم يقدم قاعدة رئيسية للتعامل أو ترتيبًا تصاعديًا لما يراه من قواعد. كما أنه اكتفى بأن يعلن في كلمات قليلة أنه يبحث عن الحقيقة، ثم يواصل حديثه ليقول إن هناك فرقًا ما بين كيف يعيش الناس وكيف يجب أن يعيشوا، بينما نجد أنه (العالم بما يجب الابتعاد عنه وما يجب الاقتراب منه) يعلم عن التدمير أكثر مما يعلم عن الحفاظ على الأشياء. إذن فهو لا يحدث الناس عما يجب أن يفعلوه بل يحدثهم عن الطبيعة العبثية للإنسان وعن أن حالة الناس يمكن أن تختلف كثيرًا عما تبدو عليه.

• «مكيافيللي» وعلم «الاجتماع السياسي» :

كما أن هناك العديد من الأشياء يقوم بها علماء «الاجتماع السياسي» لا يفعلها «مكيافيللي» ولم يحاول ذلك أبدًا. فهو لم يوضح الفرق بين أنواع الحكومات المختلفة أو

بين الأنظمة السياسية المختلفة. كما أنه لم يعرض أي صفات لأحد الأنظمة تميزه عن أي نظام من الأنظمة الأخرى. أي أنه لا يوجد أي دليل لنقول إن ما كتبه تنويري ومفيد أكثر مما كتبه الآخرون. كما أنه لم يقم بأي تجارب ولم يضع أي افتراضات اختبرها من قبل أو اعتمد على بعض الحقائق الثابتة ذات العلاقة بالموضوعات التي يناقشها. وأخيرًا، فهو لم يضع نموذجًا نظريًا يشرح فيه سلوك الإنسان. كما أنه لم يتحدث عن احتياجات الناس ودوافعهم ومواقفهم ومواردهم. وفي نفس الوقت يتحدث عما يجب فعله وما يجب تجنبه... كيف !!!

● أين النموذج المثالي ؟

كما أن كتاب «الأمير» وكل كتب «مكيافيللي» خالية من النموذج الذي يجب أن يحتذى به. لذلك فعندما قال «مكيافيللي» إنه هجر الطرق التي يستخدمها الآخرون، لم يقل إن لديه طرقًا أفضل أو طرقًا مختلفة لشرح الحقائق. كما أنه أوضح أنه لا يصف الجمهوريات المثالية. فهو يرى أنه من الخطورة أن ينزلق إلى مثل ذلك الوصف. وذلك لأن من يصف تلك الجمهوريات يعتقد أو لديه قليل من الاعتقاد باحتمال وجودها. وهذا غير صحيح ومن دروب الخيال. فلا يوجد ما هو نموذجي.

فإذا نظرنا إلى «مكيافيللي» بعد مضي **500** عام، فسنجد أنه مختلف عمن سبقوه من كتاب في مجال السياسة وعمن جاءوا بعده أيضًا. وعلى العكس من كتاب العصور الوسطى، فهو لم يقل إن المجتمع والحكومة هم جزء من نظام إلهي. كما أنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى ما قاله كثير من هؤلاء الكتاب عن هدف الله (عز وجل) من خلق العباد. كما أنه لم يتحدث عن الحياة الهانئة وعن قوانين الحياة التي يمكن أن يتبعها الإنسان. كما أنه لم يناقش أي إلتزامات سياسية أو حدود تلك الالتزامات وأسسها، ولا إلى واجب الرعية نحو الحاكم وطاعته. إلا أن سكوته وعدم تناوله لموضوعات أسهب فيها كثيرون غيره لا يعتبر دليلاً على الكفر، بل قد يكون تعبيرًا عن عدم الالتزام بالأخلاقيات. فهو عادة يتكلم بعدم احترام عن الباباوات والقسس بسبب ما رآه من أعمالهم.

● سياسي أم فيلسوف ؟

ليس من الإنصاف أن نقول إن «مكيافيللي» عالم سياسي أو إنه عالم أخلاقيات. كما أنه بالتأكيد ليس فيلسوفًا. فهو لم يحاول تعريف المبادئ الأخلاقية الأساسية ولم يشر إلى أهمية الالتزام بها.

من كل ما سبق نخلص إلى أن «مكيافيللي» اعتبر أن المجتمعات الإنسانية تتماسك بنفس الطريقة في أي مكان من العالم وتحركها نفس العواطف والحوافز، إلا أنه لم يجهد نفسه بتعريفها أو توصيفها. كما أنه عندما تحدث عن الخير ليوضح الفرق بينه وبين الفضائل، تحدث عما يراه هو أو عن نظرته إليهما. كما أنه افترض أن الناس جميعًا لديها نفس العواطف والحوافز، وكلما تمسك الناس بها كلما كانوا متدينين. وكانت مثل تلك الافتراضات شائعة في عصره. أما ما لم يكن شائعًا، فهي طريقته في التحدث عن الأخلاق والدين. فقد كانت طريقة أكثر بساطة ومباشرة عما اعتاد الناس قراءته في الكتب. كما أنه كان من الضروري لمن يتحدث عن الأخلاق وطبيعة البشر ومدى التزامهم بالأخلاق الطيبة أن يتحدث عن الله، حيث كان من المعروف أن الدين يدعم الأخلاق.

لكن كثيرًا من الأخلاق التي تحدث عنها «مكيافيللي» أخلاق انتقائية يمكن العمل بها عند الحاجة والعمل بعكسها إذا دعت الضرورة. وذلك في عصر اعتاد الناس فيه على أن الدين هو دعامة الأخلاق وأن العقيدة أساس الخلاص. و«مكيافيللي» لا ينكر ذلك إلا أنه لا يذكره أيضًا ولم يتحدث عنه. وعندما قارن ما بين المسيحية والديانات الأخرى، لم ينصف المسيحية على أي حال. والأسوأ هو أنه كرر أفكارًا غريبة تواترت عن الأخلاق والدين، إلا أنه قدمها بأسلوبه المزعج والمحير.

● أفكار «مكيافيللي» عن الفضيلة والخير والدين:

اتهم «مكيافيللي» بأنه كاتب غير أخلاقي، ولاقى نقدًا كثيرًا. وذلك بالرغم من وجود مؤيدين له ومدافعين عنه. وكان كثير منهم من كبار المفكرين في القرن التاسع عشر. ولكن لماذا أيده هؤلاء ودافعوا عنه؟ أعتقد أن جزءًا من هذا الدفاع يعود إلى ما تميز به «مكيافيللي» من جرأة وما كان لديه من رغبة في أن يسلك منهجًا للتفكير مختلفًا عن غيره. ويقول أحد النقاد إن هذا المنهج قد وضع بداية لفلسفة جديدة.

و«مكيافيللي» ليس فيلسوفًا بدأ بالشك مثل «كانط»، لكنه اعتمد على استخدام افتراضات وأفكار معروفة منذ زمن طويل لتوضيح أنها بلا أي أسس أو بلا مضمون أو متضاربة. لكنه وفي نفس الوقت اعتبر أن الاستفادة من الأخلاق لتحقيق رغبات الإنسان من المسلمات التي لا تحتاج إلى أي إثبات. لذلك يمكن التوقف عن الالتزام بها عند عدم الحاجة إليها.

● تعميم الخاص ليس من الإنصاف:

هناك من يرى أن «مكيافيللي» يتناول حالات خاصة لا يمكن القياس عليها لا من حيث المبادئ الأخلاقية ولا من حيث التصرفات العادية على أقل تقدير. وهذا هو السبب الذي وصمه بأنه كاتب لا أخلاقي. وهناك من يرى أن ذلك أمر سائد في جميع البشر، فأنت من الممكن أن تكذب على صديق لك أو أن يخون ذاك علاقة طيبة مع رفقاء أو أهل أو صحبة أو حتى زوجة. لكني أعتقد أن كل ذلك يأتي من قبيل محاولات تبرئة الرجل من الوصمات التي وصم بها نفسه، حيث كتب بيده كل ما هو مشين ومخز.

وهناك تفسير آخر يري أن كتاب الأمير لم يأت بشيء مشين، وذلك لأن الحياة الخاصة تختلف عن الحياة العامة، والأخلاق الطيبة والسمعة الحسنة ضرورية للإنسان في حياته العادية، أما في مجال السياسة فلا مجال للالتزام بها لأنها عالم مليء بالشرور.

وهناك من رأى أن ما كتبه «مكيافيللي» من توصيات شريرة متعددة في كتاب الأمير ما هو إلا من قبيل الصراحة القاتلة. وأنه صريح جدًا حتى فيما يحرص الجميع على إخفائه، وأن هذه الصراحة مفيدة للأمير الموعود !!

وخلاصة القول فإني أرى أن كل تلك التفسيرات ما هي إلا محاولات لتجميل وجه الكتاب القبيح. فالحق أبلج كضوء النهار، والباطل متعثر دائمًا ويبحث عن أي أسباب تقربه شكلاً فقط من الحق حتى ينخدع الناس.

● ردود فعل غريبة:

اندهش الملك فريدريك ملك بروسيا مما عُرف عن «مكيافيللي» وكتابه، وذلك على الرغم من كونه ملكًا وقد يضطر إلى الكذب، بل وإلى ارتكاب الأعمال الوحشية أحيانًا، إلا أنه اندهش أو على الأقل ادعى ذلك. أما الفيلسوف يوهان فيشته الذي يجب أن يسعى وراء الحقيقة والتلطف في ذلك إلى أبعد مدى، فلم ينزعج ولم يبد أي استغراب أو صدمة، وربما يكون قد أعجب بما كتبه «مكيافيللي» من توصيات آثمة. وقد شعر فيشته بأن عالم الأخلاقيات أو الكاتب السياسي الذي يكره «مكيافيللي» ويتهمه بسوء الأخلاق، يأفل نجمه بسرعة في عالم السياسة.

وأغلب ما أثير من جدل حول «مكيافيللي» كان يدور حول التمييز بين ما هو من الأعمال العامة التي يقوم بها المرء في عمله (والتي لا تخضع للقواعد الأخلاقية أو لا تخضع لها دائمًا) والمجال الخاص الذي يشمل العلاقات الخاصة التي لابد أن تطبق فيها القواعد

الأخلاقية. وبعض المعجبين جدًا بـ«مكيافيللي» يرون أن أعظم منجزاته هي أنه ميز بين هذه وتلك بوضوح وجرأة لم يسبقه إليها أحد، لذلك حاولوا تبرير الأمر. وإن كانت كلمة «تبرير» هنا غير كافية فالأمر يستتبع جرائم وقتل وخيانة وكل الخصال الدنيئة والخسيسة. كما أن «مكيافيللي» لم يبذل أي جهد يذكر «لتبرير» تلك النصائح الغريبة بالتخلي عن الأخلاق الحميدة، بل بذل جهدًا كبيرًا لإقناع القارئ بصحة ما يقول. كما بذل جهدًا في شرح وتوضيح نتيجة فعل أمر ما أو الإخفاق في فعل أمر آخر، وفي النهاية يترك القارئ ليستنتج ما يرى من نتائج. وهو لم يمتنع عن مدح ذلك الحدث أو انتقاد حدث آخر، وذلك في مناسبات محددة. لكنه لم يستخدم مصطلح الموافقة على أمر ما واستحسانه أو رفض أمر آخر واستهجانه، فهو لم يقل أبدًا صراحة هذا صحيح وهذا خاطئ. كما أنه لم يفرق في كثير من الأحوال بين ما هو عام وما هو خاص، ناهيك عن فتح المجال أمام اعتبار أفعال ما مقبولة في مجال ما ومرفوضة تمامًا في مجال آخر !!

● «مكيافيللي» لا يهتم بما يقوله الآخرون:

لم يهتم «مكيافيللي» بشرح ما على «الأمير» من التزامات، كما أنه لم يحدد واجبات أو حقوق الأمير أو الأمراء، أو حتى واجبات المواطنين أو كبار الموظفين. ولم يستح من النصح بالمنكر علانية ولم يبرر ذلك أو يحاول التبرير. بل أنه تساءل عما يمكن أن يكون عليه الأمير أو المواطن العادي من صفات حتى تصبح الدولة محترمة بين جيرانها. كما تساءل أيضًا عن صفات الأمير أو القائد الذي يطهر دولة من الفساد أو ينشئ دولة جديدة. لكن تلك التساؤلات كانت تتناول الجوانب النفسية والاجتماعية للأمير وليست الجوانب الأخلاقية.

وقد رد «مكيافيللي» على تلك التساؤلات بقوله إنها «الفضيلة»، فهو يرى أن الحل هو الفضيلة بمفهومه هو أو المفهوم السائد في عصره، وليست الفضيلة التي نعرفها نحن الآن، إنها الفضيلة التي تلجأ لكل الصفات الطيبة عند الحاجة ولكل الرذائل أيضًا عند الحاجة إليها.

● الفضيلة عند «مكيافيللي» :

والفضائل كما يراها «مكيافيللي» لا تشير دائمًا إلى صفات واضحة كما قد يتبادر إلى الذهن. فهناك اختلاف واضح بين الفضائل التي يجب أن يلتزم بها المسئول عن الدولة وإدارتها والفضائل التي يلتزم بها المواطن العادي. وقد اهتم كثير من الدارسين والنقاد

بالتمييز بين النوعين وتوضيح الفروق بينهما. وقد أطلقوا على النوع الأول من الفضيلة اسم «فضيلة الأبطال» والنوع الثاني اسم «الفضيلة المدنية». ولم يستخدم «مكيافيللي» بالطبع هذا التصنيف، كما أنه لم يتحدث بوضوح عن أن هناك نوعين من الفضائل !! لكنه وفي نفس الوقت استفاد من استخدام الكلمة بمعان كثيرة وليس بمعنى واحد أو معنيين اثنين فقط.

لكن وبغض النظر عن الصفات الكثيرة التي يعتبرها «مكيافيللي» من الفضائل، هناك صفات أخرى يراها أعمالًا طيبة أو أعمالًا صالحة. وهي أعمال لا يمكن أن تبدو واضحة في مجال السياسة ، إنها أعمال تتم بين الأصدقاء أو بين أفراد العائلة الواحدة أو في أي مواقف اجتماعية غير سياسية. و«مكيافيللي» بصفته كاتب سياسي ومؤرخ لديه الكثير عن الفضائل وليس عن الأعمال الصالحة. وإن نظرنا جيدًا في كتبه بصفة عامة، وكتاب «الأمير» بصفة خاصة، سنجد أنه لم يستخدم كلمة فضيلة أكثر من كلمة «عمل صالح» وكلا الكلمتين وردت عدة مرات فقط في كل أعماله. إلا أنه استخدم كلمة الفضيلة بمعان متعددة ولم يفعل ذلك مع كلمة «عمل صالح». وهكذا فإننا يمكننا أن نعلم أن كلمة فضيلة عنده معناها أكثر اتساعًا من كلمة «عمل صالح».

وعلى أي حال فإن الفضائل والأعمال الصالحة ضرورية ومكملة لبعضها، وذلك لأن الناس لا تعيش في مجتمع واحد وتتعامل مع بعضها البعض دونهما. كما أن الفضيلة والعمل الصالح مرتبطان. لذلك فلم يعجب «مكيافيللي» بأي شعب من الشعوب القديمة أو الحديثة أكثر من إعجابه بالشعب في روما، فهو يعتقد أنهم يتحلون بالفضيلة والعمل الصالح معًا، كما أنهم أيضًا (كما يعتقد هو) شعب متدين.

● نظرة «مكيافيللي» للفساد:

على الرغم من أن «مكيافيللي» في كل كتاباته يرى أن الفساد يحدث بسبب التخلي عن الفضائل وذلك لأنه يتناوله من ناحية العلاقات المدنية بين أفراد الشعب، إلا أن الأمر عنده مختلف تمامًا في مجال السياسة.

ويرجع البعض ذلك إلى أن «مكيافيللي» يحب أن يقول كلمات مرعبة ومفزعة وصادمة، وخاصة في كتاب «الأمير» وهذا هو التفسير الذي لجأ إليه كثير من محبي كتبه لتبرير ما جاء من تناقضات في كتاب الأمير على وجه الخصوص.

● أبطال كتاب الأمير:

إن كان هناك من بطل لكتاب الأمير، فهو «قيصر بورجيا». لكن وعلى الرغم من ذلك فقد ورد ذكر آخرين في الكتاب، بل إن «مكيافيللي» امتدحهم. ومنهم «أجاثوكل الصقلي». وإن قارنا بين هذين البطلين سنجد ما يلي: كلاهما قام بأفعال خاطئة أو جرائم، إلا أن أجاثوكل حقق طموحاته ولم يحقق بورجيا ما كان يطمح إليه. لكن ذلك العجز عن تحقيق قدر كاف من النجاح ليس سببًا يجعل «بورجيا» بطلاً أشهر. ولم يكن السبب هو أن أجاثوكل كان يفعل الخير وبورجيا لا يفعله. بل كان الفرق بينهما من وجهة نظر «مكيافيللي» هو أن «بورجيا» كان يحاول أن يفعل ما يجب فعله فعلاً. كما أنه كان يفعل ما يجب فعله ليس فقط من وجهة نظره هو بل من وجهة نظر الجميع.

● المدافعون عن «مكيافيللي» كثيرون:

ولم يأت «مكيافيللي» بهؤلاء الأبطال ولم يذكرهم في كتابه الأشهر إلا ليؤكد كلامه ونصائحه للأمير، حيث ذكر أسوأ ما يمكن ذكره عن أي منهما، وقد بذل كثير من النقاد –وخاصة النقاد الأوروبيون– جهدًا كبيرًا لتبرئة «مكيافيللي» من أي إثم. وما الحوار الذي ذكرته عن تعريف الفضيلة وتعريف العمل الصالح إلا نموذجًا عرضته عمدًا كمثال لتلك المحاولات اليائسة.

● «مكيافيللي» وحاسديه !!

ومن آخر تلك المحاولات أيضًا ما قاله أحد النقاد العرب، حيث ألقى باللوم كله على المسرح الإنجليزي في القرن السادس عشر. وادعى أن كتاب المسرح في ذلك القرن ومنهم «شكسبير» ألصقوا تلك التهمة بـ«مكيافيللي» بدافع الحقد والحسد !!

وهذا ادعاء مردود عليه أيضًا، فكتبه لا تحتاج إلى كل ذلك الدفاع المستميت عن الباطل. لكنها طبيعة الكون وطبيعة البشر، ألم يجد

الطغاة على مر التاريخ من يؤيدهم ويشيد بهم إلى يومنا هذا. ألن نجد من يمتدح ستالين وموسيليني وهتلر وكل الطغاة والمستبدين بل والسفاحين !! أليس هناك دلائل على أن بعض الطغاة ضلوا الطريق ولم يجدوا إلا كتابه طريقًا للجحيم. ألم يذكر لنا التاريخ أن محمد على باشا الكبير «مؤسس النهضة المصرية الحديثة» قد قام بمذبحة مشابهة لما ذكره «مكيافيللي» في كتابه. أليست المذابح العرقية موجودة في أنحاء متفرقة من العالم إلى يومنا هذا، وخاصة في دول العالم الثالث في أفريقيا وآسيا. وبعضها يتم دون أن يتحدث عنها أحد أو يعلم بوقوعها سوى بعدها بعدة أيام أو أشهر!! لكل ذلك لابد لنا أن نجد من يبرر وصايا «مكيافيللي» للأمير، بل ويمتدحه أيضًا. فمن لا ينكر ما حوله من شرور في عالم اليوم لا يرجى من ورائه قول الحق في كتاب صدر قبل **500** عام.

● خاتمة:

خلاصة القول إن كتاب الأمير لم يكن أول ما كتب عن الحرب والسياسة وإدارة شئون الدولة، فقد سبق «مكيافيللي» من كتب في تلك الأمور منذ فترة ما قبل الميلاد، وهو الصيني «سون تزو» في كتابه «فن الحرب».

والأمر الثاني الثابت والواضح وضوح الشمس هو أن كتاب الأمير يحتوي على نصائح مفيدة مثل حسن الاستعداد للحرب والتدريب الجيد والتزود بالقوات الوطنية والأسلحة الجيدة، وكذلك التحلي بدهاء الثعلب وقوة الأسد عند الحاجة إليهما.

لكن الكتاب وفي نفس الوقت يقدم نصائح أخرى ضد أي عرف أو أخلاق أو دين مثل النصح بقتل جميع من يدعم الجيش في حرب ما والقضاء على كل من له شعبية أو محبوب من الشعب دون أي ذنب اقترفوه، وذلك فقط من أجل الحفاظ على كرسي السلطة. هذا فكر يعتبر أن «الغاية تبرر الوسيلة» وأن الإنسان عندما يصبح حاكمًا يمكنه أن يكون أمينًا حين يحتاج إلى ذلك، ثم يكون خائنًا إذا لزم الأمر. وهكذا يكون الحال مع جميع الفضائل والصفات الحسنة !!

إيطاليا ومكيافيللي

احتفلت إيطاليا طوال عام 2013م بـ«مكيافيللي» وكتابه «الأمير»، أطلقوا على ذلك العام اسم «عام الأمير» وذلك بمناسبة مرور 500 عام على تأليف أهم وأشهر كتاب في عالم السياسة وهو كتاب «الأمير، وذلك بإقامة المعارض لكتبه ومخطوطاته ورسائله، من بينها معرض كبير افتتح مؤخراً في متحف فيتوريانو وسط العاصمة الإيطالية. وضم المعرض العديد من الأعمال الفنية المهمة، ومخطوطات نادرة ورسائل شخصية، وقطعاً قديمة أخذت من مجموعات أثرية خاصة وعامة مختلفة مثل أرشيف فلورنسا ومتحف النهضة في روما ومتحف الفاتيكان.

وبالإضافة إلى المعارض التي تستعيد قصة كتابه الأشهر «الأمير» عبر الأجيال، تضمن برنامج الاحتفال إلقاء المحاضرات وإقامة الندوات، التي دُعي اليها نخبة من الفلاسفة والمفكرين والمؤرخين، وهم ممن تخصصوا أو أسهموا في دراسة حياة «مكيافيللي» وأعماله، وكذلك نخبة من نجوم السينما والمسرح، الذين اشتركوا في أفلام وعروض مسرحية عن حياته أو مستوحاة من كتبه. وفي نفس المناسبة، صدرت طبعة جديدة راقية من مجموعة مؤلفات «مكيافيللي» الكاملة ضمن سلسلة «المكتبة الحديثة» في الولايات المتحدة الأميركية، وهي سلسلة قيمة رفيعة المستوى وتقتصر على عيون الكتب الفكرية والإبداعية في تأريخ الحضارة البشرية.

وهذا الاحتفاء في إيطاليا مقبول وواضح، فهي لا تنظر إلى «مكيافيللي» إلا على اعتبار أنه أحد الأبطال الإيطاليين الذين سعوا منذ وقت مبكر إلى توحيد إيطاليا، لذلك فهم يتغاضون حتى يومنا هذا عما جاء في الكتاب «الأمير» من تحريض ودعوة إلى الغدر وارتكاب الجرائم السياسية. إلا أنه وحتى يومنا هذا تعج مكتبات العالم بدراسات نقدية لا تزال توصم كتاب «الأمير» بصفات ورذائل كثيرة وتتناوله بالنقد المحايد، فتظهر ما في الكتاب من نصائح جيدة تخص الاستعداد للحرب والتدرب وحسن الإدارة السياسية للبلاد، وفي نفس الوقت تكشف ما فيه من حض على الخيانة والخداع والغدر وغيرها من صفات ذميمة.

فإيطاليا ترى في «مكيافيللي» رمزًا وطنيًا ناضل من أجل توحيد إيطاليا ومستقبل

أفضل لشعبه. وقد يتعجب القارئ ويقول كيف يمكن الاحتفال بذكرى تأليف كتاب «سيء الصيت» مثل كتاب «الأمير» ؟ ولكن لماذا نتعجب فكثير من دول العالم تحيي ذكرى كثير من قادتها الراحلين حتى وإن كانوا من غلاة الطغاة والمستبدين !!

مراحل حياة مكيافيللي.. وعلاقتها بالسياسة الإيطالية

يرى كثيرٌ من النقاد أن حياة «مكيافيللي» تنقسم إلى ثلاثة مراحل واضحة وهي: مرحلة الشباب – مرحلة العمل العام – مرحلة الإبداع والكتابة.

ولكل مرحلة من تلك المراحل تميزها وأهميتها في تاريخ فلورنسا. فقد أفل نجم عائلة مديشي الحاكمة لفلورنسا في عام **1494**م، وهو نفس العام الذي بدأ فيه «مكيافيللي» العمل السياسي الرسمي. وخلال فترة عمله الرسمي، كانت فلورنسا حرة وتحت حكم جمهوري استمر حتى عام **1512**م، وفي ذلك العام عادت أسرة مديشي للحكم مرة أخرى وفقد «مكيافيللي» وظيفته. وقد حكمت أسرة مديشي فلورنسا مرة أخرى في الفترة **1512**-**1527**م، ثم اضطروا إلى الخروج منها للمرة الثانية، وكانت تلك الفترة هي الفترة التي عمل فيها «مكيافيللي» بالكتابة والتي كان له فيها أثر واضح. لكنه مات قبل أن يحقق أمنيته بالعودة إلى العمل الرسمي، وذلك بعد عدة أسابيع فقط من طرد أسرة مديشي للمرة الثانية من فلورنسا، وكان في الثامنة والخمسين من العمر.

ونحن هنا وفي هذا البحث نركز على دراسة تلك المراحل بالتفصيل لأن مراحل حياة ذلك الرجل ارتبطت بفترة شديدة الاضطراب والتوتر في تاريخ إيطاليا، ومن خلال تلك المراحل أيضًا يتضح لنا مدى تأثر «مكيافيللي» وأعماله بتاريخ الفترة التي عاش فيها.

وربما كان «مكيافيللي» يحلم بتوحيد إيطاليا رغم كل الاضطرابات التي كانت تسود في عصره، إلا أنه كان يود تحقيق هذا الحلم بأي طريقة كانت حتى وإن كانت غير ملتزمة بالأخلاقيات والفضائل، وهذا ما تسبب في هجوم النقاد عليه طول **500** عام، فقد أسهب في وصف ما ينصح الأمير المرتقب به بكل صراحة ووضوح، فجاء الكلام فجًا وخاليًا من المشاعر الإنسانية.

وقد اتضح ذلك جدًا في كتاب «الأمير» وخاصة في الفصول من السابع عشر وحتى

الثالث والعشرين. حيث كان كلام «مكيافيللي» مباشرًا ودون أي تورية أو محاولة للتغليف أو التخفي وراء ستار أو التقدم الحذر. وكان «مكيافيللي» قد فعل ذلك في بداية الكتاب، حيث اقترب من الموضوعات الشائكة بحذر شديد. وربما يكون قد فعل ذلك متعمدًا، حتى يستدرج القارئ (وهو الأمير المرتقب الذي يأمل أن تتوحد البلاد على يديه) إلى ما يريد أن يغرسه فيه من قيم، ويبدو أن «مكيافيللي» كان يريد الوصول إلى هدفه المنشود (وهو توحيد البلاد) بأي ثمن وهذا يتمشى مع أشهر مبادئه وهو «الغاية تبرر الوسيلة».

فترة الشباب

والمقصود بفترة الشباب من عمر «مكيافيللي» هي الفترة منذ أن أدرك ما حوله من أحداث وحتى بلوغه الخامسة والعشرين من العمر. وعلى الرغم من أن هناك قليل جدًا من المعلومات المسجلة عن شباب «مكيافيللي»، إلا أن صورة الحياة في فلورنسا في ذلك العصر تمكننا من تخيل نشأته بسهولة.

حيث توصف فلورنسا في ذلك الوقت بأنها مدينة ذات تيارين متضادين للحياة. أحدهما يقوده المتحمس الصارم «سافونارولا»، والآخر يقوده محب العظمة «لورنزو». ومن الواضح أن تأثير سافونارولا على «مكيافيللي» في شبابه كان ضعيفًا. وذلك لأنهّ بالرغم من سيطرته على ثروات فلورنسا في وقت ما، لم يشر إليه «مكيافيللي» في كتابه الأمير إلا ليهزأ منه، وعلل تلك السخرية بأنه كان غير مسلح فلقي نهاية بائسة. وفي المقابل نجد أن عائلة مديشي متمثلة في حكم «لورنزو» في تلك الفترة كان لها أثر كبير وقوي وواضح على «مكيافيللي». فهو دائم الإشارة إليها في كتابه، كما أنه أهدى كتابه «الأمير» إلى حفيد لورنزو، فهو الأمل الذي كان ينتظره.

كما أن «مكيافيللي» كتب عمن عاش بينهم من شباب في كتب أخرى، فقال: «كانوا أكثر تحررًا من آبائهم في ملبسهم وفي طريقة حياتهم، فهم ينفقون كثيرًا من المال على الكماليات ويقضون أوقاتهم وينفقون أموالهم من أجل مزيد من الاسترخاء والألعاب والنساء. وكان هدفهم الأول هو حُسن المظهر والتحدث بذكاء وحدة. فالقادر على جرح مشاعر الآخرين بكلماته هو الأفضل والأكثر ذكاء.»

وقد قال «مكيافيللي» في خطاب لابنه «جيدو»: «تلقيت خطابك الذي سعدت به أيما

سعادة، وذلك لأنك أخبرتني أنك استعدت صحتك وعافيتك. وليس هناك من أخبار أفضل من ذلك. وإن رزقني الله العمر أنا وأنت، سأساعدك على أن تصبح رجلاً متميزًا إن ساعدتني على ذلك وقمت بما يجب أن تفعله. كل ما عليك الآن أن تذاكر دروسك، ولا حجة لك بالمرض فقد شفاك الله. ابذل كل جهدك في دراسة الأدب والموسيقى، وعليك أن تنظر إلى ما حققته أنا من نجاح مقابل قليل من المهارات. لذلك عليك بالتعب والاستذكار من أجل أن تحقق نجاحًا مماثلاً، فالآخرون يرحبون بمساعدتك إن ساعدت أنت نفسك.»

ومن الواضح في الرسالة السابقة أن «مكيافيللي» كان يود إعداد ابنه ليخلفه في المجتمع ويحقق ما لم يستطع هو تحقيقه، ويصبح أحد أبناء الطبقة المترفة التي أشار إليها في بداية الفقرة السابقة، والتي أعجب بها والتزم بأن يكون واحدًا من أفرادها.

العمل العام (1494-1512م)

من الخامسة والعشرين إلى الثالثة والأربعين من عمر «مكيافيللي». وهي الفترة الثانية من حياة «مكيافيللي» حيث عمل تحت الحكم الجمهوري الذي قام في فلورنسا بعد طرد عائلة مديشي في عام **1494**م إلى أن عادت مرة أخرى للحكم في عام **1512**م.

وقد قام «مكيافيللي» بالعمل لمدة أربع سنوات في منصب عام، حيث تم اختياره كمستشار وأمين عام للجنة العشر «للحرية والسلام». وخلال تلك الفترة قام «مكيافيللي» بدور رائد في شئون الجمهورية. وأكبر دليل على ذلك الدور هو ما صدر من قرارات وما يوجد من سجلات ورسائل توضح مكانته، وهذا واضح أيضًا في كتاباته. ومجرد تذكر ما قام به من أعمال مع رجال السياسة ورجال الجيش يشير بوضوح إلى ما كان يقوم به من أنشطة. كما أنه يكشف تلك المصادر التي استقى منها «مكيافيللي» خبراته وشخصياته التي صورها في كتابه الأشهر «الأمير».

وكانت أول مهمة قام بها في عام **1499**م إلى «كاترينا سفورزا» وقد ذكرها في كتاب الأمير باسم «أميرة فورلي»، وقد استخرج من شخصيتها وتصرفاتها ما كتبه في هذا الكتاب من أنه من الأفضل جدًا أن نحصل على ثقة الشعب، فهذا أفضل من بناء الكثير من القلاع والحصون. وهذا مبدأ عام واضح جدًا عند «مكيافيللي»، وهو يراه مهمًا جدًا لكل الأمراء.

وفي عام 1500م أُرسل «مكيافيللي» إلى فرنسا ليحصل على شروط لويس الثاني عشر للاستمرار في الحرب ضد «بيزا». ولويس الثاني عشر وهو ذلك الملك الذي أشار إليه في كتاب الأمير بقوله أنه ارتكب الأخطاء الخمس الكبرى، فقال:

«وبهذا يكون الملك لويس قد ارتكب خمسة أخطاء: سحق القوى الصغيرة، وزاد من نفوذ قيام دولة واحدة في إيطاليا، وجاء بأجنبي قوي جداً إلى داخل البلاد، ولم يذهب ليعيش هناك بنفسه، ولم ينشئ أي مستعمرات. ولو كان الملك لويس قد امتد به العمر لما أضير من هذه الأخطاء الخمس كثيراً.»

كما حفلت حياة «مكيافيللي» العامة بالعديد من الأحداث الناجمة عن طموحات البابا الكسندر السادس وابنه «قيصر بورجيا» والدوق فالنتينو وهي شخصيات تحتل مساحة كبيرة من كتاب الأمير. حيث لم يتردد «مكيافيللي» أبدًا في ذكر أعمال الدوق لصالح المغتصبين الذين يودون الاحتفاظ بالولايات التي اغتصبوها. كما أنه لم يجد أي مثال جيد يقدمه خيرًا من سلوك قيصر بورجيا وما قام به من أفعال، حتى أن كثيرًا من النقاد رأوا أن بورجيا هو بطل كتاب «الأمير».

وفي كتاب الأمير أيضًا، يقدم دوق بورجيا كمثال لمن يحقق انتصارات على أكتاف الآخرين، فيسقط معهم؛ وهو أيضًا ذلك الذي يسلك كل الطرق التي يمكن أن تنقذه وهو في نفس الوقت مستعد لكل الاحتمالات إلا الاحتمال الوحيد الذي يقع بالفعل. ذلك الإنسان الذي تفشل كل قدراته في تيسير أموره فيدعي أنه لم يخطئ لكنه قدر غير معتاد وغير متوقع أدى إلى ما حاق به.

ثم أرسل «مكيافيللي» إلى جوليوس الثاني في عام 1506م، وذلك عندما بدأ كبير الكهنة مغامرته المعادية لقيصر بورجيا، وحقق نجاحًا. وقد قام بالكثير من مغامراته بسبب شخصيته المتهورة المندفعة. وقد أشار «مكيافيللي» إلى ذلك عند حديثه عن البابا جوليوس الثاني، مؤكدًا على التشابه بين الثروة والنساء وأن من يملك الشجاعة والطيش هو من يفوز بهما معًا وليس من يملك الحكمة والحذر.

وكان من المستحيل أن نتمكن من تتبع ثروات الولايات الإيطالية في ذلك العصر. فقد كانت فرنسا وأسبانيا وألمانيا تسيطر عليها في عام 1507م، ونتيجة ذلك مستمرة إلى يومنا هذا، ونحن مهتمون بتلك الأحداث وبثلاثة ممثلين رئيسيين فيها، وذلك لأنها أثرت على شخصية «مكيافيللي». فقد التقى عدة مرات مع الملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا، وألمح إلى تقييمه لشخصية ذلك الملك في كتبه.

كما أشار «مكيافيللي» إلى فرديناند أراجون ووصفه بأنه قام بإنجازات كبرى من خلال عباءة الدين، لكنه في الحقيقة لا يرحم وليس له مشاعر إنسانية، كما أنه ليس مستقيمًا. وإن سمح لنفسه بالتأثر به، فسيؤدي ذلك حتمًا إلى تدميره.

وقد كانت شخصية الإمبراطور مكسيمليان شديدة الجذب للآخرين، فصورت شخصيته العديد من الأقلام. إلا أن «مكيافيللي» -الذي كان مبعوثًا في قصره في الفترة 1507-1508م- كشف عن سر تعرضه إلى الكثير من الفشل، فقد وصفه بأنه رجل كتوم ضعيف الشخصية يتجاهل الجوانب الإنسانية الضرورية لتنفيذ خططه وليس لديه أي إصرار على تحقيق أمنياته.

كما أن ما تبقى من سنوات العمل الذي قام به «مكيافيللي» كانت مليئة بالأحداث، حيث قامت «عصبة كامبري» في عام 1508م بين ثلاثة قوى أوروبية عظمى والبابا وذلك بغرض القضاء على جمهورية فينيسيا. وقد تم تحقيق ذلك في معركة «فاليا» حيث فقدت فينيسا كل مكاسب 800 عام في يوم واحد. وقد لعبت فلورنسا دورًا صعبًا خلال تلك الأحداث، وهي أحداث معقدة بسب العداء الذي التهب بين البابا وفرنسا، وذلك لأن الصداقة مع فرنسا تمكنت من التوجيه التام لسياسة جمهورية فلورنسا بالكامل.

وفي عام 1511م أنشأ «جوليوس الثاني» «العصبة المقدسة» ضد فرنسا، وتمكن بمساعدة من السويسريين أن يخرج الفرنسيين خارج إيطاليا، وظلت فلورنسا تحت رحمة البابا، وكان عليها القبول بكل شروطه، وكان من بينها «ضرورة عودة أسرة مديشي إلى فلورنسا يوم 1 سبتمبر من عام 1512م وبالتالي سقوط الحكم الجمهوري. وكان في ذلك إشارة إلى طرد «مكيافيللي» ورفاقه من الخدمة، وهنا انتهى عمله الوظيفي. وكما نعلم، فقد مات «مكيافيللي» ولم يعد إلى عمله.

العمل بالكتابة (1512-1527م)

عند عودة أسرة مديشي إلى حكم فلورنسا في عام **1512**م، كان «مكيافيللي» يأمل في الاحتفاظ بعمله تحت حكم السادة الجدد للدولة. إلا أنه طرد من العمل بقرار صادر في يوم 7 نوفمبر **1512**م. وبعد فترة قصيرة جدًا اتهم «مكيافيللي» بالاشتراك في مؤامرة ضد عائلة مديشي، وسُجن وتعرض للاستجواب والتعذيب. إلا أن البابا الجديد من عائلة مديشي وهو «ليو العاشر» أطلق سراحه، فتقاعد «مكيافيللي» في بيت صغير يملكه في «سان كازيانو» قرب فلورنسا وتفرغ للأدب. وفي خطاب كتبه لـ«فرانسسكو فيتوري» يوم **13** ديسمبر **1513**م وصف حياته في تلك الفترة وصفًا جميلاً. ووضح الدوافع التي جعلته يكتب كتاب «الأمير» والطرق التي استخدمها في كتابته.

مكتب «مكيافيللي» في بيته الريفي كما تركه منذ 500 عام

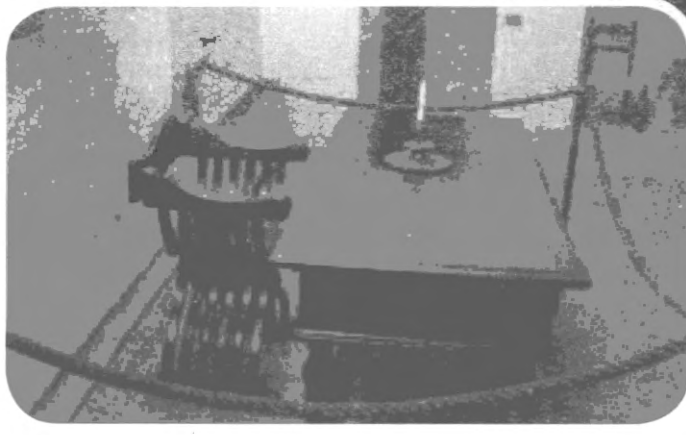

نفس المكتب الذي ألّف عليه «مكيافيللي» كتبه بعد أن تحول البيت إلى مزار !!

وبعد أن أسهب في وصف مشاغله اليومية مع أسرته وجيرانه، قال: (عندما يأتي المساء، أعود إلى البيت وأدخل غرفة المكتب، وعند المدخل أخلع ملابس الفلاح وأرتدي ملابس النبلاء. وبعد أن أرتديها بطريقة لائقة أتذكر القصور القديمة التي استقبلتني بترحاب. كما أنني لا أتردد في التحدث مع أصحاب تلك القصور العظيمة التي زرتها. إنني أقيم معهم حوارات في بيتي هذا، وقد يستمر ذلك لأربع ساعات دون أن أشعر بالتعب، كما أنني أنسى كل مشكلاتي ولم يعد الفقر يفزعني ولا الموت. فأنا مفتون تمامًا بهؤلاء العظام[1].

وما أكتبه الآن ما هو إلا ما اكتسبته من الحديث معهم، وقد فكرت كثيرًا فيما أكتب. فكتبت عن طرق الحكم المختلفة وكيف يمكن الوصول إلى الحكم والحفاظ عليه وعن أسباب فقدان السلطة. لكني لم أكتب هذا الكتاب ليعجبكم أو لا يعجبكم وإنما كتبته لأهديه لصاحب السمو الأمير، ويمكنه أن يحدثكم عما في هذا الكتاب، وعن الأحاديث التي دارت بيني وبينه، لكني لازلت أعد الكتاب وأنقحه.)

وقد تعرض هذا الكتاب الصغير إلى كثير من التقلبات قبل أن يصل إلينا بحجمه الصغير هذا. فقد تعرض للعديد من التأثيرات أثناء تأليفه، وتم تغيير عنوان الكتاب وتغيير صاحبه الموجه إليه. ولسبب غير معروف أهدي في النهاية إلى (لورنزو المديشي). وعلى الرغم من أن (مكيافيللي) قد تردد كثيرًا فيما إن كان عليه أن يرسل الكتاب المهدى إلى الأمير المقصود أم يقدمه له بنفسه، إلا أنه لا يوجد أي دليل على أن (لورنزو) قد تلقى الكتاب أو قرأه. كما أنه لم ينشر كتاب (الأمير) الذي لا يزال موضع جدل كبير إلى يومنا هذا.

وقد قال (مكيافيللي) في إحدى رسائله ما يلي: (بالنسبة لذلك الشيء الصغير (الكتاب)، فمن يقرأه سيعرف أن الخمسة عشر عامًا التي قضيتها في الحكومة لم تضع هدرًا. ولن يشك أي منهم في ولائي وفي عقيدتي الثابتة التي لا يمكن أن أتخلى عنها الآن. وذلك لأن المخلص الأمين[2] –مثلي– لا تتغير طبيعته، وفقري دليل واضح على أمانتي.)

وقد بدأ (مكيافيللي) في كتابة كتابه الثاني (أحاديث) قبل أن يخرج كتابه (الأمير) من بين يديه، وكان يكتب فيهما معًا في بعض الأوقات. وقد انشغل في إعداد هذين

---

(1) معنى هذا الكلام أن "مكيافيللي" كان يعيش حياة الفلاحين الفقراء، وفي المساء يعود إلى غرفة المكتب في بيته ليحلم بالعودة إلى بلاط السلطة ومقابلة العظماء مرة أخرى. (المترجم)

(2) يبدو أن "مكيافيللي" كان يشعر بالنقد الشديد الذي سيتعرض إليه الكتاب عند نشره، فوصف نفسه بالإخلاص والأمانة، ولا يمدح نفسه إلا الشيطان كما يقال. (المترجم)

الكتابين وغيرهما من أعمال حتى عام 1518م، حيث قبل العمل في مهمة صغيرة خاصة ببعض تجار فلورنسا في جنوا. وفي عام 1519م قدمت حكومة مديشي بعض الامتيازات لمواطنيها، وتمت استشارة "مكيافيللي" -وآخرين- في الدستور الجديد وكان المجلس الأعلى يقوم بتعديله. ولكن لسبب ما أو لآخر لم يتم الإعلان عن ذلك.

وفي عام 1520م استعان تجار فلورنسا ب "مكيافيللي" لتسوية مشكلاتهم. إلا أن هذا العام بالذات تميز بعودة "مكيافيللي" إلى المجتمع الأدبي حيث حظي بشعبية كبرى خاصة بسبب كتابه "فن الحرب". وفي نفس العام تلقى تكليفًا من "كاردينال دي مديشي" بكتابة "تاريخ فلورنسا". وقد انشغل في هذه المهمة حتى عام 1525م. وربما تقبل العامة لـ "مكيافيللي" جعل مديشي يكلفه بهذه المهمة. وذلك لأن أحد الكُتاب القدامى لاحظ أن «رجل الدولة عندما يترك العمل يصبح مثل الحوت خارج البحر الذي يمكن أن يتسبب في انقلاب السفينة إن لم ينشغل بشيء ما.

وعندما انتهى من كتاب "تاريخ فلورنسا" في عام 1525م، أخذه "مكيافيللي" معه واتجه إلى روما ليقدمه إلى من كلفه بكتابته وهو "جيليانو دي مديشي" الذي كان قد أصبح في ذلك الوقت البابا الجديد وأصبح اسمه "كلمنت السابع"[1]. إلا أن معركة "بافيا" كانت قد أنهت الحكم الفرنسي في إيطاليا وتركت "فرانسس الأول" أسيرًا في يد عدوه اللدود "تشارلز الخامس". تلا ذلك نهب روما وطرد أسرة مديشي ونفيها مرة أخرى.

وكان "مكيافيللي" بعيدًا عن فلورنسا في ذلك الوقت، إلا أنه أسرع بالعودة، وذلك على أمل استعادة منصبه القديم كأمين عام للجنة "العشر للحرية والسلام". إلا أنه سقط مريضًا بمجرد عودته إلى فلورنسا. ومات في يوم 22 يونيو 1527م.

(1) - ومن الصدف هنا أن "مكيافيللي" كتب "الأمير" لتوجيه النصح لعائلة مديشي بعد أن استعادوا السلطة في فلورنسا مباشرة وذلك في عام 1513م، وبالمثل في عام 1525م جاء ليهدي كتابه "تاريخ فلورنسا" لكبير العائلة قبل سقوطها مباشرة. (المترجم)

"مكيافيللي" وأعماله السياسية والعسكرية

لا أحد يعلم أين توجد رفات "مكيافيللي"، إلا أنه من المعروف أن فلورنسا الحديثة أقامت له نصبًا في "سانتا كروس" وذلك جنبًا إلى جنب مع عظام إيطاليا. وذلك معناه أن إيطاليا لا تنظر إلى ما تقوله الأمم الأخرى عن "مكيافيللي" ولا تهتم بأي نقد يوجه إلى ما كتبه من جرائم وتشجيع على العنف وسفك الدماء، فهي ترى أن ما كتبه من أفكار أدى إلى وحدة إيطاليا ونهضتها وتميزها بين الأمم الأوروبية.

وبينما نجد أنه من العبث أن ندافع حتى عن اسمه الذي أصبح مرادفًا للشر، نجد هناك من يدعي أن تلك الشرور والآثام التي تملأ كتاب الأمير لم تكن هي أول ما اهتم به معاصروه، بل إنهم استخدموا الجيد من الأفكار التي كانت في الكتاب من أجل توحيد بلادهم، أما من تنبه لتلك الأفكار الهدامة، فهم النقاد والقراء الذين تناولوا الكتاب في القرون التالية.

● وصف (مكيافيللي):

ومما لا شك فيه أن "مكيافيللي" كان رجلاً دقيق الملاحظة ومنمق ومثابر، عيناه قادرتان على ملاحظة أي شيء يمر به بحيث يمكنه الاستفادة منه فيما بعد. وهو لم يقدم نفسه على أنه من فصيل نادر يجيد الكتابة والعمل السياسي في نفس الوقت ولم يصفه معاصروه بذلك. كما أنه حقق نجاحًا غير ملحوظ في كل ما أسند إليه من مهام سياسية. فقد ضللته "كاثرينا سفورزا" وتجاهله "لويس الثاني عشر" وأرهبه "قيصر بورجيا". وكثير من مهامه السياسية كانت بلا نتيجة تُذكر. كما أن محاولاته لتحصين فلورنسا باءت بالفشل، والجنود الذين دربهم أدهشوا الجميع بجبنهم وتخاذلهم. أما صفاته الشخصية، فهو جبان وانتهازي[1]. ولذلك لم يجرؤ على الوقوف بجانب "سودريني" الذي يدين له بالكثير، وذلك خوفًا على سمعته الشخصية، فولاؤه لعائلة مديشي كان موضع شك. وقد كان "جوليانو" على علم بتلك الصفات لذلك كلفه بما يستطيع عمله وهو كتابة "تاريخ فلورنسا" ولم يشركه في العمل السياسي. وفي ذلك العمل فقط (كتابة تاريخ فلورنسا) لم يحقق "مكيافيللي" أي إخفاق أو فشل.

---

(1) هذه الأوصاف نقلتها عن دراسات نقدية تحدثت عن شخصيته. (المترجم)

وعلى الرغم من تسليط الضوء لأربعة قرون على كتاب "الأمير" إلا أن مشكلات الكتاب لا تزال موضع جدل كبير. وذلك لأنه يتناول القضايا الأبدية بين الحاكم والمحكوم.

ولا تزال المبادئ التي ذكرها "مكيافيللي" في كتابه "الأمير" واضحة في كثير من جوانب السياسة الأوروبية خلال خمسة قرون مضت. فقد استخدمت عباءة الدين لخداع الشعوب وتضليلهم، وهذا ما وضحه "مكيافيللي" من خلال شخصية "فرديناند أوف أرجون". كما أن "مكيافيللي" يرى أن الرجال لا ينظرون إلى الأشياء فيرونها كما هي، ولكنهم يرونها كما يودون أن تكون. وفي السياسة لا يوجد طريق آمن محدد وعلى من يعمل بالسياسة أن يحاول أن يسلك الطريق الأقل خطرًا. ثم يكرر "مكيافيللي" اعترافه بأن الجرائم قد تؤدي إلى السيطرة على إمبراطورية، إلا أنها لا توصل إلى المجد. كما أن الحروب ضرورة والسلاح مقدس عندما لا يكون هناك أي بديل آخر لها.

لكن لابد من الإشارة إلى أن "مكيافيللي" كتب في "الأمير" عن أشخاص كما رآهم. أي أن تلك الشخصيات التي استشهد بها كانت تتصف بالصفات التي يوصي بها "مكيافيللي" وتطبق ما كتبه من توجيهات، وهذا هو ما واجه عليه نقدًا شديدًا. ويرى بعض النقاد أن الصفات الكريهة التي هاجموا كتابه من أجلها موجودة في كثير من الحكام والسياسيين قبل أن يذكرها في كتابه، إلا أنهم يرون جريمته هي وضع تلك الأسس الدنيئة في كتاب اعتبره كثير من النقاد أول ما كتب في عالم السياسة، واعتبره الناس أساسًا لذلك العلم الكبير الذي تشعب وتفرع وكتب فيه كثيرون بعد ذلك، لكن أيًا منهم لم يحظ بسمعة سيئة تعادل تلك التي نالها "مكيافيللي" في جميع أنحاء العالم.

● السياسة لعبة قذرة:

وأنا أرى أن هناك ادعاءات كثيرة لا تزال سائدة إلى يومنا هذا. وهذه الادعاءات تقول إن "السياسة قذرة" وأن الكذب والخداع والخيانة والقتل والإمعان في العنف كلها وسائل مباحة في عالم السياسة. بل إن البعض يراها ضرورة. لذلك فـ"مكيافيللي" لم يأت بجديد.

لكني أرد على ذلك بأن التاريخ -وخاصة التاريخ الإسلامي- مليء بالقادة الذين اتصفوا بالعدل والصدق والأمانة والرحمة والوفاء بالعهود والشجاعة والصبر والحكمة واللين، وكانت الشعوب في عصورهم تهنأ بالأمن ورغد العيش. فمن قرأ عن خامس الخلفاء الراشدين "عمر بن عبد العزيز" وما اتصف به عصره وعصور الخلفاء الأربعة،

يصاب بالغثيان عندما يقرأ كتاب "مكيافيللي" أو تاريخ أحد الطغاة الذين يرونه أستاذًا وملهمًا.

الشيطان "مكيافيللي"

قليل جدًا من الكُتاب نالوا ما ناله "مكيافيللي" من كراهية عبر عدة قرون متتالية. وقليل جدًا من الكتب وصفت بأوصاف كريهة ووصمت بالعار مثل كتاب "الأمير". وقد وصل الأمر إلى أن "مكيافيللي" كان يوصف بأنه المدافع الأول عن الطغاة والطغيان والداعم الأول للتخلي عن الأخلاق الحميدة والتمسك بحب الذات.

واليوم وبعد مرور 500 عام على انتهائه من كتاب الأمير، لا تزال قواميس اللغات المختلفة تفسر كلمة "مكيافيلية" بمعان غير طيبة، مثل:

- **معنى كلمة (مكيافيلية) في قاموس أوكسفورد:**

"using clever plans to achieve what you want. without people realizing what you are doing"

"استخدام خططًا خبيثة للوصول إلى ما تريد تحقيقه، دون أن يدرك الناس ما تقوم به من أفعال."

والتعريف التالي لكلمة "التلاعب المكيافيلي" مأخوذ من نفس القاموس:

„Machiavellian manipulation: From the name of Niccolò Machiavelli. an Italian politician (1469 -1527). who explained in his book The Prince. that it was often necessary for rulers to use immoral methods in order to achieve power and success."

"التلاعب المكيافيلي: مصطلح مأخوذ من اسم نيكولو مكيافيلي وهو سياسي إيطالي (1469-1527م) وقد قال في كتابه "الأمير" قد يكون من الضروري للحكام أن يستخدموا طرقًا غير أخلاقية من أجل الحصول على السلطة وتحقيق النجاح."

● **وهذا تعريف لنفس الكلمة في قاموس "كامبردج":**

"Machiavellian: using clever but often dishonest methods which deceive people so that you can gain power or control"

"المكيافيلية": استخدام الدهاء -والخيانة أيضًا- في خداع الناس من أجل الوصول إلى السلطة والسيطرة على الشعب"

وهكذا أصبحت الكلمة تعني المكر والخداع ... إلى آخر تلك المعاني الخبيثة. ويقال أيضًا إن الاسم الشائع الذي يستخدمه الأوروبيون للإشارة إلى الشيطان وهو: "نك العجوز" مأخوذ من الاسم "نكولو مكيافيللي".

● **الكنيسة الكاثوليكية تمنع كتبه وتصفه بالكفر!**

وقد بدأت شهرة "مكيافيللي" بوصفه شريرًا بعد نشر كتاب الأمير مباشرة في عام **1559**م. لذلك فقد وضعت الكنيسة الكاثوليكية كل أعمال "مكيافيللي" (وليس كتاب الأمير فقط) في قائمة الكتب الممنوعة، وذلك بسبب ما اقترفه "مكيافيللي" من إثم يتعارض تمامًا مع الأخلاق المسيحية. وقد وُصف "مكيافيللي" كثيرًا بالكفر أو على الأقل بمعادة الديانة المسيحية. فاحتقاره المقنع للبابوية والطموح السياسي للكنيسة الكاثوليكية واضح في كتاب "الأمير" وفي كتاب "أحاديث". حيث يرى "مكيافيللي" أن التقوى المسيحية تجرد أتباعها من الطاقة اللازمة لخلق مجتمع جيد. لذلك، فكثير مما ورد في كتاب "الأمير" ينكر المبادئ الأخلاقية للحكم التي يتمسك بها المفكرون المسيحيون بشدة ويصرون عليها، أو يتنافى معها من الأساس.

فالمبدأ المسيحي السائد في العصور الوسطى الذي يقول بأن الحكم الجيد يتفق مع أوامر الله والفضائل ويدعو إلى التمسك بالإخلاص والابتعاد عن الشرور غائب تمامًا في عالم "الأمير".

وربما يكون الأهم من ذلك هو أن "الفضيلة" التي تحدث عنها "مكيافيللي" في كتابه ليست صفة أخلاقية على الإطلاق. فكثير من المجرمين سيئي السمعة والقادة شديدي العنف يمكن أن يتمتعوا ببعض الفضائل.

كما يستمر الجدل إلى يومنا هذا حول ما إذا كان من الممكن أن نعتبر "مكيافيللي" مفكرًا مسيحيًا أم نعتبره متمسكًا بمعايير أخلاقية خاصة به تشبه مبادئ هؤلاء الكتاب

الوثنيين الذين أشار إليهم في عمله؟ وقد قال بعض النقاد إن "مكيافيللي" وضع معايير جديدة تمامًا للأخلاق، إنها معايير تركز أولاً على الدولة وليس على الدين أو الأخلاق.

● الكنيسة البروتستانتية تقول إنه السبب في المذابح التي تعرضت لها!

وبينما حظرت الكنيسة الكاثوليكية أعمال "مكيافيللي"، كرهه البروتستانت أيضًا. ففي عام **1572**م، حاولت القيادة الكاثوليكية في فرنسا القضاء على البروتستانت في فرنسا، وخلال عدة أسابيع جرت مجازر أدت إلى مقتل خمسين ألف من البروتستانت. وكانت أولى المؤيدين هي الإيطالية الكاثوليكية "كاثرين دي مديشي" وهي إحدى أفراد عائلة مديشي التي كتب لها "مكيافيللي" كتابه "الأمير". ووجه النقاد اللوم لـ"مكيافيللي" على تلك المذابح التي وقعت بعد موته بوقت طويل، فهم يرون ضرورة تأثر "كاثرين" بما وضعه "مكيافيللي" من مبادئ شيطانية في كتابه وذلك عندما أعدت خطة المذابح.

● إنكار كل الشرور:

فردريك الأكبر ملك بروسيا ينتقد مكيافيلي وكتابه "الأمير":

وهناك كثير من الكتب التي تنكر الشرور التي وردت في كتاب "الأمير"، إلا أن هناك كتابين مهمين يجب علينا الإشارة إليهما، وهما كتاب "الحكم الصائب على نيكولو "مكيافيللي" لمؤلفه الفرنسي الذي شهد مذابح البروتستانت الفرنسيين "جنتلت" واحتج عليها. وقد بذل كل ما في وسعه لنشر سمعة "مكيافيللي" الشيطانية وكان لذلك أثر أكبر مما خلفه كتابه "الأمير".

● القيام ببعض الشرور ورفض البعض الآخر:

أما الكتاب الثاني فقد كتبه فردريك الأكبر ملك بروسيا. وقد كتبه في عام **1740**م بمساعدة الفيلسوف الفرنسي "فولتير" وعنوانه "ضد مكيافيللي" وهو يحتوي على إنكار شديد اللهجة لكل مبادئ "مكيافيللي" الشيطانية. و"فريدريك" –مثله في ذلك مثل كثير من الملوك- يرى أن ما روج له "مكيافيللي" من أفكار مثل "من يملك قوة كافية للحصول على السلطة يمكنه أن يحافظ عليها" دعوة لاغتيال الملوك من أجل الحصول على مناصبهم. إلا أنه وفي نفس الوقت "مكيافيللي" الطباع –وهذا يثير السخرية- فقد كان غادرًا وقاسيًا ومتحمسًا للحصول على السلطة فقط، أي أنه استنكر مبادئ "مكيافيللي"

الشيطانية التي قد تؤدي إلى الإطاحة به وفقدانه للسلطة، أما بقية المبادئ "الشيطانية" فقد طبقها ولم يجد أي غضاضة في ذلك.

● دليل العصابات ومعلم الشر!

وقد توصل الباحثون المحدثون إلى العديد من التفسيرات لما قام به "مكيافيللي" من عمل. وبعضهم يرى أن "الأمير" عمل معاد للمسيحية ومؤيد بشدة لكل الفلسفات الوثنية التقليدية، بينما حاول كثيرون آخرون أن يصوروا "مكيافيللي" على أنه متمسك بالأخلاق المسيحية، وأنه يشير فقط إلى ما حوله من شرور سياسية. ويرى البعض الآخر أن كتاب "الأمير" كتاب يائس وغاضب من تردي الطبيعة الإنسانية، وترى مجموعة أخرى أن "مكيافيللي" ينقل بدقة وموضوعية ما يراه من حوله في عالم السياسة دون أن يوافق عليه أو يرفضه. كما افترض أكثر من كاتب أن كتاب "الأمير" مجرد سخرية وتحذير مما قد يحدث إن استمر الحكام في سعيهم نحو الحصول على مزيد من السلطة. إلا أنه رأي مردود عليه لا يقبله عقل من قرأ "الأمير". وقد أدرك بعض المفكرين والفلاسفة الشرور الواضحة في ذلك الكتاب، فأسماه "برتراند رسل" باسم "دليل العصابات" وأسماه ليو شتراوس "معلم الشر"[1].

"مكيافيللي" معلم الطغاة والمستبدين

يدعي كثير من المحللين والنقاد أن كتاب "الأمير" جيد بكل ما فيه، ولتأييد هذا الادعاء ساقوا إلينا دليلاً يكذبهم ويدحض فكرتهم وهو أن كل كبار السياسيين والقادة العسكريين في جميع أنحاء العالم -حتى في القرن العشرين- تأثروا بكتاب "الأمير". وفي سياق ذلك سردوا أسماء كثيرة منها: لينين - ستالين - أدولف هتلر - بينيتو موسليني - جمال عبد الناصر - صدام حسين - معمر القذافي ... وغيرهم. وأنا أرد عليهم أنه إن ثبت تأثر كل هؤلاء بكتاب "الأمير" فأغلبهم من الطغاة القتلة. إلا أنني لم أجد أي توثيق تاريخي لهذا الكلام، كما أنني لم أستطع التحقق من أن هناك من قرأه

(1) - بعد أن ترجمت كتاب "الأمير" كاملاً أرى أن "مكيافيللي" لم يشر فقط إلى شرور السياسة بل أعجب بها أيما إعجاب وأوصي الأمير المرتقب بأن يسير على هداها. وأرى أن الاسمين الأخيرين (دليل العصابات - معلم الشر) هما أفضل التعليقات المذكورة عن الكتاب. (المترجم)

من كل الزعماء المذكورين سوى في اثنين فقط وهما موسليني وهتلر. وهذا يكفي، فكلنا يعرف ما قاما به من جرائم ويعرف كيف كانت نهايتهما.

أما موسيليني فقد لقي حتفه قتلاً وتم تعليقه مقلوبًا أي عُلق من قدميه ووصل الأمر بالشعب الثائر أن قذفه بعضهم بالحجارة وأطلق عليه البعض الآخر الرصاص وهو معلق. فلماذا يفعل فيه الناس كل هذا حتى بعد موته ؟ ... لجبره وطغيانه.

• "الأمير": المرشد الأمين لزعيم الفاشية موسوليني!

كان موسيليني شديد الإعجاب بـ"مكيافيللي"، وكتب عن علاقته بكتاب الأمير في مقدمة رسالته للحصول على الدكتوراه، فقال:

تصادف في يوم ما أن أهديت سيفًا منقوشًا عليه ما قاله "مكيافيللي" "لا تقوم الحكومات بالكلمات" فوضع ذلك حدًا لما كنت مترددًا فيه، وهو موضوع أطروحتي التي بين يديكم الآن لتقيموها. ويمكنني أن أسميها "تعليق في عام **1924**م على كتاب الأمير لـ"مكيافيللي"". وهو كتاب يجب أن اسميه "مرشد رجال الدولة". ويجب أن أقول بصراحة إن هذه الرسالة ليست مدعومة بالكثير من القراءات، فقد أعدت قراءة كتاب "الأمير" بدقة وتمعن كما قرأت الأعمال الأخرى لذلك الكاتب الكبير. إلا أنني لم يكن لدي وقت أو رغبة في قراءة كل ما كتب عن "مكيافيللي" سواء في إيطاليا أو خارجها. فلم أحب أن يوجد بيني وبين "مكيافيللي" الكثير من الوسطاء حتى لا افقد الاحتكاك المباشر بين ما قدمه من تعاليم وما لدي من خبرات[1]، بين ما قاله من ملاحظات عن الناس والأشياء وما لاحظته أنا عنهم، بين فنه في الحكم وما أملكه أنا من هذا الفن. لذلك فما أتشرف بقراءته عليكم ليس مجرد تسميع لما حفظته من معلومات جمعتها من كتاب آخرين، ولكنه دراما. دراما أحاول فيها أن أسد فجوة التفاهم بين العصور المختلفة والزمن والتاريخ.

لن أقدم أي جديد، لكن الأسئلة الملحة الآن هي:

• بعد مضي أربعة قرون، ما مقدار الجزء الذي لا يزال صالحًا حتى اليوم من كتاب "الأمير" ؟

---

(1) - أي أنه اكتفى بكتب "مكيافيللي" وخاصة كتاب "الأمير" كمرجع وحيد لرسالته. وأسلوب العرض هنا يوضح شخصيته الدكتاتورية، حيث يعتبر كل ما يقوله من المسلمات. (المترجم)

• هل تتسم تعاليم "مكيافيللي" بالصلاحية والتطبيق في الدولة الحديثة؟

• هل تقتصر قيمة ما قدمه الكتاب من نظم سياسية على العصر الذي كُتب فيه؟ ولذلك فهو كتاب مؤقت ومحدود.

• أم أنه كتاب عالمي يمكن تطبيقه حاليًا ؟

وقد أعددت رسالتي للرد على هذه الأسئلة. وأنا أؤكد أن التعاليم التي تركها لنا "مكيافيللي" لا تزال صالحة حتى بعد مرور أربعة قرون على كتابتها. وذلك لأنه على الرغم من تغير أوجه الحياة الظاهري تمامًا الآن، إلا أن هذه التغيرات لم تؤد إلى تغيير جذري في عقول وشخصيات الأفراد والشعوب[1].

فإن كانت السياسة هي فن الحكم. فإن توجيه أحاسيس ومشاعر واهتمامات الشعوب لخدمة أهداف عامة تتجاوز جميع الاهتمامات الفردية وذلك لأن هذا الفن يتناول المستقبل ويعمل من أجله. إن كانت تلك هي السياسة، فلا شك إذن أن العنصر الرئيسي فيها هو الإنسان نفسه. ويجب أن نبدأ من الإنسان. لكن، ما وضع الإنسان في النظام السياسي لـ"مكيافيللي"؟ وكيف يفكر "مكيافيللي" في الإنسان؟ وإن قلنا "الناس" فهل معنى ذلك أن المقصود أولئك الإيطاليون الذين عاش "مكيافيللي" بينهم ويعرفهم جيدًا، وذلك بغض النظر عن الزمان والمكان؟

ويبدو لي أنه -وقبل أن أبدأ في تحليل النظام السياسي عند "مكيافيللي" كما لخصه لنا في كتابه "الأمير"- من الضروري أن نحدد أولاً رؤية "مكيافيللي" للناس وربما للإيطاليين على وجه التحديد. والآن وعلى الرغم من أن أي قراءة سطحية لكتاب "الأمير" تؤكد بوضوح أن "مكيافيللي" يحتقر البشر ويهوى تقديمهم لنا كما سأشير إليهم حالاً، وذلك بذكر الكثير مما قالوه ويوضح أنهم مخادعون وسلبيون.

فالبشر كما يراهم "مكيافيللي" أشرار بطبيعتهم، وهم يتمسكون بشدة بأملاكهم المادية أكثر من تمسكهم بأقاربهم، كما أنهم مستعدون لتغيير مشاعرهم ومعتقداتهم. وفي الفصل السابع عشر يعبر "مكيافيللي" عن نفسه فيقول:

"من الممكن أن نقول عن عامة البشر أنهم ينكرون المعروف، ويحبون المراوغة في الحديث ومرائين، حريصين على تجنب الخطر، راغبين في الكسب، هم أعوانك طالما

---

(1) في هاتين الفقرتين وفي كل ما اقتبسناه عنه، يتحدث موسيليني بطريقة العسكري المتعالي الذي يعتبر ما يقوله حق لا شك فيه، وهذه طريقة لا تناسب طالب علم يتقدم ببحث للحصول على درجة. (المترجم)

استفادوا منك، وهم يفدونك بالدم وما يملكون وبحياتهم وولدهم، حين لا يكون هناك داع لذلك، ولكن حين تقترب الأخطار ينقلبون عليك، إن الأمير الذي يعتمد على وعود رعاياه يهلك إلا إذا تهيأ بالمعدات الكافية، وذلك لأن الصداقة التي يمكن شراؤها غير مأمونة، ولن تعمل لصالحك عند الضرورة. إن البشر يترددون في الإساءة إلى من يحبون أقل من ترددهم في إيذاء من يهابون. وذلك لأن الحب مرتبط بسلسلة من الارتباطات التي تتفكك عندما تؤدي غرضها (وذلك بسبب أنانية الناس). لكن استخدام المهابة والخوف من العقاب طريقة صحيحة لا تفشل أبدًا طالما لا يزال الخوف موجودًا."

● الأنانية عند الإنسان:

أما إذا انتقلنا الآن إلى الحديث عن الأنانية عند الإنسان، فقد وجدت ما يلي فيما كتبه "مكيافيللي":

"يشكو الناس من فقدان الثروة أكثر من شكواهم لفقدان أخ أو أب. وذلك لأننا ننسى آلامنا لفقدان عزيز لدينا مع مضي الزمن، لكننا لا ننسى فقدان أملاكنا. والسبب واضح. فكلنا يعلم أنه إن كان تغيير الحكومة لا يعيد الشقيق المتوفى إلى الحياة، لكنه يمكن أن يعيد لك ثروتك المسلوبة. وفي الفصل الثالث من كتاب "أحاديث" يقول "مكيافيللي": مثلما لاحظ كل أولئك الذين كتبوا في مجال السياسة، وكما هو واضح في تاريخ العالم في كثير من الأمثلة، فإن من ينشئ جمهورية ويضع القوانين التي تحكمها عليه أن يفترض أن كل البشر أشرار، وأن شرورهم قد تظهر إن أتيحت لهم الفرصة لذلك. فالمُثل لا تسيطر أبدًا على توجيه دوافع الإنسان، لكن الضرورات هي ما يوجه دوافعه وأعماله. لكن عندما تتزايد الحريات وتصبح أكثر الأشياء من المباحات، تعج البلاد بالفوضى والاضطرابات.

ويمكنني ذكر العديد من الاقتباسات الأخرى المماثلة لما قاله "مكيافيللي". لكن ذلك ليس ضروريًا. فما ذكرته من اقتباسات كاف لإثبات نظرة "مكيافيللي" الدونية للبشر والتي لم تأت من قبيل المصادفة، بل هي نظرة أساسية تقوم عليها فلسفته في الحياة. وقد تكرر ذلك في كل كتاباته. وهذا يعكس اعتقادًا راسخًا وعقلًا راجحًا. ولابد أن نتذكر دائمًا أن هذه الحقيقة التي ذكرها "مكيافيللي" واضحة في كثير من كتاباته.

ومن الواضح أيضًا أن "مكيافيللي" قد قال هذا الرأي عن البشر، ولم يكن يقصد من عاشوا في عصره فقط من أهل فلورنسا، أو الإيطاليين فقط ممن عاشوا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، بل كان يقصد كل البشر دون تمييز، ودون حد زماني أو

مكاني. وقد مر الزمن، وإن كان لي أن أعبر عن رأيي فيمن يعيشون في عالم اليوم من بشر، فلن أختلف في الرأي عن "مكيافيللي". وربما أنني أضيف إلى رأيه بعضًا من الحدة. "مكيافيللي" لم يخدع نفسه ولم يخدع الأمير. وهذا التناقض ما بين الأمير والشعب وما بين الدولة والفرد ضروري في الفكر السياسي عند "مكيافيللي". وكل ما يسمى بالبراجماتية والنفعية عند "مكيافيللي" ما هو إلا نتيجة منطقية لذلك الموقف. ويمكننا أن نفسر كلمة "الأمير" كبديل عن كلمة "الدولة". بينما نجد أن الأفراد يميلون للسعي نحو تحقيق مصالحهم الفردية الأنانية، وهذا هو ما يمكنني أن أسميه التنافر الاجتماعي، نجد أن الدولة بالنسبة لهم تمثل النظام والقيود. والفرد يسعى دائمًا بطبعه إلى التخلص من القيود. كما أنه ينبض برفض القانون وعدم دفع الضرائب وعدم الدفاع عن وطنه. كما أن الرجال المستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل الصالح العام نادرون –وهم الأبطال والقديسون. أما بقية الناس فهم في تمرد دائم ضد الدولة.

وقد حاولت الثورات التي قامت في القرنين السابع عشر والثامن عشر أن تزيل ذلك الصراع بين الشعب والدولة، وذلك بجعل السلطة نابعة من الإرادة الحرة للشعب. وهكذا أضافوا عنصرًا جديدًا للصراع وهو عنصر وهمي مخادع، ألا وهو الإرادة الشعبية.

أولاً وقبل كل شيء، لا يوجد تعريف للشعب. فلا أحد يعرف بدقة أين توجد بدايته وأين توجد نهايته. وقد توالت التراجيديا الساخرة وجعلت من الشعب هو صاحب "السلطة". في حين أن أقصى ما يقدمه الشعب هو تمثيل "السلطة" وليس ممارستها.

كما أن أنظمة تمثيل الشعب في الحكم ما هي إلا آليات ميكانيكية وليست أدوات أخلاقية. وحتى في تلك الدول التي تستخدم آليات التمثيل الشعبي لفترة طويلة تمتد إلى عدة قرون، تأتي لحظات لا يستشار فيها الشعب وذلك للشعور بأن إجابة الشعب ستكون خاطئة تمامًا. وعندئذ ينزع التاج الورقي الذي يمثل السلطة من فوق رأس الشعب رغم كونه كاف ومقنع للشعب في الأوقات العادية. ويجد الشعب نفسه مضطرًا للقبول بثورة أو معاهدة سلام أو الدخول في حرب. وبذلك لا يجد أمامه أي اختيار سوى أن ينطق بكلمة مكونة من مقطع واحد وهي "نعم"، فما عليه إلا الطاعة.

وكما ترون، فإن السلطة التي تمنح للشعب تسلب منه في اللحظة الحاسمة التي تصبح فيها السلطة ذات أهمية كبرى في تحديد مصير الأمة. حيث يسمح للشعب باللعب بالسلطة طالما أن ذلك لا أثر له ويحدث في الأوقات العادية الخالية من الأحداث الجسام.

هل يمكنك أن تتخيل حربًا تعلن بعد أخذ رأي الشعب؟ رأي الشعب مفيد جدًا في تحديد موقع نافورة تقام في قرية. لكن عندما يمس الأمر المصالح العليا للأمة نجد أن أكثر الحكومات ديمقراطية تحرص بشدة على ألا تترك الشعب يقرر مصيره.

وعلى ذلك فحتى تلك الأنظمة التي تفرط في التفاؤل لا تزال تعاني من ذلك الصراع بين القوة المنظمة للدولة وتشتت آراء الشعب في جماعات سياسية متعددة وهو صراع لا مفر منه. ولم توجد أي حكومة تقوم على عقد مبرم مع الشعب ولا توجد حاليًا ولن توجد في المستقبل. فقبل أن أكتب مقالاً بعنوان "القوة والرضى" بقرون عديدة قال "مكيافيللي":

"وبهذه الطريقة استطاع جميع الأنبياء المسلحين أن ينتصروا فيما فشل فيه غير المسلحين منهم. وذلك -بالإضافة إلى ما ذكرناه- يرجع إلى أن طبيعة البشر متقلبة. ومن السهل تحفيزهم لشيء ما ولكن من الصعب استمرار هذا الحافز. ولذلك يجب أن نرتب أمورنا حتى يمكننا أن نستخدم القوة معهم لنردهم إلى الإيمان بما ارتدوا عنه. ولو كان كل من موسى عليه السلام وكورش وتيسيوس ورومولوس عزلاً من السلاح لما استطاعوا فرض قوانينهم ودساتيرهم على الناس.

انتهى كلام موسيليني.

هذه هي رؤية واحد من الذين تتلمذوا على كتاب "الأمير" فأصبح من أشهر الطغاة ومجرمي الحروب في العالم. وما أكثر جرائمه وجرائم جيشه في ليبيا وفي أثيوبيا وغيرها من الدول. ويكفي ما في نشيد جنوده الذاهبين إلى ليبيا من حقد وكراهية للشعوب الأخرى وللإسلام على وجه الخصوص، وفيما يلي سطر واحد فقط من ذلك النشيد:

سأحارب دين الإسلام وأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن.

كل ذلك بالإضافة إلى أن موسيليني هو صاحب الفاشية بما لها من معان كريهة في كل العصور.

● أدولف هتلر:

أما هتلر، السفاح القاتل، فقد مات منتحرًا بعد هزيمة مخزية وبعد أن ارتكب جرائم كبرى في حرب استمرت عدة سنوات، فأدت إلى كثير من الدمار والخراب الذي لحق بأنحاء العالم. وكان دائم القراءة في كتاب "الأمير" كل مساء ويحتفظ به تحت وسادته.

ويقال عنه إنه لم يكن ينام إلا وهذا الكتاب بجواره، وأنه كان يسعد جدًا بقراءته ويقول إنه يستلهم منه ما يقوم به من أعمال حربية أو ما يأخذه من قرارات عظيمة !!

ويكفينا عدة فقرات قليلة نقتبسها من كتابه "كفاحي" الذي ترجمته إلى اللغة العربية[1]، لنعلم أنه تلميذ نجيب لـ "مكيافيللي". ويلاحظ في هذه الفقرات أنه يفخر بالجنس الآري ويعليه فوق كل البشر، وهو لا يرى في باقي الأجناس أي إبداع، ولا يعتبرهم بشرًا مثله. ويحذر من اختلاط الأجناس حتى لا يتلوث الجنس الآري (الأوروبي) ببقية الأجناس الدونية، كما أنه عندما تحدث عن مذكراته في الحرب العالمية الأولى، قال إنه لم يكن يخشى الموت بل كان يستنكر احتمال أن يكون من أطلق عليه الرصاص "زنجي" قادم من أفريقيا أو يهودي !!

في الفصل الحادي عشر من الكتاب يقول هتلر:

"وخلال تلك الأشهر شعرت بأن القدر قد أبقاني في جبهة القتال وفي موقع يمكن لرصاصة طائشة صادرة من زنجي أو غيره من جنود الأعداء أن تنهي حياتي، بينما يمكنني أن أقدم الكثير لبلادنا الأم لو كنت في مكان آخر."

ويقول أيضًا في نفس الكتاب:

"وهذا يوضح بشدة أنه عندما يختلط دم أبناء الجنس الآري مع أجناس أقل منهم فستكون النتيجة هي سقوط الأمة التي تتميز بثقافة راقية. وفي أمريكا الشمالية يحمل أغلب الناس صفات الشعب الألماني ولكنهم اختلطوا مع أجناس أقل بدرجة بسيطة، لذلك فإننا نجد حضارة ونوعية من البشر تختلف عمن يعيشون في أمريكا الوسطى والجنوبية، ففي تلك المناطق تزاوج المهاجرون – الذين ينتمون إلى أعراق لاتينية – مع أهل البلاد الأصليين، ووصل ذلك إلى درجة كبيرة في بعض الأحيان. وهذا مثال واضح على تأثير

(1) الكتاب تنشره دار ابن سينا للنشر والتوزيع في جميع أنحاء العالم العربي. ومما هو جدير بالذكر أنه الترجمة العربية الكاملة الوحيدة لكتاب "كفاحي". (المترجم)

اختلاط الأجناس. أما هؤلاء الأمريكيون من أصل ألماني في أمريكا الشمالية والذين حافظوا على نقاء جنسهم وعدم اختلاطه بأجناس أخرى فقد تسيدوا القارة الأمريكية، وسوف يظلون أسياداً لها طالما أنهم لم يقعوا ضحية اختلاط الدماء."

وفي الفصل الأول من الجزء الثاني من نفس الكتاب يقول هتلر:

"فالعالم المكون من الأعراق الزنجية والمهجنة يفتقد كل معايير الجمال البشري والنبل وكل أمل في مستقبل مثالي للإنسانية وإلى الأبد."

هذا غيض من فيض، وقليل جدًا من كثير من الفقرات التي يحفل بها كتاب "كفاحي" الضخم من أفكار "أدولف هتلر" -مؤسس النازية وتلميذ "مكيافيللي"- التي تدور كلها حول تميز العرق الآري الأوروبي على بقية أعراق العالم، إن كان يعترف بإنسانيتها أصلاً.

تحليل نقدي لكتاب الأمير

لاشك أن كتاب الأمير من أشهر الكتب العالمية في مجال السياسة، وليس هناك من شك أيضًا أن هذا الكتاب ومؤلفه قد أثرا في كثير من السياسيين والزعماء في العالم، وذلك لدرجة أن كثيرًا من الدراسات وضعت كتاب «الأمير» على قمة الكتب العشر الأكثر تأثيرًا في تاريخ البشرية (بعد الكتب السماوية بالطبع) وهي:

1 - الأمير – «مكيافيللي» 2 - المبادئ – إسحاق نيوتن

3 - النسبية – ألبرت أينشتين 4 - أصل الأنواع – تشارلز داروين

5 - كفاحي – أدولف هتلر 6 - ثروة الأمم – آدم سميث

7 - رأس المال – كارل ماركس 8 - المقدمة – ابن خلدون

9 - تفسير الأحلام –فرويد 10 - دورة الأفلاك السماوية – كوبرنيكوس

وحينما أردت إلحاق بعض الدراسات النقدية بكتاب الأمير، وجدت كمًا هائلاً من الدراسات والمقالات والكتب التي تتناول هذا الكتاب الشهير بالنقد والتحليل، بل إن بعض الدراسات تناولته بالتحليل جملة جملة وكلمة كلمة. إلا أنني وجدت تكرارًا في الموضوعات وتحيزًا مسبقًا لفكرة ما. أي أن الناقد إما أن يتحيز لـ«مكيافيللي» الكاتب المبدع (من وجهة نظره) ويبني نقده على أن كل ما جاء في الكتاب جيد ومفيد أو على أن «مكيافيللي»

هو الشر بعينه، وأنه شيطان مريد. وكلاهما مخطئ، لأن الكتاب فيه كثير من الشرور وفيه أيضًا كثير من النصائح المفيدة. لذلك قررت أن أجرى دراسة محايدة تعتمد على نص الكتاب فقط وتحاول التجرد التام، ومما لاحظته على الدراسات السابقة من أخطاء ما يلي:

1 - اعتمدت بعض الدراسات النقدية على نسخ مترجمة إلى لغات أخرى، حيث كان المترجم غير دقيق في ترجمته فأضاف إلى النص من عنده الكثير، ثم يأتي النقد فيتناول ما أضافه المترجم على أنه مما كتبه «مكيافيللي». ومثال ذلك هو الإسهاب في نص وصف القتل والدماء في الفصل السابع في المشهد التالي الذي استشهد به «مكيافيللي» ليدعم نظريته في وجوب استخدام العنف، والنص بدون زيادة أو نقصان كما يلي:

«وعندما حانت الفرصة قَتَلَ «روميرو» وشطر جسده إلى نصفين، ثم ألقاه ذات صباح في ميدان عام في «شيزينا» وبجانبه قطعة من الخشب وسكين ملطخ بالدماء، ذهل الشعب لوحشية هذا المنظر إلا أنه رضي بذلك.»

وإن كنت أرى أن المشهد قاتم ومرعب إلا أن بعض المترجمين زاد من وحشية المنظر ووصفه بالتفصيل الشديد، ولم تقتصر الإطالة على مشاهد العنف وغيرها من مشاهد أو جمل وصفية لكنها شملت كل الكتاب وهذا واضح من أول جملة في الكتاب:

«كل الدول تمارس السلطة وتسيطر على الشعوب. وهي إما جمهوريات أو ممالك».

حيث وجدتها في بعض التراجم العربية كما يلي:

«لاغنى لكل دولة عن وجود نظام للحكم يمارس السلطة ويسيطر على الشعب، وهناك نظامان اثنان لا ثالث لهما.. الأول هو النظام الجمهوري والثاني هو النظام الملكي».

وهكذا فإن قليلاً جدًا من النقد الموجه لـ«مكيافيللي» يجب أن يوجه للمترجم وليس لـ«مكيافيللي» نفسه.

2 - وكما سبق أن أوضحنا، تميل بعض الدراسات النقدية إلى تبرئة «مكيافيللي» من أي شرور، لدرجة أن بعضها قام على فكرة واحدة وهي أن ما استشهد به «مكيافيللي» من مشاهد عنف وقتل أو من مبادئ خسيسة ضد طبيعة البشر إنما جاء لكشف فضائح وجرائم أمراء وملوك الممالك الإيطالية في ذلك الوقت وهذا مردود عليه لأن صيغة

الحديث هي النصح والتوجيه وإظهار الولاء والإخلاص التام والرغبة في دعم وجود مملكة قائمة على العنف والقهر، وعلى ترويع الشعب واستعباده.

3 - وهناك دراسات نقدية ليست بالقليلة تدعي أن كل ما ذكره «مكيافيللي» من شرور وأفكار هدامة إنما جاء للسخرية منها. وهذا أمر مردود عليه، لأن الكتاب بعيد كل البعد عن الأسلوب التهكمي أو السخرية وهذا واضح تمامًا، ولن يصبح الكتاب كذلك لمجرد أن بعض النقاد أرادوا تبرئة «مكيافيللي» من تلك الاتهامات المخجلة.

4 - بعض الدراسات تتعامل مع الكتاب على أنه أول ما كتب في عالم السياسة، وبما أن السياسة قذرة كما يقول كثيرٌ من المحللين، فلابد من ذكر كل ما فيها بخيره وشره. وهذا أيضًا مردود عليه لأنه إن كان «مكيافيللي» هو مؤسس علم السياسة، فهو إذن من أسس لكل تلك الشرور القذرة.

والآن نتناول الكتاب بالنقد، ونحاول أن يكون نقدًا موضوعيًا قدر الإمكان، وسنتناوله بالترتيب، حيث نبدأ بالفصل الأول وننتهي بالفصل السادس والعشرين:

في الفصلين الأول والثاني لم يأت «مكيافيللي» بجديد يذكر، فقد أشار إلى أنواع الحكومات وطرق الحكم في أقل من صفحة ونصف الصفحة.

وفي الفصل الثالث حذر «مكيافيللي» الأمير المرتقب من أعداء قد لا يراهم أو يدرك وجودهم وهم كل من أضيروا بسببه، كمن قُتل أبوه أو أخوه في حرب خاضها الأمير للسيطرة على المملكة. وأرشده إلى كيفية الحفاظ على المملكة وكيفية ضم مناطق جديدة إليها وضرب أمثلة لسيطرة فرنسا على بعض مناطق في إيطاليا ثم خروجها منها لأسباب منطقية من وجهة نظره.

وتطرق في هذا الفصل أيضًا إلى العلاقة بين المملكة وجيرانها الضعاف وبينها وبين الكنيسة والمسئولين عنها. وكانت أغلب أمثلته تستشهد بالملك الفرنسي لويس الثاني عشر.

ولا أجد في هذا الفصل ما يمكن أن أعلق عليه وأنتقده سوى استخدام الكلمات القوية مثل «سحق القوى الصغيرة» و«يسعى للتخلص من ...» في الحديث عن الشعوب. وهذا يمهد لما سيذكره فيما بعد من خصال وصفات سيئة وأكثر وضوحًا. وقد استمر على هذا الحال في الفصلين الرابع والخامس.

أما في الفصل السادس، فقد أكد «مكيافيللي» على أهمية الاستعداد والتسليح وقيام

الأمير بما يريد أن يفعل وألا يعتمد على تكليف الآخرين بالأعمال، وإن فعل فعليه أن يتأكد من ذلك بمتابعتهم متابعة جيدة.

وفي الفصل السابع بدأ «مكيافيللي» يدس السم في العسل، فأشار إلى الأباطرة الذين تمكنوا من السيطرة على ممالك عن طريق الخيانة أو رشوة الجيش، لكنه لم يعلق على ذلك لا بالمدح ولا بالذم.

ثم بدأ الإفصاح عن ضرورة البطش بكل من ينتمي لنظام سابق، فقال:

«أما فيما يخص المستقبل فقد خشي أن يعاديه وريث جديد للولايات الكنسية وربما يسعى لأن يسلب منه ما قد منحه إياه الإسكندر. ولذلك حاول اتقاء هذا الأمر بأربعة طرق وهي: أولاً: قضى قضاء مبرماً على كل من تجري في عروقه دماء الأسر الحاكمة التي اغتصب ملكها. حتى لا يمكن للبابا أن يستغل أي فرصة ضده. وثانياً: كسب جميع نبلاء روما إلى صفه ليكبح بهم جماح البابا. وثالثاً: لم يدخر وسعاً في السيطرة على مجلس الكرادلة. ورابعاً: حصل قبل وفاة البابا على نفوذ كبير يمكنه من أن يصد أول هجوم قد يشن عليه.»

هكذا وبكل سهولة وبساطة ينصح «مكيافيللي» بالقضاء على عائلة كاملة بلا أي وازع من ضمير أو رحمة، فما ذنب الأطفال والإناث ومن ليس لهم أي دخل بالحكم وشئونه حتى يقتلوا. كل ذنبهم أنهم ربما يطالبون بحقوق لهم أو بعودة ملكهم فيما بعد.

ثم يواصل «مكيافيللي» حديثه عن أهمية القتل في نفس الفصل، فيقول ما ذكرناه من قبل في رقم 1 من بداية هذه الدراسة النقدية. حيث تحدث عن أهمية عمل مذبحة كبرى تخيف الناس وتجعل الجميع يستسلم ولا يفكر في أي مقاومة.

أما الفصل الثامن فمليء بالنصح المقنَّع الذي يأتي على استحياء، وذلك كالقول بأن القتل لازم وضروري لكذا وكذا، ثم الإشارة على استحياء إلى أن الغدر ليس من الفضائل. ومما ورد في ذلك وصفه لما فعله «أجاثوكل الصقلي»، يقول:

«ثم استدعى مجلس الشيوخ في «سراكوزا» كما لو كان سيشاورهم في أمر من الأمور الهامة التي تتعلق بالجمهورية، وأمر باغتيال جميع أعضاء مجلس الشيوخ وجميع من حضر الاجتماع من علية القوم والأعيان. ثم نصب نفسه أميراً بعد قتلهم دونما أي عصيان مدني.»

وسرعان ما استشهد «مكيافيللي» بعمل حقير قام به «أولفرتو دافرمو» في نفس الفصل فقال:

« وبعد أن مضت عدة أيام أعد فيها خطة الخديعة دعا «أولفرتو» خاله «جيوفاني» وكل علية القوم في «فيرمو» إلى مأدبة كبيرة. وبعد الطعام والشراب والتسلية المعتادة في مثل هذه المآدب، تطرق «أولفرتو» ببراعة شديدة للحديث عن عظمة البابا «الإسكندر» وابنه قيصر «بورجيا» وقد استجاب خاله والحضور للحديث. إلا أنه هب واقفاً وقال فجأة إن الحديث عن مثل هذه الأمور يجب أن يكون في مكان مناسب وانسحب إلى غرفة جانبية تبعه إليها خاله جيوفاني وجميع الحضور. وما أن جلسوا في مقاعدهم حتى اندفع إليهم الجنود من أماكن اختفائهم وقتلوا الجميع بما فيهم «جيوفاني». وبعد هذه المذبحة ركب «أولفرتو» حصانه مع جنوده وسار عبر شوارع المدينة إلى قصر الحاكم وحاصره وأجبره على تكوين حكومة نصَّب نفسه أميراً عليها.»

ثم يأتي التناقض الواضح بالذم والمدح في آن واحد قرب نهاية الفصل، فيقول:

«فحسن ارتكاب الجريمة القاسية (إذا كان بإمكاننا استخدام كلمة «حُسن» عند الحديث عن النوايا الشريرة) يمكِّن من جني الثمار فيما بعد. أما عندما ترتكب هذه الفظائع بطريقة خاطئة فإنها تزيد من أعداد من يعارضونك مع مرور الوقت ولا تقضي عليهم.»

فهو يستنكر وصف الجريمة بالحسن، وفي نفس الوقت يستهجن ارتكاب الفظائع بطريقة خاطئة فقط، أي أنه يستهجن طريقة تنفيذ الجرائم فقط، ولا يستهجن ارتكاب الجريمة.

وفي نهاية الفصل يزداد الأمر سوءًا، فيقول «مكيافيللي»:

«وإذا كانت الأخطاء لابد واقعة فيحسن أن تكون دفعة واحدة حتى تكون أقل تأثيراً من واقعات متعددة تبقي آثارها. أما المزايا فيجب إعطاؤها للرعايا جرعة جرعة حتى يستمتعوا بها ويشعروا بفائدتها.»

فأنهى ذلك الفصل بنصيحة خبيثة أيضًا حيث أوصى الأمير المرتقب بألا يقع في أخطاء كثيرة وإن كان لابد فاعلاً، فعليه أن يجمعها دفعة واحدة لتقليل أثرها. أما المزايا فيجب توزيعها على أطول فترة ممكنة حتى يشعر الشعب بها جيدًا حتى إن كانت قليلة.

وفي الفصل التاسع يقول:

«فالعامة يرضون بالعدل بينما النبلاء يرغبون في التعسف والبطش.»

وقد أنصف في ذلك، ولا زلنا إلى يومنا هذا نجد كثيرًا من الأنظمة حول العالم تتدثر بعلية القوم المستفيدة من استمرار دولة الظلم أيما استفادة، وهم ينفقون المال بإغداق شديد من أجل البقاء والاستمرار في موقع المقربين من السلطة. لكننا لا يمكننا اعتبار ذلك قاعدة عامة، فهناك الكثير من أصحاب المليارات ممن ينفقون أموالهم بسخاء شديد على مشروعات خيرية وعلى مساعدة المحتاجين وأصحاب المشكلات.

ويستمر «مكيافيللي»في نفس الموضوع، موضحًا حال الأمير عندما يغضب عليه أي من الفئتين وما تفعله كل منهما، فيقول:

«ولما كان النبلاء بعيدي النظر أكثر من الشعب وأشد منه مكراً فهم دائماً قادرون على تخليص أنفسهم بالانضمام إلى من يتوقعون له الغلبة في الوقت المناسب.»

أي أن الطبقة العليا من المجتمع عندما يسقط الأمير ويدركون أنه لن يعود بأي حال إلى السلطة، يتخلون عنه بسرعة ويسارعون إلى مساندة من يمكن أن يحل محله في سرعة مذهلة. وهكذا لم نجد صفات الخسة والنذالة تتوافر في الأمير النموذجي فقط عند «مكيافيللي»، لكنها متوفرة أيضًا فيمن يحيط بأي أمير أو حاكم من طبقة تسمى بطبقة النبلاء أو علية القوم.

إلا أنه يعترف في نهاية الفصل بما هو حق، فيقول:

«ولا يحيق الخطر بهذه الولايات إلا إذا تحول الأمير من حاكم مدني إلى حاكم مستبد مطلق.»

وهنا يعترف «مكيافيللي» أن الاستبداد والحكم الدكتاتوري المطلق يعرض البلاد للخطر، وذلك لأنه لابد من ضيق الشعب وتبرمه من هذا الاستبداد، إلا أنه لم ينس نصح الأمير بما يمكن أن يفعله في تلك الحالة، فقال في آخر جملة في هذا الفصل:

«وعلى ذلك فإن الأمير الحكيم يجب عليه أن يبحث عن وسائل تجعل رعاياه في حاجة مستمرة إلى حكومته، وحينئذ سيخلصون الولاء له دائماً.» وهذا أمر لا يزال مستمرًا إلى يومنا هذا، فكثير من حكومات عالم اليوم تتعمد شغل الشعوب بما يجعلها في حاجة دائمة للحكومة لتحل لها مشكلاتها. وما اصطناع المشكلات وحلها ونشر شائعات وتكذيبها إلا وسائل لدعم هذه الفكرة، حتى يظل الشعب معتمدًا على الحكومة ولا يفكر في تولي أموره بنفسه أو الثورة على الاستبداد.

وفي الفصل العاشر تحدث «مكيافيللي» عن حالة الحرب وكيف يسيطر الأمير في تلك الحالة على الشعب ويدير جيشه في نفس الوقت. ولم أجد ما يمكن التعليق عليه إلا جملة واحدة:

«والأمير القوي الشجاع عادة ما يتغلب على هذه الصعاب مرة بأن يملأ القلوب بالأمل ومرة بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو ومرة ثالثة بأن يتأكد من قدرات أولئك الذين يظهرون جرأتهم الزائدة أمامه.»

وعلى الرغم من إمكانية جدوى هذه الطريقة التي وصفها، إلا أنها تتلاعب بمشاعر الشعوب وقد تؤدي إلى نتائج غير طيبة، ويجب ألا ينسى الساسة أن ذاكرة الشعوب لا تنسى الكذب أو الخداع مهما كان.

وفي الفصل الحادي عشر، أشار «مكيافيللي» إلى تدخل المال والقوة في الحكم وقدرتهما على تثبيت العروش ودعم الملك وذلك في معرض حديثه عن الإمارات الكنسية. وأنا أرى أنه من غير اللائق الإشارة إلى استخدام المال ومراكز القوى لتثبيت الحكم وأن الإشارة إلى ذلك من بين ما وقع فيه «مكيافيللي» من الأخطاء وليست من الجرائم.

وفي الفصل الثاني عشر يذكر «مكيافيللي» نصيحة مهمة جدًا حول استخدام القوات المرتزقة، وهي نصيحة طيبة تحسب له، حيث يقول:

«وكل من يقيم دولته على أسلحة قوات مأجورة لن يستطيع التأكد من قوة وثبات ولايته. لأنها قوات مفككة ولها مطامعها الخاصة، وغير منظمة ولا عهد لها، وهي تبدو قوية أمام

الأصدقاء، لكنها جبانة عند مواجهة الأعداء، وهي لا تخشى الله ولا تصون عهدها مع الناس، وسقوطها مرهون بتأجيل العدوان عليها.»

وهذا من المسلمات المعروفة الآن، حيث لا تقاتل القوات المرتزقة في أي مكان من العالم بقلب وحمية مثل المقاتل صاحب القضية الذي يدافع عن وطنه أو يسعى إلى توحيد بلاده وحريتها. كما أن المرتزقة هم أول من يولون الأدبار إن تعرض الجيش لهزيمة أو أوشك عليها.

وفي الفصلين الثالث عشر والرابع عشر تحدث «مكيافيللي» عن القوات المسلحة الوطنية وحسن التسليح والتدريب والحفاظ على علاقة قوية بين الحاكم والقوات المسلحة. ولا أجد في هذين الفصلين ما يلفت النظر لا بالسلب ولا بالإيجاب. فكل ما ذكره هو من قواعد الحرب والتسليح التي قد تكون معلومة منذ قديم الزمان، وقد سبق أن تحدث الصيني «سون تزو» عن موضوعات مماثلة في كتابه «فن الحرب»[1] وذلك قبل الميلاد. أي أن «مكيافيللي» لم يأت بجديد حتى فيما كتب من نصائح وتوجيهات مفيدة وطيبة.

وفي الفصل الخامس عشر بدأ «مكيافيللي» تقدمه الحذر نحو مزيد من الانغماس في الصفات الكريهة والرذائل. فقال في نصحه للأمير إنه لا يوجد من البشر من يحمل كل صفات الخير حتى ينجذب الشعب إليه، لذلك فعلى الأمير تجنب الفضائح الناتجة عن الرذائل فقط قدر الإمكان، يقول:

«فكان من الضروري بالنسبة له أن يكون ذا حكمة كافية تمكنه من تحاشي أي فضيحة بسبب رذيلة من هذه الرذائل والتي قد تفقده الولاية ويقي نفسه من شرور الصفات الأخرى.»

ثم يؤكد نفس المنطق في الفقرة التالية، فيقول:

«وإذا لم يستطع ذلك فعليه أن يهمل تماماً هذه الرذائل ويحترس جداً فقط من تلك التي قد تسبب هلاكه.»

لم يهتم «مكيافيللي» أبدًا باقتراف الأمير لأي من الرذائل، بل اهتم فقط بعدم افتضاحها، لأن ذلك قد يؤدي إلى هلاك الأمير أو الحاكم.

وفي الفصل السادس عشر قارن «مكيافيللي» بين صفتين وهما «السخاء والشح»، وهنا أيضًا لم يتردد «مكيافيللي» في نصح الأمير المرتقب بألا يكون سخيًا إن أثر ذلك على

(1) سبق لي ترجمة هذا الكتاب، وتنشره دار الطلائع بالقاهرة. (المترجم)

ما هو أهم، فالناس سيعتبرونه سخيًا مع مرور الوقت حتى إن كان شديد البخل !! إلا أنه نصحه بأن ينفق بسخاء على الجنود حتى يضمن ولاءهم، كما أنه يرى أن الكرم والسخاء من أموال الغير لا يحط من قدر الأمير ولا يقلل من شأنه !!

وفي الفصل السابع عشر استمر «مكيافيللي» في سرد الصفات التي يجب أن يتحلى بها الأمير أو القائد المرتقب. وقد نصح فيه الأمير أن يسعى لتوطيد مهابته عند شعبه، أما حب الشعب له فهو بيد الشعب ومضمون الحصول عليه بقليل من التودد والدهاء.

● الطامة الكبرى:

ونأتي إلى الطامة الكبرى، وهي في الفصل الثامن عشر، فعنوان الفصل «كيف يصون الأمراء عهودهم» يتناقض مع الفقرة الأولى شديدة الوضوح وشديدة الصراحة التي يدعو فيها إلى عدم الوفاء بالعهود، لأن ذلك أفضل، فيقول:

«كلنا نعرف مدى الثناء الذي يناله الأمير الذي يحفظ عهده ويحيا حياة مستقيمة، دون مكر. لكن تجارب عصرنا هذا تدل على أن أولئك الأمراء الذين حققوا أعمالاً عظيمة هم من لم يصن العهد إلا قليلا. وهم من استطاع أن يؤثر على العقل بما له من مكر. كما استطاعوا التغلب على من جعلوا الأمانة هادياً لهم.»

أي أنه يرى أن أولئك الذين خانوا العهود ولم يوفوا بالوعود مع الآخرين هم من حققوا منجزات يسميها «عظيمة» لأنهم كانوا من المكر لدرجة مكنتهم من قهر الأمناء الموفون بالعهود.

ثم يواصل «مكيافيللي» توغله في الحدة والتجرد من المشاعر الإنسانية، فيقول:

«ويجب أن تعلم أن هناك طريقتين للقتال، واحدة لها قواعد وقوانين والأخرى تعتمد على القوة فقط. الطريقة الأولى للبشر، أما الثانية فللحيوانات المفترسة، ولما كانت الأولى غير كافية في أغلب الأحوال، فإن المرء كان يلجأ غالباً للطريقة الثانية.

وهذه النصيحة للأمير المرتقب تتعارض مع كل القوانين الدولية الآن، ولو طبق قادة العالم هذه النصيحة، فلن نجد وجودًا لدول سوى لتلك الأمم التي تمتلك القنابل النووية والأسلحة الكيماوية الفتاكة.

أما ما نصح به «مكيافيللي» الأمير من التحلي بصفات الثعلب والأسد معًا، مثل الدهاء والمكر والحرص، فهي من قبيل النصح المفيد الذي لا يتنافى مع الفضائل والأخلاق.

لكن، يتواصل التناقض الواضح فيقول «مكيافيللي»:

«وعلى ذلك فمن المفيد أن يبدو الأمير رحيمًا ووفيًا وحلو الصفات، صادقًا، ومتدينًا، وأن يكون كذلك فعلاً وليس مظهريًا فقط. ولكن يجب أن يتهيأ عقلك لكي تتحول إلى أضداد هذه الصفات عند الحاجة.»

هكذا وبكل بساطة يمكن للإنسان في رأي «مكيافيللي» أن يتحول من الصفات الحسنة إلى النقيض تمامًا فقط عند الحاجة لذلك !!

● مكيافيللي.. وعبارته الشهيرة!

وفي نفس الفصل توجد الجملة الأشهر على الإطلاق وهي «الغاية تبرر الوسيلة» وقد تحدثنا عن هذه الجملة في هذا الكتاب، لكني أضيف أنها من أشهر الجمل التي ساهمت في السمعة السيئة للكتاب وصاحبه. فهي مكونة من ثلاث كلمات فقط ويمكن تذكرها بسرعة.

وترى بعض الدراسات النقدية أن من بين كل **100** شخص ممن يعرفون من هو «مكيافيللي» سنجد **70** شخصًا يعرفون أنه قائل هذه العبارة فقط ولا يعرفون عنه أي معلومة أخرى ولا في أي عصر أو في أي بلد عاش.

وفي الفصل التاسع عشر تطرق «مكيافيللي» إلى الحديث عن احترام الشعب للحاكم ولم يخل ذلك من الغرابة أيضًا، فيقول:

«ويكون الأمير محتقراً حين يعتقد الناس بأنه متقلب وطائش ومخنث وجبان وضعيف العزيمة. وهذا يجب تجنبه كما يتجنب القبطان صخرة قاتلة. ومن واجبه أن يحافظ على ظهور أعماله بصورة تعكس العظمة والقدرة والمجد، وألا يقبل النقض فيما يحكم به بين رعاياه، ويتمسك بما يصدر من قرارات حتى لا يفكر إنسان في أن يضلله أو يخدعه.»

ونلاحظ في العبارات السابقة أنه يركز على المظهر الخارجي فقط، حتى وإن كان الأمير في جوهره على نحو مغاير لحقيقته، كما أن هذه النصيحة تنتهي بوجوب تمسك الأمير برأيه لإظهار قدرته وجبروته.

وقد سرد في هذا الفصل عدة أمثلة تؤيد ما يراه ضروريًا للحاكم من صفات. فيقع في خطأ فادح جديد وهو نصحه للحاكم بأن يتجنب الأعمال الصالحة إن كان ذلك يرضي فئة من أتباعه، فيقول:

«وذلك لأنه إذا فسد طرف من الأطراف الثلاثة، سواء كان الشعب أو الجيش أو النبلاء، وكنت تعتبره ضرورياً من أجل المحافظة على مركزك، فيجب عليك أن تتبع هواه وترضيه، وهنا تؤذيك الأعمال الصالحة.»

وقد حدد «مكيافيللي» في الفقرة السابقة ثلاثة أطراف، وهي الجيش والشعب والنبلاء، وهو ينصح الأمير بالاحتفاظ برضى أيٍّ منهم إن كان يرى ذلك ضروريًا للحفاظ على مركزه كأمير للبلاد. وأن يتبع هوى الفئة التي يريد أن يستميلها حتى وإن تجنب الأعمال الصالحة ... هكذا وبكل بساطة !!

ثم تطرق «مكيافيللي» إلى ما يمكن أن يحتمي به الأمير مثل القلاع والأسلحة وغيرها، كما حدثه عما يمكن أن يفعله الأمير فيما يمكن أن يضمه إلى ولايته من بلاد، فيقول:

« وعلى الأمير، عندما يكسب ولاية جديدة ويضمها إلى ولايته القديمة، فمن الضروري أن ينزع سلاح هذه الولاية عدا من وقف بجانبه وناصره عند الاستيلاء عليها، وحتى هؤلاء يجب على الأمير أن ينتهز الفرصة والوقت المناسب ويجعل منهم ضعفاء ومخنثين، وأن يهيئ كل شيء ليجعل جميع أسلحة الولاية الجيدة في أيدي الجنود الذين يعيشون بالقرب منه في ولايته القديمة.

وهكذا وبكل خسة يستمر «مكيافيللي» في نصح الأمير المرتقب بأن يجمع السلاح من أي ولاية جديدة يضمها إلى حكمه ولا يترك سلاحًا إلا في يد من أيدوه من أهل الولاية الجديدة، بل ويجمع السلاح ممن أيدوه بعد أن تستتب الأمور ولا يكتفي بذلك بل يبذل كل ما في جهده ليجعلهم ضعفاء ومخنثين !!

وفي الفصل الحادي والعشرين يقول «مكيافيللي»:

«ويُحترم الأمير بشدة إذا كان مخلصًا في الصداقة أو شديد العداء، وذلك حين يعلن بصراحة تامة تأييده أو عداؤه لفرد ما. وهي سياسة أكثر نفعاً له من أن يبدو محايدًا دائمًا. فإذا بدأ القتال بين دولتين متجاورتين، فقد يخشى انتصار أي منهما، أو لا يخشاه. وأيا كانت الحالة فمن الأفضل لك أن تعلن موقفك بوضوح، وتعلن الحرب.»

تبدأ الفقرة بتأكيد أهمية الوضوح والصراحة، لكننا نفاجأ بأن هذا الوضوح وهذه الصراحة ليست بدافع الالتزام بالأخلاق والمبادئ العالية، ولكن حتى لا يخسر الأمير إن تردد ولم يعلن موقفه في وقت مبكر أيًا كان هذا الموقف. فالتردد خسارة على أي حال سواء أعلن تأييده للطرف المهزوم أو للطرف المنتصر، ويبرر «مكيافيللي» ذلك بأن:

«كل منتصر لا يريد أصدقاء مشكوكًا في أمرهم، لم يمدوا إليه يد المساعدة في وقت الشدة. كما أن المهزوم لن يقبلك أيضاً لأنك لم تستل سلاحك وتخاطر بنفسك من أجل قضيته.»

فالأمر إذن مجرد تبادل مصالح وليست قضية الوقوف بجانب الحق في وجه الظلم، ولا مساندة المظلوم ومجابهة الظالم. لا ... إنها قضية المصالح، فعلى الأمير أن يفعل ما يعود عليه بالخير وما يتوقع أن يفيده فقط بغض النظر عن أي شيء آخر.

وقرب نهاية الفصل الثاني والعشرين يبالغ «مكيافيللي» في ضرورة الولاء للحاكم، وذلك حين تحدث عن ولاء الوزراء له، يقول:

«وهناك صفة أخرى يمكن بها للأمير أن يعرف وزيره، وهي طريقة صائبة دائماً. فإذا وجدت الوزير يفكر في نفسه أكثر مما يفكر فيك، وأنه يبحث عن مصلحته الشخصية في جميع أعماله، فإنه لن يكون وزيراً صالحاً، ولا يمكنك أن تعتمد عليه.»

وهكذا اختفت مصلحة الوطن تمامًا في منهج «مكيافيللي»، فقد أصبح الحاكم هو الوطن من وجهة نظره، فإن فكر الوزير في مصالحه الشخصية أكثر مما يفكر في مصلحة الوطن (الحاكم) أصبح غير جدير بالثقة ولن يكون مناسبًا للمركز الذي يشغله.

ولا أدري كيف يكون ذلك وهو يحذره من التملق والمتملقين في نفس الوقت فقد قال في نفس الكتاب وفي بداية الفصل التالي وهو الفصل الثالث والعشرين: «يجب ألا نغفل عن موضوع هام، وهو ذكر خطأ الأمير الذي لا يمكن تجنبه بصعوبة، إلا إذا كان على درجة عالية من الحكمة، أو لم يسئ الاختيار، وهو يتعلق بالمتملقين الذين يمتلئ بهم كل بلاط، فالناس يسعدون بما يخصهم، وينخدعون بالتملق، لدرجة أنهم لا يستطيعون تجنب هذا الطاعون إلا بصعوبة بالغة.»

فكيف للأمير أن يتجنب التملق تمامًا وفي نفس الوقت لابد له أن يتأكد من أن وزراءه يفكرون فيه وفي مصلحته قبل أن يفكروا في أنفسهم وفي مصالحهم الشخصية !!

وتتجلى أخلاق الدكتاتور في المشهد التالي كما يصوره «مكيافيللي» في نفس الفصل الثالث والعشرين. يقول:

«ولذلك على الأمير أن يتبع طريقة ثالثة، وهي أن يختار من ينصحونه من حكماء الناس، ويمنحهم الحرية التامة كي يتحدثوا إليه عما يسألهم عنه من أمور فقط وليس عن أي شيء آخر.»

فالحكماء الذين يحيطون بالحاكم يقدمون النصح عندما يطلب منهم فقط، ويصمتون تمامًا ولا يتكلمون إلا بإذن الحاكم، وهذا عند «مكيافيللي» معناه «حرية تامة».

وتتعالى نبرة التكبر والاستعلاء حتى على حكماء الأمة فيواصل «مكيافيللي» الحديث حول المعنى السابق، فيؤكد ويقول:

«ولكل هذا ينبغي على الأمير أن يستشير دائماً، عندما يكون هو فقط في حاجة للاستشارة وليس عندما يريد غيره.»

فماذا يفعل أحد الحكماء إن رأى خطرًا محدقًا بأمته؟ بناء على هذه القاعدة التي أرساها «مكيافيللي»، يجب عليه أن يصمت ولا يتحدث إلا عندما يطلب منه الحاكم ذلك !!

ثم يواصل «مكيافيللي» كلامه وينهي الفصل بجمل مدهشة، فيقول إن النتيجة التي يجب أن نصل إليها هي :

«تعود النصائح الحكيمة لأي ناصح كان إلى حكمة الأمير، ولا تعزى حكمة الأمير إلى ما يتلقاه من نصائح صالحة.»

أي أنه إن كان هناك خير فيما يقدمه الحكماء للأمير، فالفضل فيه للأمير نفسه وليس للحكماء، كما أن ما يتلقاه الأمير من حكمة ورأي صائب ممن حوله من مستشارين هو من فيض خيرات الأمير أيضًا، فليس هناك أي فضل سوى للأمير حتى إن كان العمل الطيب صادر عن غيره !!

وهكذا نجد أن الأمير أو الحاكم المثالي كما يتخيله «مكيافيللي» يتصف بالصفات التالية:

- أبرز صفة في هذا الحاكم أنه يستخدم أي وسيلة ممكنة لتحقيق أهدافه بغض النظر عما إذا كانت هذه الوسيلة شريفة أم غير ذلك، فالغاية تبرر الوسيلة !!
- يتظاهر الأمير أمام رعيته بكل الصفات الحسنة والفضائل مثل: العطاء – الشجاعة– التسامح – الأمانة – الكرم – الصدق - الوفاء بالوعود والعهود ... إلى آخر قائمة

طويلة سردها «مكيافيللي»، إلا أنه يمكنه أن يلجأ لاستخدام الصفات السيئة والرذائل عند الحاجة وبلا أي تردد.

- لابد للحاكم أن يكون عديم الرحمة بحيث يمكنه أن يكون سفاحًا لا يتردد في اقتراف مذابح كبرى، ولا يفكر فيمن سيقتلهم من أبرياء. فالمهم هو بقاؤه وبقاء حكمه قائمًا.
- لا يفكر الحاكم المثالي في الآثار المترتبة على ما يرتكب من جرائم، بل عليه أن يقوم بها دفعة واحدة إن كان هناك حاجة لذلك.
- الحاكم المثالي يتصف بما سبق من صفات، ولابد له ألا يثق فيمن حوله ثقة مطلقة، وأن يأخذ حذره من الجميع، حتى المحيطين به. كما حذر من التملق والمتملقين بشدة في نفس الكتاب وسمى التملق بالطاعون.
- الحاكم المثالي حسبما يراه «مكيافيللي»، لابد أن يكون انتهازيًا، بحيث يقتنص الفرصة المفيدة له فورًا وبلا أي تردد أو تفكير طويل.
- والحاكم المثالي عند «مكيافيللي» أيضًا حريص على مظهره الخارجي فقط، وذلك بالمعنى المادي والمعنوي. أي أن مظهره يكون جيدًا وأن يشاع عنه الصفات الحسنة فقط حتى وإن لم يلتزم بها فعلاً.
- الحاكم المثالي عند «مكيافيللي» هو الدولة ذاتها، ومن لا يفضله على نفسه من الوزراء لا يجب أن يظل في موقعه بل يجب تنحيته والمجيء بغيره يجيد ذلك الفن الغريب.
- كما أن الحاكم المثالي لابد وأن يكون ديكتاتوريًا في تصرفاته بطريقة لا تسمح حتى لمستشاريه أن يعرضوا عليه وجهات نظرهم فيما حولهم من مشكلات، بل يمكنهم التحدث فقط عندما يريد هو ذلك.

ابن خلدون ومكيافيللي

● هل هناك تشابه بين سيرتي ابن خلدون ومكيافيللي؟

للكاتب المغربي عبد الله العروبي كتاب قيم تحت عنوان: (ثقافتنا في ضوء التاريخ) من منشورات المركز الثقافي العربي بالدار البيضاء - المغرب أفرد فيه بحثًا شائقًا ومهمًا قارن فيه بين أفكار وسيرتي ابن خلدون ومكيافيللي نلخصه فيما يلي:

عندما نستعرض حياة ابن خلدون ومكيافيللي نلاحظ تشابهًا واضحًا أولًا في مجرى الحياة وثانيًا في الاتجاه الفكري.

1 - لقد عاش ابن خلدون في شمالي أفريقيا قبل أن يرحل إلى المشرق، ولم يتعرف على أوروبا النصرانية إلا من خلال سفارة قصيرة لدى ملك قشتالة في إشبيلية كما عاش ميكافيلي طوال حياته في فلورنسا ولم يبرح إيطاليا إلا لفترات قصيرة قضاها في سفارات لدى أمراء فرنسا وألمانيا.

2 - ومن جهة أخرى مرت حياة ابن خلدون (**1332-1406**م/ **737-808**هـ) في ظل دول ضعيفة منحطة، في حين أن مكيافيللي عاش (**1468-1527**م) بداية النهضة التي مكنت أوروبا الغربية من التفوق على سائر الشعوب والأجناس.

قد يظن القارئ أن اختلاف الظروف المكانية والزمنية يشير إلى تباعد في تكوين الرجلين لكن عند التدقيق نجد تشابهًا عميقًا في التجارب.

3 - سبقت النهضة الإيطالية نهضة الشعوب الأوروبية الأخرى بقرنين تقريبًا، وتحققت الثانية بالقضاء على الأولى، أي لم تدخل أوروبا في عصر النهضة إلا بعد أن داست جيوشها أرض إيطاليا وحطمت أقاليمها وخربت معالمها.

هذه هي التجربة التي عاشها مكيافيللي وعبر عنها في خاتمة كتابه «الأمير» وهي تجربة شبيهة بالتي عرفها ابن خلدون عندما كان يتنقل من بلد إلى بلد في الغرب الإسلامي.

4 - لم يتمكن الرجلان من تحقيق طموحهما السياسي.. فقد كان مكيافيللي يشغل منصب كاتب ثان في إدارة فلورنسا المكلفة بالشئون العامة، ثم عزل وسجن وعذب.

كما أن ابن خلدون أخفق في جميع محاولاته مع أمراء غرناطة وبجاية وتونس، وانتهت كلها بالسجن أو الطرد أو الفرار.

5 - قرر مكيافيللي بعد أن أبعد عن العمل الإيجابي أن يوجه السياسة بكيفية غير مباشرة. فأراد أن يكون مستشار حاكم فلورنسا وأن يسدي النصائح إلى «البابا». لكن هذين الحاكمين لم يكونا في حاجة إلى نصائحه المجردة. كما أن ابن خلدون أخفق حين أراد تلقين أمير غرناطة فن السياسة.

6 - اهتم مكيافيللي طول حياته بالشئون العسكرية وألح على المسئولين في مدينة فلورنسا لكي يستغنوا عن المرتزقة وينظموا جيشًا وطنيًا. كما أن ابن خلدون كان على همزة الوصل بين رؤساء القبائل الهلالية والأمراء المخصصين الذين كانوا يوظفونهم في جيوشهم واكتسب من تلك التجربة معرفة بالشئون العسكرية.

7 - عندما اقتنع مكيافيللي أن دوره السياسي قد انتهى انحاز إلى ضيعة بعيدة عن المدينة وتعاطى دراسة التاريخ فألف كتاب «الأمير» و«تاريخ فلورنسا».

كما ودع ابن خلدون السياسة في الثالثة والأربعين من عمره ووهب ما تبقى من حياته لدراسة وتأليف التاريخ.

8 -علاقة الدين بالسياسة:

يرى مكيافيللي أن الدين قوة اجتماعية تردع وتهذب النزوات البشرية في الأفراد فيقول: «إن القارئ الفطن يستدل من تاريخ روما على أن الدين نافع لقيادة الجيوش، ومواساة لشعب وتشجيع الأخيار وردع المفسدين».

وعبر ابن خلدون عن نفس الفكرة في فصول عديدة من المقدمة نذكر منها:

فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية، وفصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية.

9 - علاقة الفقر بالفضيلة والترف بالفساد الخلقي وانحطاط الدولة:

يصف مكيافيللي أحوال إسبارطة فيقول:

«كان الفقر فيها عامًا والطمع محدودًا لأن المناصب كانت فيها قليلة» وفي باب آخر: «لا توجد قوانين ولا دساتير تقضي على الفساد كما أن الفضائل تدوم بالقوانين الصالحة فإن القوانين لكي تطبق تحتاج إلى الفضائل».

ويقول ابن خلدون: «وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلونت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يقذفون أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم».

10 - الاستئثار بالحكم يدفع المحكومين إلى الانتقام من الحاكم المستبد:

يقول مكيافيللي: «يلزم على الحكام أن لا يحتقروا الناس ويعتبروهم عاجزين عن الانتقام لحقوقهم. إنهم ينتقمون إذا تضاعف الضيم وتزايد العار، حتى ولو أدى ذلك إلى التضحية بالنفس».

ويقول في موضع آخر: «إن الرعية تبغض أكثر ما تبغض من أفعال أميرها مزاحمته لها في الربح».

أما ابن خلدون فليس من عادته أن يسدي النصائح لكنه يكتفي بوصف الواقع، فهناك فصل في أن «طبيعة الملك الانفراد بالمجد» وفصل في أن «التجارة من السلطان مضرة بالرعية».

11 - صناعة الحرب هي المهمة الأولى للأمير، يشيد بها مجده ويحافظ بها على المملكة:

يقول مكيافيللي: «حينما يتعاطى الأمراء الملذات أكثر مما يتدربون على السلاح، فإنهم لا محالة يضيعون ممالكهم. إن الإعراض عن فنون الحرب هو

السبب الأول في ضياع الملك. كما أن سبب توسع الممالك هو ميل الأمير إلى الصناعة الحربية».

يتحدث ابن خلدون عن الجيل الثالث في حياة الدولة، حينما تطل على الانحطاط فيعلق: «يلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة، يموهون بها وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهورها». إن الدولة في الجيل الثالث تعتمد على المرتزقة، فتكثر المصاريف في الوقت الذي تزداد فيه نفقات الترف والبذخ. فتدخل الدولة في دوامة الأزمات المتلاحقة.

● **سؤال:**

• هل تنطبق تحليلات مكيافيللي على أحوال المغرب؟

• وهل تصدق التعليلات والبراهين الخلدونية على الأحداث الإيطالية؟

سوف نكتفي بالشطر الأول من السؤال.

ورأينا أن مكيافيللي كان يستقبح اللجوء إلى المرتزقة لمدافعة الأعداء وكان يرى أن جمهورية فلورنسا انهارت لأن سكانها تعودوا الدعة والركون. فلم يتدربوا على حمل السلاح، فقد خضعت الإمارات الإيطالية في زمن للأجانب لأنها لم تكون جيشًا وطنيًا إيطاليًا.

ودرس بدقة حروب المرتزقة ووجدوا أنها تتسبب في اضطراب مستمر وخراب عام.

يقول مكيافيللي: «كان المتحاربون يقتصرون على سلب المغلوب سلاحه ومتاعه، فلا يقتلونه ولا يودعونه السجن. فيعود المغلوب إلى مهاجمة الغالب متى تسلح من مستخدم المركوب والسلاح.

هذه واحدة، أما الثانية فإن المرتزقة يستولون وحدهم على الغنائم والضرائب ولا يتركون للأمراء ما يسددون به المصاريف الطارئة فيضطر الأمراء إلى الزيادة في الضرائب، فيقترن نبأ النصر بالإعلان عن ضريبة جديدة لدى الرعية، فالغالب والمغلوب في حاجة إلى المال: الأول لمكافأة جنوده المنتصرين والثاني لتسليح جيشه المهزوم..

فالفائز لا يستفيد إلا قليلًا من فوزه، ولا يتضرر المنهزم كثير من انهزامه، لأن هذا يملك الوقت ليسترد قوته، ولأن ذلك يعجز عن استغلال نصره».

ألا ينطبق هذا الوصف على الحروب التي تملأ صفحات تاريخ ابن خلدون؟

الحروب التي كانت تدور باستمرار بين بني مرين وبني عبد الواد وبني حفص دون أن ينتصر أبدًا أي منهم على الآخر بكيفية حاسمة! أليس المرتزقة هم بنو هلال الذين كانوا وحدهم يحاربون باسم هذا الأمير أو ذاك حسب الظروف والأحوال؟

ذهب مكيافيللي مرارًا سفيرًا إلى فرنسا. فرأى مملكة موحدة تنظمها قوانين يخضع لها الملك وتحافظ على البرلمانات الإقليمية فتساءل عن تقسيم إيطاليا وتعدد إماراتها وأجاب:

«إن البابا يخاف أن يتعاظم شأن أمير واحد حيث يناصر الضعيف من الأمراء حتى إذا انتعش وتقوى تخوف منه وعمل على إضعافه وإذلاله».

أليس هذا منطق سياسة حكام الغرب الإسلامي في تصريف شئون أمراء الجيش وشيوخ القبائل؟

أليس هذا هو السر في استمرار ما يسمى بالنظام القبلي المبني على التجزئة والتوازن والذي هو خطة إدارية لتسير أمور الدولة؟

ومن المعلوم أن هذه الخطة لا تخص البادية فحسب، فقد لاحظ ابن خلدون أن العصبية موجودة في الحواضر أيضًا.

12 - تأثر مكيافيللي وابن خلدون بفلسفة أرسطو؟

لا شك أن فلسفة أرسطو أثرت تأثيرًا قويًا في ابن خلدون ومكيافيللي معًا.. لكن السؤال الذي يجب طرحه هو:

أي جانب من تعاليم أرسطو ساعد الرجلين على اكتشاف ميادين مجهولة في السياسة والتاريخ.. لقد قيل: إن مكيافيللي لم يكن يقرأ اليونانين وإن العرب لم يطلعوا على النسخة الأصلية لكتاب «السياسة» لأرسطو.. إلا أن هذه السلبيات لم تمنع الرجلين من التعمق

في النظريات الأرسطية.. لأن السياسة عند أرسطو مرتبطة بالأخلاق.. ولابد لنا أن نلاحظ أن تعاليم أرسطو كانت ملكًا مشاعًا في القرون الوسطى بين المؤلفين المسلمين والمسيحيين.. فلا يمكن أن تكون سبب اقتحام ابن خلدون ومكيافيللي ميدانًا فكريًا جديدًا لم يهتد إليه أحد من قبلهما.

علينا إذن من أن نبحث عن تأثير من نوع آخر.. وبالفعل سنرى في خلاصة هذا البحث أن أرسطو كان حقًا هو المفتاح إلى ذلك الميدان الجديد.. لا عن طريق أفكاره الأخلاقية والسياسية بل عن طريق المنطق.

● تشابه الظروف:

والملاحظة ذاتها تصدق على تشابه الظروف.. وقد قلنا: إن أدوار حياة الرجلين متشابهة.. ونضيف هنا أن أوضاع الضعف في إيطاليا، والتفتيت والحروب المدمرة، كانت بالضبط تشبه أوضاع الشمال الأفريقي.. لكن ظروف إيطاليا وحدها لا تفسر ظهور مكيافيلي.. كما لا تعلل ظروف الشمال الأفريقي وحدها بزوغ عبقرية ابن خلدون. وهنا نرجع إلى مسألة منطق أرسطو.. ونستطيع أن نقول: إن السبب في التوافق هو إعمال منطق واحد لفهم ظروف مماثلة.

● اختلاف البيئة:

يقول بعض الباحثين: نقرأ أن ابن خلدون ومكيافيللي استعملا منطق أرسطو.. واتفقا في حكمهما على طبيعة البشر، وعاشا تجارب متشابهة في ظروف متقاربة.. ورغم هذا يستحيل اتفاقهما في عمق الأمور لأنهما ينتميان إلى حضارتين متعارضتين.

لقد عبر عن هذه الفكرة «هاملتون جيب» في مقاله «الإطار الإسلامي لفكر ابن خلدون».. حيث أوضح أن ابن خلدون لا يعدو أن يكون فقيهًا مالكيًا يهدف قبل كل شيء إلى تبرير واقع الخلافة كما فعل قبله الماوردي والباقلاني والغزالي.

بينما نجد مفاهيم أخرى عند مكيافيللي.. ولنقرأ مثلًا هذه الفقرة: «لو أرادت روما أن تحافظ على حرياتها بعد أن فسدت أخلاقها لكان لزامًا عليها أن تعدل دستورها مثلما غيرت قوانينها».

إن هناك استمرارية تاريخية وفكريةولغوية واضحة بين أرسطو والتاريخ الروماني وميكافيلي.. وهي استمرارية منعدمة تمامًا في فكر ابن خلدون.. فحينما يتجاوز هذا الأخير حدود المجتمع الإسلامي.. وبالأخص عندما يواجه المفاهيم السياسية التي ذكرناها فإنه يضطر إلى ترجمتها إلى مفهوم الشرع فتفقد أصالتها.. أو يدرجها ضمن مفهوم السياسة العقلية المستنبط من الفلاسفة المسلمين فتفقد دقتها. وهذا يشكل تعارضًا بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية الغربية.

● هوية مكيافيللي السياسية:

لقد اختلف المفسرون في هوية مكيافيللي السياسية: منهم من قال إنه كان متشبسًا بالحرية، ومنهم من اتهمه بأنه من أنصار الطغاة المستبدين.. لكن هناك اتفاق على أنه عمل على أن تحافظ فلورنسا على حرياتها.. وأنه كان يأمل أن أميرًا مستبدًا سيوحد إيطاليا ويحررها.

● ماذا نجد عند ابن خلدون؟

نقرأ في بداية «المقدمة» أن هدف علم العمران هو تمحيص الأخبار.. ويتساءل ابن خلدون: لماذا لم يهتم الحكماء السابقون بعلم العمران؟.. يجيب: العلة هي أن ثمرته غير شريفة.

إن المثل الأعلى عند ابن خلدون هو الخلافة.. ومع ذلك لا يدرس في العلم الجديد وسائل إعادة بنائها والمحافظة عليها.. بل يحلل فقط تطور الملك الطبيعي الهادف إلى الترف والتسلط.

● فرق هائل بين ما يهدف إليه كل من ابن خلدون ومكيافيللي:

هناك فارق هائل بين ما يهدف إليه كل من الرجلين.. فارق متأصل في تعارض ثقافتي الرجلين.

ففكر ابن خلدون يدور في نطاق مفاهيم أربعة: الطبيعة والاجتماع والعصبية والملك.

في حين أن فكر مكيافيللي تحدده المفاهيم التالية: البخت والسياسة والهمة والحرية.

كتب ابن خلدون في مستهل المقدمة «وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة».

إن ابن خلدون يؤرخ لجيل انقضى وصار إلى ركود الطبيعة وديمومتها.. لذا يفسر أحوال العمران تفسيرًا طبيعيًا: الملك طبيعي وكذلك الترف والحضارة والاستقلال بالمجد والانحلال والخراب.. فابن خلدون يحرص على أن يكون السبب الحقيقي طبيعيًا في كل الأحوال.. وكلما اعترضه خوارق ومعجزات لا يمكن إنكارها أثبت أنها غير بشرية.. فلا يجوز قياس الأحداث الإنسانية عليها.

يقول محسن مهدي: إن ابن خلدون لم يكن من الحتميين، وهذا حكم صحيح إذا اعتبرنا أنه كان مسلمًا سنيًا.. مما لا شك فيه أنه حاول أن يجعل من ميدان الاجتماع البشري نطاق الحتمية الطبيعية التامة بعد أن خلصه من ميدان الخوارق والمعجزات كما تدل على ذلك هذه العبارة: «إن الملك غاية طبيعية ليس وقوعه عنها باختيار، إنما هو بضرورة الوجود وترتيبه».

ويقول ابن خلدون في موضع آخر «الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لاتدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع من عالم الحس إلى عالم الروح».

كذلك إذا كان التطور من البداوة إلى الحضارة، ومن الخشونة إلى الترف ومن القوة إلى الضعف حتمًا.. فإن للدولة عمرًا كما لبني آدم، ومحاولة إعادتها إلى بدايتها كمحاولة إرجاع الكهول إلى الطفولة، يمكن المحافظة على المزاج وضمان الصحة بالمكايسة والمداومة، أما التكهل فمحال.. قد يطول الهرم بدولة إذا انعدم المطالب، لكن الهرم لا ينقلب، أبدًا إلى انتعاش.

قاد ابن خلدون تشبثه بالعلة الطبيعية إلى الاهتمام بالاجتماع والإعراض عن السياسة العملية.. إن ابن خلدون لا يعظ ولا ينصح، إنه يصف ما هو واقع لا محالة: السياسة عنده خضوع لقوانين المجتمع لا معارضتها.. حينما يقول: لابد للعمران من سياسة فإنه يعني

أن السياسة والعمران توأمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.. ليست العبرة في المفهوم الخلدوني التجربة التي تمكن القارئ من تدارك الأخطاء بقدر ما هي المقياس الذي يسهل فهم الواقع.. العلة عندهُ علاقة تساكن وتواجد لا علة تولد.. من هنا كان دور العصبية حاسمًا في التعليلات الخلدونية.

جاء ابن خلدون في نهاية حقبة من حقب التاريخ الإسلامي، وفحصها بعد أن صارت قطعة هامدة لم يعد في إمكان أي أحد أن يغير منها شيئًا.. لا عجب إذا وجدها خاضعة تمام الخضوع لأحكام الطبيعة.. ورأى فيها نهاية محتومة لقوة طبيعية تظهر فتنمو ثم تنقرض.. استخرج من هذا التشريح مقاييس لتمحيص الأخبار المروية عن تلك الحقبة ولم يهدف إلى أي نفع آخر.

● مكيافيللي عالم آخر مغاير تمامًا لعالم ابن خلدون:

إن عالم مكيافيللي هو عالم الحركة والبخت والهمة والشهرة.. حيث يعترف الكاتب الإيطالي أن همته تضعف من حين إلى حين ويرى أن أحوال الدنيا تنتج عن الاتفاق وأن المرء لا يتحكم في مآل أعماله لكنه لا يلبث أن يتمالك ويقول: «إني أرى أن البخت يتحكم في نصف أعمالنا.. أما النصف الآخر فهو موكول لإرادتنا».

ويقول في موضع آخر: «إن الإنسان الذي يخطئ قليلًا ويصيب كثيرًا هو الذي توافق حركته الظروف المناسبة، لكنه لا يعدو مثل غيره من الناس أن يساير طبعه».

يرى مكيافيللي أن قوتين تتقاسمان تسيير شئون العالم: البخت والطبع البشري.. ينجح المرء عند توافقهما ويخفق عند تعارضهما.. في كل عمل بشري لا شيء يضمن النتيجة.. لكن لا شيء يمنع الإقدام. يعتقد مكيافيللي أن غاية الأمور هي الفساد.. وهذه خلاصة من يستقرئ التاريخ.

بعد انهيار روما أكبر وأمتن نظام سياسي عرفه التاريخ وانهزام الرومان أفضل الناس أخلاقًا.. لا يمكن للمرء أن يتنبأ بدوام أي عمل إنساني.. ورغم ذلك لم ينفك مكيافيلي يسدي النصائح للأمراء ويحث رؤساء الجمهوريات على الكد والنشاط.. لماذا؟

لأنه يرى أن الانهيار بحكم الضرورة نهائي.. أما الإخفاق بسبب البخت فإنه يترك فرصة لاستدراك الخطأ وترميم الصدع.

وهنا يتميز عن ابن خلدون.. فهو يعتقد مثله أن إصلاح الدولة بعد فساد أخلاقها صعب.. لكنه لا يراه مستحيلاً.. ويقول في هذا الصدد:

"يجب أن يكون في مبادئ الأديان والجمهوريات والممالك حيوية تعيد لها من حين إلى حين نفوذها وقوتها الأصلية.. إن المبادئ تضعف مع مرور الزمن فينهار الجسم السياسي تمامًا إذا لم يجد ما ينعشه».

ويتهم مكيافيللي الكنيسة بإضعاف همم الإيطاليين لأنها قضت على أخلاق الرومان فيكتب: «كشفت الديانة المسيحية لنا عن الحقيقة وأظهرت لنا سبيل النجاة.. فجعلتنا نحتقر مفاخر الدنيا، بعكس المشركين الذين كانوا يعظمون تلك المفاخر ويضعونها فوق كل فضيلة. ومن أجل ذلك كانوا يباشرون أعمالهم بشراسة فائقة».

وهكذا يركز مكيافيللي على دور همة الفرد في الأحداث السياسية.. فبهمة القادة تحافظ الجمهوريات على الحرية.. وبجرأة الأمراء وإقدامهم تنشأ الممالك وتتسع.. ولن تتوحد إيطاليا إلا إذا سخر أمير همته لتحقيق ذلك الهدف بكل الوسائل، ولن تستعيد فلورنسا استقلالها إلا إذا عزم سكانها على الاستغناء عن المرتزقة وحملوا السلاح بأنفسهم.. هذه هي وصية مكيافيللي في السياسة.

● لماذا لم يهتم مكيافيللي بعلم الاجتماع والاقتصاد؟

لم يهتم مكيافيللي بالاجتماع والاقتصاد لأنه كان يرى في عالم الإنسان ميدان تصارع بين البخت والإرادة البشرية.. ولم يزل يكرر أن النجاح مرهون أولًا وأخيرًا بإرادة النجاح.. ولم يكف عن إسداء النصح للإمراء لكي يتحايلوا على البخت وينتزعوا منه المبادرة.. وهذا ما دفع بعض المعلقين إلى القول إن مكيافيللي يتكلم أحيانًا كمؤرخ وأحيانًا كداعية.. وهو حكم لا يصدق على ابن خلدون البتة.

● نظرية الأطوار عند مكيافيللي:

يرى مكيافيلي أن الدولة تؤسس في شكل جمهورية شعبية عادلة وفاضلة.. ثم تنحط

أخلاق أهلها فتنقلب إلى فوضى.. ثم تتحول إلى إمارة عادلة في البداية ومستبدة في النهاية.. حينئذ يثور الفضلاء ضد المستبد ويؤسسون جمهورية أرستقراطية تنقلب بعد حين إلى طغيان وتدفع الشعب إلى الثورة ضدها وبما أنه - أي الشعب - لا يزال يتذكر قبائح الاستبداد فإنه يؤسس من جديد ديمقراطية شعبية تنحل بدورها بعد حين إلى فوضى.. وهكذا دواليك.

● نظرية الأطوار عند ابن خلدون:

لا تلعب نظرية الأطوار أي دور محوري عند مكيافيللي.. أما عند ابن خلدون فإنها تكتسب أشكالاً مختلفة تميز بينها أربعة عناصر رئيسية:

1 - تطور التاريخ العام الذي يقود الاجتماع البشري من البداوة إلى الحضارة.

2 - تطور الحضارة التي تمر بخمسة أطوار: البدء والتعمير والعمران والهرم والتجديد.

3 - تطور الدولة التي تمر بثلاثة أطوار: الشباب حيث تكون عصبيات الدولة متساوية، الرجولة حيث تستقل عصبية واحدة بالملك والمجد وتعوض العصبيات الأخرى بالموالي والصنائع، الكهولة حيث تمحى العصبية بسبب الترف وانحطاط الأخلاق وتصبح الدولة ملكًا للموالي والعبيد.

هذه التطورات الثلاثة متداخلة - الواحدة في الأخرى: يؤثر تطور العصبية في الدولة وتحقق الدولة تطور البشر من البداوة إلى الحضارة، أي تحقق الغاية من الحياة البشرية التي هي العمران.

ونجد عند ابن خلدون صورة رابعة لنفس التطور يتجاوز فيها المؤلف الوصف إلى التقييم.

4 - تطور السلطة من الملك الطبيعي الذي هو من ضروريات الاستمرار للجنس البشري إلى السياسة العقلية، ومنها إلى السياسة الشرعية.. هذه الأنماط السياسية توجد في التاريخ الإنساني ولا تنفي الواحدة الأخرى.

لا يصف هنا ابن خلدون تطورًا تاريخيًا بقدر ما يعطينا ترتيبًا أخلاقيًا. يأتي الملك الطبيعي في البداية من ناحية الواقع، لكنه من ناحية القيمة الأخلاقية يأتي في المؤخرة،

ما دام يهم الإنسان وهو ما يزال يفتقر نور العقل والهداية وعندما يرتفع الإنسان عن مستوى الحيوان ويتقدم نحو إدراك المصالح العامة يأتي دور السياسة العقلية التي تضمن للإنسان السعادة في هذه الدنيا. أما السياسة الشرعية فهي الأعلى مرتبة لأنها ترعى مصالح الإنسان في الدنياوفي الآخرة.

● نظرية ابن خلدون أغنى:

وهكذا نرى أن نظرية ابن خلدون أغنى من نظرية الأطوار التقليدية في التأليف اليوناني.. قسم منها فقط المتعلق بتطور العصبية والدولة يشبه ما وصلنا من أقوال فلاسفة الإغريق.. لكن إذا أمعنا النظر في هذه النقطة وجدنا أنها تنسجم مع التحليلات الخلدونية أكثر مما تنسجم مع تحليلات مكيافيللي.

إن ابن خلدون، اعتمادًا على الضرورة الطبيعية بنفي إمكانية إحياء دولة بعد انقراضها أو انتعاش حضارة شعب بعد انحطاطها.. لا ينتظر ظهور المهدي العربي لأنه يرى أن العرب فقدوا كل عصبية تمكنهم من تأسيس دولة جديدة ويعتبر أن لكل عصبية دورة بين الشعب الواحد، ولكل شعب دورة بين الشعوب، وفي هذا الإطار فإن نظرية الأطوار تكتسب معنى معقولًا ومقبولًا.

أما مكيافيللي الذي شاهد حركة إحياء الفن القديم في إيطاليا الحديثة، والذي كان يعتقد أن البخت هو المتحكم في أحوال الدنيا لم يكن في حاجة إلى هذه النظرية.. إنما أقحمها في كتاباته لأنه وجدها في التآليف القديمة.. حصرها في تغير أشكال الدولة ولم يجعلها تؤثر في مسار الحضارة ولا في همة الأفراد..كان يعرف أن روما القنصلية ذهبت إلى غير رجعة.. لكنه كان يعتقد أن الفرد يستطيع دائمًا استلهام همة الرومان العالية.

ويتضح لدنيا الآن أن كلًا من ابن خلدون، الفقيه المالكي، وميكافيللي رجل الدولة الإيطالي يفكر في عالم خاص به وغريب عن عالم الآخر.. وهذه حقيقة لا يطعن فيها تأثر الرجلين بالتراث اليوناني ولا توافق تجاربهما في الحياة.

● العلاقة بأرسطو:

إن الخطوة التي ميزت كلًا من الرجلين داخل حضارته، وبالتالي قربت بينهما وقادتهما إلى أحكام متشابهة هي الرفض المبدئي للطوباويات.

كان التيار الأفلاطوني الذي يبحث فيما يجب أن يكون النظر إلى العقل والفضيلة هو التيار المسيطر في زمنهما وكان مطلعين عليه ويشاركان إلى حد ما أهدافه وتعاليمه.. لكنهما لم يكتشفا ميدانًا جديدًا للبحث إلا بعد أن رفضا رفضًا صارمًا مقدماته المثالية.

يقول ابن خلدون: «أما المدينة الفاضلة والسياسة المدنية فهي ما يكون عليه الفرد ليستغني عن الحاكم رأسًا».. هذا ميدان لا يريد أن يتطرق إليه، يريد بالعكس أن يدرس أحوال الفرد الذي لا يمكنه أن يستغني عن الحاكم.

ويردد مكيافيللي النغمة ذاتها في قول: «لقد تصور كثير من الناس جمهوريات وإمارات لم يرها ولم يعرفها أحد قط.

إن الفرق بين حياتنا الواقعية والحياة المثالية شاسع إلى حد أن من يترك الواقع ليتشبث بالواجب يتعلم كيف يهلك لا كيف ينجو.

هذه هي الخطوة الأولى لاكتشاف ميدان معرفي جديد.

وهناك خطوة ثانية لا تقل عنها أهمية وهي استعمال العقل المجرد.. الأدلة والبراهين والأقيسة المستعارة من أرسطو لدراسة الحياة الواقعية. كم من مرة يستهل ابن خلدون تحليلاته بالعبارة التالية: ويقضي التقسيم العقلي!

ويبرر مكيافيللي تأليفه كتاب الأمير بأنه قسم المادة تقسيمًا جديدًا..

إن ما يميز ابن خلدون ومكيافيللي هو دراسة الواقع دراسة عقلية.. ولكن ما هو الواقع الذي يشكل مادة العلم المبتكر عند الرجلين؟

ليست تلك المادة مجموع الأحداث التي يسردها المؤرخون ولا ينظمونها إلا باعتبار التلاحق الزمني.. وليست كذلك الأخلاق المجردة التي يتخيلها الحكماء.. إنما هي مجموع

الأفعال البشرية الناتجة عن القوى الحيوانية بعد أن نظمها العقل حسب الهدف الإنساني الأسمى:

العمران عند ابن خلدون والصيت عند مكيافيللي هي إذن مادة واقعية ومعقولة في الوقت نفسه، بخلاف مادة المؤرخين الإخباريين (وقائع بلا تمييز) ومادة الحكماء (معقولات غير واقعية).. لابد من التأكيد على هذه النقطة لكي لا يبحث القارئ في «المقدمة» أو في «الأمير» عن تاريخ أو حكمة.

● مميزات موقفي ابن خلدون ومكيافيللي عن موقف من سبقهما:

يتميز هكذا موقف ابن خلدون وميكافيللي عن موقف من سبقهما في هذا المضمار بالقاعدة التالية:

ليست الأعمال البشرية وليدة العقل ولكنها قابلة للتمييز العقلي.. أو بعبارة أخرى: لا يعمل العقل ضمن التاريخ.. وإنما يرتب نتائج التاريخ.. وهذا الموقف يختلف كما قلنا عن التيار الأفلاطوني.. لكنه يختلف أيضًا عن اتجاه أرسطو الذي كان يحتقر التاريخ ولا يأبه إلا بالطبيعة الثابتة المستقرة.

بعد ان حدد الرجلان مادة دراستهما اكتشفا أن لها طبيعة من جهة وقاعدة من جهة أخرى.. أما طبيعتها فهي كونها نتيجة قوة الإرادة لا قوة التأمل.. بل في هذا الميدان يخضع التأمل للإرادة.. ونكتفي هنا بمثالين:

يقول ابن خلدون: «إن الملك والسلطان من الأمور الإضافية وهي نسبة بين منتسبين.. فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم.. والحاكم بمقتضى الطبيعة البشرية القاهر المتحكم».

ويتساءل مكيافيللي عن مآل جمهورية صغيرة متقنة التنظيم فيقول: «إذا لم تهاجم جيرانها فإنهم سيهاجمونها.. ويوحي لها عندئذ الهجوم بالتسلط أو يرغمها عليه.. وإذا لم يكن لها عدو في الخارج فسينشأ لها أعداء في الداخل: هذا داء لا تفلت منه أية مدنية».. السياسة إذن تسلط.. وهي أيضًا استبداد.

يلاحظ ابن خلدون أن إرهاف الحس مضر بالملك ومفسد له في الكثير ويتساءل مكيافيللي: هل الأفضل أن يكون الأمير محبوبًا أكثر مما هو مرهوب أم العكس؟

يجيب: «الأفضل أن يكون محبوبًا ومرهوبًا.. وإذا كان لابد من الاختيار فالأسلم له أن يكون مرهوبًا».

● السياسة أبهة:

وأخيرًا السياسة أبهة.. لاينفك مكيافيللي ينصح الأمير بالتظاهر بالقوة والفضيلة.. لأن الظاهر يؤثر في نفوس العوام.

ونقرأ عند ابن خلدون: «ربما تكون العصبية قد ذهبت فتكون الأبهة تعوض عن موقعها في النفوس».

وهكذا نجد عند الرجلين معًا أن الإرادة البشرية تعبر عن ذاتها في الاقتدار.. والاقتدار هو ملك ورهبة وأبهة.

إننا هنا أمام تحليل عقلاني لظاهرة طبيعية.. إن مفهوم الاقتدار تعبير عقلي مجرد عن ظاهرة ملموسة هي الإرادة الحيوانية.. وهذا كلام مختلف تمامًا عن الوصف الذي نقرأه عند مؤلفي نصائح الملوك.

وكأن ابن خلدون ومكيافيللي يشعران شعورًا عميقًا بهذا الاختلاف وينبهان القارئ إلى أنهما يقدمان الأدلة والبراهين حيث يركن غيرهما إلى سرد الأمثلة والتجارب.

● يعلق ابن خلدون على «سراج الملوك» للطرطوشي:

«لم يصادق فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة، إنما يبوب الباب للمسألة ويستكثر من الأحاديث والآثار.. ولا يكشف عن التحقيق قناعًا ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجابًا».

● السياسة والاجتماع:

يفرض التقسيم النظري أن يكون الاقتدار علاقة ثنائية إضافية إلى منتسبين ومنتسبيْن

فقط حسب تعبير ابن خلدون.. كان المؤرخون والوعاظ في السابق إذ يصفون وقائع كثيرة تهم أفرادًا متعددين، يظنون أن السلطة موزعة بين عدة أشخاص.

عندما تعالى ابن خلدون ومكيافيللي فوق الأحداث والوقائع الجزئية، وبعد أن حددا عقلًا نطاق السياسة اكتشفا، ولو لم يستعملا العبارات المتداولة اليوم، أن الاقتدار يقتضي تقسيم المجتمع إلى فريقين وفريقين فقط.. إن الثنائية في آن واحد شرط ونتيجة عقلنة السياسة والحركة التاريخية.. وبمجرد ما نرتب المعطيات التاريخية ترتيبًا عقليًا نصل حتمًا إلى صورة مجتمع موزع إلى فريقين متعارضين، وإذا لم نتصور المجتمع على تلك الصورة تعذر علينا ترتيب أعماله ترتيبًا معقولًا.

وهذا هو سَبب اهتمام الرجلين معًا بمسائل الحرب، لأن الحرب، كل حرب ولو كانت كونية.. تنتهي دائمًا بوجود قوتين وقوتين فقط.

ينتقل ابن خلدون في تحليلاته من معارضة إلى معارضة.. يبدأ بالتناقض بين الوازع والغرائز، ثم ينتقل إلى التناقض بين العصبية الواحدة وغيرها من العصبيات.. فيبين أن التطور يحصل بالضرورة من عدم التكافؤ بين العصبيات كما يحصل المزج في الكيمياء عن اختلاف عناصر المزاج.. توجد في كل مجموعة عصبيات عصبية غالبًا، ويترأس رئيسها على الجميع.. يقول في المقدمة:

«إذا تعين له من الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم ويجيء خلق التأله الذي في طباع البشر...».

ويرتفع ابن خلدون إلى تناقضات أخرى مثل تناقض البدو والحضر، وتناقض الملك والرعية، وتناقض الترف والفضيلة.. ونرى هكذا أن قاعدة الاجتماع هي المواجهة بين عنصرين متعارضين. يحلل مكيافيللي بدوره الحياة السياسية كسلسلة من المواجهات: بين الأمير والرعية، بين النبلاء والسوقة، بين الحرف الكبرى والحرف الصغرى.. إلخ.

يطرح مثلًا السؤال التالي: أي طريق أفضل، أن يصل المرء إلى الحكم بالتحالف مع النبلاء أم بالاعتماد على الشعب؟ ويجيب:

«للوصول إلى الحكم يجب مصانعة النبلاء لأن عددهم قليل، لكن للحفاظ على السلطة

لابد من استمالة الشعب، لأن الناس إذا رأوا الخير ممن كانوا لا ينتظرون منه إلا الشر تعلقوا به وأحبوه..».

نلاحظ أن مكيافيللي لا يتصور حالة يكون فيها الحاكم متصالحًا مع الفريقين معًا.. لابد أن ينحاز إلى أحدهما لأن اللعبة دائمًا ثنائية.

● تشابه كتابي الرجلين وتطابق تحليلاتهما:

هذه القاعدة الثنائية في السياسة والاجتماع، التي انكشفت للرجلين عندما عقلا أعمال الإنسان الناتجة عن قوته الحيوانية، هي التي جعلت كتابتهما تتشابهان وأحكامهما وتحليلاتهما تتطابقان.

والقاعدة ذاتها اكتشفت فيما بعد في علم الاقتصاد وفي الاستراتيجية وحررت في شكل معادلة حسابية.

وهذا هو السر في كوننا مازلنا نقرأ لابن خلدون ومكيافيللي ونتعلم منهما.. لا فيما يخص ثقافة كل واحد منهما، بل فيما يهم الإنسان كحيوان اجتماعي- سياسي.. وسنبقى نقرأ لهما ونتعلم منهما ما دام المجتمع حلبة صراع وميدان التسلط والرهبة والأبهة.

ليست أهمية الرجلين في كونهما أسسا علمًا جديدًا، مع لهذا الابتكار من قيمة في تاريخ العلوم الإنسانية، بل أهميتهما الحقيقية في كونهما حددا بوضوح النطاق المعرفي الذي بدونه لا يمكن فهم السياسة ولا التحدث عنها.

● عقلنة السياسة وحدودها:

لم نكتف في هذا البحث بمقارنة أحكام وتحليلات جزئية عند مفكرين ينتميان إلى حضارتين مختلفتين، لأننا اعتبرنا أن فائدتها محدودة فتجاوزناها إلى مقارنة بين موقفيهما في الميدان المعرفي. لقد استطعنا أن نقوم بتلك المقارنة لأننا أمام مفكرين عظيمين ارتفعا إلى مرتبة التنظير.. التقى ابن خلدون ومكيافيلي، رغم تباعد مثلهما العليا في كونهما نبذا الطوبارية وفصلا الأخلاق عن التاريخ، ثم أعملا العقل في ترتيب وتحليل الأعمال المتولدة عن إرادة الإنسان الحيوانية.

لن نصف تفاصيل العقلنة التي قاما بها، بل نذكر في الخاتمة فقط نتيجتها وحدودها.. النتيجة الحتمية لتلك العقلية هي عدم تجاوز التحليلات الخلدونية والمكيافيلية.. لقد ألمحنا فيما سبق إلى أننا لا نستطيع تجاوز موقف ابن خلدون إلا بتجاوز مجتمع العصبيات، ولا التخلص من المكيافيللية إلا إذا تحررنا من المجتمع الذي يولد السياسة.. أي حب التحكم في الناس.

لقد وعى الرجلان هذه النقطة وعيًا تامًا، فظن كل منهما أن كلامه سيبقى صحيحًا، ما لم يتحول الإنسان إلى ملك.. لانشاطرهما اليوم تشاؤمهما المطلق، لكن لا نرى مع ذلك قرب نهاية عهد السياسة والعصبيات.. أما حدود العقلنة فإنها تتضح في كون فكرها لم يكن فكرًا معاصرًا تمامًا، رغم المجهود العقلي الجبار الذي قاما به.. فإنهما لم ينفصلا، وما كان في استطاعتهما أن ينفصلا عن عصريهما.. كلاهما يؤمن بالسحر والخوارق ويرى الكوارث الطبيعية آيات يجب على الإنسان أن يتعظ بها ليست من حقنا أن نجعل من ابن خلدون أو مكيافيلي ابن القرن العشرين، ولا حتى ابن العصر الحديث، لكن هذا لا يمنع من أنهما اكتشفا قاعدة الاجتماع والسياسة التي ما نزال نعيش تحت سيطرتها والتي لا نستطيع تجاهلها أو تجاوزها، ما دام الإنسان إنسان السطوة والأبهة، في هذا الاكتشاف يكمن سر تقارب، وأحيانًا تطابق أفكارهما وتحليلاتهما.. وبسببه نقف منهما موقفًا مزدوجًا:

نعجب ونعتز بأعمالهما ونقدر عبقريتهما، غير أننا لا نحبهما لأننا لا نحب عالم السطوة والاستغلال الذي وصفاه وحللاه بكل برودة وترفع والذي مازلنا نعيش فيه.

لقد أسس علمهما الجديد بنفي الطوباوية، لكن الطوباوية انتقمت منهما لأنها تكون لحمة الوضع الإنساني فجعلتهما ممن يعلم ولا يشكر، وهي محنة زائدة على المحن الكثيرة التي ذاقاها في حياتهما، تجمع بينهما وتبرر المقارنة التي قمنا بها في بحثنا هذا[1].

(1) انتهى بتصرف البحث القيم: ابن خلدون ومكيافيللي للأستاذ عبد الله العروبي من كتابه: «ثقافتنا في ضوء التاريخ» نشر المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء- المغرب.

تعريف بالشخصيات والأحداث التي ورد ذكرها في كتاب «الأمير»

ورد في هذا الكتاب الكثير من الشخصيات سواء في متن الكتاب أو في التعليقات أو الدراسات النقدية التي ألحقتها به. وفيما يلي تعريف بها، لم أهمل التعريف بأي شخصية سوى قليل من الشخصيات التي ذكرها مكيافيللي في متن الكتاب وذلك إما لأنه عرفها في موضع من الكتاب أو لأنها من الشخصيات التاريخية التي لم تُعْرف على المستوى العالمي، كأن يكون حاكم لإحدى الولايات الصغيرة في إيطاليا المتناحرة في عصر مكيافيللي:

● ابن خلدون:

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (1332-1382م) مؤرخ عربي تونسي المولد، مغربي الثقافة. يعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث. مات في القاهرة ودفن في المدافن القريبة من باب النصر.

● آدم سميث:

(1732-1790م) فيلسوف اسكتلندي، وهو رائد من رواد الاقتصاد السياسي. اشتهر بكتابين ألفهما وهما: «الاقتصاد السياسي» و«ثروة الأمم». ويعتبر ذلك الكتاب الثاني أول عمل يتناول الاقتصاد الحديث.

● أدولف هتلر:

(1889-1945م): سياسي ألماني ولد في النمسا. وكان زعيم لحزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني. وهو مؤسس النازية وقد عرف حزبه عند العامة باسم الحزب النازي.

خاض هتلر الحرب العالمية الأولى كجندي، كما خاض الحرب العالمية الثانية كقائد عسكري، ومني بهزيمة أدت إلى انتحاره.

● إسحاق نيوتن:

(1642-1727م) عالم إنجليزي، ويعد من أبرز علماء الفيزياء والرياضيات عبر العصور. شغل منصب رئيس الجمعية الملكية وكان عضوًا في البرلمان الإنجليزي.

أسس كتابه» الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية» الذي نشر لأول مرة عام 1687م لمعظم مبادئ الميكانيكا التقليدية. كما قدم نيوتن أيضًا مساهمات هامة في مجال البصريات، وشارك في وضع أسس التفاضل والتكامل.

● ألكسندر السادس:

(1431-1503م) رأس الكنيسة الكاثوليكية في الفترة 1492-1503م. وهو أكثر باباوات عصر النهضة إثارة للجدل. وقد أصبح اسمه الأصلي الإيطالي «بورجيا» مرادفًا للفسق ومحاباة الأقارب. وقد اعتبر البعض أن تلك هي صفات البابوية في ذلك العصر. إلا أن شهرته هذه رسمها أعداؤه من أساقف إيطاليا وباروناتها ممن قضى عليهم.

● ألبرت أينشتين:

(1879-1955م) أحد أهم وأكبر علماء الفيزياء في تاريخ العالم، يشتهر بلقب "أبو النسبية"، وذلك لأنه وضع نظريتي النسبية الخاصة والنسبية العامة اللتين تعتبران أساسًا للفيزياء النظرية الحديثة. وقد نال جائزة نوبل في الفيزياء عام 1921م.

● البابا جوليوس الثاني:

(1443-1513م) عرف باسم «البابا المحارب» وهو أحد أشهر باباوات عصر النهضة. وقد تميزت البابوية في عهده بالسياسة الخارجية الفعالة، ومشروعات البناء الطموحة ورعاية الفنون. وقد أمر بهدم كنيسة «سانت بيتر» وإعادة بنائها. كما أمر أيضًا بأن يقوم مايكل أنجلو بتزيين سقف كنيسة «سيستاين».

● البراجماتية:

اتجاه فلسفي بدأ في الولايات المتحدة في حوالي عام 1870م. والبراجماتية هو مبدأ يرفض الفكرة القائلة بأن وظيفة التفكير هي وصف وتقديم صورة للواقع. وبدلاً من ذلك، وضع البراجماتيون منهجهم حول الفكرة القائلة بأن التفكير أداة للتوقع والتصرف وحل المشكلات. وهم يرون أن معظم الموضوعات الفلسفية مثل: طبيعة المعرفة واللغة والمفاهيم والمعاني والمعتقدات والعلوم يمكن أن تظهر جيدًا من خلال استخدامها عمليًا بنجاح وليس من خلال دقة التوصيف.

● **برتراند رسل:**

(1872-1970م) فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ اجتماعي بريطاني. وقد كان في مراحل مختلفة من حياته ليبراليًا واشتراكيًا وداعية سلام. ويعد رسل أحد مؤسسي الفلسفة التحليلية. ولا زال لعمله أثر ظاهر على المنطق والرياضيات ونظرية المجموعات واللغويات والفلسفة وبالتحديد فلسفة اللغة ونظرية المعرفة والميتافيزيقيا.

● **تشارلز الخامس:**

(1500-1558م) حاكم الإمبراطورية الرومانية منذ عام 1519م، كما كان إمبراطور أسبانيا منذ عام 1516م إلى أن اختار التقاعد والتنازل لأخيه فرديناند الأول عن حكم الإمبراطورية الرومانية، وتنازل لابنه فيليب الثاني عن عرش أسبانيا في عام 1556م.

● **تشارلز داروين :**

(1809-1882م) من أشهر علماء التاريخ الطبيعي. وهو واضع نظرية التطور (والنشوء والارتقاء) والتي ترى أن كل الكائنات الحية تنحدر من أسلاف مشتركة.

● **دكتور فوستس:**

مسرحية بعنوان "التاريخ المأساوي لحياة الدكتور فوستس ووفاته" ويشار إليها اختصارًا باسم "دكتور فوستس، وهي من مؤلفات الكاتب البريطاني الشهير "كريستوفر مارلو" (1564-1593م). وتقوم فكرة المسرحية على رجل يدعى "فاوست" باع روحه للشيطان مقابل القوة والمعرفة. وقد نشرت المسرحية لأول مرة في عام 1604م أي بعد وفاة مارلو بأحد عشر عامًا.

ولم تحظ أي مسرحية إنجليزية أخرى من عصر الملكة إليزابيث بالجدل الذي يدور حولها مثل مسرحية "دكتور فوستس" عدا مسرحيات شكسبير.

● **سافونارولا:**

(1452-1498م) راهب وواعظ إيطالي من مدينة فلورنسا دعا إلى التجديد وندد

بفساد الكهنة وبالحكم الاستبدادي واستغلال الفقراء. وبينما كان على علاقة قوية مع ملك فلورنسا، ثار الشعب ضد عائلة مديشي الحاكمة وأقاموا جمهورية شعبية بتأييد من سافونارولا. وقد أعلنوا أن فلورنسا ستصبح القدس الجديدة لكنها ستكون "أغنى وأقوى وأكثر بهاء عما قبل."

● **ستالين:**

جوزيف ستالين (1878- 1953م) الرئيس الثاني للاتحاد السوفيتي ورئيس الوزراء، ويعتبر المؤسس الحقيقي للاتحاد السوفيتي. وقد عُرف بقوته وقسوته وقدرته على تحويل الاتحاد السوفيتي من مجتمع زراعي فقط إلى مجتمع صناعي مما ارتقى بالدولة إلى منزلة الدول الصناعية الكبرى.

● **سودريني:**

(1450 - 1522م) ولد في فلورنسا بإيطاليا من أسرة عريقة شهيرة في مجال الطب. كان أخوه من رجال الدولة المؤيدين لـ "سافونارولا". وفي عام 1481م أصبح "سودريني" رئيس رهبان المدينة، وفيما بعد أصبح من المقربين من بييرو لورنزو دي مديشي، وقد أصبح سفيره المملكة الفرنسية في عام 1493م.

● **سيجموند فرويد:**

(1856-1939م) طبيب يهودي نمساوي تخصص في علم النفس. وهو مؤسس علم التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. وإن كان المحافظون الجدد والاتجاهات الحديثة في علم النفس قد تجاوزت نظرياته وأظهرت ما بها من عيوب، إلا أن أساليبه وطرقه تظل مهمة في الأوساط الأكاديمية، ولا تزال أفكاره مؤثرة وفعالة في بعض العلوم الإنسانية والاجتماعية.

● **سيزار بورجيا :**

(1475-1507م) جندي إيطالي متفاخر ومتهور، وهو ابن البابا ألكسندر السادس (اسمه الأصلي بورجيا). فكر في توحيد الولايات الإيطالية، لكن جهده ضاع هدرًا. وذلك لأن تلك الولايات نفسها لم ترغب في ذلك. وقد نال كثيرًا من النقد بسبب تصرفاته العدوانية الإجرامية، وكثيرًا ما تدخل والده لينقذ حياته. فلما توفى والده البابا في عام 1503م لم يكن خليفته (جوليوس الثاني) متساهلاً معه، فاضطر "سيزاربورجيا إلى مغادرة إيطاليا ولقي حتفه في حصار "ناريه" في عام 1507م.

● **عصبة كمبري:**

تكونت هذه العصبة في يوم 10 ديسمبر 1508م. وهي عبارة عن تحالف ما بين البابا "جوليوس الثاني" والإمبراطور الروماني "مكسيميليان الأول" و"لويس الثاني عشر" ملك فرنسا و"فرديناند الثاني" (فرديناند أرجون). وكان الهدف الظاهري للعصبة هو مواجهة تركيا. أما الهدف الحقيقي فهو مهاجمة جمهورية البندقية وتقسيم أملاكها ما بين الحلفاء.

● **الفاشية:**

نظام للحكم يتصف بمركزية السلطة تحت حكم دكتاتور ونظام اجتماعي اقتصادي صارم يسيطر على الدولة ويعتمد على سحق المعارضة بالإرهاب والرقابة وذلك بالاعتماد على التعصب للقومية والعنصرية.

● **فرانسوا الأول:**

(1494-1547م) ملك فرنسا، وهو ابن شارل أورليان. وكان يشغل منصب حاكم مقاطعة "إنجوليم" شمالي "بوردو" في الجنوب الغربي خلفا لوالده قبل أن يصبح ملكًا.

● **فرانسيس بيكون:**

(1561-1626م) فيلسوف إنجليزي، ورجل دولة وعالم وصحفي وخطيب وكاتب مقالات ومؤلف. عمل في منصبي النائب العام والمستشار الإعلامي لإنجلترا. وقد استمر تأثيره لفترة بعد وفاته وذلك من خلال أعماله التي خلفها، وخاصة دفاعه عن التفكير العلمي أثناء "الثورة العلمية". وهو يعتبر منشئ للمنهج "التطبيقي".

● **فرديناند أوف أرجون:**

(1452-1516م) وهو ملك صقلية منذ عام 1468م وهو أيضًا ملك أرجون منذ عام 1479م. كما أصبح أيضًا ملك نابولي وصقلية طوال مدة حكمه وذلك منذ عام 1485م إلى وفاته.

● **فولتير :**

(1694-1778م) كاتب فرنسي تنويري ومؤرخ وفيلسوف اشتهر بفطنته وهجومه على الكنيسة الكاثوليكية ودفاعه عن حرية الدين وحرية التعبير والفصل بين الكنيسة والدولة.

● **كاثرينا سيفورزا:**

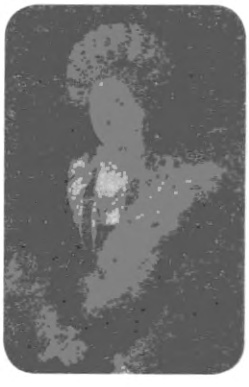

(1463-1509م) دوقة فورلي، وهي من طبقة النبلاء الإيطالية. فهي ابنة غير شرعية لدوق ميلان "جاليزو ماريا سيفورزا" من زوجة أحد أصدقائه المقربين وهو "جين بيرو لاندرياني". وقد حملت كاثرينا فيما بعد ألقابًا أخرى. وعُرفت بالطيش والاندفاع.

● **كارل ماركس:**

هو كارل هنرك ماركس (**1818-1883**م) فيلسوف ألماني ورجل اقتصاد وعالم في علم الاجتماع ومؤرخ وصحفي اشتراكي.

وضعت أعمال ماركس الاقتصادية الأساس للفهم الحالي للعمل وعلاقته برأس المال. كما أثر ماركس أيضًا في الفكر الاقتصادي التالي له. وألف ماركس العديد من الكتب طوال حياته إلا أن أشهر كتبه هو "رأس المال".

● **كريستوفر مارلو:**

(**1564-1593**م) كاتب مسرحي ومترجم بريطاني عاش في عصر الملكة اليزابيث. وهو أكبر كتاب التراجيديا في ذلك العصر وقد أثر بشدة في "وليم شكسبير" الذي ولد في نفس العام الذي ولد فيه مارلو. وبعد وفاة مارلو الغامضة في سن مبكرة، أصبح شكسبير هو أكبر كُتاب الدراما على الإطلاق.

● **كلمنت السابع:**

البابا كلمنت السابع (**1478-1534**م) وقد تبوأ منصب البابا من شهر نوفمبر **1523**م حتى وفاته في **25** سبتمبر **1534**م.

● **كاربي:**

مدينة إيطالية (لاحظ عدم الخلط بينها وبين "كابري" وهي جزيرة إيطالية قريبة من الساحل الغربي لإيطاليا) وتقع "كاربي" في منطقة "مودينا". وهي مركز صناعي وحرفي وثقافي مزدحم، كما أنها مكان جيد للتبادل الثقافي والتجاري.

● **لودفيكو سيفورزا:**

هو لودفيكو سيفورزا (**1452-1508**م) دوق ميلان في الفترة **1489-1500**م. وقد اشتهر بحبه للفنانين ومنهم "ليوناردو دا فنشي". وقد أشرف على الفترة الأخيرة المثمرة من فترات ازدهار ميلان في عصر النهضة. وأشهر ما يعرف

عنه هو أنه من أمر بعمل لوحة "العشاء الأخير". وهي لوحة رسمها ليوناردو دافنشي على جدار كنيسة سانتا ماريا في ميلان. وهي لوحة تصور المسيح وهو يتناول العشاء الأخير مع حواريه.

● لورنزو دي مديشي :

(1449-1492م) رجل من رجال الدولة الإيطالية، حكم جمهورية فلورنسا خلال عصر النهضة. وكان معروفًا عند معاصريه من أبناء فلورنسا باسم "لورانزو العظيم". وقد كان محبًا للعلماء والدارسين والفنانين والشعراء.

وربما يكون أشهر ما عرف عنه أنه داعم للفن والفنانين مما جعلهم ينتجون أعمالاً فنية رائعة لا تزال معروفة حتى يومنا هذا. وقد تزامنت حياته مع أفضل مراحل النهضة الإيطالية، وتزامن موته مع نهاية العصر الذهبي لفلورنسا، فقد انهار السلام الهش الذي استطاع التوصل إليه مع الدويلات الإيطالية بمجرد وفاته. وهو مدفون في كنيسة مديشي في فلورنسا.

● لويس الثاني عشر :

(1462-1515م) هو ملك فرنسا في الفترة 1501-1504م. وقد خلف ابن عمه في الحكم وهو الملك تشارلز الثامن الذي مات دون وريث مباشر للحكم.

وقبل أن يتبوأ عرش فرنسا، كان معروفًا باسم "لويس أورلينز". وكان من معارضي الأسرة المالكة في الصراع الذي عُرف باسم "حرب الجنون"، حيث تم القبض عليه إلا أن تشارلز الثامن عفا عنه وأطلق سراحه، فشارك بعد ذلك في حروب فرنسا كأحد قادة الجيش.

● فلاديمير لينين:

(1870-1924م) ثائر اشتراكي روسي وسياسي واضع لنظرية سياسية. وكان قائدًا لاتحاد الجمهوريات السوفييتية منذ عام 1917م، ثم رئيسًا لوزراء الاتحاد السوفيتي بداية

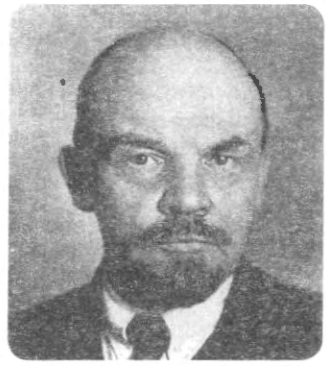

من عام 1922م وحتى وفاته. وهو سياسي ماركسي، وقد عرفت مساهماته في الفكر الماركسي باسم "مذهب لينين"، وهو مذهب يضع نظرية اقتصادية بالاشتراك مع نظرية الاقتصاد الماركسي فسميا معًا باسم "الماركسية اللينينية".

● ليو العاشر:

(1475-1521م) شغل منصب البابا منذ يوم 11 مارس 1513م وحتى وفاته. وهو الابن الثاني للورنزو العظيم. وقد تلقى تعليمًا راقيًا على أيدي فلاسفة ومعلمين عظام في قصر والده. كما درس اللاهوت والشريعة في مدينة بيزا.

وفي يوم 23 مارس 1492م تم قبوله رسميًا في الكلية المقدسة في روما وأقام هناك. إلا أن وفاة والده يوم 8 أبريل من نفس العام (أي بعد أيام قليلة فقط من قبوله في الكلية) اضطرته إلى العودة إلى فلورنسا وكان عمره 17 عامًا. وقد شارك في الاجتماع السري الذي عقد في يوليو من نفس العام وعارض فيه انتخاب الكاردنيال "بورجيا".

● ليو شتراوس:

ليو شتراوس (1899-1973م) فيلسوف أمريكي يهودي من أصل ألماني، يعده البعض مؤسس أيديولوجيا المحافظين الجدد التي تسود حالياً داخل الحزب الجمهوري الأمريكي.

● معركة بافيا:

وقعت معركة بافيا يوم 24 فبراير 1525م، وكانت نقطة فاصلة في الحرب الإيطالية التي استمرت في الفترة 1521-1526م. فقد هاجم جيش أسباني غازٍ بقيادة تشارلز دي لانوي (بالتعاون مع موقع عسكري إيطالي في "بافيا" بقيادة أنطونيو دي ليفا) الجيش الفرنسي بقيادة فرانسيس الأول، وذلك في منطقة غابات وصيد تسمى "ميرابلو" وتقع خارج أسوار المدينة. وفي المعركة التي استمرت أربع ساعات تشتت الجيش الفرنسي وانهزم تمامًا. وقد عانى الفرنسيون من إصابات كثيرة، وكان من بين المصابين العديد من كبار النبلاء

الفرنسيين. وكان فرانسيس الأول من بين من أسرتهم القوات الإسبانية، حيث سُجن وأجبر على التوقيع على معاهدة مدريد المهينة التي تتنازل عن أراض ذات قيمة للأسبان. وقد دعمت نتائج تلك المعركة أسرة هابسبرج الإسبانية الحاكمة في إيطاليا.

● معركة فايلا:

وهي إحدى المعارك المهمة التي قامت بها عصبة كامبري، ومن أهم معارك الحروب الإيطالية في نفس الوقت.

ففي يوم **15** أبريل **1509**م غادر جيش فرنسي بقيادة لويس الثاني عشر مدينة ميلان وغزا البندقية. ولمواجهة هذا العدوان، جمعت البندقية جيشًا من المرتزقة بالقرب من برجامو. وكانت الأوامر تقضي بتجنب المواجهة المباشرة مع الجيش الفرنسي، فقضى عدة أسابيع في مناوشات خفيفة في بداية المعركة.

● النازية:

اختصار لعبارة "حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي" وقد نشأ الحزب تحت قيادة أدولف هتلر بداية من عام **1920**م واستمر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد قام الحزب على العنصرية والتسلط والعسكرة والاعتقاد بتسيد العرق الألماني والثقافة الألمانية على كل أعراق العالم.

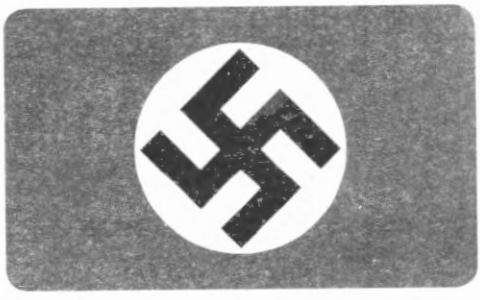

وعلى العكس مما يستنتج من اسم الحزب، كان أعضاؤه على عداء تام مع السياسات الاقتصادية الاشتراكية لكارل ماركس وفلاديمير لينين، ولم يكن لهم أي صلة باتحادات العمال.

وقد عُرفت النازية بأنها حركة يمينية تؤكد على القومية الألمانية وعسكرة الدولة، لكن هذا يختلف تمامًا عما يعرف به اليمين واليسار في عالم اليوم. ويمكن تفسيرها بشكل أفضل على اعتبار أنها رد فعل سياسي حاد لمواجهة العثرات الاقتصادية والوفيات الكثيرة الناتجة عن الحرب العالمية الأولى وما تلاها من سنوات.

● النفعية :

مدرسة فلسفية ترى أن القيمة الأخلاقية للفعل تتحدد بمقدار إسهامه في النفع العام.

لهذا فهي شكل من أشكال العواقبية، التي تعني أن الفعل يقيم بحسب ما ينتج عنه من عواقب. مع أن النفعيين التفضيليين مثل " بيتر سيتجر " يعرف النفع على انه إرضاء لميول الإنسان.

● **نيكولاس كوبرنيكوس:**

(1473-1543م) عالم رياضيات وفلكي عاش في عصر النهضة. وقد رأى أن النظام الكوني مركزه الشمس وليس الأرض، ويعد كتابه "دورة الأفلاك السماوية" واحدًا من أشهر عشرة كتب على مستوى العالم.

وقد ولد كوبرنيكوس ومات في بروسيا الملكية التي كانت جزءًا من مملكة بولندا بداية من عام 1466م.

● **وليم شكسبير:**

(1564 – 1616م) يعتبر وليم شكسبير أشهر مؤلف مسرحي عرفه العالم وأشهر من كتب الشعر بالإنجليزية. فلم تقدم على مسارح العالم مسرحيات وأعيد عرضها عدة مرات بل واستمرت عروضها لعدة سنوات في غالبية دول العالم أكثر مما قدمت مسرحيات شكسبير. ولم يُلق شعر على الجمهور في حفلات ومحاضرات أو يذاع على الملأ ويُشمل بالدراسة والتحليل والنقد مثلما حدث مع شعر شكسبير. كما أن أعماله المسرحية تُرجمت في كتب إلى أغلب لغات العالم وعرضت على أغلب مسارحه.

والمعروف عن حياة شكسبير الخاصة قليل جداً. حيث ولد في يوم 23 أبريل 1564. وتزوج وهو في الثامنة عشرة من عمره وأصبح ممثلاً وكاتباً مسرحياً معروفاً عام 1582م. وفي الفترة ما بين 1589 - 1616م كتب ما لا يقل عن 36 مسرحية وكثيرًا من المقطوعات الشعرية وقصيدتين روائيتين طويلتين. ومات يوم 23 أبريل 1616م.

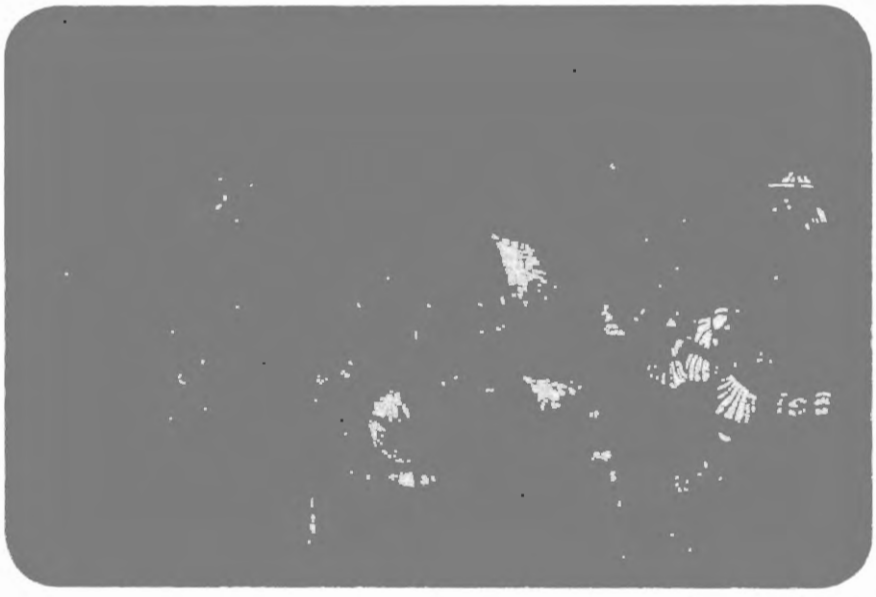

صورة لمعركة بافيا رسمها أحد رسامي عصر النهضة

بعض مباني فلورنسا القديمة

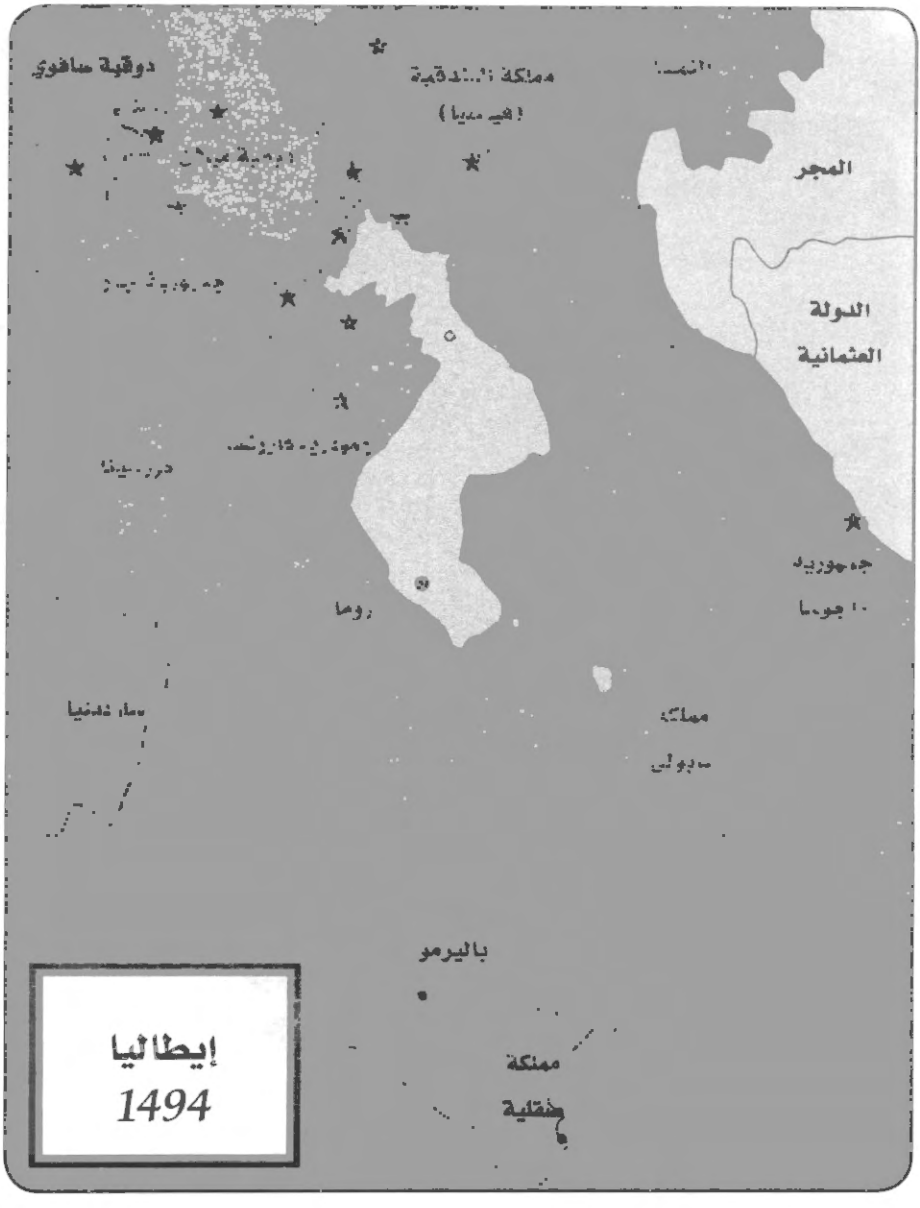

خريطة إيطاليا عام 1494م

ويلاحظ أنها كانت مقسمة لدويلات، منها:

جمهورية البندقية – دوقية ميلان – جمهورية فلورنسا – مملكة نابولي - مملكة صقلية وغيرها.

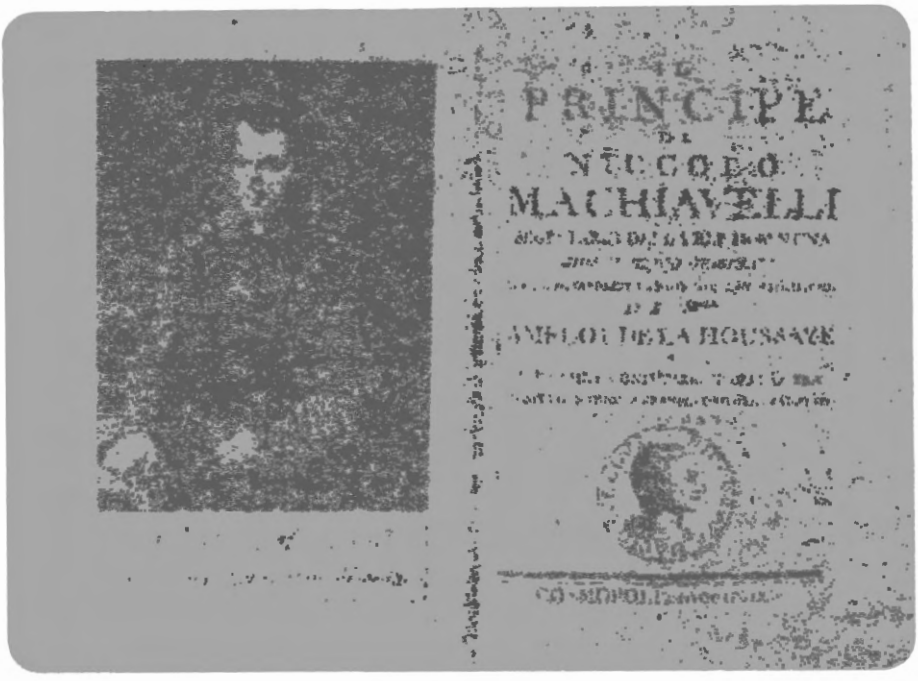

غلاف طبعة إيطالية قديمة من كتاب الأمير

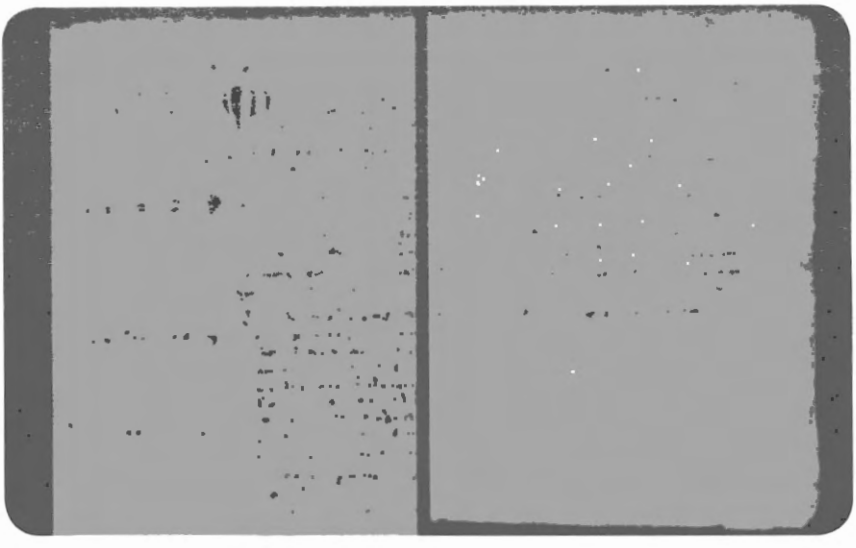

صورة أمر إلقاء القبض على «مكيافيللي» عندما وشى به البعض عند أسرة مديشي

فريدريك الثاني ملك بروسيا (1712-1786م)

ضد مكيافيللي

دراسة نقدية للرد على كتاب "الأمير" لمكيافيللي

ترجمه إلى اللغة العربية وقدم له وعلق عليه

أكرم مؤمن

سبق لي أن قرأت كتاب "الأمير" وترجمته إلى اللغة العربية في عام 2004م، لكني وخلال الأعوام الماضية رأيت أن الكتاب لا يزال يثير جدلاً مستمرًا حتى يومنا هذا، وقد احتفلت إيطاليا في عام 2013م بمرور 500 سنة على تأليف الكتاب.

ولا يزال البعض يدافع عن الكتاب وصاحبه ولا يرى فيه ما يشين. لذلك فقد رأيت أنه من المفيد عمل بعض الدراسات النقدية للكتاب ووضعها في كتاب واحد مع الترجمة التي صدرت لي من قبل وذلك لإثراء المكتبة العربية.

وقد أقمت دراستي النقدية على محورين: المحور الأول هو إدراج الترجمة الكاملة لكتاب نقدي كتبه الملك فريدريك الثاني واعتمد فيه على نقد كتاب "الأمير" من حيث المنطق واستخدام العقل والفائدة المرجوة منه إن تم تطبيق ما جاء به من نصائح، وليس من منطلق المبادئ والأخلاق فهو يرى أن "مكيافيللي" لا يؤمن بها، فكيف يجادله بما لا يؤمن به.

وفي المحور الثاني رصدت عدة دراسات ومقالات صدرت في دوريات وكتب غربية واخترت بعضًا منها وترجمته إلى اللغة العربية، ثم أنهيت دراستي بنقد مختصر مشابه لما فعله الملك فريدريك الثاني من حيث تناول الكتاب بالترتيب. لكني استخدمت مبادئ الأخلاق العامة المعترف بها في جميع أنحاء العالم في دحض ما قاله "مكيافيللي" ولم أفعل مثلما فعل الملك فريدريك، فالمثل والأخلاق العليا قائمة وعالية الشأن حتى لو لم يعترف بها "مكيافيللي" وملايين البشر ممن جاءوا قبله أو بعده، فأنا لا أخاطبه ولا أخاطب أنصاره، بل أخاطب القارئ العربي، وذلك حتى لا تتسرب أفكار الباطل إلى حياتنا وتصبح حقيقة واقعة لمجرد أن "مكيافيللي" نادى بها.

والله الموفق ،،،

أكرم مؤمن

akram___momen@hotmail.com

حول الكتاب

● نبذة عن الملك فريدريك الثاني الشهير بفريدريك الأكبر (ملك بروسيا):

هو فريدريك الثاني (1712-1786م)، وهو ملك بروسيا[1] في الفترة (1740-1786م)، وهو من عائلة ملكية تسمى عائلة «هوينزولرن». وقد اشتهر بانتصاراته العسكرية وإعادة تنظيم جيوش بروسيا وقدراته الإبداعية في التدريب والتكتيك وأخيرًا تغلبه على صعاب كبرى في حرب السنوات السبع[2]. وقد اشتهر باسم «فرديدريك العظيم» ويقال إن الفيلسوف الفرنسي «فولتير[3]» الذي تتلمذ فريدريك على يديه هو من أطلق عليه هذا الاسم.

كان فريدريك مهتمًا في شبابه بالموسيقى والفلسفة وليس بفنون الحرب. وقد تحدى والده المستبد الملك «فريدريك وليم الأول»، ويقال إنه أضطر إلى الهرب مع صديق له يسمى «هانز فون كات»، إلا أنه تم القبض عليهما وكاد الملك أن يعدم ابنه بتهمة الهرب، إلا أنه لم يفعل وأجبره على مشاهدة تنفيذ حكم الإعدام في صديقه «هانز».

وعندما توج «فريدريك الثاني» على عرش بروسيا حقق الكثير من الانتصارات العسكرية. وظل قويًا من الناحية العسكرية إلى أن مات.

وقد طور فريدريك البيروقراطية والخدمات المدنية في بروسيا. كما طارد السياسات

---

(1) مملكة بروسيا، مملكة ألمانية قامت في الفترة (1701 - 1918م) وكانت تشمل أجزاء من الجمهوريات الحالية التالية: بولندا - روسيا - لتوانيا - الدانمارك - بلجيكا - التشيك. وكانت هذه المملكة هي القوة المؤثرة التي أدت إلى توحيد ألمانيا في عام 1871م وقيام الإمبراطورية الألمانية. وعلى الرغم من أن تلك المملكة اشتقت اسمها من اسم منطقة بروسيا، إلا أن مقرها الرئيسي كان في براندنبرج وعاصمتها برلين. (المترجم)

(2) حرب السنوات السبع: حرب وقعت ما بين عامي 1754-1763م إلا أن النزاع الرئيسي فيها استمر سبع سنوات فقط وهي 1756-1763م، وقد اشتركت فيها كل القوى العظمى في أوروبا في ذلك الوقت وأثرت على أوروبا وأمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى وغرب الساحل الإفريقي والهند والفلبين. وقد سميت هذه الحرب بأسماء عديدة طبقًا لوجهة نظر المؤرخين في تلك البلاد العديدة حيث نسبوها لأماكنهم وقادتهم. (المترجم)

(3) فيلسوف فرنسي (1694-1778م): كاتب تنويري فرنسي ومؤرخ وفيلسوف شهير، عرف بالذكاء والفطنة وهجومه على الكنيسة الكاثوليكية ومناصرته لحرية الأديان وحرية التعبير والفصل بين الكنيسة والدولة. وكان فولتير كاتبًا متعدد المواهب فكتب في جميع الصيغ الأدبية تقريبًا، وذلك مثل القصة والمسرحية والقصيدة والمقال والأعمال التاريخية والأعمال العلمية. وقد كتب أكثر من 20 ألف رسالة و 2000 من الكتب والمنشورات. وكان شديد الصراحة بالرغم من أن ذلك وضعه تحت مراقبة قوية لفترة طويلة. ولأنه كان مجادلاً ساخرًا، فقد اعتاد أن يستفيد من أعماله في نقد التعصب الديني والمؤسسات الفرنسية في عصره. (المترجم)

الدينية طوال فترة حكمه فبدأ بالتسامح وانتهى بالقمع. وقام بإصلاح النظام القضائي وسمح لمن هم ليسوا من طبقة النبلاء بالعمل كقضاة وتقلُد المناصب القضائية العليا. إلا أن بعض النقاد أشاروا إلى إجراءاته التعسفية ضد رعاياه البولنديين بعد فتحه لبلادهم. وكذلك انتقدوا الحد من حريات المواطنين في بروسيا وإلزامهم بخدمة عسكرية إجبارية شاقة.

وكان فريدريك يدعم الفنانين والفلاسفة الذين يحبهم، إلا أنه في نفس الوقت أصدر عدة قوانين للرقابة على المطبوعات. وقد دُفن فريدريك في أفضل الأماكن التي كان يحب الإقامة فيها وهو قصره الصيفي القريب من برلين. ولأن فريدريك مات ولم يكن له أي أبناء، فقد تولى العرش من بعده ابن أخيه «فريدريك وليم الثاني».

وقد صوره كل المؤرخين الألمان كنموذج للمحارب العظيم، فامتدحوا قيادته للجيش وكفاءته الإدارية وإخلاصه للواجب العسكري ونجاحه في بناء بروسيا حتى وصلت إلى دورها الرائد في أوروبا.

● تأليف الكتاب:

كتاب «ضد مكيافيللي» يعتبر ردًا كُتب في القرن الثامن عشر على كتاب «الأمير» الذي كتبه نيقولو مكيافيللي قبل ذلك بأكثر من قرنين كاملين. وقد كتبه فريدرك الثاني ملك بروسيا قبل أن يتوج مباشرة. وقد اتبع طريقة النقد لكل فصل، فجاء عدد فصول الكتاب مساو تمامًا لعدد فصول كتاب «الأمير» أي **26** فصلاً، بل إن الملك «فريدريك الثاني» استخدم نفس عناوين الفصول في كتاب الأمير مع بعض الاختلافات القليلة. وقد طُبع الكتاب لأول مرة في عام **1740**م، أي بعد شهور قليلة من توليه الحكم في بروسيا.

وقد نشر هذا الكتاب في سنوات شهدت نقطة تحول في حياة الملك فريدريك، حيث جاءت مرحلة التفكير في تأليف الكتاب بعد سنوات شبابه المليئة بالتمرد والاضطراب، وقبل توليه الحكم في بروسيا مباشرة. وكان فريدريك قد قرأ كتاب «الأمير» لـ«مكيافيللي» قبل ذلك بفترة طويلة، لكن السبب الذي جعله يتذكر هذا الأمر في ثلاثينيات القرن الثامن عشر غير معروف، وذلك على الرغم من توقف علاقته مع «فولتير» لأنه أصبح في منزلة أكبر مما زاد من مشاغله. إلا أن هناك دلائل في الخطابات التي تلقاها منه «فولتير» تشير إلى أن «فريدريك» فكر في الأمر مليًا في بداية عام **1738**م، وأكمل المسودة الأولى للكتاب في عام **1739**م.

وقد تولى فولتير الأمر في عام **1740**م، فقد عاش في بروسيا بالقرب من العاهل الجديد وعمل مع أحد الطابعين غير المعروفين على طباعة الكتاب. راجع فولتير نص الكتاب بالكامل وبالترتيب وحرص على استعادة النسخة الأصلية للكتاب. وكانت هناك نسخة أخرى تحتوي على ما قام به فولتير من إضافة في صورة حواش سفلية.

ثم أرسل الملك فريدريك أحد مساعديه إلى لندن للإشراف على نشر الكتاب باللغة الإنجليزية. وفي نفس الوقت كان «فريدريك» قد أصبح ملكًا، فأدى ذلك إلى نجاح عظيم للكتاب الذي حقق أعلى المبيعات. وكان من الطبيعي أن ينشغل «فريدريك» في أعمال الملك ولا يعود للكتابة مرة أخرى.

● كيف تناول الملك فريدريك كتاب الأمير:

يقوم الحوار الذي عرضه الملك «فريدريك الثاني» في كتابه «ضد مكيافيللي» على عدم مناقشة الطبيعة الأخلاقية، فكيف يتحدث عن الأخلاق مع من لا يؤمن بها. وقد أصر على إيضاح أن «مكيافيللي» قدم لنا صورة منقوصة وغير منصفة لرجل الدولة. وقد أفصحت آراؤه عن عقل مستنير ورجل دولة يميل إلى الخير. كما قال بأن كثيرًا مما أصر عليه «مكيافيللي» من مكائد قد أدى إلى كوارث لم يشر إليها «مكيافيللي» في كتابه. كما اتهمه أيضًا بأنه لم يتحدث أبدًا عن نتائج تلك الجرائم والآثام التي وصفها وامتدحها في كتابه.

كتاب «ضد مكيافيللي»

● مقدمة: دراسة لأمير مكيافيللي..بقلم الملك فريدريك الثاني:

وضع «مكيافيللي» كتاب الأمير ليجعل ما آمن به «سبينوزا»[1] معتقدًا راسخًا. فقد ضرب «سبينوزا» أسس العقيدة وجفف منابع الدين. وفي المقابل نجد أن «مكيافيللي» قد أفسد السياسة وحمل على عاتقه هدم المبادئ الأخلاقية الراسخة. وكانت أخطاء الأول مجرد أخطاء فكر، أما أخطاء الثاني فقد كانت لها آثار عملية ضارة. فقد دق علماء اللاهوت أجراس الخطر وحاربوا «سبينوزا» وردوا على ما قام به ودافعوا عن الدين وصدوا هجماته. أما «مكيافيللي» فلم يواجه سوى المدافعين عن الأخلاق. وعلى الرغم مما فعلوه وعلى الرغم مما في الكتاب من أخلاقيات مهلكة، إلا أن كتاب «الأمير» لا يزال شهيرًا جدًا في عالم السياسة إلى يومنا هذا.

وسوف أدفع عن الإنسانية هذا الوحش الذي يريد أن يدمرها. فعندي الجرأة حتى أواجه الفساد والجريمة بالتعقل والعدل. لذلك فقد سطرت أفكاري عن «مكيافيللي» وكتابه فصلاً تلو الآخر، وذلك لأضع الترياق بجانب السم.

وقد اعتبرت دائمًا أن كتاب «الأمير» هو عمل من أخطر الأعمال التي انتشرت في العالم أجمع، وهو عمل يقع في أيدي الأمراء بطريقة طبيعية، فهو موجه لهم، ومن يحب ممارسة السياسة منهم سيعجب به. لذلك فمن السهل لأي شاب طموح لا يستطيع التفريق بين الخير والشر بسهولة أن يفسَد بسبب المبادئ التي يجدها في الكتاب وتتمشى مع رغبته الجامحة في السلطة.

فإن كان إفساد براءة شاب واحد أمر منكر بالرغم من أن تأثيره على العالم من

(1) فيلسوف هولندي يهودي، وهو أول من وضع أسس المذهب العقلي في القرن السابع عشر. (المترجم)

حوله قليل جدًا، فإنه من الأسوأ أن نفسد أميرًا يتحكم في شعبه وفي تحقيق العدالة ويفترض أن يكون مثالاً لرعاياه الذين يجب عليه أن يشملهم بعطفه وشهامته ورحمته.

فلا الفيضانات التي تخرب مناطق بأكملها، ولا نيران البرق التي يمكن أن تحول المدن إلى أكوام من الرماد ولا السموم والطاعون التي قد تجتاح مناطق كاملة يمكن أن تكون في خطورة ما يقوم به الملوك من أعمال غير أخلاقية حين لا يكبحون عواطفهم ورغباتهم. فالكوارث السماوية تستمر لفترة محددة وتختفي، كما أنها تضرب مناطق محددة، والخسائر الناجمة عنها يمكن تعويضها على الرغم من بشاعتها. ولكن، جرائم الملوك تستمر لأوقات أطول وتصيب الشعب بأكمله.

يستطيع الملوك فعل الخير إن أرادوا. وبنفس الطريقة يمكنهم فعل كل ما هو شر. وعندئذ تكون حياة الشعب موضع شفقة، ويبدأ الشعب في الخوف من إساءة استخدام السلطات، وذلك عندما تصبح أموالهم غنائم لأمير ثبت جشعه وحبه للمال. كما أن حريتهم تصبح تحت رحمة نزواته، ويرتبط أمنهم وأمانهم بطموح الأمير وغدره. ونصائح «مكيافيللي» –إن اتبعها أي أمير بلا نقد أو تفكير– قد تؤدي إلى مآس حقيقية في عالم اليوم.

ولا يجب على أن انتهي من هذه المقدمة قبل أن أقول كلمة لمن يؤمنون بأن «مكيافيللي» كتب عن الأمراء كما هم وليس كما يجب أن يكونوا، أو أن الكتاب كما ادعى كثيرون كان للسخرية منهم.

فلابد أن من يرون أن «أمير» «مكيافيللي» ما هو إلا مثال للسائد من الأمراء في عصره ممن خدعوا بالأمثلة التي ساقها لأمراء سيئين، وهي أمثلة لا تسمح ذاكرتهم بالتفكير في جرائمهم وأخطائهم. أو ربما يكونون قد توصلوا إلى تلك النتيجة من خلال سجلات كثير ممن عاصروا «مكيافيللي» ومن خلال سيرة حياة الطغاة الذين كانوا بعيدين كل البعد عن الإنسانية. وأطلب من هؤلاء النقاد أن يفكروا، ويعلموا

أن إغراء السلطة يكون شديدًا في بعض الأحيان، ومن الممكن أن يتجرد الإنسان من أكثر من فضيلة من أجل الاستمرار في السلطة. ولذلك فليس من المدهش أنه اختار الأمراء السيئين فقط وترك الجيدين. وقد عانت الإمبراطورية الرومانية من أباطرة مثل: نيرو- كاليجولا وغيرهما. إلا أن العالم أجمع لا يزال يتذكر فضائل أباطرة آخرين مثل: وتيسيوس-تراجان-أنطونيو.

لذلك فليس من العدل أن نقدم التفاحة العطنة كمثال لكل التفاح.

ويجب على الإنسان أن يتمسك بتاريخ الأمراء الجيدين فقط، وليمت الآخرون إلى الأبد ولتمت معهم بلادتهم وظلمهم وجرائمهم وآثامهم. وهكذا تصبح كتب التاريخ غير كاملة، إلا أن الإنسانية ستستفيد من ذلك. ولتكن جائزة الأمير المحترم أن نرى اسمه في كتب التاريخ، وأن تظل أعماله أمثلة حية لقرون قادمة، بل وإلى يوم القيامة.

وكتاب «مكيافيللي» لن يتغلغل أكثر من ذلك في عالم السياسة، حيث سيحتقر الناس ما فيه من تناقضات. وسيقتنع العالم بأن السياسة الحقيقية للملوك تقوم على العدل والتعقل واللطف فقط. وذلك طريق أفضل بالقطع مما قدمه «مكيافيللي» بكل وقاحة للعالم أجمع.

الفصل الأول

حقيقة الأمير القوي ... وكيف يمكن الوصول إليها؟

عندما يريد الإنسان أن يزن الأمور بطريقة صحيحة، فمن الضروري له أن يبدأ بالنظر في طبيعة الرعايا الذين سيخاطبهم. ولابد من الذهاب إلى المنبع ومعرفة أهم المبادئ التي يؤمن بها الفرد، حتى يصبح من السهل بعد ذلك أن نتتبع نشأتها ونطورها، ثم نرى نتائج ذلك. وكان على «مكيافيللي» قبل أن يذكر الفروق بين الممالك –في رأيي- أن يبحث في أصول الأمراء ويناقش الأسباب التي تجعل الأحرار يختارون الحياة تحت حكم سادة لهم.

ربما لا يكون من اللائق في كتاب يهدف مؤلفه إلى تقنين الجريمة والطغيان واعتبارهما من السياسات الجيدة أن نذكر ما يدحض هذا الأمر تمامًا. لكن كان «مكيافيللي» يملك من الجرأة ما مكنه من أن يقول أن الشعب وجد أنه من الضروري والمفيد بالنسبة له أن يكون هناك قضاة يفصلون في نزاعاته وحراس لحمايته وممتلكاته من الأعداء وكذلك هم في حاجة إلى ملك يوحد ما بين مصالحهم المختلفة ويصيغها في مصلحة عامة واحدة. ويبدو أنه من المعقول أن نفترض أن الشعب اختار من يرى أنه أكثر حكمة وعدلاً وزهدًا والأشجع والأكثر إنسانية ليحكمونه.

هذه هي أهم مسئوليات الحاكم التي يجب أن نقولها. فإن كانت المسئولية الأولى للحاكم هي الشعب الذي يحكمه، فإن عليه أن يقدمه على أي اهتمامات أخرى. فما الذي يمكن أن نتعلمه من توصيات «مكيافيللي» المفرطة في الأنانية وتفضيل الذات والطموح بلا حدود والطغيان؟ فالملك لابد أن يبتعد عن أن يكون السيد المطلق للشعب الذي يقوده، بل يجب أن يكون خادمه الأول.

وبما أنني قررت التصدي لهذه المبادئ الخبيثة ودحضها، لذلك فسوف أتحدث عنها من خلال محتويات فصول الكتاب فصلاً تلو الآخر، كلما لاحت الفرصة.

ويجب عليّ أن أقول أن ما أذكره هو الطرق التي تكونت بها الممالك، وما يقوم به الملوك من أعمال تجعل المغتصِب أكثر ميلاً للشر. وذلك ليس بسبب عنفه فقط ولكن لأنه يبدي احتقاره التام للشعب الذي يحكمه فيحكمهم كالحيوانات. فالمغتصب يضحي بمصالح أفراد شعبه وحياتهم أيضًا، كل ذلك من أجل إرضاء رغباته المستبدة وجشعه. لكن هناك ثلاثة طرق فقط لتصبح حاكمًا شرعيًا في دولة: الخلافة أو اختيار الشعب لمن لديه الكفاءة أو الإرغام عن طريق الحرب وحمل السلاح. والطريقة التي أوصى بها «مكيافيللي» على استحياء هي الطريقة الثالثة بالطبع.

أطلب من القارئ أن يتذكر هذه الملاحظات التي كتبتها عن الفصل الأول من كتاب «مكيافيللي»، وذلك لأنها حجر الأساس الذي يقوم عليه كل ما يلي من أفكار.

الفصل الثاني

الإمارات المتوارثة

يحترم الناس كل ما هو قديم، بما في ذلك الخرافات. ولا يوجد في تراثهم ما يؤثر فيهم مثل الأشياء القديمة. فهم يحملون هذه الصفة بسهولة ويسر. لذلك فأنا لن أجادل «مكيافيللي» حول ما يعرفه كل الناس وهو أن الممالك المتوارثة هي أسهل الممالك بالنسبة للحاكم.

لكني سأضيف فقط أن الأمير الذي يرث مملكة تزداد قوته بتوثيق الصلات مع العائلات القوية في بلاده. فهي عائلات يدين لها كل الأمراء بالفضل. وبعض الناس يرون أن ذلك أمر لابد منه. كما أن هناك من يرى أن استمرار الدولة يتطلب تغيير العائلة الحاكمة في بعض الأحيان. فقد يكون سقوط العائلة مرهون باستمرارها وأن هذا الأمر أكيد وضروري.

كما أن القوات الكثيرة والأسلحة التي يحتفظ بها الأمراء، وذلك في حالة السلم وحالة الحرب على حد سواء تساهم في استتباب الأمن في البلاد، فهي تحافظ على طموحات الأمراء في السيطرة على أراضي الدولة وتماسكها. فالسيوف تحمي المواطنين المدنيين.

لكن ليس من واجب الأمير أن يدفع لأفراد الجيش رواتبهم فقط. بل يجب أن يكون محبًا لإسعاد شعبه. فالشعب الراضي لن يفكر في الثورة، الشعب السعيد يخشى فقدان

الأمير المُحسن. ومثل هذا الأمير لا يخشى فقدان سُلطاته. والشعب الهولندي لم يثر أبدًا ضد الأسبان إلا عندما تجاوز الأسبان كل حدود الإسراف، مما حدا بالشعب الهولندي أن يعيد النظام الذي اعتاد عليه مرة أخرى للحكم، وذلك لأنه أخف الضررين.

وقد انتقلت مملكة نابولي ومملكة صقلية من أيدي الأسبان إلى أيدي الإمبراطور، ومن الإمبراطور إلى الأسبان، وكان فتحها سهلًا دائمًا، وذلك لأن حكم أي منهما كان قاسيًا وكانت شعوب المملكتين تتمنى أن ترى الحرية على أيدي الفاتح الجديد.

لكن المملكة في نابولي شديدة الاختلاف عن المملكة في اللورين. فعندما اضطرت اللورين إلى تغيير الحكام في منتصف الطريق، كان كل سكان اللورين يذرفون الدمع، فقد أسفوا لفقدان لطف الدوق، فهو من عائلة عملت لصالح الدوقية لسنوات طويلة من هذا القرن. وكان أهم ما يميزهم هو اللطف، وبدأ الشك يساورهم في أن من أصبح دوقًا الآن يستحق أن يكون ملكًا. ولا تزال ذكرى الدوق المخلوع «ليوبارد» موقرة في عيون أهل اللورين، وعندما اضطرت أرملته إلى الرحيل من لونفيل، ركع جميع أفراد الشعب على ركبتيه أمامها مما اضطرها لإيقاف الجياد عدة مرات. وعندما تم نفيها لم يُسمع سوى أصوات الأنين ولم يُر سوى الدموع. ولم يشعر المنتصر بفرحة النصر ولم يسعد به.

الفصل الثالث

الإمارات المختلطة

كان القرن الخامس عشر الذي عاش فيه «مكيافيللي» مليء بالقسوة، وكانت تعتبر أمرًا طبيعيًا. لذلك كان التمجيد للمنتصر المتسبب في الكثير من الكوارث شائع، وكان كل حدث مفجع يفرض نفسه على الناس. لكن الآن، ربحت الدماثة والعدل وسادا المشهد. لذا فهما يعتبرا من فنون الحكم. وأنا أرى أن الشعوب تفضل الحاكم الإنسان على من تؤهله صفاته سواء السيئة أو الجيدة ليكون منتصرًا. وتلك الحماقة التي تمتدح العنف وتشجعه مما يتسبب في ثورات العالم انتهت الآن إلى غير رجعة.

وأنا أسأل: ما الذي يجعل الإنسان يسعى للسلطة رغبة فيها فقط ؟ وما هي تلك الحوافز التي يقدمها ذلك الإنسان للآخرين ومن أجلها يقيم سلطته على آلام آخرين

ممن يتسبب في تدميرهم؟ وكيف يمكن لغيره من البشر أن يصدقوا أن الخاسرين فقط هم من سيتألمون؟ فالفاتح الجديد لأي مملكة لا يجلب الغنى والرفاهية لما يفتحه من ولايات، وذلك لأن الشعب لن يستفيد من ذلك الفتح، وهو مخطئ إن ظن أن توسعة أراضيه سترضيه. كم من أمير استجاب لإلحاح جنرالاته وغزا مقاطعات لم يرها قط؟ هؤلاء الفاتحون يحلمون ولا يعرفون عن الواقع سوى أمراءهم الذين صنعوهم. لماذا نجعل العديد من الشعوب في حزن وألم وذلك لنرضي خيال شخص واحد فقط؟ وهو شخص لا يستحق أن يذكر في كتب التاريخ على أي حال.

لكن، دعونا نفترض أن هذا الفاتح يخضع الجميع لسيطرته. فهل يستطيع السيطرة عليهم؟ لابد إذن أن يكون أمير قويًا، لكن حكمه سيكون في طريقه إلى أن يكون محدودًا بشدة. فهل سيكون قادرًا على الاحتفاظ بمقاطعاته حتى ولو شكليًا فقط؟ فتوسع أراضي مملكته لن يكون مفيدًا ولن يخفي حقيقة حجم مملكته الصغيرة، بل سيلقي مزيدًا من الضوء على صغرها.

ولا تقاس عظمة الدولة التي يسيطر عليها أمير بحجمها، ولا يزيد حجمها من عظمته. فالمزيد من الأميال في الأرض لن تزيد من شهرته ولكن على العكس تمامًا، فهذا هو مقياس المساح، وليس مقياس الملك.

وقد يكون خطأ «مكيافيللي» الخاص بعظمة الفاتحين راجع إلى العصر الذي عاش فيه، إلا أن ما وقع فيه من خطأ يجعل هذا التفسير غير واضح. فليس هناك ما هو أكثر إفزاعًا من تأكدنا من الطرق التي اقترحها لحماية الغزاة. فإن تفحصتها بدقة، فلن تجد أيًا منها معقولاً أو صحيحًا. ويكفي أن هذا الرجل الخبيث يقول لنا بوجوب «القضاء على الأسرة الحاكمة السابقة قضاء مبرماً». هل من الممكن أن نقرأ هذا الكلام دون أن ترتجف أجسادنا من الرعب والسخط؟ إنها فكرة تلغي كل ما هو مقدس ومحترم في هذا العالم، كما أنها تسمح لصاحب المصلحة بالسير في طريق الجريمة. وماذا لو تمكن مغتصب طموح من السيطرة على ولايات ذلك الأمير بالقوة، هل هذا يعطيه الحق في اغتيال الأمير أو قتله بالسم؟ هل من حقه أن يقتل بالجملة؟ هذا الفاتح الذي يعمل طبقًا لوصايا «مكيافيللي» يقدم سابقة لا مثيل لها في تاريخ العالم، فهي لا تؤدي إلا إلى الدمار، حيث أن من الممكن لمن هو أكثر مهارة منه وأكثر طموحًا أن يفعل نفس الشيء معه فيغزو دولته ويقتله ويقتل كل أفراد عائلته بنفس الدرجة من القسوة التي قتل بها الأمير سابقيه. وقد قدم القرن الذي عاش فيه «مكيافيللي» العديد من الأمثلة التي تؤكد هذا الكلام. ألم

نر البابا ألكسندر السادس وهو ينفى إلى غابة خضراء، ثم تخلى خلفه «قيصر بورجيا» عن كل ما فُتح من أراض ومات بائسًا؟ ألم نر «جليزو سيفورزا» يغتال داخل حرم كنيسة ميلان، كما أن المغتصب «لودفيكو سيفورزا» مات في فرنسا في قفص حديدي؟ ألم يتم تدمير أمراء «يورك» على أيدي عائلة «لانشيستر»؟ ألم يغتال الأباطرة اليونانيين واحدًا تلو الآخر حتى لم يصبح هناك من يستفيد من قتلهم سوى الأتراك الذين أبادوهم جميعًا؟ لذلك فالمسيحيون اليوم لا يتحدثون عن الثورة إلا قليلاً، فقد انتشرت الأخلاق الحميدة. وقد تمسك الناس بالروحانيات أكثر مما قبل وتجردوا من الوحشية. وربما يكون ذلك هو ما التزم به الملوك مع أصحاب الرأي فاجتاح الأمر أوروبا كلها.

والمبدأ الثاني عند «مكيافيللي» هو أن «على الأمير الذي يحصل على أراض جديدة أن يذهب ويعيش فيها بنفسه.» هذه ليست قسوة، بل إن الأمر يبدو جيدًا في بعض الأحوال.. لكن يجب أن نضع في الاعتبار أن أغلب الولايات التي يسيطر عليها الأمير بنفس الطريقة بحاجة إلى نفس التصرف. والأمير لا يمكنه ترك مركز الدولة والتحرك هنا وهناك، فهذا يضعف أطرافها.

أما الفكرة الثالثة فهي أن «يزرع مستعمرات يقيم فيها رعاياه المخلصون القادمون من دولته القديمة في مكان أو مكانين من الأرض المفتوحة حديثًا، وذلك حتى يكونوا أعينًا له في المنطقة.» وهذا أيضًا يكفل له ضمان ولائهم له.

وهنا نجد أن «مكيافيللي» يقيم هذه الفكرة على ما قام به الرومان من قبل، لكنه لم يقل أن الرومان استبدلوا المستعمرات بالفيالق الحربية وإن لم يفعلوا لفقدوا مستعمراتهم بسرعة. كما أنه لم يذكر أيضًا أي طريقة أخرى سوى إقامة المستعمرات وتحريك الجيوش، وهي أن روما يمكنها أن تستخدم الدبلوماسية. فقد كان الرومان في عصر الجمهورية أكثر لصوص العالم حكمة، وقد حافظوا بالتعقل على ما حصلوا عليه بالظلم. لكن أخيرًا، فإن قدر كل مغتصب أن يأتي عليه الدور: وجاء يوم روما لتتوارى إلى الظل كأمة حزينة.

والآن تعالوا لنرى ما إذا كانت تلك المستعمرات –التي نصح «مكيافيللي» بإقامتها وارتكاب العديد من الأعمال الظالمة من أجل ذلك– مفيدة كما ادعى. فسواء أرسلت إلى البلاد التي فتحتها حديثًا مستعمرات قوية أو مستعمرات ضعيفة، فأنت الخاسر. فإن كانت المستعمرات قوية، فهذا يؤثر بشدة على دولتك الأصلية ويخليها من السكان، وذلك لأنك أخرجت منها عددًا كبيرًا من رعاياك وهذا يقلل من قواتك. وإن أرسلت إلى تلك البلاد المفتوحة حديثًا مستعمرات ضعيفة فلن تقوم بمهامها هناك بفاعلية. وكل ما فعلته هو

أنك أخرجت الناس من ديارهم ليصبحوا تعساء في بلاد جديدة دونما أي فائدة تعوضهم عن ذلك.

وعلى ذلك فلابد للأمير أن يرسل قوات إلى البلاد التي فتحها حديثًا، فإن كانت قوات منظمة وذات قيادة جيدة، فإنها لن تستغل الشعب وترهقه، ولن تصبح عبئًا ثقيلاً على المدن التي تعسكر فيها. هذه طريقة أفضل لكنها لم تكن معروفة في عصر «مكيافيللي». حيث كان الملوك في ذلك العصر لا يحتفظون بجيوش كبيرة، وكانت الجيوش بالنسبة لكثير منهم مجرد سلسلة واحدة من العصابات التي لا تعيش سوى للعنف وسلب الغنائم. لم يعرفوا كيف يكون الجيش الواحد الذي يعمل دائمًا تحت عَلَم واحد، ولم يعملوا بالحراسة وحفظ السلام، كما أنهم لم يكونوا جنودًا محترفين.

«أما الأمير الذي تستقر له الأحوال في أراض منضمة حديثاً تتحدث بلغة مختلفة وقوانينها وعاداتها مختلفة، فعليه أن يكون حاميًا لجيرانه الضعاف وأن يحاول إضعاف الأقوياء منهم.» هذه هي الفكرة الرابعة التي عرضها «مكيافيللي» في هذا الفصل، وهي تنشر الشقاق والنزاعات بين المناطق حتى يستطيع الأمير التعرف على من هو مفيد له. وهي طريقة استخدمها «كلوفيز» أول ملك من ملوك البرابرة الذي انتهى به الحال إلى الدخول في الدين المسيحي. وقد قلده بعض الأمراء الذين لا يقلون عنه قسوة. لكن كيف يكون الفارق لو استُخدم رجل أمين ليكون وسيطًا بين صغار الأمراء ليصلوا إلى تسوية لما بينهم من خلافات بطريقة ودية؟ ومن ذا الذي سيفوز بثقتهم بسبب أمانته وعدم تدخله فيما بينهم من خلافات، كما يقدم لهم أحكامًا عادلة؟ رزانته ستجعل منه أبًا لكل رعاياه، ولن تجعله ظالمًا، سيكون حاميهم، وليس مدمرهم.

ولسوء الحظ، فإن الأمراء الذين ينشئون غيرهم من الأمراء بالقسوة يدمرون أنفسهم بأيديهم. وهذا القرن الذي نعيش فيه يقدم لنا مثالين. الأول هو «تشارلز الثاني عشر» الذي ربى «ستنسلوز» في البلاط الملكي في بولندا. وأنا أنتهي إلى أن من يقيم ملكه على الاغتصاب لا يستحق المجد، وكما أن القتل أمر يكرهه على الأقل بعض الناس، فإن الأمير الظالم العنيف يمحق أي ولاء محتمل له من رعاياه. فالجريمة لا تفيد ولن تجد من يدافع عن انتهاك الأخلاق الحميدة إلا من هو أسوأ من «مكيافيللي». وإن استخدمنا فن التعقل ضد مصلحة البشر، فلن يؤدي ذلك إلا إلى الإصابة أو الموت بنفس السيف الذي حملناه للدفاع عن أنفسنا.

الفصل الرابع

لماذا لم تتمرد مملكة داريوس التي احتلها الاسكندر بعد وفاته؟

حتى يمكننا الحكم جيدًا على ثقافات الأمم، يجب أن نقارن بينها. وهذا هو ما فعله «مكيافيللي» في هذا الفصل. فقد قارن ما بين الأتراك والفرنسيين، وهم مختلفون في العادات والتقاليد والآراء. وقد تناول الأسباب التي جعلت الأولى تخضع أراض لها بصعوبة إلا أنها حافظت عليها بسهولة، كما أنه لاحظ أيضًا أن هناك ما يمكن أن يساعد على إخضاع فرنسا دون عناء كبير، وأوضح كيف يمكن للإبقاء عليها أن يؤدي إلى اضطرابات مستمرة تهدد العرش الجديد باستمرار.

والكاتب هنا يتناول هذه الأمور من زاوية واحدة. فهو لم يناقش بناء الحكومات، ويبدو أنه يعتقد أن قوة الإمبراطورية التركية قامت على استعباد الأمم الأخرى وعلى ظهور رجل واحد فقط كحاكم مستبد للبلاد. ولم يقترب أبدًا من الفكرة التي تقول إن الحكم المطلق القائم على أساس متين بدون قيود هو الوسيلة الأكيدة للأمير كي يحكم بلا أي اضطرابات ويستطيع مقاومة الأعداء بقوة.

في عصر «مكيافيللي» كان ملك فرنسا يعتبر أميرًا كبيرًا وكان نبلاؤها أقل قدرًا. وكانوا يشاركون في السلطة بطريقة ما. وقد سمح ذلك بوجود انقسامات، فقويت الفرق وأثيرت الاضطرابات. لكني لا أعلم -على أي حال- إن كان هناك من اضطر من ملوك فرنسا للتنازل عن العرش وأجبره النبلاء على ذلك كما يعتقد «مكيافيللي» سوى حالة واحدة فقط، وكانت هذه الحالة في عام **761**م. والفارق بين ما قامت به كل من تركيا وفرنسا كالتالي: احتفظت الإمبراطورية التركية دائمًا بالإنكشاريين[1]. في حين أن ملوك فرنسا الذين رفضوا ذلك تم اغتيالهم واحدًا تلو الآخر على أيدي الرهبان أو الوحوش التي بدأت حياتها كرهبان. لكن «مكيافيللي» تحدث في هذا الفصل عن الثورات بصفة عامة: أي أنه تحدث عن منابع الماء ولم يتحدث عن النهر الكبير.

---

(1) الانكشارية هم فرقة من الجيش العثماني النظامي، كانت بداية ظهورهم في عهد ثاني حكام الدولة العثمانية (أورخان بن عثمان)، وقد عمل على تثبيت دعائم الدولة من خلال إصلاحات داخلية كثيرة، وكان بناء الجيش من ضمن أهم أعماله. وكان ذلك الجيش شديد الشبه بمماليك السلطان الأيوبي نجم الدين أيوب. (المترجم)

فاختلاف الطعام الذي تتناوله الشعوب والطقس الذي يعيشون فيه ومستوى تعليمهم يسبب الفارق الواضح في طريقة معيشتهم وتفكيرهم. هذا الفارق يشبه الفارق ما بين راهب إيطالي وطالب علم صيني. وتصرفات الإنجليزي شديد الجرأة ميت القلب تختلف تمامًا عن الأسباني المعتز بشجاعته، كما أن التشابه بين الفرنسي والهولندي بسيط جدًا.

وقد لوحظ منذ الأزل أن شعوب الشرق تتمسك بالروحانيات فيما تمارس من أعمال في عاداتهم القديمة التي لم يتخلوا عنها أبدًا. كما أنهم لا يزالون ملتزمين بتعاليم دينهم الذي يختلف عن دين الأوروبيين، فإن تعرض سادتهم لمشكلات، فإن دينهم يفرض عليهم ألا يتعاونوا مع من يسمونهم بـ "الكفار" وتجنب كل ما يمكن أن يلوث عقيدتهم أو يفسد بناء حكومتهم بكل دقة وحذر. وهذا هو ما يحمي عروشهم في بلادهم ولا يحمي الملك: أي أن الحاكم من الممكن أن يتنازل عن العرش، لكن الإمبراطورية تظل قائمة ولا يتم تدميرها أبدًا.

كما أن عادات أمة الفرنسيين تختلف تمامًا عن عادات المسلمين، وهي مسئولة تمامًا- أو جزئيًا- عن تعدد الثورات في المملكة الفرنسية. فشخصية هذه الأمة تتميز بالخفة والتقلب، وهذا هو ما يجعل الفرنسي قلقًا وماجنًا ومتمسكًا تمامًا بالملل من كل شيء. فحب الفرنسيين للتغيير واضح جدًا حتى في أهم الأشياء. ويبدو أنهم كرهوا الكرادلة الفرنسيين لكنهم احترموهم، فهم من سيطر على هذه الجمهورية على التوالي، كما أنهم استفادوا من أفكار "مكيافيللي" في الحد من قوة النبلاء. كما استفادوا من معرفتهم بعادات الأمة في توجيه العواصف المتكررة والتي أدى تعامل الرعايا معها ببساطة إلى تهديد عرش المملكة بصفة مستمرة.

وكان الغرض من تطبيق سياسة الكاردينال "روشيلو" هو أن يقلل من أهمية كبار النبلاء ويرفع درجة ومقام الملك، وأن يكون ذلك هو القاعدة التي يقوم عليها الحكم في كل أنحاء الدولة، وهي سياسة ناجحة، واليوم لا توجد أي آثار في فرنسا لقوى السادة والنبلاء، فقد ادعى الملوك أنهم أساءوا إليهم.

وقد سار الكاردينال "مازارين" على هدى خطوات "روشيلو". وقد حاولت المعارضة مقاومة ذلك إلا أنه نجح. كما جرد البرلمان من امتيازاته، وبعد أن كان هيئة قوية في وقت ما أصبح اليوم مجرد شبح. فالدولة هي الملك "لويس". وإلى الآن يتقدم البرلمان بما يعتقد أنه صواب، ولكن بعد أن يتم الضغط عليهم ينتهي الأمر بتوبتهم عما وقعوا فيه من خطأ.

ونفس تلك السياسة التي وصلت بوزراء الملك إلى إقامة حكم مستبد تمامًا في فرنسا هي من علمهم صرف انتباه الأمة وذلك باستخدام صفتي الخفة والتقلب وذلك ليقللوا من خطورتها. إنهم هؤلاء الفرنسيون الذين يستخدمون كل طاقتهم الآن في متابعة سيل الموضات الحديثة، والذين يغيرون أذواقهم بدقة وسرعة واستمرار، فما يكرهونه اليوم هو نفس ما كانوا يعجبون به أمس. فإن طبقنا هذا التقلب والطيش فيما يسند إليهم من مهام نجد أنهم يغيرون الخدم والمسكن وما يقومون به من أعمال، كما يملون حتى من وسائل التسلية والهوايات. إلا أن جيوش فرنسا القوية بالإضافة إلى عدد كبير من القلاع تضمن بقاء العرش الفرنسي إلى الأبد، لذلك فالفرنسيون لا يخشون من وقوع أي حروب داخلية ولا أي غزو تقوم به دولة مجاورة.

الفصل الخامس

ضرورة السيطرة على إمارات كانت خاضعة لقوانينها الخاصة قبل سقوطها

ليس من المفيد تمامًا –في رأي "مكيافيللي"– أن نحتفظ بدولة حرة تمت السيطرة عليها ولكن يجب أن يتم تدميرها. هذه هي الطريقة الآمنة لتجنب قيام ثورة. وقد قام رجل إنجليزي أحمق بقتل نفسه منذ عدة أعوام في لندن وترك بجانبه ورقة برر فيها فعلته بأنه انتحر حتى لا يمرض مرة أخرى !! هذا هو نفس حال الأمير الذي يدمر دولة حتى لا يخسرها !! وأنا لا أتحدث عن الإنسانية مع "مكيافيللي" لأن تلك الفعلة تبيد أعراقًا كاملة، ويمكننا أن ندحض ما قاله "مكيافيللي" دون الاستشهاد بالمثل والأخلاق. وهذا سيؤدي إلى إصابة كتابه في مقتل، ويحطم الشر الذي يحتويه والجريمة التي يدافع عنها.

هل ترى يا "مكيافيللي" أن على الأمير أن يدمر الدولة التي احتلها حديثًا، من أجل تأمينها. أنا أرد عليك لماذا قام إذن بالغزو؟ سترد على بأنه يريد زيادة قوته وهيبته. وهذا ما كنت أحب أن أسمعه، وذلك لكي أثبت لك يا "مكيافيللي" أن اتباع نصائحك يصل بنا إلى نتيجة عكسية، وذلك لأن تكلفة الغزو وتدمير الدولة خسائر لن تعوض. وبالتالي سنعترف أن الدولة المنهوبة الخالية من السكان لن تجعل الأمير قويًا إن سيطر عليها.

وأنا أعلم أن الملك الذي يسعى للسيطرة على صحراء ليبيا وبرقة لا يحتاج إلى أن يدخل الرعب في قلوب الناس، ذلك لأن مليونًا من النمور والأسود والتماسيح لا تعادل ملايين الرعايا من البشر والمدن الغنية والموانى العامرة المليئة بالحاويات والصناعات والمواطنين والقوات وكل ما تنتجه الدول مما يمكن أن يتم نهبه. وكلنا يعلم أن قوة الدولة لا تقاس باتساع حدودها، ولكن بعدد المقيمين فيها. قارن ما بين هولندا وروسيا. فستجد أن هولندا جمهورية صغيرة طولها **48** ميلاً وعرضها **40** ميلاً فقط وتظل على المحيط. إلا أنها تمثل الشريان المهم في المنطقة، ويعيش فيها كثير جدًا من الناس. وهم شعب مجتهد وقوي وغني. وقد تغلبوا على السيطرة الأسبانية وكانت في ذلك الوقت أقوى عروش أوروبا. وهي دولة تتاجر مع جميع أنحاء العالم، وكثير من أنواع التجارة تظهر فيها بسرعة شديدة، وهي دولة يمكنها أن تجمع جيشًا من **50** ألف جندي في حالة الحرب، هذا بخلاف الأسطول الضخم جيد الإعداد.

فإن توجهت ببصرك نحو روسيا فستجد أنها دولة ذات مساحة شاسعة بلا شك. إنها عالم كامل ... حيث تمتد حدودها من جبال الانديز إلى البحر الأسود والمجر. كما تمتد إلى بولندا ولتوانيا وتحدها السويد من الشمال الغربي. وروسيا تعادل **300** دولة مثل ألمانيا من حيث العرض و**500** دولة مثلها من حيث الطول. وهي دولة خصبة تنتج الحبوب وتنتج كل المنتجات الغذائية الضرورية من المناطق المحيطة بموسكو. وعلى الرغم من كل تلك المميزات التي تتميز بها الدولة لا يعيش فيها سوى **15** مليون نسمة.

وهذه الدولة التي لا يزال أثرها على أوروبا بسيطًا، لا تزيد قوتها العسكرية عن هولندا إلا قليلاً، سواء القوات البحرية أو القوات البرية، كما أن ثرواتها ومواردها تقل كثيرًا عما هو موجود في هولندا.

فقوة الدولة لا تتأثر بامتدادها البري، ولا بامتلاك أراض شاسعة من الصحراء القاحلة، ولكنها تقاس بكثرة عدد سكانها. لذلك فلابد أن يهتم الأمير بكثرة السكان في بلاده وذلك من أجل ازدهارها وليس من أجل خرابها وتدميرها. فإن كان "مكيافيللي" يؤمن بفكرة نشر الرعب في القلوب، فإن التفكير في هذه الفكرة يبعث على الشفقة. وكان عليه ينال مكسبًا حقيقيًا ويزن الأمور بتعقل ولا يحاول تبرير كل ما يحدث ويحوله إلى قصة نجاح، فهذا أفضل له من تعليم سياسته الخرقاء لوحوش السياسة.

"اذهب إليها وعش فيها بنفسك." هذه هي النصيحة الثالثة من نصائح

"مكيافيللي"، وهي أكثر اعتدالاً من نصائحه السابقة، إلا أنني أوضحت في الفصل الثالث تلك الصعوبات التي تواجهها.

ويبدو لي أن الأمير الذي يفتح جمهورية -بعد أن يجد المبرر العادل لشن الحرب- يكون راضيًا عن معاقبتها، ثم يعيد لها حريتها. قليل من الناس يثقون في ذلك الرأي. أما أولئك الذين لديهم مشاعر أخرى، فإنهم يحافظون على ما يقع تحت أيديهم من دول، وذلك بإقامة مواقع عسكرية في المناطق الرئيسية فيها وبإعطاء الشعب كامل حريته.

ونحن البشر حمقى من عدة أوجه: فنحن نريد أن نُخضع الجميع كما لو كنا سنعيش في كل العصور وكما لو كانت حياتنا بلا نهاية. لكن حياتنا الحقيقية تمر بسرعة شديدة. لذلك فعندما يظن الفرد أنه يعمل لصالح نفسه فقط، نجده في الواقع يعمل من أجل من سيخلفه سواء كانوا ممن لا يشعرون تجاهه بأي عرفان بالجميل أو ممن هم غير جديرين بنتائج ما قام به من أعمال.

الفصل السادس

الولايات الجديدة التي يضمها الأمير بشجاعته وأسلحته

إن كان الناس بلا عواطف، كان من الممكن أن نسامح "مكيافيللي" إن حاول تقديم بعض المشاعر في كتابه، كان من الممكن أن يصبح مبدعًا جديدًا ويأت بما لم يأت به أحد قبله. فلا يوجد إنسان بلا عواطف. وعندما تصبح هذه العواطف معتدلة، تكون أساسًا للعمل. وعندما يطلق عنانها، تتسبب في دمار ما يقوم به الإنسان.

ومن بين كل تلك المشاعر التي يمكن أن تسيطر على قلوبنا لا يوجد ما هو أكثر تدميرًا -بالنسبة لمن يملكون مشاعر طبيعية- من أن يعادي الإنسان العالم أجمع. فهذا يعني أن طموحه زاد عن الحد وتعدى مجرد الرغبة الجامحة في الشعور بالعظمة.

وأي فرد عادي يكون تعيسًا لو ولد وعنده هذه الرغبة الفطرية الجامحة في السلطة، إنه أتعس من المجنون. فهو لا يعبأ بالحاضر ويعيش في المستقبل فقط، أي في عالم خيالي، لن يقنع بأي شيء في هذا العالم. هذه الرغبة الجامحة ستكدر عليه حياته تمامًا، وتحول كل ما يمر به من سعادة إلى إحساس مرير ومؤلم.

أما الأمير الطموح فهو أتعس من الشخص العادي، وذلك لأن جنونه المتناسب مع منزلته الرفيعة يكون أكثر غموضًا وأكثر تمردًا وأكثر نهمًا. وعندما يصل تكريمه وتعظيمه إلى أقصى حد، يعود إلى عواطف الشخص العادي ويطمح إلى ممالك ومقاطعات يضمها لملكه لينعش طموحه ويتمنى المزيد، وكلما كان من السهل على الأمير أن يجد التمويل اللازم والجنود والعتاد ليحتل ممالك، زاد طموحه، فهو لا يشبه الفرد العادي الذي يمكن أن يشعر بالرضا والاكتفاء في هذه الحالة.

وقد قدم "مكيافيللي" للأمراء أمثلة في هذا الصدد وهم موسى وكريوس وروملوس وهيرو. ويمكننا أن نوسع هذه القائمة ونضيف إليها العديد من الأسماء، لكن "مكيافيللي" تجاهل أن موسى نبي وليس أميرًا، كما تجاهل هذه الطريقة هي طريقة نشر الأديان والطوائف، وهناك مبرر لها في هذه الحالة وهو نشر الدين أو العقيدة أو الطائفة في جميع أنحاء العالم. لذلك فهي طريقة غير مناسبة للملوك الذين لا يريدون سوى حكم بلادهم والحفاظ عليها من الأعداء.

وقد استخدم "مكيافيللي" تلك الأمثلة لغرض خبيث في نفسه، ولابد من الإشارة إليه، لأنه من المفيد أن نكتشف نعومة وألاعيب ذلك المخادع.

فقد أظهر "مكيافيللي" الوجه الجميل للطموح فقط (إن كان هناك أي جمال)، فقد تحدث فقط عن الطموح المصحوب بحسن الطالع، لكنه لم يتحدث أبدًا عن ضحايا ذلك الطموح الجامح. وهذا يجعل عمله متحيزًا لفرض الأمر الواقع على العالم. وفي هذا الفصل يمكننا أن نرى بوضوح أن "مكيافيللي" يلعب دور من يعتذر عن الجرائم.

فلماذا تحدث "مكيافيللي" عن نبي الله موسى وأول ملوك أثينا ومؤسس مدينة روما، وهم جميعًا من الناجحين بلا أي شك، ولم يتحدث عمن فعلوا ما يوصي به لكنهم فشلوا. وكان يجب أن يفعل ذلك ليوضح أن ذلك الطموح الجارف يمكن أن يصل بالبعض إلى ما يريد، لكنه يوصل البعض الآخر للفشل. فماذا عن "جين دي ليد" زعيم طائفة إعادة التعميد المسيحية الذي يتمثل نجاحه في أنه حُرق وعلق في قفص حديدي؟ وماذا عن كروميل الذي شاهد ابنه سحب جسده المنهك إلى المشنقة؟ ألم يصرخ 3-4 يهود نعرفهم جيدًا بقول كل منهم "أنا المسيح." ولم ينل أي منهم سوى العذاب والهلاك. ألم ينتهي الحال بالأخير الذي لم يمت إلى العمل كخادم في مطبخ أحد السادة؟ ألم يتم عزل الملك الفرنسي "بيبن" في عام 781م وذلك بأمر أصدره "البابا ستيفن الثالث" الذي كان يعمل في قصره، فتحول من خادم إلى سيد؟ ألم يتم إعدامه أيضًا بأمر صادر من

نفس الشخص؟ ألا تستطيع يا "مكيافيللي" أن تعد 30 رئيسًا لطائفة عقائدية وأكثر من ألف غيرهم ممن ساروا على هداهم فلقوا حتفهم موتًا، وكانت ميتتهم شنيعة، ولم يخلفوا وراءهم إلا الفشل؟

ويبدو لي أيضًا أن "مكيافيللي" افتقد الحكمة بوضعه لنبي الله موسى في قائمة واحدة مع "رومولوس" و"تيسيوس" وآخرين. فموسى كان نبيًا يتلقى الوحي من ربه. ولو كان بشرًا عاديًا مثل أولئك الذين جمعهم معه "مكيافيللي" لما حقق أي نتيجة تذكر. فنحن لا يمكننا أن نحكم على موسى كبشر عادي بل كرسول من الله. فقد تاه قومه لمدة 40 عامًا عن طريق كان يمكنهم أن يقطعوه في ستة أسابيع فقط. وهذه إحدى معجزاته كرسول. إذن فلماذا يجمعه "مكيافيللي" في قائمة واحدة مع أناس لا يصلون إلى منزلته حتى وإن كانوا من الفاتحين؟

وأنا أعترف –بصفة عامة وبلا أي تحفظ- أنه يمكن لأي إنسان أن يستخدم عبقريته وشجاعته ورؤيته وحواسه ويضع مثل هؤلاء جميعًا في قائمة واحدة، لكنني لا أعرف ما إذا كانت صفة الطهارة مناسبة للجميع أم لا. فجلهم[1] يملك مهارات وشجاعة يشاركهم فيها قطاع الطرق. والفرق ما بين قطاع الطرق والغزاة هو أن من يغزو أرضًا ليحتلها ويوسع ملكه هو لص شهير. واللص الصغير غير المعروف هو فاتح مغمور. الفاتح يقابل بأكاليل الغار جزاء لما اقترفه من أعمال عنف، والثاني يكافئ بحبل المشنقة.

من المعروف أن العقيدة الجديدة التي يريد أي من الرسل تقديمها للناس أو أي اختراع مفيد لابد أن يواجه آلاف العقبات. كما أن الرسول على رأس أي جيش له أكبر الأثر في إقناع الناس عما لو جادلهم فقط.

ولذلك فمن المعروف أن الديانة المسيحية التي استخدمت الجدال فقط في نشر دعوتها ظلت ضعيفة ومظلومة، لكنها انتشرت في أوروبا فقد بعد إراقة الكثير من الدماء. ومن المعروف أيضًا أن من يملك القدرة على تغيير مسار الأحداث يمكنه أيضًا أن يقدم أفكاره الجديدة دون كثير من المعاناة.

ويبقى أمامي أن أعلق ببعض الأفكار على مثال ضربه "مكيافيللي" وهو "هيرو"، فقد قدمه كمثال لمن يتسلقون أكتاف الأصدقاء والقوات المسلحة.

فقد قضى "هيرو" على أصدقائه وجنوده الذين ساعدوه في تنفيذ خططه. لقد وجد

(1) يقصد الغزاة والفاتحين والقادة الذين احتلوا مدنًا ودولاً مجاورة بالطبع. (المترجم)

أصدقاء جدد وجمع قوات جديدة. وأنا أقول رغم أنف "مكيافيللي" وغيره من ناكري الجميل أن تلك الطريقة التي اتبعها "هيرو" طريقة فاسدة. وكان من الأفضل له أن يثق في الجنود الذين اختبرهم ويعرف قيمتهم والأصدقاء الذين اختبر ولاءهم له. فالجنود الجدد لا يمكن أن نأمن جانبهم. وسأترك للقارئ فرصة التفكير في هذا الأمر. وسنجد أن كل من يكره نكران الجميل ويعرف القيمة الحقيقية للصداقة لن يكتفي بالحياد في هذا الموضوع.

ولابد لي –على أي حال– أن أخبر القارئ إلى الاتجاه المخالف الذي اتخذه "مكيافيللي" حيث يرى أن الفرصة المناسبة هي أهم ما في الأمر. وهذا يعني أنه إن لم تكن الظروف متاحة، لن يستطيع المخادعون الشجعان الاستفادة من مواهبهم. أي أن "مكيافيللي" يقيم الأمر بنتيجة الجريمة فقط، وهذا يوضح مدى سواد وجه هذا الكاتب.

وكي أختتم هذا الفصل، يبدو لي وبصفة عامة أن المناسبة الوحيدة التي تمكن الفرد العادي من أن يرتقي عرش دولة دون أن يرتكب جريمة هي أن يتم ذلك بالانتخاب، أو أن يقوم بعمل بطولي ينقذ به بلاده.

وفيما يلي أبطال من هذين النوعين: "سويسكي" في بولندا و"جوستاف فازا" في السويد و"أنطونيوس" في روما. وإن كان قيصر بورجيا هو مثال للأمير عند "مكيافيللي" فإن المثال الجيد عندي هو "ماركوس أورليوس[1]".

الفصل السابع

الإمارات الجديدة التي يضمها الأمير بالقوة أو بالصدفة

قارن بين أمير «مكيافيللي» وأمير «م. دي فنيلون[2]» وستجد أن صفات الرجل الأمين عند «دي فنيلون» هي: اللطف والعدالة والمساواة بين الناس، وباختصار فأنه يتصف بكل الفضائل بأعلى درجاتها. وبذلك فهو يبدو كرجل طيب. كما أنه يرى أن الحكمة هي أهم ما يجب أن تتحلى به حكومات العالم. وسترى أن الأمير الجيد

(1) إمبراطور روماني حكم في الفترة 161-169م. ويعتبر واحدًا من الأباطرة الذين أطلق عليهم أسم "الأباطرة الطيبون الخمس". كما كان فيلسوفًا مهمًا أيضًا. (المترجم)

(2) كاتب فرنسي. (المترجم)

عند «مكيافيللي» يتصف بما يلي: الخداع والغدر والخيانة وغيرها من جرائم. وباختصار، فإنه وحش وليس إنسانًا، صفاته لا يمكن أن تكون ناتجة عن جهنم ذاتها. وإن كنا نشعر بالاقتراب من الملائكة عند قراءة صفات بطل كتاب «دي فنيلون» فإننا نشعر بأننا نقترب من الشيطان عندما نقرأ كتاب «الأمير» لـ «مكيافيللي». وقد اعتمد مؤلف كتاب «الأمير» على أمثلة: قيصر بورجيا والدوق فالنتينو. وكان «مكيافيللي» وقحًا بما يكفي فقدم من صعدوا إلى أعلى المناصب على أكتاف أصدقائهم وجنودهم المخلصين كأبطال. لذلك فمن الضروري أن نعلم على وجه الحقيقة من هو قيصر بورجيا؟ وذلك من أجل تكوين فكرة عن بطل كتاب «مكيافيللي»، وعن الكاتب الذي يمتدح هذا البطل.

لا توجد جريمة لم يرتكبها قيصر بورجيا. فقد أعدم أخاه، وذلك لأنه كان منافسه في العظمة والمجد. وكاد أن يفعل نفس الشيء مع أخته. كما أنه ارتكب مذابح لأفراد سويسريين بالرغم من أنهم من رعايا أبيه البابا وذلك انتقامًا من سويسري أساء إلى أمه. كما أنه جرد الكرادلة والأغنياء من أموالهم ليرضي نهمه وحبه للمال. وأطاح بكل من واجهه أو وقف في طريقه. وقد غرر بامرأة من البندقية وأسقطها معه في بحر الرذيلة. لقد قام بكل الموبقات. فمن يستطيع عد جرائمه؟ هذا هو الرجل الذي يفضله «مكيافيللي» ويعتبر أن مكانه هو قمة العباقرة في عصره.

لكن يجب علي أن أتناول «مكيافيللي» بتفصيل أكثر، وذلك حتى لا يجد من يفكرون مثله أي أعذار ويفقدون الأمل في تبرئته مما ينسب إليه.

وقد وضع «قيصر بورجيا» خطته من أجل تعظيم ذاته بالاعتماد على زرع الشقاق بين أمراء إيطاليا. وكانت سياسته غير الأخلاقية هي: «أغتصب بضائع جيراني، وهذا يضعفهم بالطبع، وعندما يضعفون يمكن مهاجمتهم.»

وقد تطلب نجاح بورجيا تحويل الآدميين إلى حيوانات. لذلك فقد تعمد إفسادهم، بعد أن فسد هو قبلهم. لكن، دعونا نتوقف عن سرد جرائم «بورجيا» ونتحول للحديث عن فساده، فالفساد مساو لما قام به من أفعال طيبة. فقد أراد بورجيا التخلص من قليل من الأمراء مثل: أوربينو وفتلتوزو وأولفيتو دي فرمو وغيرهم. يقول «مكيافيللي» إن «بورجيا» كان لديه ما يكفي من الحكمة ليجعلهم يأتون إلى مكان واحد وهناك هلكوا جميعًا بسبب الخيانة.

إذن هذه هي الصفات التي يسميها أستاذ الانحطاط بـ«الحكمة»: إساءة استخدام

النوايا الحسنة عند الآخرين واستخدام الخدع سيئة السمعة في التغرير بالناس والخيانة والقتل. وأنا أتساءل ما إذا كانت الحكمة تقتضي إظهار الخيانة والغدر والقدرة على الكذب بسهولة شديدة؟ وإن كنت قد خنت الأمانة ولم توف بالعهود، فمن يضمن وفاءك لرجالك؟ هل تعلمهم المثل العليا بالخيانة؟ وإن كنت تخشى أن تقع فريسة للخيانة، فهل تعلم من حولك القتل؟ هل تخاف من أيدي حواريبك؟ وإن كانت تلك هي الحكمة فكيف يكون غدر الجبناء؟

كما أن «بورجيا» نصب «دي أوركو» السفاح حاكمًا على «رومانج» وذلك حتى يقمع بعض الاضطرابات. كما أنه عاقب –بعنف– من هم أقل منه وقاحة في تحدي كل الأخلاقيات. إنه أعنف المغتصبين وأحنث من أقسم وأكثر من نفذ الإعدام بوحشية سواء كان بالمقصلة أو السم. وكان يلعن من قام بعمليات تعذيب مفزعة، وذلك لأنهم لم يفعلوا سوى ما نقلوه عن سيدهم المعلم ولكن بصورة مصغرة. كما أن ملك بولندا الذي أدت وفاته إلى كثير من الاضطرابات في أوروبا كان أكثر عدلاً ونبلاً مع رعاياه بالرغم من فساده الشخصي.

فالتعيس هو من ينتهك هذا القانون فيصبح ملعونًا، وفي مقابل بورجيا نجد الملك أوغسطس الذي كان عليه أن يوقع على عقوبة الإعدام. لكنه كان حساسًا وقلبه مليء بالحب والحنان. لذلك فقد أصدر عفوًا ملكيًا عن المذنب وأبطل ذلك القانون بنفسه.

عدل هذا الملك يوضح أنه حساس وحنون، لكن «بورجيا» كان يعاقب الناس لأنه طاغية متوحش. كما أنه نصب حكام محليين على أجزاء من مملكته بعد أن استوفوا شروط الحاكم الطاغية بالكامل. ثم بدأ يتودد للشعب وذلك بمعاقبة «دي أوركو» على قسوته !! وعندما يرتدي الطاغية قناع البراءة لا يظهر طغيانه جيدًا، وعندئذ يلجًا لظلم الناس بالتحايل على القانون.

وقد استخدم «بورجيا» هذه الطريقة المتحفظة إلى أن مات أبوه البابا. وبعدها بدأ في إبادة كل من جردهم من أملاكهم، وذلك حتى لا يستعين بهم البابا الجديد ضده.

انظروا إلى شلال الجرائم، فحتى يكون عنده مال ينفق منه، يسلب المال من أصحابه الحقيقيين، ثم يكون لزامًا عليه أن يبيدهم حتى يهنأ بالمال وهو آمن. هذا هو منطق الوحش في تعامله مع فرائسه من البشر.

كما أن بورجيا عندما أراد تسميم بعض الكرادلة، دعاهم لتناول العشاء مع كبيرهم، أبوه. لكن الكرادلة نجوا من المشروب المسمم الذي قدمه لهم الابن والأب، ومات منه «الاكسندر السادس». فهرب بورجيا إلى حياة تعيسة، فبئس أجر القتلة.

هذه هي الحكمة والبراعة والفضيلة التي لم يكل «مكيافيللي» أبدًا من الدفاع عنها. فلم يقم أي كاتب آخر بتمجيد بطل كتابه مثلما فعل «مكيافيللي» مع «بورجيا». وإن جاء هذا المدح في مجرد حاشية سفلية في كتاب أو صيغة مبالغة. لكنا امتدحنا «مكيافيللي» نفسه على رباطة جأشه وتحمله. لكن ذلك لم يحدث. بل حدث العكس تمامًا. فقد قدم لنا «مكيافيللي» سلسلة من التوصيات باتباع الطريقة التي يتبعها بطل الكتاب والسير على هداه !! إنه عمل شاق جدًا. وقد كان «مكيافيللي» شديد التكبر فامتدح ذلك الوحش البغيض لدرجة تجعل الشيطان نفسه يتقيأ، وهذا يبرر لنا برود «مكيافيللي» وكراهيته لبني البشر جميعًا.

الفصل الثامن

من يصلون إلى منصب الأمير باقتراف الجرائم

سأستمر في استخدم كلمات «مكيافيللي» نفسه وذلك في دحض ما يقوله. فماذا يمكنني أن أقول عنه أكثر مما وضعه هو بيده من قواعد لمن تزيد الجرائم من قوتهم؟ هذا هو عنوان هذا الفصل.

إن كان «مكيافيللي» يدرس الجريمة أو يتولى تدريس منهج الغدر في جامعة الخيانة، فلن يكون من المدهش أن يناقش أمورًا كهذه. لقد تحدث عن كل شيء. وهو يخاطب العالم أجمع بصفة عامة. كما أن «مكيافيللي» يقدم نفسه لأولئك الذين هم اكثر الناس ورعًا، لأن أقدارهم ساقتهم لحكم الشعوب. فأين يوجد ما هو مخز ومشين في هذا العالم أكثر مما قدمه لهم بتعليمهم الغدر والخيانة والقتل؟ لقد كان من الأفضل لشخصيات تلك الأمثلة التي ساقها «مكيافيللي» ألا يتحدث عنها حتى لا يدرك العالم فداحة أعمالهم الدنيئة.

إن حياة «أجاثوكل» و«أولفيتو» و«فيرمو» وتفاصيلها يمكن أن تنمي في الإنسان ميله لتحدي الأخلاق. وهذه جرثومة خطيرة يمكن أن تنمو بين من يجهلون الحق. فكم من الشباب فسدت أخلاقهم بعد قراءة قصص تحض على تحدي الأخلاق والفضيلة. هذه الطريقة من التعليم تنقل العدوى للشباب الصالح، إن جاز لي أن أستخدم هذا التشبيه. إنها مثل الفيروس الملعون الذي يتنقل من نفس إلى أخرى.

في مثل ذلك الكتاب، نقرأ عن الرجل الخارق الذي يكون -في العادة- ملكًا مغامرًا يستحق احترام شعبه القديم لشهامته، أو قد يكون البطل مشردًا خال من التحلي بأي فضائل فينغمس في الرذيلة. فالملك «تشارلز السابع» ملك السويد تغذى على صفات الإسكندر الأكبر منذ أن كان طفلاً بريئًا. وكثير من الناس يعلمون أنه خرب بولندا.

هل من الممكن لي أن أترك هذا المثال العظيم لأتحدث عما هو أقل منه؟ يبدو لي أننا عندما نناقش تاريخ الروح البشرية، وعندما تختفي الفوارق ما بين الدول، يصبح الملوك مجرد رجال، وكل الرجال متساوون. وهناك أحداث لا يمكن تفسيرها على أنها استجابة للمشاعر أو الأحاسيس، أو على أنها مجرد تعديل لأحوال النفس الإنسانية.

فقد لاحظت إنجلترا كلها ما حدث في لندن منذ عدة أعوام، حيث عُرضت مسرحية كوميدية ضعيفة بعنوان «اللصوص». وفيها يشارك الجمهور ويلعب دور المتسول، وكان موضوع المسرحية هو «الأخلاق المرنة» ووقاحة اللصوص. وقد تأكد الجمهور من ذلك عندما اكتشف كثير منهم أنهم قد سرقوا بالفعل وذلك عند خروجهم من العرض، فكثيرون يفقدون الخواتم والساعات وعلب «النشوق». وهكذا ظهر للمؤلف تلاميذ نفذوا ما تعلموه منه على أرض الواقع وبسرعة. ويبدو لي أن هذا يثبت بشكل كاف سهولة نقل المثل السيئ للآخرين.

أول ما فكر فيه «مكيافيللي» حول «أجاثوكل» و«فيرمو» هو ما جعلهما يتصدران المشهد في دولهما الصغيرة، وذلك بالرغم من قسوتهما. لكنه رأي أنهما كانا يقومان بكل ما يريدون فعله من جرائم مرة واحدة وذلك ليحقق كل منهما مصالحه مرة واحدة وينتهي الأمر.

كل ما تفعله هو أن تغتال من تشك فيه أو تقلق بشأنه، وكذلك من يعلنون أنهم أعداؤك، أو ظهر ذلك في سلوكهم. لكن لا تغالي في انتقامك، انتهي من الأمر بسرعة.

هكذا نجد أن «مكيافيللي» يوافق على أعمال تشبه أعمال المجرمين، إنها مذابح مخيفة تجعل الأشخاص العاديين يصابون بالغثيان. وهذا الوحش الآدمي لا ينكر الرعب والذعر الذي تسببه تلك الجرائم ومن يقوم بها. إلا أنه قال أن ذلك يمكن يتم خلال الشهر الأول من حكم الأمير بالتتابع وبسرعة واستمرار. فكلما كانت الفترة قصيرة كلما اختفت بسرعة من ذاكرة عامة الناس. إذن فـ«مكيافيللي» لا يعتبر أن قتل ألفًا من البشر في يوم واحد أمر مشين، كما أنه لا يعتبر أن توالي أعمال القتل في فترة قصيرة ليس أمرًا سيئًا.

لكن، ليس من السهل أن ندحض أخلاقيات «مكيافيللي» المرعبة قبل أن نثبت كذبه وخيانته.

أولاً: ما قاله «مكيافيللي» عن أن «أجاثوكل» عاش في سلام بسبب ثمار ما اقترف من جرائم ليس صحيحًا. فقد كان في حروب دائمة ضد قرطاج، وقد اضطر إلى التفريط في أفريقيا. وقد ذبح جيش قرطاج أبناءه بعد رحيله، كما أنه هو نفسه مات بكأس مسمومة طلب منه حفيده أن يتناولها. أما «دي فيرمو» فقد هلك بسبب خداع بورجيا، وبهذا نال أجره عما ما اقترف له من جرائم. كما أن الطريقة التي هلك بها هي تلك الطريقة التي يرى «مكيافيللي» أنها طريقة وقائية، فقد كانت مشكلة «دي فيرمو» هي كراهية الناس.

لم يذكر مؤلف كتاب «الأمير» هذه القصة كمثال لشخصية «دي فرمو» وذلك لأن النهاية بالنسبة له «لا تثبت أي شيء.» و«مكيافيللي» يريد أن تكون قصصه عن الجريمة منتهية بنهاية سعيدة لكل أبطالها. كما أنه يختلق الكثير من المبررات المثيرة لكل سياساته، ونحن ننتظر منه –عبثًا– أن يقدم لنا حوارًا يتفق مع عقولنا ومشاعرنا.

لكن، دعونا نفترض أن هذه الجرائم يمكن أن تتم بدون أي خطر وأن الطاغية سيفلت من العقوبة. وحتى إن كان لن يخشى الموت بطريقة مأساوية مماثلة، كما أنه لن يرى الاحتقار في عيون البشر مما يقلل من هيبته، إلا أنه لن يكون قادرًا على القضاء على ضميره الذي سيؤرق مضجعه. لن يستطيع إسكات ذلك الصوت القوي، كما لن يستطيع تجنب الحزن العميق الذي سوف يسيطر على مخيلته، هذا هو عذابه في الحياة الدنيا، والعين بالعين.

ونحن نقرأ سير كثير من الطغاة فنجد أنهم يتصفون بالحمق والغضب الدائم، كما أن حياتهم الدنيا تنتهي أسوأ نهاية. فالإنسان القاسي يكره البشر، وهو متقلب المزاج، فهو يتحول من الهدوء التام إلى الانفجار المفاجئ. فإن لم يحارب مثل ذلك الإنسان هذا التأنيب التعس الذي تلاحقه به نفسه وهو لا يزال شابًا، فلن يستطيع سوى أن يكون أحمقًا ومتوترًا دائمًا. لكن هناك أيضًا من يفوضون أمرهم لله، لكنهم يتعجلون العقاب في الدنيا ويكرهون تأجيله للآخرة. لكن لابد للناس أن تعلم أن للفضيلة فوائدها، وذلك لأن الفضائل هي السبب في اتحادهم وليست الحروب التي يشنها الجميع ضد الجميع. لذلك فمن الضروري حتمًا أن نحافظ على الفضائل، ونوضح أن الجرائم تنتج المحن والخراب فقط، وهي محن تطال المجرم ذاته. فهو آخر ضحايا جرائمه.

الفصل التاسع

الإمارات المدنية

لا يوجد شعور يمكن أن يسيطر على كيان الإنسان أكثر من رغبته في الحرية. فحب الحرية متغلغل في كل الشعوب بدءًا من تلك الشعوب الأكثر تحضرًا وانتهاء بالشعوب الأكثر بربرية، وذلك لأننا نولد أحرارًا ونحب الحياة بلا قيود. وهذه الروح التي تجعل الإنسان يشعر بالاستقلال والفخر هي ما أنتج العديد من العظام في العالم، وهم من سمح بقيام حكومات جمهورية، فهي تحقق نوعًا من المساواة بين الجميع. كما أنها تقربهم من الدولة الطبيعية.

وفي هذا الفصل يقدم «مكيافيللي» النصيحة لمن يحصل على أعلى السلطات بسبب انتخابات جمهورية. وهذه هي الحالة الوحيدة التي يمكن له فيها أن يكون أميرًا ورجلاً مخلصًا في نفس الوقت. لكن هذه الحالة لا تحدث تقريبًا أبدًا. فالروح الجمهورية تخشى فقدان حريتها، وتنظر بشك في كل من يمكنه أن ينتزعها منه -حتى إن كان هذا القلق زائفًا- بالثورة عليه. ونحن نعلم أن هناك شعوبًا في أوروبا تخلصت من عبوديتها للطغاة من أجل أن تستمتع بالاستقلال، إلا أننا لا نعلم أن أيًا من الدول الحرة سعت بإرادتها لتدخل تحت نير عبودية أحد الطغاة.

لكن العديد من الجمهوريات تقهقرت وعادت إلى الحكم المستبد، ويبدو أيضًا أن تلك المحن ضرورة حتمية تنتظر الجميع.

فكيف لجمهورية أن تقاوم -طوال الوقت- كل ما يقلل من حريتها؟ وكيف لها أن تطمح في الأمير المرتقب الذي يجب عليها أن تدعمه؟ وكيف لها أن تتحمل إغراءات المغتصبين ومحاولات الفاسدين طالما أن حب الذات قوي جدًا عند بعض الناس؟ وكيف لها أن تأمل في الفوز أو حتى الخروج من المحن مرفوعة الرأس بعد حروب فرضت عليها؟ وكيف يمكنها منع المواقف الاقتصادية شديدة الصعوبة التي ستصاحب حصولها على حريتها؟

وأغلب الجمهوريات تنشأ من رحم الطغيان، وتصل إلى قمة الحرية، وبعد أن تفقدها مرة أخرى، يتذكر الجميع تقريبًا حريتهم السابقة وهم يرزحون تحت نير العبودية. فأهل

أثينا الذين تمكنوا من الإطاحة بـ«فيليب المقدوني»، استسلموا أمام الاسكندر. كما أن الرومان الذين كرهوا الملكية بعد طرد الملوك، اضطروا للصبر -خلال القرون الأخيرة- على كل أنواع القسوة التي عاملهم بها الأباطرة. كما أن الإنجليز الذين طردوا «تشارلز الأول» فلقي حتفه كمدًا، وذلك لأنه تعدى على حقوقهم، تنازلوا عن بعض من شجاعتهم أمام قوة سادتهم الجدد. هذه إذن ليست قصص الجمهوريات التي اختارت قادتها بحرية، ولكنها قصص نوع جديد من الطغاة الذين ساعدتهم الظروف الاقتصادية فسيطروا على الشعوب رغم إرادتهم.

وكما أن الناس تولد وتعيش لفترة ثم تموت إما بسبب المرض أو كبر السن، فإن الجمهوريات تتكون بنفس الطريقة. وهي تنتعش لعدة قرون وتنتهي بسبب جرأة أحد المواطنين أو بقوة سلاح الأعداء. وكل منها تعيش حياتها كاملة، إلا أن الممالك الكبيرة عمرها أطول. كما أن الجمهوريات تشعر دائمًا أن وقت نهايتها يقترب، فيبحثون عن عائلة قوية جدًا، حتى تكون ذلك المصارع الذي سيوجه الضربة القاضية للنظام الجمهوري.

لكني لن أوصي الجمهوريين -الأحرار فعلاً- بعدم الاعتماد على سيد. أعني أفضل السادة، وذلك لأنهم سيقولون لك أنه من الأفضل أن نعتمد على القانون من أن نعتمد على إنسان قد يضلله هواه.

الفصل العاشر

ضرورة قياس قوة كافة الممالك

منذ ذلك الوقت الذي كتب فيه «مكيافيللي» كتابه السياسي «الأمير»، تغير العالم إلى أبعد حد لدرجة ممكنة، لذلك فلا يمكن لأي ممن عاشوا في ذلك العصر أن يلاحظ هذا التغيير. وإن افترضنا أن أي نقيب ماهر في جيش لويس الثاني عشر جاء الآن إلى عصرنا هذا فسوف يشعر بارتباك شديد. سيرى أن الحروب من الممكن أن تقوم بأعداد لا يمكنه حصرها، وكلها موجودة في وقت الحرب وفي وقت السلام. أما في الوقت الذي عاش هو فيه، كانت القوات تقوم بحروب خاطفة وتنفذ حملات كبرى وذلك بعد استدعاءها، وبعد انتهاء المهمة تسرح الجنود ويعود كل منهم إلى حياته المدنية

السابقة. وبدلاً من البدلة الحديدية والرمح والمدفع المتحرك على عجلات، يجد الجندي الآن الزي العسكري الخفيف المناسب والبندقية والحربة، وذلك بالإضافة إلى العديد من الطرق الحديثة للمحاصرة والقتال ونقل المهمات الضرورية لدعم هذه الطرق الجديدة. وهذا الأمر الأخير مهم الآن جدًا -كما كان في السابق- في تحقيق النصر على العدو. ومثل ذلك النقيب سيفاجئ بكم المعارف الهائلة التي لا يعلم عنها أي شيء.

وماذا لو أن «مكيافيللي» نفسه رأي الوضع السياسي الحالي في أوروبا، بما في ذلك العدد الكبير جدًا من الأمراء الموجودون الآن في العالم والذين لم يكن لهم وجود في العصر الذي عاش هو فيه؟ وماذا لو رأى قوة الملوك الشديدة الحالية والطرق الجديدة في التعامل الدبلوماسي وتوازن القوى الذي تقوم عليه التحالفات بين الأمراء بغرض مواجهة أي طموح، وهو أمر مقبول ومعترف به عالميًا؟

كل تلك الأشياء خلقت تغيرًا جديدًا عامًا وعالميًا، وهذا جعل أغلب آراء «مكيافيللي» غير قابلة للتطبيق في السياسة الحديثة. وهذا هو ما يوضحه هذا الفصل. وسأسرد الآن بعض الأمثلة على ذلك.

يفترض «مكيافيللي» أن الأمير الذي يحكم دولة شاسعة، وغنية بالمال والقوات، يمكن أن تحميها قواتها الوطنية من هجمات الأعداء، ودون دعم من أي دولة حليفة.

وهذا هو ما لا أوافقه عليه وأضيف أن الأمير -حتى وإن كان مهابًا- لا يستطيع مقاومة عدو واحد على الأقل من أعدائه وأن عليه أن يتلقى العون من بعض الحلفاء. فإن كان أقوى وأكبر أمير في أوروبا وهو «لويس الرابع عشر» قد وجد نفسه يقترب من الاستسلام في حرب توارث العرش الأسباني، وأن أي تغيير كان من الممكن أن يضيف إلى قوته ويجعله يتفوق على عدوه، لكان ذلك العاهل -«ملك الشمس» الذي أعلن من قبل أنه هو نفسه «الأمة الفرنسية»- قد سارع إلى التباحث حول عقد معاهدة تحالف سريع جدًا.

ويقول أحدهم -وهذا يتكرر كثيرًا دون تفكير- أن المعاهدات لا فائدة من ورائها، وذلك لأنه لا يتم احترام كل بنود المعاهدة، كما أن الأمراء لا يتشككون في أي أمر أكثر من شكهم في تلك المعاهدات. وأرد عليه بقولي إنني لا أشك أنه يمكننا أن نجد أمثلة قديمة وحديثة لأمراء لم يلتزموا بالمعاهدات التي عقدوها، لكن ذلك لم يغير من حقيقة أن عقد المعاهدات مفيد جدًا دائمًا. فالتحالفات نعقدها مع من كان من الممكن أن يكون عدوًا لك، لكن المعاهدة أبعدتهم عن ذلك الوضع، كما أنه يمكنك أن تقلل التزاماتك في المعاهدة إلى ما يقترب من الحياد.

ثم تحدث «مكيافيللي» بعد ذلك عن الممالك الصغيرة، أي الدول صغيرة المساحة، والتي لا يمكنها أن تجمع جيشًا للحرب. وقد ركز كثيرًا على ما يمكن أن يفعلوه لحماية عاصمتهم وذلك حتى يتحصنوا فيها ومعهم قواتهم في وقت الحرب.

أمراء إيطاليا الذين يتحدث عنهم «مكيافيللي» مخنثون: أنصاف ملوك وأنصاف مواطنين عاديين. وهم لا يلعبون دور الملك العظيم سوى أمام خدمهم. والنصيحة الأفضل لهم هي –على ما أظن– أن يتوقفوا عن التفكير في عظمة ملكهم والتحيز لكفاءة جيوشهم. فالشخص الحكيم يعلم أن من الأفضل أن يظهر أمام العالم كحاكم جيد دون تشدد، وأن يتخلى عن التكبر. كما أنه يحتفظ بحارس واحد عند قلعته فهو كاف لإفزاع اللصوص. أما في حالة الفقر الشديد الذي يدفع بعض الرعايا إلى الاتجاه نحو قصر الحاكم بحثًا عن طعام أو صدقة، فعليهم إقامة الأسوار العالية، فهذا يساعد على الظهور بمظهر العظمة أيضًا أمام المقيمين في المدينة.

وفيما يلي بعض أسباب ذلك. أغلب الأمراء الصغار –أعني أمراء ألمانيا– أفسدهم الإسراف والإنفاق الذي لا يتناسب مع دخولهم، وذلك لأن أفكارهم المسممة لا تدرك حجمهم وقوتهم الحقيقية، إنهم يتجاوزون ما معهم من مال للإبقاء على عظمتهم وبيوتهم العريقة، وهم بذلك قد ساروا في طريق الفقر والاستسلام للإفلاس. ولا يوجد واحد من هؤلاء الأمراء الشباب لا يظن أنه عظيم مثل لويس الرابع عشر. فيبني لنفسه قصرًا مثل قصر «فرساي» ويجمع حوله النساء، ويحتفظ بالجيوش.

ويوجد حاليًا أمير محدد، وهو أحد أقرباء عائلة نبيلة، وهو لديه جيش كاف لخدمة ملك كبير، إلا أنه يحكم دولة صغيرة جدًا لدرجة أنني أسأل نفسي عما إذ كان بعضهم يمكنهم العمل في دولة مجاورة !!

كما أنني أقول أن كل الأمراء الصغار يرغبون في تقوية مقار أقامتهم، والسبب في ذلك بسيط جدًا: إنهم لا يريدون أن يكونوا محاصرون بجارة كبيرة. فالقوي يعتاد التدخل في شئون الضعيف، وعادة ما يكون ذاك بنية حسنة، إلا أنه يمكنه أن يقدم عرضًا لشريكه الصغير الذي لا يستطيع أن يرفض. وبدلاً من إراقة الدماء، يمكن لتوقيعين بالقلم أن ينهيا الخلاف بينهما.

فما هو الغرض الذي يستخدم فيه الأمير الصغير الحصون سوى حمايته الشخصية؟ على الرغم من الحكم السابق، فإن أيًا منهم لا يمكنه إلا أن يقف على الحياد أو تدمر

بلاده بالكامل إن قامت حرب كبرى في دولة مجاورة. فإن تحالف الأمير مع إحدى الدول المتحاربة، فإن عاصمته تتحول إلى نقطة عسكرية.

والوصف الذي يقدمه لنا «مكيافيللي» للمدن الإمبراطورية في شرق ألمانيا يختلف تمامًا عما نراه اليوم. فكانت كلمة واحدة من الإمبراطور كافية لتفجير الموقف وتمتلئ هذه المدن بالجيوش. فكلها مدن سيئة التحصين، وأغلبها ذات أسوار قديمة بها أبراج في بعض الأماكن، كما أنها محاطة بخنادق سدتها انهيارات أرضية بالكامل تقريبًا. كما أن بها قوات قليلة، وهي قوات سيئة التنظيم. وعادة ما يكونون ضباطًا من المنبوذين الألمان أو من كبار السن الذين لم يعد لهم أي فائدة تذكر. وبعض المدن الإمبراطورية لديها مدفعية جيدة نوعًا ما، إلا أنها غير كافية لمعارضة الإمبراطور الذي اعتاد تعمد إشعارهم بالضعف. وباختصار، فإن قيام حرب وخوض المعارك والهجوم على القلاع أو الدفاع عنها هي أعمال تقوم بها الممالك الكبرى فقط، ومن يحاول تقليدها دون أن يمتلك القوة المماثلة يشبه من يقلد صوت الرعد ويعتقد أنه عاصفة.

الفصل الحادي عشر

الإمارات الكنسية

لا أرى أي معارك في التاريخ القديم للقسس الذين أصبحوا ملوكًا. ويبدو لي أنه من بين كل الشعوب التي نعرفها –مهما كانت شعوبًا صغيرة– لا يوجد سوى اليهود الذين تتابع على حكمهم كبار كهنتهم المستبدون. فليس من المدهش إذن أن يغتصب رأس الكنيسة حكم الدولة في الدول شديدة البطش فقط. لكن، في أي مكان آخر يبدو لي أن الكهنة تدخلوا في أمور الحكم. فقدموا التضحيات وتلقوا الأجور وبعض الامتيازات، إلا أنهم لم يحكموا أو يسيطروا أبدًا. وهذا –بحسب اعتقادي– لأنهم لم تكن عندهم أي نية لزرع الفرقة بين أفراد الشعب، كما أنهم ليس لديهم القدرة على التغيير. ولم يصلوا بالأمر أبدًا إلى الاقتراب من حرب دينية.

عند انهيار الدولة الرومانية تحولت أوروبا إلى فوضى بربرية. وقد تفككت الدول وأصبح هناك ألف مملكة. فتحول الكثير من الأساقفة إلى أمراء. ومثال ذلك أسقف

روما. ويبدو أن الشعب قد عاش سعيدًا في ظل حكومات تلك الممالك الدينية. وذلك لأن الأمراء الذين اختارهم الشعب فوصلوا إلى الحكم في عصر الاستنارة –وهم ذوي قدرات محدودة مثلهم في ذلك مثل الكهنة- تقيدوا بمعاملة الرعايا بلطف إن لم يكن لأسباب دينية فسيكون لأسباب سياسية على أقل تقدير.

لكن من المؤكد –على أي حال- أنه لا توجد دول تشهد تسولاً مثلما يحدث في الدول التي يتزعمها الكهنة. ففي هذه الدول يمكننا رؤية كل المآسي الإنسانية، وهي لا تقتصر فقط على الفقراء الذين تجذبهم صدقات الأمراء ولا على هؤلاء المكروهين الذين يلتصقون بالأغنياء أو يطاردون الثروات، لكن هناك أيضًا الجوعى والمحرومين الذين لم تقدم لهم زكاة المملكة القوت الضروري وذلك لمنع الفساد والإساءة إلى الشعب وهي أمور لا يشعر الشعب بها في أوقات الرخاء.

ومما لا شك فيه أن قوانين إسبرطة –التي تدافع عن المال- هي المصدر الذي قامت عليه حكومات أغلب تلك الدول الدينية، وذلك باختلاف واحد فقط: وهي أن الضريبة التي يفرضها الأساقفة على الثروات الخاصة تصاعدية. وهم يقولون إن الفقراء سعداء، وذلك لأنهم سيرثون مملكة في الجنة، ولأنهم يريدون النجاة للجميع، فهم يحرصون على بقاء الجميع فقراء.

وليس هناك ما يفيدنا أكثر من تاريخ رؤوس الكنيسة وأتباع المسيح، وقد يعتقد البعض أن فيه ما يخبرنا بأمثلة منهم لا عيب فيها. لكن الوضع عكسي تمامًا، فكل ما هناك هو الفحش والأمور البغيضة، بل إنه مصدر للفضائح، ولا يمكننا قراءة تاريخ الباباوات دون أن نكره ما حدث منهم من بطش وخيانة أكثر من مرة.

ويمكننا أن نرى في ذلك التاريخ أن الطموحات المقدسة لهؤلاء الباباوات كانت تستخدم لزيادة قوتهم الروحية المؤقتة، ونهمهم في الاحتفاظ بخيرات الشعب لأسرهم حتى يصبح أبناء عمومتهم من الأغنياء، وكذلك خليلاتهم أو أبناء الزنا الذين تقول القوانين الدينية إنهم ليس لهم حق في ذلك.

أما المتسرعون فسوف يندهشون من معاناة الشعوب من قمع ملوكهم ومن صبرهم واستسلامهم، حتى إنهم لا يتحدثون عما هو واضح للعيان في الإمارات للكنسية، كما أنهم يتحملون من الحكام غير الملتحين ما لم يلاقوه على أيدي الحكام الدينيين المكللين

بالزهور. إلا أن هذه الظاهرة تبدو أقل غرابة عند من يعلم بتأثير الخرافات على الشخص العادي، وكذلك تأثير التعصب على الروح البشرية. فهم يعرفون أن الدين آلة قديمة لن تختفي أبدًا. إنها أداة مستخدمة منذ الأزل لضمان ولاء الشعب وكبح الاندفاع الفطري عند العقل البشري. وهم يعرفون أن قائمة الأخطاء المذكورة في اللاهوت يمكن أن تجعل عقل الإنسان أكثر ذكاء من مواجهتنا جميعًا بسياسة الجنة والنار أي الله أو الشيطان. فهذا ما يجب أن نفكر فيه عندما نقوم بأعمالنا. وهكذا أصبح من الواضح أن الدين –الذي هو مصدر لكل الخير في حياتنا- قد تحول بسبب من يسيئون استخدامه إلى مصدر تنطلق منه كل شرورنا.

وقد لاحظ مؤلف كتاب «الأمير» –بغيرته الشديدة- ما ساهم بشدة في صعود الأمراء الدينيين. وقد قدم مثالاً رئيسيًا لذلك وهو السيطرة الماهرة التي مارسها «ألكسندر السادس». هذا الأسقف الذي ذهب بالقسوة والطموح الجامح إلى أبعد مدى ممكن. وكان كل ما يعرفه عن العدل هو أنه كل ما يحقق مصالحه في صمت. وإن كان صحيحًا أنه أحد معدومي الضمير الذين ارتدوا العمامة، إلا أنه هو من دعم القوة البابوية الزائلة إلى أبعد مدى. إذن فماذا نرجو من وراء أبطال «مكيافيللي» ؟

وقد أنهى «مكيافيللي» هذا الفصل بمديح «ليو العاشر» الذي وصل إلى عنان السماء. ومن المعروف عن هذا البابا أنه اتصف بالطموح والرذائل وعدم التدين. لكن «مكيافيللي» لم يتمدح «ليو» بسبب هذه الصفات التي ذكرناها وإنما تملقه، فمثل أولئك الحكام يستحقون مثل أولئك المتملقين. وإن كان «مكيافيللي» قد امتدح «ليو العاشر» لأنه كان أميرًا شهيرًا ومحبًا للفنون لكان ذلك مقبولا، إلا أن «مكيافيللي» امتدح سياسته !!

الفصل الثاني عشر

ما الذي يجعل القوات المسلحة قوية؟ وما قيمة القوات المرتزقة ؟

كل شيء في هذا العالم متنوع. فشخصيات الرجال تختلف، والطبيعة نفسها تدعم هذا الاختلاف. فإن كنت سأعبر عن نفسي بهذه الطريقة عند الحديث عن الدول، فإني أعلم أن أحوال الدول تعتمد على موقفها ومساحتها وعدد أفراد شعبها وعاداتهم وتجارتهم وتقاليدهم وقوانينهم ومواطن القوة والضعف عندهم وثرواتهم ومواردهم.

وهذه الفوارق بين الدول دقيقة جدًا. كما أنها متناهية الصغر. فعندما نبحث في كل التفاصيل -مثلما يفعل الطبيب الذي لا يملك جرعة من الدواء الشافي لكل الأمراض- نجد أن تلك التعقيدات والمجالس وفنون الحكم لا يمكنها أن تضع قواعد عامة يمكن تطبيقها في جميع أشكال الحكم. وذلك لأنها لابد أن تواجه اعتراضات لا يمكنها تجاوزها.

وهذا التفكير يقودنا إلى دراسة مشاعر «مكيافيللي» حول القوات الأجنبية والقوات المرتزقة. فهو يرفض تمامًا استخدامها القوات المرتزقة، وذلك بالاعتماد على أمثلة يدعي أنها تثبت أن هذه القوات قد أضرت بالدول التي استخدمتها، وأنها لم يكن لها أي ميزة.

ومن المؤكد —وأمثلة «مكيافيللي» توضح ذلك- أن أفضل قوات تستخدمها أي دولة هي تلك القوات النظامية. ويؤكد هذا الكلام النمو السريع لكل من الإمبراطورية الرومانية والدولة العربية. وهذه الطريقة التي يوصي به «مكيافيللي» تصلح لكل الأمم الغنية، حيث تملك ما يكفي من مال للاحتفاظ بجيش مخلص للعلم من أجل الدفاع عنها. وأنا اتفق مع «مكيافيللي» أن الجنود الوطنيين أكثر شجاعة وإخلاصًا للوطن من القوات المستأجرة. وأخطر ما يواجه الدولة هو أن تترك رعاياها فاتري الهمة مما يجعل أولئك الذين كان يجب أن يكونوا محاربين عظامًا يتخنثون من كثرة النعم التي تنخر العقائد. وهذه اللامبالاة بكيفية المشاركة في الحروب والجهل بمبادئ العسكرية تجعل الدول المجاورة أكثر سعادة وودًا.

ولابد أن القارئ قد لاحظ أن الدولة التي ولدت خلال حرب أهلية لها من القوة ما تتفوق به على أي دولة معادية مماثلة لها في المساحة، وذلك لأن كل مواطنيها كانوا جنودًا في تلك الحرب، وهكذا يمكن تنمية كل الصفات المكتسبة خلال الحرب وكل المواهب الحربية. وهذه هي أعظم الصفات الحربية، وكل من مر بها يتحلى بعد ذلك بمزيد من المهارات والشجاعة.

وهناك حالات استثنائية تخرج عن هذه القاعدة. كأن تكون الممالك أو الإمبراطوريات لا تملك ما يكفي من الرجال للوفاء باحتياجات الجيش. وإن كانت الحرب دائمة فإن ذلك يؤدي بهم إلى اللجوء إلى القوات المرتزقة، وذلك باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتعويض ذلك النقص.

علينا إذن بعد ذلك أن نتلافى ما يسبب الصعوبات، وهي صعوبات يعتبرها «مكيافيللي» جزءًا من مساوئ تلك القوات. لذلك لابد من دمج القوات الأجنبية بعناية مع القوات الوطنية وذلك لمنعها من تكوين وحدات حمراء. كما يجب التعامل معهم بنفس النظام والدقة، مع ضرورة التأكد من أن عدد الجنود الأجانب لا يتجاوز عدد الجنود الوطنيين داخل الوحدة الواحدة.

وهناك ملك من الشمال، قام بخلط الجنود في جيشه بهذه الطريقة، ولم يكن جيشه أقل قوة أو أقل ضخامة. وكل جيوش الدول الأوروبية تتكون من قوات وطنية وقوات مرتزقة. وكل من يزرعون الأرض ومن يعيشون في المدن يدفعون الضرائب من أجل الاحتفاظ بقوات تدافع عنهم، فهم لا يذهبون للحرب بأنفسهم كما كان الأمر في الماضي. والجنود المنتظمون يجمعون من الطبقات الدنيا للشعب، من هؤلاء الذين يفضلون البطالة على العمل ومن المتاجرين في الرذيلة الذين يسعون للإفلات من العقوبة من خلال الانضمام للجيش، كما أنه يتكون أيضًا من الشباب مشتت الفكر المتصف بالتمرد على والديه حيث يسجلون أسماءهم بين المتطوعين أثناء نزوة طيش. وكل هؤلاء لديهم ولاء محدود لرؤسائهم في الجيش مثل الأجانب تمامًا. فهل هذه القوات تختلف عن القوات الرومانية التي فتحت العالم؟ إن كان الفرار من الجيش معروفًا الآن في كل الجيوش، فإنه كان ظاهرة غير معروفة إطلاقًا في جيوش الرومان. إنهم رجال حاربوا دفاعًا عن أسرهم ووطنهم، إنها الطبقة الرومانية الوسطى. وعلى الرغم من كل متع الحياة التي كانوا يعيشونها إلا أنهم لم ينساقوا وراء دعوة أي جبان للهرب من الجيش.

فبماذا يؤمن أمراء أوروبا الكبار، هل هي القوات المتساوية والتي لا تزيد فيها أعداد

الوطنيين عن أعداد غير الوطنيين؟ وذلك فيما عدا الجيش السويسري الذي يتكون من أبناء الطبقة الوسطى والجنود النظاميين في نفس الوقت. ففي حالة الحرب لا يظل أحد منهم داخل البلاد يحرث الأرض. لذلك لم يكن جيشًا هائلاً على الإطلاق، وذلك لأنهم لا يستطيعون مواصلة الحرب لفترة طويلة دون أن يدمروا أنفسهم أكثر مما يمكن أن يفعله عدوهم.

هذا فيما يخص القوات المستأجرة. وفيما يخص الطريقة التي يدخلون بها الحرب، فإني أتفق مع «مكيافيللي». فالأمير الكبير يجب أن يسيطر على قواته، وعليه أن يقيم بين تلك القوات وترتبط بها مصالحه وواجباته وعظمته وكل ما له علاقة بحياته. وبما أنه رأس العدالة، فإنه أيضًا كبير الشعب والمدافع عنه. وعليه أن يتعامل مع الدفاع عن رعاياه على اعتبار أنه أهم مهماته التي لا يجب أن يأتمن أحد عليها سوى نفسه فقط.

كما يتضح أن من بين مهام الأمير أيضًا ضرورة أن يذهب إلى أرض القتال مع جيشه، فهناك حاجة إليه هناك. وذلك حتى تتم استشارته وتنفيذ أوامره بأقصى سرعة ممكنة. كما أن وجوده يضع حدًا لأي خلاف ينشأ بين جنرالاته، وهذا أمر مدمر للجيش ومخالف لمصالح العاهل الكبير. كما أن ذلك الوضع يسمح للأمير بالوقوف على حالة المؤن والذخيرة والإمدادات الحربية، وبدون ذلك لا يمكن لأي قائد حربي عظيم على رأس جيش مكون من مائة ألف مقاتل أن يفعل أي شيء، حتى لو كان «يوليوس قيصر» نفسه.

وبما أن الأمير هو من يبدأ المعركة، يبدو أنه هو من يوجه نهايتها أيضًا. كما أن وجوده ينقل روح الشجاعة والثقة إلى قواته، حيث أنه هناك على رأس القوات ليقدم لهم القدوة الحسنة.

لكن من الممكن أن نقول إن الإنسان لا يولد محاربًا. وكثير من الأمراء لا يملكون تلك الموهبة، وأن الخبرة هي ما يلزم لقيادة الجيش وليست الشجاعة. وهذا صحيح وأنا أعترف به، لكن هذا الاعتراض لا يربكني كثيرًا، لأنه من الممكن الاستماع إلى مشورة جنرالات الجيش، فهم على استعداد دائم لتقديم أفضل النصائح. وما على الأمير سوى الأخذ بالنصيحة. وسوف تسير الحرب نفسها إلى الأفضل مما إذا كان الجنرالات أنفسهم تحت إشراف وزارة لا تفهم في أمور الجيش، ويمكن أن يكون للعاملين فيها أغراض خاصة تجعلهم عادة يضعون أمهر الجنرالات خارج اللعبة للحفاظ على مصالحهم الشخصية.

وسوف أنتهي من هذا الفصل بعد أن أكون قد ناقشت جملتين لـ«مكيافيللي»، وهما:

«لقد وجد أهل البندقية في « كارمينولا» القائد الأكثر شجاعة، فتحت قيادته تمكنوا لأول مرة من دوق ميلانو. إلا أنهم عندما وجدوا منه تخاذلاً عن استمرار الحرب، فكروا في الأمر وقرروا أنه لن يحرز أي انتصارات تالية. وذلك لأنهم خشوا أن يفقدوا ما اكتسبوه، كما أنهم كانوا غير قادرين على طرده، فاضطروا لقتله.»

وعلى أن أعترف بأنني لا أملك القدرة على فهم لماذا يُقدم القادة على قتل أحد جنرالاتهم السابقين الجيدين وهو لا يستحق القتل بالسم ولا الاغتيال. إلا أننا نرى أن أستاذ الجريمة قد درس كيف يمكن أن يغسل الكلمات من أجل ارتكاب جرائم فتبدو كأعمال بريئة عن طريق استخدام المصطلحات المخففة.

وقد اعتاد اليونانيون استخدام الجمل الرمزية عند الحديث عن الموت، وذلك لأنهم لا يمكنهم المواجهة دون الشعور بالرعب والخوف من ملوكهم. وبالمثل فإن «مكيافيللي» يستخدم الكلمات المخففة للتعبير عن الجرائم، ويبدو أن قلبه ثار على روحه. لكنه لا يملك شجاعة الحديث عن الأشياء بمسمياتها الحقيقية، وذلك أيضًا حتى يصبح ما يوصي به من الممكن أن يذكر في كتاب.

وهذا أدى بالطبع إلى موقف محزن يجعل الوجوه تحمر خجلاً عند قراءة ما يتعارض مع فكرها ومشاعرها الحقيقية، وذلك لأنها كشفت القناع عن هذه الأفكار التي جردت المجرمين من ملابسهم أمام الناس.

الفصل الثالث عشر

القوات المعاونة والمختلطة والنظامية

يواصل «مكيافيللي» مبالغاته ويصل إلى أقصى حد ممكن عندما أوصى بأنه من الأفضل للأمير الحريص أن يهلك مع قواته على أن ينتصر بمساعدة أجنبية.

وأنا أعتقد أن من يتعرض للهلاك ويقترب من الموت لن يستمع إلى من يقولون له إنه ليس من المفيد له أن يكون مدينًا بحياته للآخرين، وأن الهلاك أفضل من حبل ألقاه إليه من يريدون إنقاذه. والتفكير في هذا الأمر يوضح لنا أن أهم أولويات الإنسان هي الحفاظ

على حياته، يلي ذلك الحرص على الحياة الطيبة وهذا يتعارض تمامًا مع ما يقوله مؤلف الكتاب.

وبمزيد من التفكير فيما يقوله «مكيافيللي» ربما نتوصل إلى أن الغيرة الشديدة كافية لتحفيز الأمراء: إنها غيرة أولئك الأمراء من جنرالاتهم أو قواتهم المعاونة وهذا ما يجعلهم يتبرمون ويخافون ممن يشاركهم العظمة، وهم يرون أن ذلك تحيزًا ضد مصالحهم. ولهذا السبب خسروا عددًا لا نهائيًا من المعارك. كما أن المشكلات الصغيرة من هذا النوع قد أدت بالأمراء في العادة إلى أوضاع أسوأ مما يمكن لأعدائهم تحقيقه.

وعلى الأمير –بلا شك– ألا يقوم بحرب يستخدم فيها القوات المعاونة فقط، بل لابد له هو نفسه أن يكون معاونًا، وأن يكون في موقف يسمح له بالعطاء وليس بالأخذ فقط. وفيما يلي ما يمليه عليه التعقل والحصافة: أن يكون في موضع لا يخشى فيه على نفسه لا من أصدقائه ولا من الأعداء. وعندما يوقع على معاهدة يحترم كلمته. وذلك لأنه كلما كانت الإمبراطورية والأمير ملتزمون كلما كان أفضل بالطبع. فقد كانت كل من إنجلترا وهولندا في تحالف ضد لويس الرابع عشر، إلا أنه في اللحظة التي تخلت فيها إنجلترا عن ذلك التحالف تمكن لويس الرابع عشر من التغلب عليهما.

أما القوى التي يمكنها أن تدبر أمورها دون قوات معاونة أو قوات مختلطة، فعليها ألا تستخدمها في جيوشها. وربما قليل من أمراء أوروبا في هذا الموقف الآن، فإنني أعتقد أنهم لن يغامروا باستخدام القوات المعاونة طالما أن عدد القوات الوطنية كاف.

لكن «مكيافيللي» يكتب للأمراء الصغار فقط، وأنا أعترف أنني لم أقرأ له إلا تلك الأفكار الصغيرة، تلك الأفكار التي لا تحتوى على أي شيء عظيم أو حقيقي، وذلك لأنه ليس رجلاً مخلصًا.

من يحارب بمفرده فقط ضعيف، أما من يحارب بالاشتراك مع الآخرين فهو قوي.

في حرب عام **1701**م، كان التحالف ضد فرنسا يضم ثلاثة ملوك محيطين بفرنسا من الشمال. وقد جردوا «تشارلز الثاني عشر» من جزء من دولته. وكانت حربًا مشتركة تجمع قوات من دول مختلفة، اتحدت جميعها بسبب ذلك التحالف. وفي حرب عام **1734**م التي بدأتها فرنسا بحجة دعم حقوق ملك بولندا الذي تم اختياره ثم عزله، قامت بها قوات فرنسية وإسبانية مشتركة. فماذا يتبقى من «مكيافيللي» بعد أن قدمنا كل هذه الأمثلة.

وهذا الذي قدمه لنا «مكيافيللي» يرجع إلى خطأ في الحكم. ولكن دعونا نفحص الناحية

الأخلاقية. فالأمثلة السيئة التي يقدمها «مكيافيللي» للأمير تشبه الإساءة إلى النفس. فهو يدعي في هذا الفصل أن «هيرو» كان يعتقد أن القوات المعاونة شديدة الخطورة سواء احتفظنا بها أم تخلينا عنها، فقام بتشتيتها. وسوف يكتشف القارئ طريقة مماثلة عندما يقرأ كتب التاريخ، وسيحزن عندما يكتشف ما تم اقتباسه من التاريخ ليوضع في كتاب خصص لتوجيه الأمراء.

الفصل الرابع عشر

واجبات الأمير في حالة الحرب

هناك أنواع من المعلمين لكل الحرف، وكلهم يتمرس في إنهاك من يقوم بتدريبه. وبينما يصبح الجندي معلمًا عندما يدقق بشدة، إلا أنه عندما يتحرر تمامًا من كل الروتين يصبح «دون كيشوت[1]».

وفي هذا الفصل يُعرض «مكيافيللي» الأمير لسخافات. فهو يبالغ في الأمر، وذلك لأنه يريد لأميره ألا يكون جنديًا بل يحوله إلى بطل من الطراز الأول-فهو لا يملك خيال تصور ساحات الحرب بما فيها من خنادق وطرق لحراسة الأماكن وصف الجنود وتكليفهم بالهجوم.

فالأمير يقوم بنصف مهامه فقط إن هو تخصص في أعمال الحرب فقط. ومن الواضح أن كون الأمير محاربًا فقط أمر زائف، وربما تتذكرون ما قلته عن الأمراء في الفصل الأول من هذا الكتاب. فهم قضاة الهيئات المختلفة، وإن كانوا حكامًا للعامة فذلك ما هو إلا أحد مسئولياتهم. والأمير عند «مكيافيللي» قوي وعنيف جدًا، لكنه لا يكون متوازنًا أبدًا. فهذا المؤلف لا يدرك معنى العدالة، فهو لا يعرف سوى المصالح الشخصية والعنف.

وهذا المؤلف لا يقدم سوى الأفكار الصغيرة، كما أنه لا يرتاح إلا عندما يتناول موضوعات مناسبة للأمراء الصغار. ولا يوجد ما هو أضعف مما يسوقه من أسباب نصيحته للأمراء بالخروج للصيد. فهو يرى أن هذه الطريقة تعلم الأمراء بكل ما في بلادهم من ممرات وطرق.

---

(1) بطل رواية شهيرة للأديب الإسباني "ميجيل دي سيربانتس"، ونشرت على جزئين في عامي 1605و1615م. (المترجم)

فإن كان ملك فرنسا أو إمبراطور كبير يريد أن يتعرف على دولته بهذه الطريقة العجيبة، فسوف يقضي وقتًا طويلاً جدًا في الصيد قبل أن ينتهي من مهمته، وذلك لأن الكون تتغير معالمه من وقت لآخر.

وهذه الفكرة تجعلني أدخل في تفاصيل أكثر حول ما يحدث أثناء مطاردات الصيد. وقد يبدو أن ما أقوله هو نوع من الاستطراد. لكن لأن الصيد هو المتعة المحببة لطبقة النبلاء والسادة والملوك وخاصة في ألمانيا، لذلك يبدو لي أن الصيد أمر يستحق المناقشة.

فالصيد هو أحد المتع الحسية التي تحرك الجسم لكنها لا تتعامل مع الروح. إنها الرغبة الجامحة في مطاردة الحيوان والشعور بالرضا التام عند قتله. وهذا الترفيه ينشط الجسم وينعشه، لكنه يترك الروح في أرض قاحلة دون زاد.

وسوف يلومني الصيادون دون شك ويقولون أنني أتحدث عن تلك الأشياء بجدية، وذلك لكي أكون ناقدًا حادًا أو أن أتشبه بالوزير الذي يقول ما يريد ولا يستمع لأي شخص آخر يناقض رأيه لمجرد أنه صاحب الحق في التحدث أمام العامة.

لذلك فإنني لن أستمر طويلاً في الحديث عن الصيد. لكني سأناقش -بنية حسنة- ما يقوله خبراء الصيد عندما يُسألون عن ذلك. يقولون إن الصيد هو أجمل المتع التي يحبها النبلاء. كما أن الصيد من أهم الرياضات التقليدية التي يفضلها البطاركة وكثير من عظام الناس. كما أنه أثناء المطاردة يظل الصياد متتبعًا الحيوان كما لو كان قدره الذي بعثه الله إليه.

وأرد على ذلك بالقول أنه ليس كل ما هو محبوب أفضل للبشر على أي حال، وخاصة إن كان يودي بنا إلى طريق يشتد ضيقًا كلما تقدمنا فيه إلى الأمام. فإن كان عظام الناس مغرمين بالصيد -وأنا أعترف بذلك- إلا أنهم بشر يعاني من نقاط ضعف ومآخذ. لذلك فمن الأفضل لنا أن نقلد نقاط قوتهم ولا نقلد نقاط ضعفهم.

فإذا كان البطاركة قد مارسوا الصيد، فهذا حقيقي. مثلما أنهم أباحوا لأنفسهم الزواج من أخواتهم وأن تعدد الزوجات كان مقبولاً في عهدهم. فالبطاركة الذين استهواهم الصيد بشدة عاشوا في قرون القسوة والقتل، فكانوا في منتهى الخشونة ومنتهى الجهل. إنهم أناس كسالى تحول وقت فراغهم إلى شيء مزعج. إنه أمر يقومون به لقتل الوقت الذي يبدو طويلاً جدًا بالنسبة لهم. لذلك يشغلون أنفسهم بالصيد، إنهم يقضون أوقاتهم في الغابات يطاردون الحيوانات، إنه الوقت الذي لا يستطيعون قضاءه مع العقلاء من البشر.

وأنا أسال: هل هذه هي الأمثلة التي يجب علينا أن نقلدها؟ وهل للغلظة أن تكون معلمًا للطف؟ لماذا لا نستفيد من الأمثلة الجيدة في عصور التنوير، وندعو إلى الاستفادة من الأمثلة الضارة في عصور الجهل؟ ولماذا نجرد الفضائل من قيمتها؟

كما أنني لا أسعى لمناقشة ما إذا كان من حق الإنسان أن يعتبر نفسه سيدًا على الحيوانات أم لا. لكني أعرف تمام المعرفة أننا أشد قسوة من الحيوانات، كما أننا مفترسين أكثر من تلك الحيوانات نفسها، وهذا يحكم مملكة البشر بكثير من القسوة والطغيان. فإن كان هناك أي ميزة لنا تميزنا عن الحيوانات، فهي العقل بلا شك. ولذلك فإن من تعلق قلبه بالصيد فقط لا يفكر إلا في الجياد والكلاب والحيوانات. وأحيانًا يتحول أولئك الذين يحبون الصيد بشدة إلى الخشونة الشديدة، وهذا ما يجعلنا نخشى استخدامهم لنفس العنف مع من هم مثلهم من بني البشر. أو على الأقل يمكن أن يتزايد عدم اهتمامهم وكراهيتهم لبني البشر. والآن ... هل هذه هي المتعة التي نمتدح من أجلها النبلاء؟ وهل هذا هو ما يمكن أن يشغل العقل المفكر ؟

ولا يمكننا أن نعترض على كون الصيد مفيدًا للصحة، وذلك لأن الحقائق تقول أن من يمارس الصيد يموت في سن متأخرة، وأن الرجل الكبير في السن يرى أن الصيد رياضة بريئة ومناسبة له، وأنه يستعد بها في وقت السلم للمواجهة في وقت الحرب. ويكون ذلك بمطاردة الحيوانات على أرض الدولة.

وأنا لا أنوي مهاجمة التدريب المعتدل. لكني لاحظت فقط أن الإسراف في هذا التدريب غير ضروري. فهناك قليل من الأمراء عاشوا حياة أطول ممن مارسوا تلك الرياضة وهم لم يمارسوا الصيد أبدًا. وذلك بالإضافة إلى ما يلي: هل من الضروري أن نختار الهوايات لأنها تطيل العمر فقط؟ الرهبان عادة يعيشون أطول من الرجال العاديين، فهل معنى ذلك أن علينا جميعًا أن نترهبن وندخل إلى الأديرة ؟

ثم ... ماذا يستفيد الإنسان من وصوله إلى أرذل العمر وهو يضيع أيام عمره فيما لا يفيد. وكلما فكرنا في هذا الأمر، تمكنا من القيام بعمل مفيد وله معنى وكلما كان لحياتنا معنى.

وبالإضافة إلى أن الصيد –دون بقية وسائل الترفيه– هو أقل وسيلة للترفيه تناسب الأمراء الذين يمكنهم إظهار عظمتهم بمئات من الطرق الأخرى. فالصيد مناسب لرعاياهم أكثر، وما على الأمراء إلا منح المكافآت السخية للصيادين الذين

يصطادون الحيوانات التي قد تتكاثر وتصبح خطرًا على حياة الرعايا. وبذلك يكون للصيد فائدة. وما على الأمراء إلا أن يشغلوا أنفسهم بالقيادة والسيطرة. فهذا يزيد من معارفهم وقدراتهم على تقييم الأمور وهذه صفات ضرورية لعملهم. وهذا يجعلهم يعملون جيدًا.

ويجب أن أضيف --على وجه الخصوص- ردًا على «مكيافيللي» أنه ليس من الضروري أن تكون صيادًا حتى تصبح ضابطًا كبيرًا. فهناك الكثير من الضباط المرموقين الذين لا يشكك أحد في مهاراتهم وقدراتهم، إلا أنهم لم يكونوا صيادين، كما أننا لم نقرأ أن «يوليوس قيصر» أو «الاسكندر الأكبر» كانوا صيادين.

ومن الممكن أن يمارس الإنسان نشاطًا مفيدًا مثل المشي وذلك من أجل التعود على التفكير بحكمة أكثر والتمكن من إصدار أحكام أقوى في المواقف التي لها علاقة بدخول الحرب. لكن ما يصاحب الصيد من طيور وكلاب وأيائل وحيوانات أخرى من كل نوع، وذلك بالإضافة إلى سخونة التحمس للصيد كلها عوامل تقلل من تركيز الفرد.

وفي النهاية أقول إن من الممكن للأمير أن يخرج للصيد، لكن ليس له أن يجعل الصيد جزءًا من عمله الجاد، بل وسيلة للخروج من جو العمل أو عند الشعور بالحزن. وأنا لا أريد أن أحرّم أو أمنع أي متعة حلال، ولكني أفضل شحذ الهمم والعمل الجاد على إحكام السيطرة والتحلي بالحكمة من أجل ازدهار البلاد وحماية الرعايا ورؤية النجاح يتحقق في جميع أنحاء الدولة. أما من يفضل أشياء أخرى فلا يمكن أن يشعر بالسعادة في عمله[1].

(1) أرى أن الملك فريدريك الثاني اهتم بموضوع "الصيد" أكثر مما يجب، فكتاب "الأمير" لم يتحدث في موضوع الصيد هذا سوى في سبعة أسطر على الأكثر. كما أنه أهمل موضوعات أخرى أكثر أهمية تناولها "مكيافيللي" في هذا الفصل. (المترجم)

الفصل الخامس عشر

ما يجلب المديح أو الذم للإنسان وخاصة الأمراء

الرسامون والمؤرخون يشتركون في صفة واحدة، إنهم ينقلون من الطبيعة. فالرسامون يوضحون ملامح الناس وألوانهم، أما المؤرخون فهم يوضحون شخصياتهم وأعمالهم. وليس من المعتاد أن يكتفي الرسامون برسم الوحوش والشياطين. أما «مكيافيللي» فهو يصور لنا العالم على أنه جهنم، وكل من يعيش على ظهر الأرض من الملعونين. ومن الممكن أن يقال إن هذه الطريقة أرادت أن تضع كل البشر في ورطة من خلال زرع العداء الواضح بين الجميع، وكان دور «مكيافيللي» في ذلك هو تدمير كل فضائلنا، ربما أراد أن يجعل نفوسنا مثله تمامًا.

و«مكيافيللي» يرى أنه لا يمكن أن يكون الإنسان خيرًا تمامًا في هذا العالم دون أن يهلك، فالفساد والانحراف جزء من مكونات البشر. وأنا نفسي أقول العكس، فإن أردت ألا تهلك فمن الضروري أن تكون طيبًا وحريصًا. فليس هناك من هو طاهر تمامًا ولا من هو متوحش تمامًا، فكل من محبي الفضيلة وكارهي الإنسانية متفقون على العيش تحت حكم أمير ماهر. لذلك فأنا أحب أن أحارب طاغية ولا أحارب ملكًا عادلًا، أحارب لويس الحادي عشر أو إمبراطور أوربي حديث ولا أحارب «طراجان[1]»، وذلك لأن الملك الطيب مفيد لشعبه وهم يعرفون ذلك ويطيعونه، أما رعايا الطاغية فمن الممكن أن يلتحقوا بجيشي. فإذا ما ذهبت إلى إيطاليا بجيش قوامه عشرة آلاف لأحارب «ألكسندر السادس» سيدعمني نصف الشعب الإيطالي. أما إن ذهبت إلى هناك بجيش قوامه أربعين ألف لمواجهة ملك عادل، تهب إيطاليا كلها لتطردني خارجها.

كما أنه لم يتم عزل أي ملك طيب وحكيم في إنجلترا، حتى لو تدخل جيش كبير العدد. أما كل ملوكها السيئين فقد استسلموا للمغتصبين الذين بدأوا حملاتهم بقوات نظامية قوامها أربعة آلاف جندي. فليس هناك جدوى من محاولة المكر مع من يكره البشرية، لكن التمسك بالفضيلة والشجاعة في مواجهتهم ستجعل شعبك يفعل مثلك وكذلك جيرانك. وهذا يؤدي إلى اختفاء كل كارهي البشر من أمامكم.

---

(1) إمبراطور روماني تولى الحكم عام 98م إلى أن مات. (المترجم)

الفصل السادس عشر

حول السخاء والشح

قام اثنان من النحاتين المشهورين وهما «فيداس» و«ألكامينس» بنحت تمثال لـ«منيرفا». وأراد أهل أثينا اختيار أكثر التمثالين جمالاً حتى يوضع فوق قمة عمود. وتم عرض التمثالين على الناس. فحصل تمثال «ألكامنيس» على أعلى الأصوات. وقال أحد المحكمين إن التمثال الثاني كبير جدًا. إلا أن «فيداس» لم يحزن بسبب ذلك الحكم الذي أصدره عامة الناس، وطلب مشاهدة التمثالين فوق قمة أعمدة، فتم رفع التمثالين. ففاز التمثال الذي صنعه «فيداس» بأعلى الأصوات.

وبذلك أصبح «فيداس» مدينًا بنجاحه لدراسة البصريات والمناظير. ولذلك فلابد للسياسة أيضًا أن تراعي التناسب. لأن اختلاف الأماكن يعطي للحقائق معان مختلفة. وتطبيق أي حقيقة على أنها عامة ومطلقة يفسدها. كما أن ما يمكن أن ينال الإعجاب في مملكة كبيرة لن يكون مناسبًا لدولة صغيرة، والرفاهية التي تتناسب مع الوفرة والغنى تجعل الثروات تدور في كل أوردة الدولة وهذا ينعش الممالك الكبرى. وفي تلك الدول الكبرى يمكن الحفاظ على الصناعة ومضاعفة احتياجات الفقراء.

وإن أردنا تطبيق سياسة ماهرة لكبح مظاهر الترف عند إمبراطورية كبرى، فإنها ستعاني من ركود اقتصادي، إلا أن نفس الترف يمكن أن يهلك دولة صغيرة. وذلك لأن المبالغ الكبيرة من المال التي تخرج من الدولة لن تعود إليها على أي حال. وتكون النتيجة هي استنزاف كل الموارد ولا يستبعد حدوث مجاعة. ولذلك فمن الضروري لأي سياسة ألا تخلط ما بين الدول الصغرى والدول الكبرى، فهذه هي الخطيئة الكبرى لـ «مكيافيللي» في هذا الفصل.

وأول خطأ أتهمه به هو أنه فسر كلمة «السخاء» تفسيرًا مبهمًا، ولم يفرق كثيرًا ما بين السخاء والتبذير. يقول لنا أن على الأمير أن يكون سخيًا حتى يمكنه أن يقوم بأعمال كبرى. وأنا لم أسمع عن أي بطل لم يكن سخيًا.

وقد سمعنا جميعًا عن «فرانسس الأول» ملك فرنسا، حيث ساهم إسرافه فيما حدث له

من تعاسة. فقد التهمت ملذاته كل موارده، هذا الملك لم يكن سخيًا بل مسرفًا. وقد أصبح شديد البخل في نهاية حياته. وبدلاً من أن ينفق باعتدال، بدأ في اكتناز المال. وأي ملك أو شخص عادي لا يفعل أي شيء سوى جمع المال واكتنازه لا يعرف شيئًا عن الغنى. فلابد للمال أن يدور حتى تشعر بأنك غني حقًا. وقد حكمت أسرة «مديشي» مدينة فلورنسا وذلك لأن «كوزمو» كبير العائلة كان تاجرًا بسيطًا إلا أنه كان ماهرًا وسخيًا.

كما أن شدة البخل تنبئ عن قلة حنكة، وأنا أعتقد أن كاردينال ريتز كان محقًا عندما قال إن شئون الدول الكبرى لا تجعل الإنسان يهتم بماله الخاص. وهكذا فإن العاهل يستخدم ماله في دعم التجارة والصناعة الخاصة برعاياه، وذلك حتى يصبح أكثر غنى في المستقبل. كما أن ذلك سيجعل شعبه يحبه ويقدره، وذلك إن لم يسرف ويفرط في الإنفاق.

الفصل السابع عشر

حول الشدة واللين هل من الأفضل أن تكون محبوبًا أم مهابًا ؟

أهم وديعة توضع بين أيدي الأمراء ويؤتمنون عليها هي حياة رعاياهم. وهذه المهمة تسمح لهم بمعاقبة من ينتهك القانون أو أن يعفون عنهم. فهم الحكام الأعلى ومنفذو العدالة.

ويرى الأمراء الأتقياء أن هذه الصلاحية هي أثقل عبء تحمله عروشهم. وهم يعلمون أنهم بشر مثل أولئك البشر الذين يحكمونهم. كما يعلمون أن الأخطاء والمظالم والإهانات يمكن تصحيحها في عالمنا هذا، لكن الحكم بالإعدام الذي من الممكن أن يكون ظالمًا لو جاء عن طريق الخطأ شر لا يمكن التراجع عنه. كما أنهم يلجأون للقسوة فقط عندما يريدون تجنب ما هو أشد وأكثر قسوة لو تغير سلوكهم. وكانوا لا يأخذون هذه القرارات الحزينة –أي أحكام الإعدام– إلا في حالات قليلة جدًا. فعلى الرغم من هذه الرقة التي يتمتع بها الحاكم، إلا أنه يضطر إلى استئصال جزء من جسده، وذلك يضمن إنقاذ باقي الجسد باستخدام هذه الجراحة المؤلمة.

إلا أن «مكيافيللي» لم يتعامل مع هذه الموضوعات الكبرى والجادة بما يليق بها من اهتمام. فما يقدمه لنا من دروس حياة الإنسان لا تعني أي شيء. فالمصالح هي الرب الوحيد الذي يعرفه، وهي مبعث اهتمامه بكل شيء. لذلك فهو يفضل القسوة على الرفق، وينصح الشباب –حديثي العهد بالمسئولية– بأن يكونوا أشد قسوة ممن سبقوهم. كما أن عليهم أن يسعوا للوصول إلى الاشتهار بالقسوة.

ولا يرتقي أبطال «مكيافيللي» إلى العروش ويحافظ على استمرارهم عليها إلا أعمال السفاحين. كما أنه يجد مثاله المستعد دائمًا وهو «قيصر بورجيا» إن أراد ضرب أمثلة للقسوة.

وقد اقتبس «مكيافيللي» كلمات من «فرجيل[1]» جاءت على لسان «ديدو[2]». إلا أن هذا الاقتباس ليس له معنى يمكن أن نستخرجه منه. وقد جعل «فرجيل» «ديدو» تتكلم بالطريقة التي يمكن أن يتكلم بها أي بطل آخر في مسرحية «الملك أوديب[3]» مثلاً، حيث يحاول المؤلف في كلتا الحالتين أن يضع كلامًا على لسان الشخصية لا تصلح لأعمال درامية. لذلك فكلام «ديدو» وكلام بطل مسرحية «أوديب» لا يصلحان للاستشهاد بهما في كتاب سياسي. ففي هذه الكتب نحتاج لأمثلة من عظماء الأبطال الأقوياء، الأبطال الحقيقيين.

وقد أوصى «مكيافيللي» بالقسوة والصرامة مع القوات، وهو لا يقبل بالتسامح أو الغفران فقد اتصف بهما «سكبيون». كما أن «مكيافيللي» يفضل القرطاجنيين عن الرومان ويصل من ذلك فورًا إلى استنتاج أن هذه القسوة هي محرك النظام والسيطرة، وبالتالي فهي مصدر النصر.

وفي المثال السابق لا يتصرف «مكيافيللي» بحسن نية، وذلك لأنه قارن ما بين «سكبيون» وهو أرق الجنرالات فيما يخص النظام والضبط والربط وقارنه مع قائد قوي وهو «هانيبال» حتى يدعم رأيه الخاص المؤيد لاستخدام القسوة.

وأنا أعترف أن قيادة الجيش لا يمكن أن تتماسك دون قسوة. وإلا فكيف يمكننا السيطرة على أولئك المنحلين والمتوحشين ومعدومي الأخلاق والجبناء والمتهورين والخشنين والحيوانيين والإبقاء عليهم في الخدمة إن لم نجعلهم يخشون العقاب؟

---

(1) شاعر روماني قديم عاش قبل الميلاد. (المترجم)

(2) ملكة رومانية قديمة، وهي من أسست مدينة قرطاج (في تونس اليوم) وكانت أول ملكة عليها، نالت شهرة كبيرة حينما ذكرها الشاعر "فرجيل" في قصيدة ملحمية له. (المترجم)

(3) أولى سلسلة مكونة من ثلاث مسرحيات كتبها الكاتب المسرحي الإغريقي "سوفوكليس". (المترجم)

وكل ما أطلبه في هذا الموضوع من «مكيافيللي» هو الاعتدال. فمن المعروف أن لين الرجل المخلص قد يتحول إلى طيبة زائدة عن الحد، كما أن الحكمة تقول إننا لا يمكننا الاستغناء تمامًا عن القسوة. لكن لابد أن تكون هذه القسوة مثل الملاح الماهر، فهو يحرك الشراع أو الحبال عندما يريد تقليل السرعة والسيطرة على السفينة عند الاقتراب من عاصفة وشيكة.

وهناك مناسبات لابد فيها من الاستخدام الحاد للقسوة، وليست الوحشية. ولذلك ففي أثناء المعركة أفضل أن يحبني جنودي ولا يخافوني.

وأنا لا أنكر أن هناك أناس جاحدون يكذبون بسهولة. ولا أنكر أن القسوة مفيدة في بعض الأحيان، إلا أنني أقول للملك الذي لا يجد وسيلة لضمان الطاعة سوى الخوف بأنه يحكم الجبناء والعبيد فقط. كما أنه لن يستطيع توقع قيام رعاياه بأي أعمال قيمة وكبرى، وذلك لأنه لن يتمكن من تحقيق أي إنجاز من خلال الخوف والجبن، فهما الصفتان السائدتان في هؤلاء الرعايا حتى بعد موت الملك أو خلعه.

وأنا أقول إن الأمير القادر على جعل رعاياه محبين له سيملك قلوبهم، وذلك لأن هؤلاء الرعايا سيجدون أن من مصلحتهم الإبقاء عليه ملكًا عليهم. ويحفل التاريخ بعدد كبير من الأمثلة للتغيرات التي تمت بسبب الحب والارتباط ما بين الملك والرعية. ولازلت أقول إن الفتن والثورات قد اختفت تمامًا الآن. ولا يمكننا أن نرى أي مملكة –سوى إنجلترا– يخاف فيها الملك من رعاياه لأي سبب. حتى الملك الإنجليزي لا يخاف من أي مشكلة إلا تلك المشكلات التي يثيرها هو، فهو محبوب من شعبه.

وهكذا فإني أنتهي إلى أن الأمير القاسي يأمن على نفسه وهو في معزل عن شعبه، إلا أنه يُعرض نفسه للمخاطر عندما يضيق به شعبه. ولأن القسوة المستمرة لا تحتمل فسرعان ما يتحول الخوف إلى كسل. وهذا موقف لا يواجهه أي أمير شهم، وذلك لأن طيبته تجذب رعاياه له ولا يجدون في أنفسهم شيئًا يبعدهم عن حبه.

يجب أن نأمل إذن –لسعادة العالم– أن يعرف الأمراء الطيبة ولا يفرطون فيها، وذلك من أجل أن تظل الطيبة بالنسبة لهم فضيلة وليست نقطة ضعف.

الفصل الثامن عشر

هل يجب على الأمير أن يصون العهـــد ؟

وصلت جرأة معلم الطغاة إلى أن يقول أن الأمـراء يمكنهم خداع العالم بالمكر، ومن هنا لابد لي أن أبدأ النقد.

من المعروف أن عامة الشعب يتصفون بالفضول. وهم في ذلك يشبهون الحيوان الذي يشاهد كل شيء ويسمع كل شيء ويرى كل شيء ولا يستفيد من ذلك في شيء. فإن كان فضول عامة الناس يتفحص حياة الآخرين والمسئوليات الملقاة عليهم جيدًا، فإن ذلك يكون بدافع التنوع والتسلية. لكن عندما يحكم الفضولي على شخصيات الأمراء، فإن أهم دوافعه هي مصالحه الخاصة. والأمراء يعلمون أكثر من أي شخص آخر أن هناك قواعد غير مكتوبة وسياسات وأحكام عالمية، وهناك ما سيضاف إليها في المستقبل القريب. وهي مثل نجوم السماء التي يهتدي بها علماء الفلك ويوجهون مناظيرهم نحوها.

والدول التي تراعي تلك القواعد العامة تتحرك إن ظهر أي نوع من أنواع الخداع سواء باللفظ أو التلميح أو الإشارة عن الأمير، والشعب يدرك ذلك الخداع باستخدام عقله. وباختصار: فكما أن الشمس لا تستطيع أن تخفي الحقيقة، فإن الأمراء الكبار لا يستطيعون إخفاء عيوبهم داخل شخصياتهم فلا تظهر أمام أعين الكثير من المراقبين.

ولذلك فإن قناع الخداع يمكن أن يخفي التشوهات الطبيعية فقط في الأمير. لذلك فعليه أن يرتدي هذا القناع طوال الوقت، فإن أزال هذا القناع في وقت ما –ليرتاح ويتنفس– يكتشف أمره لأن تلك الفترة كافية لإشباع فضول المحيطين به.

وهكذا يصبح المكر والخداع الصادر عن لسان هذا الأمير عبثًا لا قيمة له. ويصبح ما في أحاديثه وأفعاله من ألاعيب بلا قيمة، وهكذا لا يمكن أن نقيم هذا الرجل من خلال أقواله وأفعاله بعد ذلك على أي حال. فإن قارنا أقواله بأفعاله، يسقط القناع عن وجهه. وبعد ذلك بالطبع لن يستفيد من التزوير ولا الخداع.

والإنسان لا يمكنه أن يخفي شخصيته عن الآخرين، إلا أنه من الضروري أن يقوم بتمثيل الدور الذي يتوقعه العالم منه. لكن من يفكر في خداع الشعب يمكن خداعه بسهولة.

وقد اشتهر «فيليب الثاني» و«كروميل» بالنفاق وليّ الحقائق، ولم يكونوا رجالاً أقوياء على كل حال. والأمير – الماهر – لا يمكن أن يتبع كل نصائح «مكيافيللي» حتى يبدو متمسكًا بالفضائل التي لا يتحلى بها أصلاً. وذلك بغسل جرائمه التي لا يبرأ منها إلا أمام نفسه وأمام من خدعتهم صورته.

وهذه نصيحة زائفة أكثر من كل ما قاله من قبل، فهو يرى أن على الأمير أن يتحلى بصفات الأسد والثعلب. فهو أسد حتى يخيف الثعالب وثعلب حتى يحذر من فخاخ الصيادين. ثم يتوصل من ذلك إلى أن الأمير غير ملزم بالوفاء بالوعد. وهذه نتيجة لا تقوم على أي مقدمات منطقية. أفلا يشعر أستاذ الجريمة بالعار بما قاله في محاضرته هذه عن عدم الوفاء؟

فإن أردنا إضفاء الاستقامة والتعقل على أفكار «مكيافيللي» المشوشة، فهذا هو ما يمكن أن نصل إليه: العالم ما هو إلا مسرح فيه ممثلون صادقون وممثلون مخادعون. ولذلك فإن على الأمير الذي سيلعب هذا الدور ألا يضل. وعليه أن يكتشف ما يحدث في مسرحيته من خداع، ليس ليفعل مثله، ولكن لتجنبه وعدم الانخداع فيه.

والآن دعونا نتناول هذه السياسة بقليل من التفصيل. فالكاتب يرى أن كل الناس أشرار ولذلك فالأمير غير ملزم بالحفاظ على كلمته معهم لأنهم يخلفون وعودهم كل يوم وباستمرار. وهنا أول ما ألاحظه هو التناقض. ألم يقل المؤلف بعد ذلك أن الناس ينخدعون بسهولة؟ فكيف يلتقي الأمرين: كيف يمكن أن يكون الناس أشرار بطبعهم ويمكن أيضًا وفي نفس الوقت خداعهم بسهولة؟

من الواضح جدًا وببساطة أن جميع الناس ليسوا أشرارًا كما يدعي «مكيافيللي». فعلي أن أكون كارهًا مجتهدًا للجنس انبشري حتى لا أرى أي محترمين ولا أي متمسكين بالأخلاق. فإن لم يكن «مكيافيللي» يفترض أن العالم مليء بالوحوش فعلى أي أساس يبني هذه القاعدة الكريهة؟ فإن حتى افترضنا أن الناس انتهازيون مثلما يريدهم «مكيافيللي» فليس من الضروري لنا أن نتبعهم.

وبعد أن أوضح المؤلف «مكيافيللي» الحاجة إلى الجريمة، أراد أن يشجع طلابه عليها بالحديث عن سهولة ارتكابها. يقول: «حيث أن البسطاء من الناس على استعداد لقبول أي أمر واقع، ومن يخدعهم سيجد من بينهم من يقبل أن ينخدع بسهولة.» وهذا معناه أنه إن كان جارك غبيًّا وأنت ذكي لذلك فمن الضروري لك أن تخدعه، لأنه غبي. هذا القياس هو ما أقسم عليه طلاب «مكيافيللي» دون أي اعتراض أو تذمر.

وهذه الطريقة التي تزيد من سهولة وقوع الجريمة –كما أوضحنا– تعد بالسعادة الناتجة عن الغدر. ولدينا الكثير من الأدلة على ذلك إلا أن المثال الأبرز هو «قيصر بورجيا» الكلب الأكبر والحائز على جائزة انعدام الأخلاق وراعي الغدر. هذا الـ«بورجيا» بطل كتاب «مكيافيللي» كان سببًا في البؤس والشقاء، ولا يزال «مكيافيللي» يتحدث عنه بخير. فمن أين أتى له بتلك العظمة والنجاح والتوفيق الذي يدعيه، هل استخرجه من سجله الإجرامي؟ أم من قصص تاريخ الباباوات والحكام السفاحين؟ ويؤكد لنا «مكيافيللي» أن «ألكسندر السادس» –البابا غير التقي وأكثر الناس زيفًا– قد حقق نجاحًا متتاليًا فيما قام به من خداع، وذلك لأنه يعلم جيدًا نقاط ضعف الإنسان: السذاجة.

وأريد أن أؤكد للقارئ أن هذا لا يعني سذاجة الإنسان، ولكنه يعني أن بعض الظروف والأحداث مكنت ذلك البابا من تحقيق نواياه. فقد أدى التناقض بين الطموح الأسباني والطموح الفرنسي والفرقة والعداء بين عائلات النبلاء الإيطاليين ونقاط ضعف الملك «لويس الثاني عشر» إلى نجاح ألكسندر.

وأنا في هذه اللحظة لا أتحدث عن الإخلاص ولا عن الفضيلة، ولكني أتناول اهتمامات الأمراء فقط. وأنا أقول أنه من السيئ جدًا للأمراء أن يكونوا مخادعين، ومن الأسوأ أن تخدع العالم من حولك. وذلك لأن الأمراء سيخدعون من حولهم مرة واحدة، ثم يفقدون ثقة الشعب فيهم نهائيًا.

وأخيرًا، فإني أعلن أن الخداع يعتبر ضربة قاضية كافية لأن يفقد الآخرون ثقتهم فينا تمامًا. وذلك أنه كلما أخذنا بهذه النصيحة الخرقاء كلما أصبحنا أكثر خشونة وحمقًا. ولكي تتجنب الكنيسة الرومانية الوقوع في مصيدة مشابهة لذلك فقد جعلت إطلاق تسمية القديس على الراهب بعد وفاته بـ **100** عام. فهذه الفترة الطويلة تسمح بمحو أخطائهم وإسرافهم المفسد من الذاكرة، كما أن شهود العصر الذي عاشوا فيه وكل من يمكنه التحدث ضدهم يكون قد مات منذ زمن. وهكذا لن يكون هناك أي معارض عند إعلان تلك القداسة على عامة الشعب.

أرجو أن تسامحوني على هذا الاستطراد. فأنا أعرف جيدًا أنه ستكون هناك الكثير من المعارضة من أي أمير لا يستطيع منع نفسه من انتهاك ما التزم به من اتفاقيات وتحالفات. لكن عليه على الأقل أن يتصرف كرجل مخلص ينفصل عن رفاقه، فعليه أن ينبههم لذلك قبل أن يتم بوقت كاف. كما أن عليه ألا يفعل ما يضر بأمن شعبه ولا تبرره أي حالة من حالات الطوارئ.

الفصل التاسع عشر

ضرورة تجنب الوقوع في أخطاء تجلب لك الكراهية ؟

لا يصاب الفلاسفة فقط بهستريا وضع أنظمة جديدة، فقد تسرب ذلك أيضًا إلى عقول المحللين السياسيين. وقد أصيب «مكيافيللي» بهذه الهستريا أكثر من أي شخص آخر. فهو يريد أن يثبت أن على الأمير أن يكون خبيثًا ومخادعًا. فهذه هي الكلمات المقدسة في دينه. وهو يملك كل ما كان عند «هرقل» من ضغائن، لكنه لا يملك قوته. لذلك، فإن كان الأمير واثقًا من أنه لن يملك قوة «هرقل» أليس من العدل ومن الطبيعي أن يكون عادلاً وطيبًا؟ وأنا أعتقد أنه ليس من الضروري أن نغرق في الكثير من الجدل حتى نثبت ذلك. فهذه القاعدة نفسها فاشلة وهذا الفشل يثبت صدق كلامي. وذلك لأننا إن قلنا إن مكانة الأمير على عرشه تزداد قوة بالقسوة والغش والخيانة، فهذه سبة في جبينه وتعني خسارته الحتمية. و«مكيافيللي» يريد أن يزين وجه الأمير الذي يصل إلى كرسي الحكم باستخدام هذه الخطايا. وذلك من أجل المزيد من الأراضي المغتصبة. إلا أن هذا الكاتب يقدم النصائح التي تثير ضده كل العروش وكل الجمهوريات. وذلك لأنه كيف للشخص العادي أن يرتقي عرش دولة إن لم يغتصبه من أمير آخر هو صاحب العرش في بلاده؟ أو أن يغتصب السلطة إن كان يعيش في جمهورية؟

و«مكيافيللي» ليس حكيمًا مثل أمراء أوروبا. فإن جاء لنا ببعض أساليب الغش والتدليس التي يستخدمها اللصوص، فلن يكون كتابه أكثر خسة مما هو عليه الآن.

ولابد لي إذن أن أوضح خدع هذا الفصل. حيث يدعي «مكيافيللي» أن ما يجعل الأمير مكروهًا هو أن يصادر أملاك رعاياه بالباطل ومحاولة التغرير بنسائهم. فهذا يتناقض مع الوصايا التاسعة والعاشرة من الوصايا العشر. ومن المؤكد أن الذي تسيره مصالحه أمير غير عادل وعنيف وقاس، ولن يستطيع تجنب كراهية الشعب وبغضهم له. لكن ذلك لا ينطبق مثلاً على «يوليوس قيصر» الذي كان يسمى في روما «زوج كل النساء وزوجة كل الرجال»، أو «لويس الرابع عشر» الذي أحب النساء أكثر أو «أوغسطس الأول» الذي كان يتحرك ومعه جناح الحريم المتنقل. هؤلاء القادة لم يعرفوا الكراهية لأنهم عرفوا الحب.

وإن كان «قيصر» قد اغتيل –لأن الحرية في روما وجهت العديد من الخناجر إلى صدره– فذلك كان لموهبته في اغتصاب أراضي الغير وليس لموهبته في الإغراء.

وأنا لا أقول هذا الكلام التماسًا للعذر أو تبرئتهم من خطايا الزنا، لأن هذا أمر يتنافى مع الأخلاق. ولكني متمسك هنا بإظهار أن ذلك في حد ذاته أمر لا يجعل الملوك مكروهين. وقد لاحظنا أن الحب الذي عاش به الأمراء يعامل كما تعامل نقاط الضعف المقبولة إن لم يكن مصحوبًا بالظلم. فمن الممكن للإنسان أن يحب مثل «لويس الرابع عشر» و«تشارلز الثاني» في إنجلترا والملك «أوغسطس» ولكن لا يفعل مثل «نيرون[1]».

كما يجب علي أن أقول إن المكائد والقتل قد اختفت تقريبًا من العالم، وبهذا يكون الأمراء في مأمن. إنها جرائم الأمس، لكن تحليل «مكيافيللي» لهم جيد جدًا: حيث لا يوجد سوى بعض تعصب الكهنة، فهو أمر مقلق، فهم من يمكن أن يقوم مثل هذه الجرائم بسبب تعصبهم. وهناك بعض الأشياء الجيدة التي أشار إليها «مكيافيللي» عن أوقات المكائد، وبعضها تحول إلى أمور سيئة وردت على لسانه، مثل قوله: «أنا أرى أن المتآمر لن يجد حوله سوى الخوف والحقد والشك والعقاب. أما الأمير فهو محاط بقوة الحكم والقوانين والأعوان الذين يحمونه وولاية تدافع عنه. وإذا ما أضفنا إلى ذلك إرادة الشعب المحيط به، عندئذ يستحيل أن يقدم أي إنسان على أن يتآمر عليه. كما أن المتآمر يشعر بالخوف قبل تنفيذ المؤامرة، وسيشعر بالخوف أيضاً بعد إنجازها لأن الشعب سيكون عدواً له في هذه الحالة، ولا ملاذ له منه.» وأنا أرى أن الكاتب السياسي لا يجب أن يقول ما هي الصيغة المثلى للحكم من خلال الحديث عن القوانين، وذلك لأن كل ما سيتحدث عنه ينطلق من تحقيق المصالح، واستخدام القسوة والحكم المطلق. وقد فعل «مكيافيللي» هنا مثلما فعل البروتستانت، فقد استخدموا تلك الطريقة في مواجهاتهم مع المشككين من أجل محاربة الكاثوليك، كما أنهم استخدموا نفس الحوار الذي سمعوه من الكاثوليك مع المشككين أنفسهم.

هكذا يكون «مكيافيللي» في حوار مع الأمراء من أجل الوصول إلى ما هو مفيد، وأيضًا من أجل الفوز بهدايا من يبقى على قيد الحياة من النبلاء والشعب. وقد أشار «مكيافيللي» إلى حكومة فرنسا كمثال ممتاز في هذا المجال. وهكذا نجد صديق الاستبداد والاغتصاب يوافق على ما أصدره برلمان فرنسا من قوانين منذ فترة طويلة. ويبدو لي أنه لو أن

(1) أي يجب ألا يتحول الحب إلى رغبة في التدمير والخراب. (المترجم)

هناك حكومة يمكن أن نقدمها اليوم كمثال للحكمة، ستكون الحكومة الإنجليزية. ففي هذه الحكومة يعتبر البرلمان هو الحكم ما بين الشعب والملك، كما أن الملك يملك كل الصلاحيات التي تمكنه من فعل الخير والقليل من الصلاحيات التي تمكنه من فعل الشر.

وهكذا يدخل «مكيافيللي» في جدال كبير حول حياة الأباطرة الرومان بدءًا من «ماركوس أريلوس» مرورًا باثنين من الأباطرة يسمى كل منهم «جورديان» وانتهاء بمن أتى قبلهم مباشرة وهو «ماكسيمينوس». وقد أعاد «مكيافيللي» سبب تلك التغيرات المتعددة إلى فساد الإمبراطورية، لكن ذلك ليس هو السبب الوحيد. فقد لقي كل من كاليجولا وكلوديوس ونيرون وجالبا وفيتلوس نهايات مأسوية لأسباب أخرى. والفساد ما هو إلا السبب النهائي الذي يستخدم كحجة لاغتيال الأباطرة، لكن الحقيقة الخفية هي شكل تلك الحكومة. فقد أصبح جنود الحرس الإمبراطوري مثل المماليك في مصر والإنكشارية في تركيا، وجنود الاسترالست في موسكو، إلا أن الإمبراطور قسطنطين قسَّم الحرس الإمبراطوري ببراعة فكان ذلك من سوء حظ الإمبراطورية التي اعتادت اغتيال وتسميم قادتها.

ولابد لي أن أذكر هنا أن الأباطرة السيئين هلكوا بسبب القتل أو العنف، لكن هناك من مات في فراشه وهو «ثيودوسيس» ومن عاش حياة هنيئة لمدة **84** عامًا. وفيما يلي ما أود تأكيده: من الصعب أن نجد أمراء متوحشين وسعداء في نفس الوقت. وقد كان الإمبراطور «أوغسطس» مسالمًا فقط عندما تطهر من خطاياه. أما الطاغية «كومودوس» خليفة القديس «ماركوس أيرلوس» فقد حكم عليه بالإعدام على الرغم من الاحترام الشديد الذي حظى به والده من الجميع. كما لم يستطع «كاراكلا» أن يتمكن من العرش وهذا ما دفع به إلى الوحشية. وقد قُتل «ألاكسندر سيفروس» بسبب خيانة «مكسيمونيس». كما أن من حاول أن يستفيد من صورة العملاق –كذلك «مكسيمونيس» الذي فاق الجميع في الوحشية– لقي نفس المصير وهو الاغتيال.

ويدعي «مكيافيللي» أن الأمير وضيع الأصل يُغتال عادة نتيجة لما يشعر به من احتقار لأصله الوضيع، وهذا خطأ كبير. أما الرجل ذو الأصل العالي الذي حصل على حكم الإمبراطورية بشجاعته وجرأته لا يسأل أحد منهم عن أصله ونسبه، وقد لا يُعرف أبواه. وذلك لأن الناس في هذه الحالة ينظرون إلى أعماله وليس إلى أصله.

وقد كان الإمبراطور «بوبينز» ابن عمدة إحدى القرى، و«بربوس» ابن بستاني و«فالنتين» ابن صانع حبال، كانوا جميعًا محترمين. كما كانت اسرة «سيفورزا» التي هزمت «ميلانو» من الفلاحين. أما «كروميل» الذي ثبت إنجلترا وجعل أوروبا ترتعد، فهو ابن تاجر.

والعظيم «محمد» (صلى الله عليه وسلم) الذي أسس لأعظم دين على وجه الأرض فقد كان تاجرًا وهو شاب.

كما كان «سامون» تاجرًا فرنسيًا. والشهير «بايف» الذي لا يزال اسمه محترمًا في بولندا انتخب ملكًا وهو لا يزال يرتدي حذاء الفلاح في قدميه. وقد ظل محترمًا لفترة طويلة جدًا.

وقد أخذ هؤلاء الجنرالات والمستشارون والعامة أوروبا إلى مزيد من الاكتفاء والسعادة. وقد تحقق ذلك لأن تلك المناصب أعطيت لمن يستحقها. وأنا لا أقول بوجوب احتقار العائلات الكبيرة والعريقة مثل عائلات شارلمان والعثمانيين. ولكن -على العكس لأكثر من سبب- يجب على أن أعجب بهذه العائلات التي أنجبت الأبطال، لكني معجب بمواهبهم أكثر.

الفصل العشرون

هل القلاع وغيرها من تحصينات التي يستخدمها الأمراء مفيدة أم ضارة ؟

قدمت لنا الوثنية صورة الإله «جنوس[1]» بوجهين. وذلك يعني أنه يعلم كل ما مضى وكل ما سيحدث في المستقبل. وصورة هذا الإله مأخوذة بطريقة الاستعارة، وهي طريقة يمكن تطبيقها جيدًا على الأمراء. فعليهم -مثل جينوس- أن ينظروا خلفهم إلى التاريخ ليروا كل تلك القرون التي مرت، فهي تقدم لهم دروسًا مفيدة في السيطرة على الدول وزيادة رقعتها. كما أن عليهم أيضًا -مثل جينوس- أن يستشرفوا آفاق المستقبل، كما عليهم الإلمام بكل التقارير والإحصاءات والتنبؤات الحالية وأيضًا تلك التي ستحدث.

و«مكيافيللي» يضع خمسة أسئلة أمام الأمراء، وخاصة أولئك الذين حققوا انتصارات حديثة وأولئك الذين يحتاجون إلى تحصين أملاكهم، ويبدو أن هذه الأسئلة تهدف إلى جعل أولئك الأمراء أكثر حصافة، حيث يدمجون الماضي بالمستقبل ليصبحوا خدامًا للعقل والعدل.

---

(1) إله البدايات عند الاغريق. (المترجم)

وهذا هو السؤال الأول: هل على الأمير أن يجرد الشعب الخاضع حديثًا له من الأسلحة أم لا ؟

من الضروري دائمًا أن أصحح لـ«مكيافيللي» لأن طريقة الحرب تغيرت كثيرًا منذ العصر الذي كُتب فيه كتاب «الأمير». الآن لا يوجد تقريبًا سوى الجيوش النظامية، وسواء كانت قوية أم ضعيفة فهي من يدافع عن الدول. ونحن الآن نشمئز من جيش مكون من الفلاحين. ففي بعض الأحيان يحمل المواطنون السلاح ولا يتضرر من ذلك المحترفون، وذلك للقضاء على أي فتنة أو ثورة تهددهم بالقصف والمدافع. ويبدو أنه من الحصافة أن نجرد الطبقة الوسطى في المدينة التي خضعت قريبًا من السلاح، وخاصة إن كان لدينا مخاوف منها. فالرومان –الذين هزموا بريطانيا العظمى والذين لم يستطيعوا السيطرة عليها وعلى هدوئها، وذلك لطبيعة شعبها المتمرد المحب للنزاع- حاولوا استئناس الشعب من أجل تجنب مواجهة هجومهم العنيف وحبهم للحرب على أمل أن تنجح هذه الطريقة مثلما نجحت في روما نفسها. لذلك فيبدو لي إن السيطرة على هذه الجزيرة لا تكون إلا بنزع سلاح أهلها وتهذيب طريقتهم في التعامل.

ويدور السؤال الثاني حول الثقة التي يجب على الأمير أن يوليها لرعاياه بعد أن أصبح سيدًا على الدولة وعلى المناطق التي ضمها حديثًا، بل وعلى أرض بلاده الأصلية التي يعتبر حاكمها الشرعي.

فإن كنا سنسيطر على مدينة من خلال معلومات المخابرات أو من خلال خيانة بعض المواطنين، يكون من الحمق الشديد أن نثق في الخونة الذين قد يضللوك. وعلى المرء أن يفترض دائمًا أن من كان مخلصًا لسيده القديم سيكون مخلصًا لسيده الجديد، لأنه لديه أملاك ومصالح على الأرض يريد الحفاظ عليها، لذلك فهم يحبون الحياة المستقرة ولا يرون في أي تغيير سوى المضرة. وعلى أي حال، لا يجب أن نمنح ثقتنا لأي شخص بسهولة.

لكن دعونا نفترض أنه وفي أي لحظة يشعر فيها الشعب بالضغوط وأن عليهم أن يزعزعوا أركان الطغاة، فسوف يستدعون أميرًا آخر ليحكمهم. وأنا أعتقد أن ذلك الأمير سيجيبهم بنفس القدر من الثقة التي أولوها له. فإن تعامل مع من أولوه الثقة بتشكك فسيكون ذلك وبالاً على علاقته بهم، فالشعب لن ينسى ذلك الجحود أبدًا. وقد ظل الأمير وليم –أمير البرتغال- حتى آخر عمره مبقيًا على صداقته وثقته فيمن مكنوه من حكم إنجلترا. أما من عارضوه، فقد نفوا أنفسهم من الوطن واتبعوا الملك جيمس.

أما في الممالك التي يتم اختيار الملك فيها، والتي تكون أغلبية ناخبيها مثل قطاع الطرق والعرش قابل للرشوة، فإني أتفق مع ما يقوله بعض الناس: على الملك الجديد – بعد توليه العرش- أن يقطع رواتب من عارضوه لأنها طريقة ناجزة ومفيدة مع مثل أولئك الناخبين.

وتقدم لنا بولندا مثالاً على ذلك: كانت الصفقات المحيطة بالعرش متعلقة بالرشوة بشدة لدرجة أن الشراء كان يتم في الأسواق العامة. وملك بولندا يفتح حافظة نقوده ويزيح بها عن طريقه كل معارضة. إنه السيد الذي يسيطر على كل العائلات بما يقدمه لها من هدايا. إلا أن البولنديين -مثل الشعوب الأخرى- ذاكرتهم ضعيفة فيما يخص موضوع هذه الهدايا، لذلك فمن الضروري إنعاش الذاكرة من آن لآخر. وباختصار، فإن شعب جمهورية بولندا لم يشبع من تلك الهدايا وأكثر الملوك كرمًا ينفق ما عنده عليهم عبثًا دون أن ينال رضاهم. وعلى أي حال، بالرغم مما عند ملك بولندا من هدايا يقدمها لشعبه، فإنه سينفق كل موارده بالتركيز فقط على المناسبات التي يقدم فيها الهدايا للعائلات الكبرى.

والسؤال الثالث لـ«مكيافيللي» يتعلق بأمن الأمير في الممالك المتوارثة: هل من الأفضل له أن يحافظ على توحد البلاد أم ينشر الخلافات بين الناس؟

ربما يكون لهذا السؤال علاقة بأسلاف «مكيافيللي» في فلورنسا، لكن في الوقت الحاضر، أنا لا أعتقد أن أي أمير ساند أي ثورة إلا ليهدئها. وأنا هنا أرد بأن على الدول أن تحافظ على التوازن بين الاتجاهات المختلفة، وذلك لأن الدولة التي لا يوجد بها رأي آخر يراقب الحكومة وتصرفاتها تكون أقرب إلى الاستبداد المطلق.

وهناك أمراء يعتقدون أن الفرقة والتشتت بين الوزراء ضرورية وتخدم مصالحهم. كما أنهم يرون أن عليهم أن يضللوهم باستخدام مجموعة من الناس يهدفون إلى زرع الكراهية بينهم لأن هذه الكراهية هي ما يحمي الأمير. لكن إن كان هذا العداء يمكن أن يحقق هذه النتيجة، إلا أنه سينتج قوة مفرطة أيضًا. فإن كان هؤلاء الوزراء قادرين على خدمة الأمير فسوف يكونون في مشكلات دائمة ناتجة عن التعارض الدائم ما بين مصلحة الأمير وسلامة المواطن.

إذن فلا يوجد ما يمكن أن يدعم المملكة أكثر من توحد كل أبنائها، ويجب أن يسعى الأمير العاقل للحفاظ على ذلك.

وبما أني قد انتهيت توًا من الإجابة على السؤال الثالث لـ «مكيافيللي»، فإن ذلك يفيد

أيضًا في الإجابة على السؤال الرابع. والآن دعونا نفعل ذلك باختصار. والسؤال هو: هل على الأمير أن يقمع معارضيه أم يكسب ود شعبه؟

الأمير الذي يحارب رعاياه يفعل كمن يواجه وحشًا بمفرده، حتى إن كان يحارب مجموعة صغيرة منهم، لأن من الأجدر به أن يفعل ذلك مع عدو بلاده وينتصر عليه. فهذا طبيعي ومعقول وإنساني كما أنه يجلب الأصدقاء. والأمراء الذين يدركون أهمية الصداقة سعداء. والأسعد منهم هم أولئك الذين يستحقون حب وتعاطف شعبهم. فأين العدل في ذلك الطريق المعاكس؟

والآن نصل إلى السؤال الأخير من أسئلة «مكيافيللي»: هل على الأمير أن يبني القلاع والحصون، أم يتخلص منها؟

أعتقد أنني قد عبرت عن مشاعري في الفصل العاشر فيما يليق بالأمراء الصغار، ولذلك فإننا سنتحدث الآن عما يساعد الملوك على السيطرة على ملكهم.

في عصر «مكيافيللي» كان العالم في حالة ثورة عارمة. فقد كانت روح الثورة سائدة في جميع الأنحاء، وكان الناس لا يرون سوى الطغاة والعصابات. وقد أدت الثورات المتكررة بالأمراء إلى بناء القلاع فوق التلال العالية في المدن وذلك لاحتواء روح التمرد عند سكانها المقهورين.

وفي الدول البربرية -التي تضجر فيها الناس من أعمال القتل أو تلك التي يتزايد فيها طغيان الحكام- لا مجال للحديث عن الثورات والتحريض على الفتن، ولذلك فالأمير لا يحتاج إلى المزيد من القلاع لضمان ولاء المدن والريف. فليس هذا النوع من التحصين هو ما يحرس الأمير ويحميه من أعدائه ويضمن قوة الدولة.

فالجيوش والقلاع لها استخدامات متماثلة بالنسبة للأمراء، وذلك لأن باستطاعتهم إرسال الجيش لمواجهة الأعداء، ثم حماية هذا الجيش من القلاع في حالة ما إذا خسروا معركة. فإن حاصر العدو هذه القلعة، فإن ذلك يعطيهم الفرصة للتجمع من جديد وتكوين قوات جديدة في وقت مناسب يمكن من محاصرة العدو مرة أخرى.

كادت الحرب الأخيرة في «فلاندرز[1]» بين الإمبراطور وفرنسا أن تصبح حرب خنادق وذلك بسبب تزايد أعداد المدن المحصنة والمعارك التي يخوضها جيش به مائة ألف جندي فينهزم أمام جيش آخر به عدد بسيط جدًا من الجنود وذلك لأنه يسيطر

(1) شمال بلجيكا حاليًا. (المترجم)

على مدينة قريبة أو مدينتين. وقد هرب العدو إلى الريف وكان لديه وقت كاف لتعويض خسائره. ثم عاد إلى الظهور مرة أخرى، وأخذ يستعيد إلى الذاكرة ما تحقق من نصر في العام الماضي.

ففي الدول التي بها الكثير من المدن المحصنة، فإن الجيش الذي يغطي مساحة ميلين مربعين يمكن أن يظل في حرب لمدة 30 عامًا، وسيحقق بعد 20 معركة مكاسب تقدر بعشرة أميال إن كان سعيد الحظ.

وفي المناطق الريفية المفتوحة، فإن نتيجة حملتين عسكريتين تحدد مصير المنتصر وتعود عليه بممالك كاملة. فـ«الأسكندر» و«قيصر» و«جنكيز خان» و«تشارلز الثاني عشر» حافظوا على أمجادهم لفترات طويلة لأنهم واجهوا القليل من الأماكن المحصنة فتغلبوا عليها، والمنتصر في الهند لم يواجه سوى حصارين اثنين طوال فترة حروبه، أما حاكم بولندا فلم يواجه ما هو أكثر من ذلك.

وقد أدرك الفرنسيون أهمية الحصون جيدًا ولذلك فلديهم تحصين مزدوج حول المدن. كما أن الحدود الشرقية لفرنسا مع ألمانيا تشبه فم الأسد المفتوح الذي يحتوي على صفين من الأسنان القاتلة. إنه فم قادر على ابتلاع كل القوات الغازية. ويجب أن يكون ذلك كافيًا لإظهار فائدة المدن المحصنة.

الفصل الحادي والعشرون

ماذا يفعل الأمير كي ينال احترام الناس ؟

في هذا الفصل تحدث «مكيافيللي» عن أمرين أحدهما جيد والآخر سيئ. وسأوضح أخطاء «مكيافيللي» وأؤكد على ملاحظاته الجيدة الموثوق فيها. ثم بعد ذلك سأسرد بعض مشاعري حول نفس الموضوع.

قدم لنا «مكيافيللي» «فرديناند أرجون» و«برنارد ميلان» كمثالين لمن يريد أن يصبح ملكًا كبيرًا يقوم بأعمال نادرة وخارقة للعادة. و«مكيافيللي» يسعى للقول بأن الشجاعة والجرأة تؤديان إلى الحصول على الممالك وسرعة تنفيذ ذلك. وهذا أمر عظيم وأنا أقول بكل أمانة أن ذلك يعتمد فقط على مدى صحة ما يقوم به الفاتح من أعمال. يقول أحد

سفراء الاسكندر: «إن اكتسبت شهرتك من خلال القضاء على قطاع الطرق، فسوف تصبح في يوم ما أكبر قاطع طرق على وجه الأرض لأن معنى ذلك أنك سلبت ونهبت كل الأمم التي سبق أن سيطرت عليها. والشخص الطيب لا يفعل إلا الخير الذي يتمشى مع الأخلاق، ولا ينهب حقوق الآخرين. فإن كنت رجلاً، فعليك أن تتذكر ذلك.»

لم يكن «فرديناند أرجون» راضيًا عن القيام بحرب علنية، لذلك فقد وجد أن دينه مفيد، مثل الخمار، حتى يخفي وراءه نواياه. وقد أساء استخدام الطقوس الدينية. حيث تحدث عن العدل ولم يقم إلا بأعمال ظالمة. وهذا هو ما امتدحه فيه «مكيافيللي».

وفي المثال الثاني تحدث «مكيافيللي» عن «برنارد ميلان» وذلك لكي يقنع الأمراء بأن عليهم أن يقدموا المكافآت والعقوبات بطرق خلاقة. حتى تتصف كل تصرفاتهم بالعظمة. فالأمراء الكرام لا تتضرر شعبيتهم خاصة وإن كان كرمهم ناتجًا عن طبائعهم الخاصة وليس عن عدلهم.

وهنا نجد تعارضًا: فأستاذ السياسة يريد في هذا الفصل من أمرائه أن يسيطروا على حلفائهم، وفي الفصل الثامن عشر حررهم من الالتزام بكلمتهم. وهكذا أصبح مغامرًا يقول أمرًا لهؤلاء ويقول العكس تمامًا للآخرين.

فإن كان «مكيافيللي» قد فكر بطريقة سيئة فيما قلته الآن، فإنه تحدث جيدًا عن حرص الأمير عندما يتعامل مع أمراء آخرين أقوى منه، فهم بدلاً من مساعدته قد يكونون سببًا في تدميره.

فإن أنا سأعيش في قرن مقبل، لابد وأنني سأضيف بعض الأفكار التي قد تتفق مع ما قاله «مكيافيللي». لكنني لست معنيًا بالحكم على أمراء العصر الحديث. وفي هذا العالم من الضروري أن نعرف متى نتكلم ومتى نصمت.

كما عالج «مكيافيللي» أيضًا موضوع الحياد. وقد أوضحت التجارب أن الأمراء المحايدين يعرضون بلادهم لإهانات من كلا الدولتين المتحاربتين. وهكذا قد تصبح دولته مسرحًا للحرب كما سيكون خاسرًا دائمًا بسبب ذلك الحياد.

وهناك طريقتان يمكن للأمير من خلالهما أن يكون عظيمًا، أولها أن يكون الأمير فاتحًا ومنتصرًا يتراجع أمام أسلحته وقدراته أي أمير آخر اعتاد الحروب. وثانيها هو أن يكون لديه حكومة جيدة.

وكتاب «الأمير» مليء بالنصائح الموجهة بالدرجة الأولى إلى زيادة قوة الأمير في

المقام الأول، أما الأمر الثاني المهم جدًا فهو عادل ومفيد كالأول تمامًا. حيث يتناول موضوع الفنون؟

فالفنون الأكثر أهمية لحياة الإنسان هي الزراعة والتجارة والصناعات، أما الأشياء الأكثر أهمية له فهي الرياضيات والفلسفة والفلك والبلاغة والشعر والرسم والموسيقى والنحت والعمارة والنقش وهي تسمى بـ«الفنون الجميلة».

ولأن اختلاف الأمم متنوع ومستمر، هناك أمم قوتها في الزراعة وأمم أخرى في محصول العنب وأمم أخرى قوتها في الصناعات وأخرى في التجارة. كما أنه من الممكن أن تنتعش كل هذه المجالات في نفس الوقت في بعض الأمم.

والملوك الذين سوف يختارون هذه الطريقة الناعمة المحببة لزيادة قوتهم لابد لهم من دراسة ثقافة دولهم. وذلك لكي يعلموا أي تلك الفنون أفضل حتى ينموها ويدفعوها إلى الأمام، وبالتالي لابد لهم من تشجيعها. وقد أدرك الفرنسيون والأسبان أنهم غير متقدمين في التجارة، ولذلك فقد فكروا في الأمر. وقد أدى ذلك إلى تفكيرهم في طرق للقضاء على التجارة البريطانية. وذلك لأنهم إن نجحوا في ذلك، ستزيد قوتهم بقدر كاف ومفيد أكثر من إخضاع **20** مدينة وألف قرية. وهكذا من الممكن أن يتراجع اقتصاد إنجلترا وهولندا وهما من أجمل دول العالم وأغناها دون أن يشعر أحد، تمامًا مثل المريض الذي يموت بسبب الهزال المتواصل.

أما الدول التي تعتبر ثرواتها في محاصيلها من الحبوب والعنب، فعليها أن تنتبه لأمرين: الأول هو المسح الجيد للأراضي وذلك من أجل الاستفادة حتى من الأراضي الأقل إنتاجًا. والثاني هو تسهيل تدفق البضائع وتخفيض أسعار نقل هذه البضائع، وهذا سيجعل كل تلك البضائع رخيصة.

أما بالنسبة للصناعات المتعددة، فهي الأكثر فائدة للدولة. وذلك لأن الصناعات هي ما يمكن الدولة من تلبية احتياجات السكان وترفهم. كما أن على الدول المجاورة أن تدفع ضريبة مقابل استفادتها من صناعاتك. وهذا يدعم أموال الدولة ويجلب مزيدًا من التمويل إلى داخل الدولة.

وقد أقنعت نفسي دائمًا أن العجز في أعداد المصنعين تسبب في الهجرة غير العادية من دول الشمال إلى دول الجنوب. وهم يتوافدون كالفيضان على هذه الدول باستمرار. وبما أن هؤلاء المهاجرين لا يعرفون شيئًا عن فنون الدول التي يتجهون إليها مثل السويد

والدانمارك وأغلب مناطق ألمانيا فإنهم يعملون بالزراعة والصيد. وهكذا توزعت الأرض القابلة للزراعة ما بين أصحاب الأرض القادرين على زراعتها بأنفسهم ومستأجرين مهاجرين قادرين على زراعتها.

ولكن لأن سباق البشر منذ قديم الأزل يعتبر الغريزة الثانية وخاصة في الدول الباردة، فقد مرت عصور كان المقيمون في دولة ما ضعف طاقتها فلا تستطيع الدولة إعالتهم، ولذلك هاجر شباب العائلات الكريمة وأصبحوا قوات مرتزقة في دول أخرى. كما تحولوا إلى قطاع طرق بسبب الحاجة، فخربوا دولاً أخرى وطردوا بعض سادتها. ولذلك فإننا نرى أولئك البرابرة في الإمبراطورية البيزنطية والدول الغربية لا يبحثون سوى عن الحقول حتى يجدوا ما يقيم أودهم. ودول الشمال لا يقل فيها عدد أفراد الشعب الآن عما قبل. ولكن الرغبة في الحياة المريحة تضاعف من احتياجاتنا، لذلك فقد تحول قطاع الطرق إلى صُناع. فهذه الصناعات هي ما يجعل هذه الشعوب على قيد الحياة، أما من لا يجد عملاً مناسبًا يقيم أوده، يبحث عنه في مكان آخر.

هذه الطرق التي تجعل الدولة تزدهر بسبب المواهب الموثوق فيها. ويجب على ملوك الدول دفعها إلى الأمام وليس إلى الخلف. فأهم علامة تدل على أن للدولة حكومة حكيمة وهانئة هي وجود الفنون. وفي الحقيقة فإن الزهور تتفتح في الأرض الخصبة وتحت السماء المشرقة. لكن الجفاف أو هبوب الرياح الشمالية يجعلها تجف وتموت.

والتاريخ يوضح لنا أن أكثر من دولة رعت الفنون وساندتها. وقد عاشت العديد من المواهب العظيمة في أثينا، فاشتهرت البلاد بهم أكثر من شهرتها بحروب قادتها. كما عُرف أيضًا عصر أوغسطس بأسماء مثل فرجيل وسيزريو وغيرهما من الشعراء والفنانين، وهم من حقق له شهرته بأقلامهم. كما تدين أيضًا مملكة لويس الثالث عشر بأكبر قدر من شهرتها لموليير وديكارت وغيرهما أكثر مما اشتهرت بسبب حصار لويس في السجن أو بمعركة تورين.

وقد كان «لورنزو دي مديشي» رجلاً عظيمًا خدم أمته، وهو صانع السلام في إيطاليا ومن أعاد العلوم إليها. وقد أدت أمانته إلى ثقة كل الأمراء فيه. كما كان «ماركوس إيرلوس» أحد أكبر أباطرة روما، ولم يكن أقل حظًا وسعادة من غيره من الفلاسفة والعظام من الأباطرة. ولنتوقف الآن عند هذه الكلمات: «الملك العادل يحبه العالم، كما يحبه شعبه الطيب وقساوسته ويضحون من أجله.

الفصل الثاني والعشرون

أمناء الأمراء

هناك نوعان من الأمراء في هذا العالم. النوع الأول هم من يرون العالم بأعينهم، ويسيطرون على دولهم بأنفسهم. والنوع الثاني يعتمدون على النوايا الطيبة لوزرائهم ويسلمونهم بعض الصلاحيات لأنهم يستلهمون روح قادتهم.

والملوك من النوع الأول يمثلون القلب بالنسبة لدولهم، حيث تعتمد قيمة حكومة الملك من هذا النوع عليه فقط. كما أنه ينظم العلاقات الداخلية والخارجية للبلاد، ويشغل منصب كبير القضاة وكبير جنرالات الجيش، وهو أيضًا المسئول عن خزينة الدولة. والملك من ذلك النوع ذو شخصية قوية وخشنة وذلك ليتمكن من تحقيق ما يريد بدقة، وما وزراءه إلا أدوات في أيدي هذا السيد الماهر الحكيم.

أما الملوك من النوع الثاني فهم أولئك الملوك الخاملون، نعم إنهم كسالى بطبيعتهم. وهذا الكسل يؤدي إلى اللامبالاة. فإن كانت الدولة على وشك السقوط بسبب ضعف عاهلها، فلابد من مساندة وزير ماهر له وبسرعة، وعندئذ يصبح الأمير مجرد شكل ضروري. وذلك لأنه رمز الدولة. كل ما يفعله هو أن يتمنى. وهذه هي طريقته المحببة في الحكم.

وليس من السهل على الحاكم أن يتعرف بدقة على شخصية الوزراء المحتملين في وزارته ممن يريد أن يوكل لهم أعمال الاستشارات. وذلك لأن الشخصيات المحتملة بارعة في إخفاء مساوئ شخصياتها التي يود الملوك في إزالة القناع عنها. إنهم قادرون على إخفاء ما بداخلهم من خلال مظهرهم أمام العامة، وأسوأ أولئك هم من اكتسبوا مهاراتهم من خلال قراءتهم لكتاب «الأمير».

لكن الأمير الواعي يمكن أن يحكم –دون عناء– على مواهب وقدرات من يقومون بخدمته، إلا أنه قد يكون من المستحيل أن يحكم على درجة نزاهتهم وإخلاصهم.

ومن الملاحظ عامة أن الناس –بسبب تغير الظروف– يتناقضون مع أنفسهم. إلا أن من يتجردون من الأمانة والفضيلة يضعون أنفسهم على المحك. فلا أحد في روما تحدث

عن «تبيروس» أو «نيرون» أو «كاليجولا» قبل أن يصل أي منهم إلى العرش. ربما لأن عدم التزامهم بالأخلاق كان من الممكن أن يظل بلا أثر، إلا أن هناك ما استدعى ذكر تلك الأعمال وذلك بسبب ما نتج عنها من مساوئ.

ونحن نعرف أن هناك من الناس من أظهروا مواهب لمرونة العرفان بالجميل، وغيرها من مواهب سوداء، كما نعرف أن هناك آخرين ممن يملكون كل الصفات الطيبة في قلوبهم.

وعادة ما يفضل الأمراء العقلاء أولئك الذين تتغلب قلوبهم على صفاتهم، ويوظفونهم في حكوماتهم. كما أنهم يفضلون النوع الآخر الذين يتصفون بمزيد من المرونة في العمل السياسي، وذلك للاستفادة منهم في المباحثات.

ويبدو لي أن الأمير لا يستطيع أن يكافئ المستقيمين ممن يخدمونه بحماس، فهناك إحساس بالعدل في داخلنا يمكننا من ملاحظة ذلك، ولابد لنا من اتباعه. إلا أن الصالح العام يستدعي أن يقدم الأمراء العطايا بسخاء، وذلك لأن الوزراء الذين يدركون أن الفضيلة هي طريق مستقبلهم، لن يسلكوا طريق الجريمة وسيفضلون مزايا سيدهم على الفساد الأجنبي.

ولذلك فإن الحكمة والعدل يتفقان تمامًا مع موضوع هذا الفصل، كما أنه من الحصافة تمامًا أن نضع مبدأ انتماء هؤلاء الوزراء تحت اختبار قوي.

وهناك بعض الأمراء ممن يتمسكون بعيب آخر: فهم يغيرون الوزراء بحسب أهوائهم، كما أنهم يعاقبون بشدة كل من يُظهر أقل قدر من التمرد.

أما الوزراء الذين يعملون تحت أعين الأمير مباشرة فلا يمكنهم إخفاء عيوبهم عنه. وكلما تدخل الأمير في شئونهم كلما تمكن من السيطرة عليهم بسهولة.

أما الملوك الذين لم يدرسوا الفلسفة وممن هم قليلو الصبر ويتعجلون النتائج الفورية. فإنهم يثورون ضد كل نقاط ضعف من يخدمونهم. وبالتالي فهم يطردونهم ويخسرونهم.

أما الملوك الذين يعرفون البشر جيدًا، يعرفون أن كلًّا منهم له عيبه، وأنه لا يوجد من هو كامل الأوصاف في هذا العالم. كما أن الصفات العظيمة عادة ما تجتمع مع عيوب عظيمة، وأن على العباقرة أن يستفيدوا من الجميع. ولذلك فهم يحتفظون بوزرائهم بكل ما فيهم من صفات جيدة أو صفات سيئة. كما أنهم يفضلون من لديهم عنهم فكرة شاملة عن الوزراء الجدد الذين من الممكن إن يعينوهم. إنها تشبه فرقة موسيقية من العازفين المهرة، ممن لديهم قدرة كافية على العزف بآلات يعرفون حدودها وعيوبها، وهم أفضل من العازفين الجدد الذين لا نعرف عن مواهبهم شيئًا.

الفصل الثالث والعشرون

كيف يمكن تجنب المتملقين؟

لا يوجد كتاب لتعليم الأخلاق، ولا كتاب للتعلم من التاريخ، فإن كان ضَعف الأمـراء أمـام الإطـراء غير ملحوظ بوضوح. فمن الشائع دائمًا أن يشتهر الملوك بحب الحقيقة والسعي وراءها. وقد اعتدنا على سماع ذلك، إلا أننا لازلنا نسعى وراء بعض ما نجد من تناقض: فنحن نريد من الأمـراء قدرًا كافيًا من احترام الذات يمكنهم من إصدار قرارات عظيمة، وفي نفس الوقت يجب عليهم ألا يهتموا إطلاقًا بالأجر الذي يتقاضونه عن تلك الأعمال وعما يعود عليهم من فوائد. وهذا المبدأ ذاته يجلب لهم المديح والهجاء في نفس الوقت.

فالحديث المهين ينتج عن شخصية خسيسة.

أما من لا يهتمون بسمعتهم من الأمـراء فهم أولئك الكسالى فقط، أو الذين طغت شهواتهم على نقاط ضعفهم. ومن المعروف أن الطغاة شديدو القسوة يحبون المديح، إلا أنهم أيضًا يتصفون بكبرياء بغيض وهذه رذيلة. وهم يحبون المديح لأنهم يستحقون العكس تمامًا.

أما عند الأمراء الفاسدين، فإن المديح والإطراء سم أخلاقي يتكاثر بسبب ما هم فيه من فساد. وعند الأمراء الذين يستحقون المديح، فما مدحهم إلا كالصدأ الذي يغطي عظمتهم ويقلل من بريقها. والإنسان الحر يأبى الإطراء الواضح ويبتعد عن صاحبه.

وأغلب الناس يحبون الإطراء الذي يرضي تذوقهم، والذي لا يعتبر كذبًا صريحًا. لذلك فليس من الممكن أن نعاقب من يقول لنا ما نحن مقتنعون به. لذلك فالإطراء القائم على أسس قوية هو أفضل أنواع الإطراء. ومن الضروري أن نفهم هذا النوع من الإطراء تمامًا، وذلك لندرك تلك الإضافة القليلة التي يضيفها إلى الحقيقة. وسنجد أنه مثل الإطراء الذي يستخدمه الشعراء، فهم مبالغون دائمًا.

ولكن كيف يمكن للأمير العظيم أو البطل، وكيف يمكن للأمير الشاب أن يشعر بالضيق إن سارع أحد الأصدقاء المحيطين به بقول الحقيقة؟ وكيف يمكن لـ«لويس الرابع عشر» الذي شعر

أنه فريد من نوعه والذي يستمتع بهذا التفرد، أن يتضايق من ضابط كبير قاطعه أثناء الحديث وقال له وهو متلعثم ومرتعش: «أخيرًا يا سيدي أنا لا أرتجف أمام أعدائك.»

والأمراء بشر قبل أن يصبحوا ملوكًا، ويمكنهم أن يذكروا أنفسهم بذلك. وعليهم ألا يعودوا أنفسهم بسهولة على سماع الإطراء. أما من اعتاد الملك طوال حياته، فقد اعتاد على ذلك، كما أنه ولا شك يموت من الكسل إن افتقد المديح.

ولابد من أن نتوخى الدقة هنا، يبدو لي أنني يجب أن أحزن على الملوك ولا ألعنهم. وذلك لأنهم يطربون لمن يتملقهم، لكنهم يواجهون أيضًا من يشوه سمعتهم ممن هم مكروهين عند عامة الشعب، وهم في ذلك مثل أمراء العدو الذين يخفون عنهم الحقائق. لذلك فلابد على الملك أو الأمير أن يميز ما بين المديح والتملق. وسيرى فيما بعد نتيجة ذلك في كتب التاريخ.

الفصل الرابع والعشرون

لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم ؟

ترمز خرافة «كادموس» (الذي تمكن من خلع كل أسنان التنين بعد أن تمكن من التغلب عليه، وباستخدام تلك الأسنان تمكن من هزيمة كل المحاربين الذين دمروا أنفسهم) إلى ما كان عليه أمراء إيطاليا في عصر «مكيافيللي». فالخونة والغادرون ينتقلون من أمير إلى أمير ويقضون عليهم جميعًا. هذا هو ما تراه في تاريخ إيطاليا بداية من أواخر القرن الرابع عشر وحتى بدايات القرن الخامس عشر: القسوة والفتن والعنف والتحالف من أجل تبادل التدمير واغتصاب الحقوق والاغتيالات. وباختصار، قدر هائل من الجرائم وهي تتجمع معًا في مسرحية من مسرحيات الرعب.

فإن توصلنا من خلال «مكيافيللي» كمثال إلى البحث عن العدالة والإنسانية سيصاب العالم كله بالإحباط. وقد يؤدي فيضان الجرائم إلى تحول هذه القارة إلى مكان مقفر خال من البشر. وقد أدى ما مارسه أمراء إيطاليا من الظلم والقسوة إلى فقدانهم لولاياتهم. وبالمثل فإن المبادئ الزائفة التي وضعها «مكيافيللي» ستحقق الخسارة بلا شك لأولئك الذين يتبعونه بسبب جنونهم أو سوء أخلاقهم.

وأنا لا أخفي أي شيء، لقد ساهم جبن بعض أولئك الأمراء الإيطاليين فيما لحق بهم من خسارة أيضًا. حيث أدى ضعف ملوك نابولي –بالتأكيد– إلى خرابها. إلا أنني أشك أيضًا أن في عالم السياسة يمكنك أن تستخدم كل ما تريد من كلمات، ويمكنك أن تجادل وتضع ما تشاء من أنظمة وتتقدم بكل ما تريد من أمثلة ممتازة وتستخدم كل ما يمكن من رقة، إلا أنك ستجد أنك مضطر إلى العودة إلى العدل ببساطة ورغمًا عنك.

وأنا أطلب من «مكيافيللي» أن يفسر لنا معنى كلماته التالية: «والناس يتابعون أعمال الأمير الجديد أكثر من متابعتهم لأعمال الأمير الذي ورث الإمارة، وحين تعتبر هذه الأعمال أعمالاً فاضلة، يرتبط به الناس ارتباطاً أوثق مما لو كان أميراً قديماً. لأن ما يحدث حالياً يجذب اهتمام الناس بشدة أكثر مما حدث في الماضي، وحين تكون حالتهم الراهنة جيدة يرضون بها ولا يبحثون عن غيرها.»

هل يفترض «مكيافيللي» أن الأمة بالكامل يمكن أن تفضل الأمير المغتصب على الأمير الشرعي إن تساوى الاثنان في الحكمة والشجاعة؟ وهل تنصاع الأمة لملك لا يتحلى بالفضائل وهو أيضًا مختطف شرير، فكيف يكون ذلك؟ هذه نتائج بلا مسببات، فليس لنا أن نفضل من يحارب من أجل الوصول إلى العرش بالعنف الواضح وهو لا يتصف بأي فضائل أو مميزات عن الحاكم الشرعي.

وما الذي يمكن أن يتوقعه أي شخص من أي مستوى اجتماعي ممن يبدأ حياته بجريمة، حتى وإن لم يكن حاكمًا قاسيًا وطاغية؟ إنه مثال مشابه تمامًا لرجل من أي طبقة اجتماعية يتزوج من امرأة ويرى خيانة زوجته له في نفس يوم عقد القران. أنا لا أعتقد أن مثل تلك الزوجة يمكن أن تتحلى بالفضيلة طوال ما بقي من حياتها، وحدود علمي لا تشير إلى أن ذلك ممكن الحدوث.

وقد نطق «مكيافيللي» بحكمه على تلك الحالة في هذا الفصل. فقد قال بوضوح إنه بدون حب الشعب وتعاطف العالم وجيش جيد التنظيم ، من المستحيل على أمير أن يرتقي العرش. فقد ألقت الحقيقة بظلالها عليه وجعلته مثل الملائكة الذين خرجوا من رحمة الله لأنهم كفروا به رغم أنهم رأوه.

ومن يرغبون في تحمل تلك المسئولية لا يمكنهم أن ينالوا ثقة الشعب إن لم يكونوا عادلين ومستنيرين. فالرجل الفاسد يتمنى دائمًا أن يكون ذا شخصية جيدة. كما أن من لا يستطيع السيطرة على نفسه يكون أشد حرصًا.

فكيف بالله عليكم أن يحاول أقل الناس أن يصبح حاكمًا مخلصًا ويعمل بجد إن كان يريد الاحتفاظ بمنصبه الراهن؟ بينما يكون المنصب الملكي هو المنصب الوحيد الذي يصل إليه كل من هو غارق في الرذائل؟ ولذلك ولكي نصل إلى خلاصة الأمر فإن على الأمير أن يأخذ بنصيحتي أنا وليس بنصيحة «مكيافيللي» فهو يعلمه الظلم والقسوة والسعي وراء شهوة القوة.

لقد كشفنا طريقته الآن. إنها طريقة تسمح لشخص خطير بالوصول إلى منصب عظيم وذلك في القرن الذي عاش فيه «مكيافيللي». وهذا القرن مر منذ زمن طويل إلا أن أفكاره البغيضة لا تزال حية ولا يوجد من يقبلها.

سنكون جميعًا سعداء إن قضينا على المكيافيلية في العالم أجمع. وقد أوضحت بعض التناقضات، لكن يجب أن يقتنع القادة المسيطرون على العالم بها. وعليهم أن يعالجوا عامة الناس من تلك الأفكار مهما حاول البعض من استخدام تفسيرات غريبة لما قاله كنوع من الخداع.

كما أن على هؤلاء القادة العودة إلى الأمانة والصدق والتي أرى أنها لم تعد سائدة عند كثير من الملوك. لذلك فعليهم ألا يحسدوا جيرانهم على أراضيهم الشاسعة التي يحكونها، ألا يغارون أيضًا على الاحتفاظ بولاياتهم؟ فالأمير الذي يريد كل شيء مثل المعدة التي تشتهي كل الطعام والشراب الموجود على المائدة، وهي في نفس الوقت تعلم جيدًا بعدم قدرتها على هضم كل هذا الطعام والشراب، وحتى تستطيع تحقيق تلك الرغبة الجامحة تتقيأ بعض الطعام الذي دخلها بالفعل.

أما الأمير الذي يلتزم بإيجاد حكومة صالحة فهو يشبه من يأكل باعتدال فتقوم معدته بالهضم المنتظم ولا يصاب بأي أمراض أو مغص أو خلافه.

الفصل الخامس والعشرون

دور الحظ في العلاقات الإنسانية وكيف يمكن التصدي له ؟

أثارت حرية الإنسان فكر الكثير من الفلاسفة، فتعمقوا في دراسة الأمر إلى أبعد مدى. كما أن نفس الأمر أثار دارسي اللاهوت. ويرى مؤيدو حرية الإنسان إن الإنسان إن كان مسيرًا في كل أموره فلا معنى لمحاسبته على ما يفعل من شرور، كما أن مسايرة هذا الافتراض العبثي ترغمنا على التسامح مع كل من يرتكب جريمة مثل القتل وغيره من جرائم، وهذا مناف لتعاليم الدين بالطبع.

ومن جهة أخرى، فإن من يدافعون عن أن الإنسان مسير وليس مخيرًا. وكثير منهم يرون أن ذلك اعتقاد راسخ كالكتاب المقدس بالضبط. وبذلك لا يمكننا عقاب أي متهم بعد ذلك، ولن يكون هناك بالتالي ما يصنف على أنه جريمة وما يصنف على أنه من الفضائل.

وعلى أي حال فلا يوجد هناك من يعتقد بهذا الاعتقاد دون أن يرى كل أنواع التناقض فيه، ولذلك نجد كثيرًا منهم يعلن أنه يعتقد بحرية الإنسان وبأنه مخير وليس مسيرًا.

أما مناصرو المذهب الجبري -من جهة أخرى- فهم يرون أن الله قد خلق الإنسان والكون بقواعد ثابتة لا يمكنهم الخروج عنها، وهم في ذلك مسيرون لا مخيرون، وفي كل شيء. فصانع الساعة يعرف طريقة عملها والتروس والأجزاء المكونة لها. فيقوم بصناعتها طبق القواعد الثابتة التي يعرفها جيدًا، ثم يراقب عملها بعد تمام الصنع.

وقد نقل «مكيافيللي» مشكلة حرية الإنسان ومشكلة الجبرية من علم ما وراء الطبيعة إلى العلوم السياسية. إنه موضوع غريب تمامًا بالنسبة له، ومن الواضح أنه لا يستطيع تقديم أي رأي بناء في هذا الموضوع. وذلك لأنه في السياسة علينا أن نفكر في زيادة قوتنا وحصافتنا بدلاً من التفكير فيما إن كنا أحرارًا أم مسيرين وما إذا كان للحظ والصدفة دور في حياتنا يمكن أن يأتي بما لا نتوقع في أي وقت.

فالحظ والصدفة كلمات لا معنى لها، وكل الأدلة المعروفة تشير إلى أن مصدر هاتين الكلمتين يعود إلى عصور الجهل العميق حيث كان دور الإنسانية منحصر في انتظار ما

سيحدث في هذا العالم. وفي ذلك الوقت أطلق الإنسان تلك المسميات الواهية على ما يحدث من حوله ولا يعرف له سببًا، فيقول إنه الحظ أو الصدفة.

وما أشير إليه باسم «حظ قيصر» ما هو إلا تلك العوامل الإنسانية التي دعمت خططه وطموحه. كما أن «سوء حظ» أي شخص آخر لا يعني سوى حدوث بعض الأشياء المفاجئة التي أوقفت خططه دون تدخل من الشخص نفسه أو قدرة له على دفعها[1].

أما ما يقال عنه «فرصة» فما هو سوى إلقاء لزهر النرد، فلابد له من قراءة أيًا كانت. وقد يقول أحدهم إنني جائتني فرصة لأكسب 12 بدلاً من 7. ولكسر هذه الظاهرة فمن الضروري وجود أدوات جيدة بدرجة كافية تساعد الإنسان على توجيه أموره ليحقق المكسب المطلوب ويتمكن من قياس نتيجة أي حركة يقوم بها وما عنده من قدرات وكيفية الاستفادة منها، هذا هو ما يمكن أن نقول عنه «فرصة». أي أن الفرصة ما هي إلا حسن استغلال القدرات المتاحة.

ولأننا مجرد بشر، وما لدينا من أدوات هي الإحساس والعقول وهي كلها محدودة القدرات، لذلك فلن نحقق ما يطلق عليه «ضربة حظ» إلا بمهاراتنا وليس بالحظ. لكن لابد من مباهج الحياة المفاجئة من حين لآخر، ومن خلال ذلك نجمع معلومات ومعارف عشوائية وطبقًا لما يمر بنا من أحداث. وحتى إن كان باستطاعتنا أن نتغلب على هذه الفوضى، فإن حياة الإنسان أقصر مما يمكنه من أن يرى كل شيء وأفقه أضيق من أن يشملها.

ومن الواضح أننا جميعًا نواجه ظروفًا مستحيل أن نتصورها حتى ولو أوتينا أكبر قدر من الحكمة. إلا أنها تحدث، وفيما يلي مثال لذلك: وهو مثال له علاقة بالسلام الذي عقده الإنجليز مع الفرنسيين قرب نهاية الحرب الأسبانية. لم يتوقع الوزراء ولا رجال الدولة الماهرون ولا الإمبراطور جوزيف أن «قفازًا» يمكن أن يغير رسم الحدود الأوروبية، إلا أنه وقع بالفعل. فقد تغير مسار الحرب بسبب أن كبيرة وصيفات الملكة «آن» في لندن وكانت تسمى دوقة مالبرو قد تعجلت استلام قفازها من صانع القفازات وكان مشابهًا تمامًا لقفاز الملكة التي لم تكن قد تسملت قفازها الجديد بعد.

أرادت الملكة أن تتسلم القفاز، فأسرت إليها إحدى المقربات منها واسمها السيدة

---

(1) يقصد الملك فريدرك أنه لا يوجد من هو سعيد ومحظوظ ومن هو تعيس وسيء الحظ بل إنه القضاء والقدر. (المترجم)

«ماشن» بقصة قفاز دوقة مالبرو وإصرارها على سرعة تسلمه قبل أن تتسلم الملكة قفازها، وقد زادت في الكيد لأنها كانت تكره دوقة مالبرو، كما تدخل صانع القفاز بكلمات سوداء عندما ذهب إلى الملكة لتسليم القفاز. وكان كل ذلك كافيًا ليشتعل رأس الملكة غيظًا.

لم يمر وقت قليل إلا وكانت دوقة مالبرو مطرودة من القصر الملكي، وكان ذلك الحدث سببًا في تغير الأحداث، فوقع ما جعل العالم يسخر من أكبر الأسر المالكة فيه. هكذا تؤدي أحداث تافهة -وربما تكون أيضًا سخيفة ومضحكة- إلى تغيير مستقبل دولة أو ممالك كاملة.

وفي تلك الواقعة بالذات، أدى مكر النسوة إلى إنقاذ الملك لويس الرابع عشر من خطوة لم يكن من الممكن أن يتجنبها حتى لو أوتي أكبر قدر من الحصافة والحكمة، وهكذا أنقذ عرشه من الانهيار.

هذه الأحداث الغريبة قد تقع، لكن يمكنني أن أقول بثقة إنها نادرة الحدوث، كما يمكنني القول بأنها لا تعني إهمال التعقل والحصافة وإعمال العقل في كل وقت. إنها أحداث تشبه الأمراض التي قد تؤثر أحيانًا على الإنسان إلا أنها لا تمنعه من الاستمتاع بالحياة.

ولذلك فمن الضروري أن يستفيد من يتحكمون في العالم مما لديهم من علاقات متشعبة وحصافة، وذلك لأنهم إن اعتمدوا على الحظ، فلابد لهم من أن يتعلموا كيف يبحثون عنه وهذا أمر مستحيل إن لم يكن شديد الصعوبة.

وهذا يقودني للتحدث عن حالتين من حالات السيطرة على العالم، وهما حالة التيقظ الشديد وحالة الحذر المتراخي. وأنا أرى أن من المستحيل على الأمير أن يظهر قوته من خلال إظهار قدرته على التقلب بين تلك الحالات عند الحاجة. لأن ذلك يلزمه أن يكون متقلبًا مثل الحرباء. ومنذ عدة قرون مضت، أكد مرور الوقت أن ما قام به الشجعان من أعمال عظيمة وفتوحات أنهم لم يولدوا إلا للقيام بأعمال خارقة للعادة مثل الثورات والحروب. وأنا لا أعرف ما أصاب الملوك فجعل الفاتح يستفيد من حروبه. لذلك لم نجد من هو مثل «فرمندو كورتز» الذي فتح المكسيك ولم يجد أي دعم من حرب أهلية يقوم بها الأمريكيون[1].

وفي أوقات أخرى عندما يكون العالم أقل إثارة، يميل إلى أن يحكمه الاعتدال، وهذا

(1) المقصود هنا سكان القارة الأمريكية. (المترجم)

يلزم الحكام باستخدام الحصافة والتحفظ، إنها فترات من الهدوء السياسي التي عادة ما تتلوها العاصفة. وهنا تكون المباحثات أكثر فاعلية من المعارك، فمن الضروري أن تكسب بالقلم ما لا تستطيع تحقيقه بالسيف.

والملك الذي يستفيد من كل تلك الأحوال، لابد أن يكون مثل الطيار الماهر. فإن كان الجنرال جريئًا وحذرًا، لا يمكن أن يروضه أحد. وقد أضعف «فابيوس» هانيبال بحملاته الصبورة، فهذا الروماني لم يهمل العجز المستمر عند القرطاجنيين في المال والإمدادات، وكان ذلك كافيًا لنرى جيش «هانيبال» يتبخر بهدوء ويفسد. وكانت سياسة «هانيبال» -المناقضة تمامًا لما يفعله فابيوس- تسعى للقتال. وكانت قوته تكمن في انتهاز الفرص، لذلك كان من الضروري الاستفادة من كل المميزات المتاحة بأسرع ما يمكن، فهو لا يمكن أن يتماسك إلا من خلال ما يقوم به إرهاب وأعمال حادة ومفزعة، وكذلك عن طريق ما يعود عليه من تلك الأعمال من فتوحات.

وفي عام **1704**م، إن لم يغادر «إلكتور» و«تالارت» بافاريا من أجل أن ينقضا على «بلينهايم»، لكانا قد استطاعا السيطرة على «سوب» بالكامل. وذلك لأن القوات الحليفة لهما لم تستطع البقاء في «بافاريا» لنقص الطعام، ولذلك فقد اضطروا الانسحاب باتجاه «ميان» والتفرق. إنه عدم الاحتياط الذي كان من صفات كل المعارك ولم يحافظ عليه «إلكتور»، وهو ما سوف تتذكره الأمة الألمانية بالعار والخزي وذلك لأنها اعتمدت عليه في استمرار تلك الصفة الطيبة. ولقد لقيت تلك الحماقة جزاءها وهو الهزيمة التامة للبافاريين، وفقدان بافاريا نفسها، وذلك بالإضافة إلى المنطقة ما بين الراين وبلاتينت.

ونحن عادة لا نتحدث عن الشجعان الذين قادهم حظهم إلى الدمار، بل نتحدث عن أولئك الذين ساعدهم الحظ. وذلك يشبه الأحلام والتنبؤات. لذلك فعلينا أن نحكم على الآثار من خلال مسبباتها ولا نحكم على المسببات من خلال الآثار الناتجة عنها.

وبذلك يمكنني أن أخلص إلى أن الشعب يغامر كثيرًا مع الأمير الشجاع، ويصبح في خطر دائم يتهدده بطريقة ما أو بأخرى. أما الملك الحذر، وعلى الرغم من أنه لم يجبل على تحقيق المآثر العظيمة، إلا أنه ولد من أجل إدارة جيدة للحكومة. لذلك فالأول مغامر والثاني متحفظ.

وكل أنواع الرجال العظام لابد لهم من وقت تأتيهم فيه الرياح بما يشتهون. وبدون ذلك فإن كل ما لديهم من مواهب لن تُجدِ شيئًا بل قد تتحول إلى معوقات وليست مزايا.

وأي متعقل –وعلى وجه الخصوص ذلك الذي يسيطر على غيره من الناس– لابد له من خطة ولابد له من استعراضها على الرسم. وكما أن عليه أن يلتزم بما وضعه لنفسه في كل الأحوال وأن يعتبره أساسًا تقوم عليه أعماله التالية. فإن قام أي مسئول بذلك، فإنه كاف لتجنب الحظ العاثر أو أي عقبات أخرى تواجهه أو تقف في طريق ما وضعه من خطط، كما أنه سيكون قادرًا على مساعدة الآخرين في إنجاز ما يقومون به من مشروعات في صالح الدولة –كان من الممكن أن يقوم بها هو.

لكن، من أولئك الأمـراء الذين ندعى أنهم مزدوجي الموهبة؟ إنهم مجرد رجال، وسوف تثبت رياح التاريخ وجودهم. فمن الأفضل أن تحكمنا العنقاء الأسطورية التي لا وجود لها من أن يحكمنا الفيلسوف «أفلاطون». كما أنه من الواضح أن الناس يرضون بجهود الحكام المخلصين الذين يتطلعون إلى الكمال لكنهم يخفقون. وأكثر أولئك الأمراء تحقيقًا للإنجازات هم أولئك الذين يبتعدون عن «أمير» «مكيافيللي» ومثاليات ذلك الفيلسوف الكذاب. لكن لابد لنا أن نتذكر –دون شك– أنه لا يوجد من هو شخص كامل في هذا العالم، وأن كل من يعيش في هذا العالم له نقاط ضعف ويقترف الأخطاء.

وأسعد الدول، هي تلك الدولة التي يتبادل فيها الحاكم والرعايا العفو والإحسان. وأن ينتشر هذا اللين بين أفراد الشعب، فبدون الرحمة ترخص الأرواح تحت وقع الضغوط التي تتزايد مع مرور الزمن وتصبح ثقيلة جدًا، لدرجة أن العالم قد يتحول إلى واد من المرارة وليس مسرحًا للسعادة.

الفصل السادس والعشرون

أنواع المباحثات الدبلوماسية المختلفة والأسباب التي تبيح قيام الحرب

رأينا في هذا الكتاب الذي ننتقده أن ما قدمه لنا «مكيافيللي» على اعتبار أنه مفاتيح للتغيير ما هو إلا زيف في التفكير. فقد قدم لنا الانحلال والجرائم الواضحة وألبسها قناع علية القوم.

وقد بذلت كل جهدي كي أزيل قناع الفضيلة التي تخفى وراءه «مكيافيللي» وغلف به كل سمومه، وأخلص العالم من كل أخطاء الأمـراء. وقد قلت للملوك إن أفضل سياسة

يتبعونها هي أن يتفوقوا على رعاياهم في الفضيلة، وذلك حتى يتخلصوا قدر الإمكان ممن يداهنونهم، وأن يتوقفوا عن إدانة الآخرين على أشياء يسمحون لأنفسهم بها. وقد قلت أنه لا يكفي أن يقوم الملوك بأعمال مبهرة أمام العالم من أجل الشهرة فقط، لكن من الضروري أيضًا أن تُسعد هذه الأعمال البشر.

وأنا أضيف هنا حوارين آخرين: لمحة عن المباحثات السياسية وأخرى عن الحرب.

فالدبلوماسيون والوزراء ما هم إلا عيون للأمير، فهم يهتمون بالتأثير أو حتى السيطرة على الملوك الذين يرسلهم إليهم. وعليهم أن يتغلغلوا داخل نوايا الحاكم، ويتطلعون لخطواتهم ويتنبئون بما يمكن أن يقوموا به حتى يخطروا سيدهم في الوقت المناسب. وأهم مهمة بالنسبة لهم هي دعم الروابط بين العاهلين، إلا أنهم بدلاً من أن يكونوا صناع سلام، يقومون عادة بدور مثيري الحرب. كما أنهم يستخدمون الإطراء والخداع والإغراء من أجل الوصول إلى أسرار الدولة التي وفدوا إليها وإرسالها إلى الوزراء في بلادهم: فهم يكسبون الضعفاء بالحديث الطيب والمتكبرين بكلمات ترضي غرورهم والمتطلعين بالهدايا. ومن المعروف أنهم أحيانًا يتصرفون كما لو كانوا لن يتوقفوا عن العمل إلا عندما يحصلون على ما يريدون، وهذا ما يجعلهم –في بعض الأحيان– يرتكبون الخطايا، وهم متأكدون من الإفلات من العقوبة، وهم لا يزالون على أرض أجنبية.

وأفضل حماية تقي من مكر هؤلاء الجواسيس والتي يجب على الأمراء اتباعها هو أن يحكموا بالعدل. وعندما يكون موضوع المباحثات أكثر وضوحًا، يجب على الأمراء أن يشرفوا على تصرفات وزرائهم ومراجعتها، وذلك حتى لا تؤثر ظروف الدول على بقائهم في الحكم.

وفي أوقات الأزمات، عند التعامل مع الحلفاء، من الضروري أن يكون الملك أكثر تيقظًا وحصافة عما يكون عليه في الأيام العادية.

وعند تناول أي معاهدة، لابد من تناولها من جميع الأوجه، وتوقع كل نتائجها وكل الأحداث التي يمكن أن تتوافق معها حتى وإن تم ذلك بطريقة تقريبية. وما يبدو وكأنه ميزة حقيقية، يكتشف بعد الفحص الدقيق أنه مجرد رشوة، قد تؤدي إلى تدمير الدولة. ومن الضروري أن نضيف إلى تلك الاحتياطات العناية الفائقة في التخلي عن أي مصطلحات مبهمة: فاستخدام المسودات المنمقة شديدة الدقة لابد أن يسبق تنفيذ السياسة حتى لا تؤدي كلمة واحدة مخادعة إلى عدم تطبيق المعاهدة.

وفي السياسة لابد من إيجاد قوائم للأخطاء التي وقع فيها أمراء آخرون بسبب وقوعهم تحت الضغوط، وذلك حتى يستخدمها من يريد عقد اتفاقيات أو تحالفات.

والمفاوضات لا يقوم بها كل الوزراء المعتمدون، فعادة يتم إرسال ذوي الخبرات القليلة إلى الدول قليلة الخبرة، حيث يمكنهم عقد اتفاقات مرنة، حتى أن تعرض الملك لضغوط فيما بعد تكون العقوبات التي تقع عليه بموجب الاتفاقية قليلة. هذه هي نوعيات الاتفاقات التي –إن أعدها الملك بنفسه– يمكن أن تجعل من يتفاوض معه يتعجب مما إذا كان لها مثيل من قبل. وقد عقدت المباحثات التمهيدية لمعاهدة السلام السابقة بين بريطانيا وفرنسا بهذه الطريقة، حيث تم وضع ختم الإمبراطور فقط على الاتفاقية مع تأهب القوات البحرية، وقد جرى الاتفاق في مسكن على ضفاف نهر الراين.

وقد أجاد «فكتور أميدي» –وهو أمهر أمراء عصره وأكثرهم خبثًا– فن إخفاء نواياه أكثر من أي شخص آخر. وقد خدع أوروبا كلها بنعومته وألاعيبه. وخلال كل تلك الألاعيب قابل المارشال «كاتينات» وهو يرتدي عباءة الراهب لكي تكون حجته أنه يتحدث باسم الدين. وقد حقق كل ما أراد بتلك الطريقة. وقد اعتبرته أوروبا ظاهرة غير طبيعية لا تتكرر في عالم السياسة.

وأنا لا أذكر هذا المثال لأبرر تصرفات «فيكتور» ولا لأوضح معالم شخصيته. وذلك لأنه فعل الكثير من الألاعيب. أردت فقط أن ألقي الضوء على مهارته ورجاحة عقله، وهي صفات –إن استخدمت من أجل غاية نبيلة– ضرورية جدًا للحاكم.

ومن المعروف بصفة عامة أن الأمير يختار ذوي الشخصيات والأخلاق العالية ليتولوا المباحثات الصعبة. حيث لا يمكن للخبثاء والمخادعين فقط القيام بأعمال السياسة الخارجية. والمهارة الوحيدة التي تجمع ما بين النوعين هي أن يعرفوا أسرار الجانب الآخر من هيئته ودون أن يبوح بها. وبذلك لا يدعون أمرًا يفوتهم إلا ويستفيدون منه خير استفادة.

ولا يجب علينا أن نسيء استخدام الخدع الناعمة، فهذه تعتبر حرفة. وكثرة استخدامها يكشفك أمام الجميع ويجعلك تتعامل مع من تحركهم أهواؤهم ويتوقعون منك أن تكون مثلهم.

وفي المقابل نجد أن الاستقامة مفيدة في كل الأوقات، إنها تشبه الأجهزة البسيطة

التي نشغلها ونستفيد منها ولا يمكن أن تتعطل، وهي مناسبة وكافية لأغلب المهام. وإن تعطلت -وهذا قليل جدًا- يمكن إصلاحها بسهولة.

أما الأمير المعروف بالصراحة والثابت عنه ذلك، فيمكنه كسب ثقة أوروبا كلها بنجاح باهر، سيكون سعيدًا جدًا دون أن يلجأ للغش والخداع، وقويًا جدًا على طريق السلام. كما أن الخير المتعمق في بلاده يشبه ميدانًا كبيرًا تلتقي فيه كل الطرق والسياسات. ولابد أن يكون ذلك هو الهدف وراء كل ما يقوم به من خطط.

يقوم السلام في أوروبا على الحفاظ على التوازن بين القوى أي أن المملكة الكبيرة القوية يقابلها القوة المجتمعة لعدة ممالك صغيرة. فإن اختل هذا التوازن فجأة، يخشى أن يؤدي إلى ثورة شاملة، تقوم بعدها إمبراطورية جديدة على بقايا أمراء تفرقوا وأصبحوا في حالة من الضعف منعتهم من المقاومة.

وهذه السياسة التي يتبعها أمراء أوروبا تتطلب منهم ألا يهملوا التحالفات أبدًا ولا يهملوا الاتفاقيات التي تمكنهم من توازن القوى الطموحة، ولابد لهم من الحذر من أولئك الذين يودون نشر الفرقة والخلافات بينهم. ولابد لنا أن نذكرهم بذلك الذي أراد أن يبين أهمية الاتحاد أمام الناس فجذب حصانًا من ذيله يحاول خلعه ولم يتمكن، وعندما حاول نتف شعر الذيل شعرة شعرة تمكن من ذلك وأصبح الحصان بلا ذليل بعد وقت قليل. وهذا الدرس واضح أمام العديد من ملوك عالم اليوم، هم يعلمون أن اتحادهم سر قوتهم، وهو ما يحافظ على السلام والهدوء في أوروبا.

يمكن للعالم أن يكون أسعد حالاً لو كان هناك طرق أخرى للحفاظ على السلام والعدل والتعايش بين الأمم عبر المباحثات. حيث يمكننا استخدام العقل بدلاً من الأسلحة، والحوار بدلاً من قطع الرقاب. كما أن مواجهة العدوان الواضح يتطلب من الأمراء أن يكون لديهم وسائل أكثر عدوانية لأن هناك مواقف لابد فيها من استخدام القوة حتى تدافع الأسلحة عن حرية الشعب ضد من يحاول قمعه وظلمه. وقد يكون من الضروري في بعض الأحيان أن نحصل بالقوة على ما سلب منا ظلمًا. وفي تلك الحالات الخاصة ينطبق المثل القائل أن الحرب الجيدة تؤدي إلى سلام جيد.

حان الوقت الآن لنناقش موضوع الحرب، وما يجعل هذا الإنسان عادلاً وذلك ظالمًا. وما يجيش في صدور الأمراء من مشاعر وطموح يلفت النظر عادة إلى الفروق بينهم. كما أنه يتضح أيضًا في أحيان أخرى من لجوئهم إلى العنف. فالحرب هي الخيار الأخير دائمًا.

لذلك لا يمكن أن يستخدمها الأمير إلا مع التحفظ والحذر وإن شعر باليأس من استخدام الطرق الدبلوماسية وأيضًا بعد الدراسة المتعمقة ليعرف ما إذا كان قد دُفع للحرب بسبب وهم أم غرور أم لسبب قهري وضروري.

وهناك الحرب الدفاعية، وهي أقرب للعدل. إن كانت دفاعية حقًا.

وهناك حروب المصالح التي يضطر الملوك إلى شنها لرد لحقوق التي لا تزال محل جدال، فهم يدافعون عن قضيتهم وسلاحهم في أيديهم، وبدء الحرب هو ما يحدد صلاحية ما ساقه الملوك لها من أسباب.

وهناك حروب احترازية يضطر بعض الأمراء أحيانًا إلى خوضها. فعندما يزيد حجم قوة ما وتبدو كما لو أنها على وشك أن تغمر ما حولها، وتهدد بابتلاع ما حولها من أراض، من التعقل أن نقيم الحواجز الرملية في طريقها، وأن نقضي على العاصفة في مهدها ونحن لا نزال سادة الموقف. فإن رأينا السحب وهي تتجمع حتى تكون عاصفة، وشاهدنا البرق يعلن قدومها، ولا يتحرك الملك المهدد بتلك العاصفة ولا يستطيع التعامل معها. فإن كان حكيمًا فإنه سيتعامل معها الند للند. وإن اجتمع ملوك مصر وسوريا ومقدونيا معًا ضد المملكة الرومانية لن يستطيعوا القضاء عليها، لكن التحالف المتفق عليه بحكمة ومن بعده حرب سريعة وخاطفة يمكن أن يهزم طموح روما في السيطرة على العالم. في حين أن كل ما كانت تطمح إليه تلك القوى هو الدفاع عن النفس.

ومن الحصافة أن نختار أهون الشرين، ومن الحصافة أيضًا أن نختار الشريك الجدير بالثقة ولا نختار من تدور حوله الشبهات. لذلك فالأفضل للأمير الذي سيشن حربًا هجومية ويتزعم جيشه أن يختار ما بين غصن الزيتون وأكاليل الغار التي تنتظر انتصاره ولا يتأخر حتى يصل إلى نقطة اليأس إن كان إعلان الحرب الهجومية هو الحل الوحيد الذي سيحول بينه وبين أن يصبح عبدًا ويدمر ملكه. فمما لا شك فيه أنه من الأفضل لك أن تمنع الشر الذي سيقع عليك قبل أن يمنعك أحد من تحقيق ذلك. وعظام الناس هم من يستطيع تحديد حرب وشيكة ويتعاملون معها بمشرط الجراح السريع وبكل ما لديهم من قوات قبل أن يتمكن العدو من تنفيذ خططه لتقييده وتحطيمه عندما تبدأ الحرب.

وقد انغمس كثير من الأمراء في الحروب من أجل حلفائهم، وبسبب تمسكهم بالوفاء بمعاهداتهم، ونتيجة لذلك يضطرون إلى تقديم عدد من قواتهم. ولا يوجد حاكم يمكنه أن يعيش بلا حلفاء، وفي أوروبا لا يوجد أيضًا من يمكنه الاعتماد على قواته فقط. لذلك

فقد اضطروا إلى التعهد مع بعضهم البعض على التعاون المتبادل عند الحاجة، وهذا يساهم في دعم أمنهم وسلامتهم. والأحداث فقط هي ما يوضح أي الحلفاء أكثر تكلفة بالنسبة لخزانة من يحالفونه. وفي بعض الأحيان يحصل بعض الحلفاء على ما يريدون بالضبط. وفي أوقات أخرى، يضرون إلى عمل تسويات لتعويض ما تم إنفاقه من مال. فالوفاء والحكمة تتطلبان منهم الالتزام بالمعاهدات التي وقعوها بإخلاص ديني، وما يجعلهم يلتزمون بالبقاء في التحالفات أيضًا هو علمهم بتحقيق الكثير من أهدافهم من خلال لك التحالفات، وهذا يجعل حماية الأمير لشعبه أكثر فعالية.

كل تلك الحروب، الهدف منها هو دفع الغاصبين فقط والحفاظ على الحقوق الشرعية، وضمان حرية الشعب والتخلص من الاضطهاد والعنف وتحقيق العدل. والحكام الذين يأخذون على عاتقهم تحقيق ذلك يجب إلا يلوموا أنفسهم على الدماء التي تراق. فهناك حاجة لذلك، وفي مثل تلك الظروف تكون الحرب أفضل من السلام[1].

وهذا الموضوع يقودني تلقائيًا إلى التحدث عن الأمراء الذين يضحون بدماء جنودهم ويغامرون بأفراد من شعبهم، وذلك لأنهم تقاضوا تعويضات عالية مقابل مشاركة هؤلاء المساكين في حروب تخص الحلفاء. فإذا كان الهدف المقدس عند الجنود والغاية التي يحاربون من أجلها هي الدفاع عن الوطن، لماذا نسمح ببيع دمائهم؟ هل تستطيع الرد؟

أما الحروب الدينية –وهي في الحقيقة حروب مدنية- ما هي إلا استمرار لحماقات الحكام. حيث يؤيد الحاكم طائفة دينية على حساب طائفة أخرى أحق منها بذلك التأييد، أو أنه يسمح للحكومة بالانغماس في ممارسة الدين بشدة. وهذا يؤدي إلى كثير من الخلافات بين أصحاب الآراء المختلفة.

فالحفاظ على قوة الحكومات المدنية، وحماية حرية الرعايا، وحتى يظل الملك ملكًا ولا يلعب دور القسيس أبدًا هي الطريقة الأكيدة للحفاظ على الدولة التي يحكمها. وذلك لأن روح اللاهوت تسعى دائمًا للإثارة. ولن أتعمق أكثر من ذلك في النتائج السيئة للخلط ما بين رجال الدول ورجال الكنيسة.

أما الحروب الدينية الأجنبية فهي قمة الظلم والتفاهة. كيف لك أن تترك بلادك وتمسك قطعة من الحديد في يدك لتحارب في دولة أخرى بعيدة باسم الدين، أو أن تجهز

---

(1) يرى الملك فريدريك أن سقوط قتلى في حرب رد المغتصب أمر اضطراري في صالح الوطن وهو خير من سلام الاستسلام لذلك المغتصب. (المترجم)

أسطولاً وترسله إلى سلطان مصر حتى يرتد إلى الديانة المسيحية، هذه أعذار غريبة !! لقد انتهى عصر الحروب الصليبية، ونسأل الله ألا يعود هذا العصر أبدًا.

وبصفة عامة فإن الحرب هي أسوأ ما يمكن أن يفعله أي أمير. كما أنها أمر غير مضمون العاقبة، واستمرارها في دولة ما مصدر خراب لها. وذلك لأن الأمراء لا يمكن أن يفكروا لوقت كاف قبل إعلان الحرب. كما أن الأعمال الوحشية التي يرتكبها الجنود في الدولة المعادية تتضاءل أمام ما يلحق بدولة الأمير المحارب من خسائر مباشرة. وأنا مندهش بشدة من أن كثيرًا من الملوك يعتبرون أن الحرب وسيلة مناسبة لحل الصراعات بسهولة !!

وأنا مقتنع تمامًا بأننا إن تمكنا من سؤال كثير من ملوك كل العصور السابقة عن أسوأ ما قاموا به في حياتهم، فسيكون رد أغلبهم هو «إعلان الحرب».

وعلى الأمراء الذين يطمحون إلى إسعاد رعاياهم، فعليهم أن يفكروا في ذلك جيدًا قبل أن يفتحوا على شعوبهم أبواب جهنم، بإقبالهم على قرار بدء الحرب، وهو أمر تخشاه الإنسانية جمعاء.

أما الملوك الذين يعتبرون رعاياهم من الرقيق، فإنهم يستخدمونهم بلا شفقة، ويشاهدونهم وهم يهلكون دون ندم. لكن الأمراء الذين يرون أنهم مسئولين عن أرواح كل المواطنين وسلامتهم، وأنهم مثل الروح بالنسبة للجسد، فهم يحقنون دماء الرعايا.

وأنا أطلب من أي ملك فرغ من قراءة هذا الكتاب ألا يغضب مني للصراحة الشديدة التي تكلمت بها معهم. فأنا لم أهدف إلا لقول الحقيقة وأن أدافع عن الفضائل وألا أتملق أيًّا منهم. كما أن رأيي الجيد في أمراء عالم اليوم جعلني أراهم أهلاً لسماع الحقيقة. فهم ليسوا مثل «نيرون» و«ألكسندر السادس» و«قيصر بورجيا» الذين أحمد الله على أننا ليس لدينا مثلهم الآن في أوروبا. ولا أجد مديحًا أوجهه إلى الملوك والأمراء الحاليين أفضل من أن أذكر أمامهم كل ما وقع فيه الملوك القدامى من أخطاء حطت من قدرهم لأنها تعارضت مع المشاعر الطبيعية للبشر والعدالة.

الفهرس

دراسة ومقدمة لكتاب الأمير بقلم الأديب/ محمد لطفي جمعه أحد مترجمي كتاب الأمير	5
كلمة المترجم	29
تمهيد	33
كتاب الأمير.. النص المترجم	39
ملاحق الكتاب.. مقالات ودراسات نقدية عن الكتاب	105
ابن خلدون ومكيافيللي	156
تعريف بالشخصيات والأحداث التي ورد ذكرها في كتاب «الأمير»	174
فريدريك الثاني ملك بروسيا ضد مكيافيللي.. دراسة نقدية للرد على كتاب الأمير	189